# نيقولاي ليسكوف

# رجال الرب

## حكاية مدينة ستارجورود

رواية

ترجمة: يوسف نبيل

مختارات من الأدب الروسي






# رجال الرب

نيقولاي ليسكوف

- المؤلف: نيقولاي ليسكوف
- العنوان: رجال الرب
- ترجمة: يوسف نبيل
- الطبعة: الأولى 2023
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ









رقم الإيداع:

٢٠٢٢ / ١٧١٠٠

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 353 - 4


9 3 2024





Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

نيقولاي ليسكوف

# رجال الرب



ترجمة

يوسف نبيل




آفاق للنشر والتوزيع

**بطاقة الفهرسة**

ليسكوف، نيقولاي

رجال الربّ - نيقولاي ليسكوف

ترجمة: يوسف نبيل

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2023

520 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 17100 / 2022

الترقيم الدولي 4 - 353 - 765 - 977 - 978

1 - روايات

2 - العنوان

هذه ترجمة كتاب:

Соборяне́

By: Nikolai Leskov

# إهداء

أتوجه بالشكر إلى أساتذتي الأجلاء من المترجمين عن الروسية الذين قدَّموا لي مساعدات قيِّمة في ترجمة هذا العمل. أخص بالذكر د. تحسين رزاق عزيز الذي قدَّم دعمًا هائلًا وأجاب عن عدد ضخم من أسئلتي فيما يتعلق بما استعصت عليَّ ترجمته في هذا النص، كما أشكر الأستاذ هفال يوسف الذي مدَّ لي يد العون أيضًا في مواضع عديدة من هذا العمل.

المترجم







MOHAMED KHATAB

# مقدمة المترجم

في العمل السابق من سلسلتنا «مختارات من الأدب الروسي» قدَّمنا ثلاث قصص طويلة لنيقولاي ليسكوف. ذكرنا حينها أن ليسكوف تميز بتعدد خطوطه الإبداعية، ولكن من أهم الموضوعات التي تميز ليسكوف في الكتابة عنها هو موضوع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. يمكننا بسهولة أن نجد أبطالًا من رجال الإكليروس في عدد كبير من أعماله. إذا وضعنا في اعتبارنا الشكل والدور الذي لعبته الكنيسة الأرثوذكسية في تاريخ الأمة الروسية، وأضفنا إلى ذلك قدرة ليسكوف على الكتابة عن كل ما هو شعبي وروسي أصيل، فسنتصور بدرجة ما أهمية هذا العمل.

وفقًا لعدد من الباحثين، نرجع أصالة نثر ليسكوف إلى انعكاس الأفكار القومية والدينية والمزيج الأصلي من الخيال والصحافة والمذكرات والحكايات. يُشكِّل هذا الخليط العبقري عملنا هذا: «رجال الربّ». أصر ليسكوف على تسمية عمله هذا بـ«хроника»، والكلمة بالروسية تعني «تاريخ أو تسجيل أحداث أو وقائع»، وهو شكل أدبي شاع في روسيا في هذه الفترة يسرد حكاية مكان أو شخصية دون التقيد بأشكال الرواية الشائعة.

يتتبع عملنا هذا مسار ثلاث شخصيات من إكليروس مدينة ستارجورود. «ستارجورود» تعني حرفيًا: المدينة القديمة، وهو اسم لمدينة متخيلة يقص ليسكوف الكثير من حكاياتها بالتركيز على حياة اثنين من كهنة كاتدرائيتها بالإضافة إلى شماس الكاتدرائية.

علاوة على الأسلوب الأدبي الفريد والحكايات الممتعة والهزلية والمأساوية في الآن ذاته ثمة أهمية بالغة لهذا العمل من الناحية التاريخية والاجتماعية، وهو أمر يهمنا في سلسلتنا هذه. تكشف لنا هذه الحكايات عن العقلية الشعبية والدينية التي تميز بها عدد ضخم من الروس في هذا الوقت. ثمة حكايات وأساطير وخرافات كثيرة في حكايتنا، بالإضافة إلى رصد الصراع العنيف بين المتدينين والعدميين في روسيا في هذه الفترة الحرجة. ظل موضوع تحرير الأقنان وعبوديتهم هو المسيطر على الكثير من الأعمال الأدبية في فترة مبكرة من الأدب الروسي، ولكن بعد تحرير الأقنان في ١٨٦١ ظهر موضوع جديد في بعض الأعمال الروسية؛ «ظاهرة العدمية». ربما من أشهر الأعمال التي تناولت هذا الموضوع وتُرجمت إلى العربية هي رواية «الآباء والبنون» لتورجينيف. في هذا العمل نجد رصدًا لأصداء هذا الصراع في مدينة إقليمية صغيرة.

نيقولاي ليسكوف حكَّاء بارع، وإذا كان قد لجأ في هذا العمل إلى هذا الشكل المتحرر الذي يمكنه به أن ينخرط في حكاياته الساحرة لعدد طويل من الصفحات، ففي الوقت ذاته لكل حكاية من هذه الحكايات أهمية كبيرة في بنية العمل. بالرغم من اتكائه على تقنية الراوي العليم فإن تعدد الأصوات في الرواية واضح ورائع. لكل شخصية لغتها وأفعالها

وردود أفعالها الخاصة. وبالرغم من الأحكام التي يُطلقها الراوي على أبطاله في مواضع كثيرة، فإن حياديته عميقة ومستترة. في مواضع كثيرة من العمل يجد القارئ نفسه متعاطفًا مع شخصيات الرواية، وفي أحيان أخرى لا يصدق مدى سذاجتها، وفي مواضع أخرى قد يغضب من سلوكياتها. تعتمد حكايات ليسكوف على خبرته العميقة بالطبائع الروسية. استفاد الكاتب من تجواله في الأراضي الروسية ولقاءاته بمختلف أنواع الطبقات والشخصيات؛ الأمر الذي مكّنه من كتابة مثل هذه الأعمال.

بعيدًا عن الأهمية الاجتماعية والتاريخية لهذا العمل يلفت بعض الدارسين والنقاد النظر إلى الأهمية الفائقة لأدب ليسكوف في تشكيل ذائقة وأسلوب كُتّاب مرحلة تالية: المرحلة الرمزية ومؤلفو الأعمال المهمة في بداية القرن العشرين. من الصعب مثلًا أن نغفل تأثر ألكسي ريميزوف بليسكوف من حيث الاهتمام الشديد بالأساطير والمعتقدات الشعبية. يمكننا أيضًا أن نرصد تأثر زوشينكو وزامياتين بالأسلوب الأدبي لليسكوف، حيث طوَّر زوشينكو حواره ولغته البسيطة بشكل مقارب لما فعله ليسكوف في بعض حوارات أعماله بالرغم من هجوم بعض النقاد عليه بسبب هذا الأمر تحديدًا، كما تأثر زامياتين بابتكارات ليسكوف في مجال الشكل الروائي والقصصي.

يواجه كل مترجم لليسكوف صعوبات هائلة، حيث يتسم ليسكوف بلغة شديدة الصعوبة، ويشتق كلمات جديدة كثيرة في الروسية لا وجود لها في القواميس، كما يستخدم كمية هائلة من الكلمات القديمة والشعبية والاصطلاحية. كل ترجمة لليسكوف محكوم عليها بمواجهة

إشكاليات لا حصر لها قد يخسر فيها المترجم. لا مفر من الخسارة في الترجمة، ولكن لا مفر من المكسب أيضًا إذا اجتهد المترجم قدر الإمكان. واجهتُ صعوبات هائلة، وحاولت قدر الإمكان أن أُقلِّص حجم الخسارة وأستخدم أسلوبًا قريبًا من روح ليسكوف. أرجو أن أكون قد وُفِّقت بنسبة معقولة في ترجمة هذا العمل الصعب، كما أرجو أن يجد فيه القارئ متعة وفائدة.

* * *

# الجزء الأول

## الفصل الأول

أبطال هذه القصة هم سكان المجمع الكنسي الخاص بكاتدرائية مدينة ستارجورود؛ القمص[1] سافيلي توبيروزوف والقس زكريا بينيفاكتوف والشماس أخيل ديسنيتسين. لا تهمنا هنا أعوام شبابهم، وكذلك فترة طفولتهم. إذا أراد القارئ أن يتخيل هذه الشخصيات بحيث يستطيع أن يراها ماثلة أمامه، فعليه أن يرسم في خياله شخصية رئيس كهنة مدينة ستارجورود، القمص سافيلي توبيروزوف، وهو زوج وصل إلى الستين من العمر. يتميز الأب توبيروزوف بالقامة العالية والسمنة، لكنه لا يزال مليئًا بالحيوية والنشاط. الأمر كذلك مع سمانه النفسية، فمن النظرة الأولى إليه يدرك المرء مباشرة أنه قد حفظ كل حماسة قلبه وطاقة شبابه إلى الآن. يبدو رأسه جميلًا على نحو خاص، بل يمكن اعتباره نموذجًا للجمال الذكوري. شَعْر توبيروزوف كثيف

---

(١) تختلف أسماء الدرجات الكهنوتية من بلد للآخر. في مصر مثلًا الدرجة الأولى: قس، والدرجة التي تفوقها: قمص. الدرجة الكهنوتية الروسية المذكورة تشير إلى الكاهن الذي يترأس كنيسة بعينها.

كعرف الأسد، وأبيض كتمثال زيوس لفيدياس[١]. ترتفع خصلات شعره بصورة فنية ممثلة في خصلة شعر قوية فوق جبينه العريض، وتتراجع في ثلاثة تموجات كبيرة إلى الخلف، وتكاد تلمس كتفه. يلوح وميض أسود بسيط في لحيته الطويلة المتشعبة، وفي شاربيه الصغيرين المتصلين بلحيته عند زاويتَي الفم، ويضفي هذا الوميض منظرًا أشبه بالفضة الممزوجة باللون الأسود. حاجبا الأب القمص أسودان تمامًا ومُقوَّسان بشدة على شكل حرفَي (s) لاتينيين يقتربان من قاعدة أنفه الكبير والسمين. عيناه بُنيتان وواسعتان وجريئتان ورائقتان. لم تفقد هاتان العينان طوال حياته القدرة على الاستنارة بحضور العقل، ورأى فيهما الأقرباء لمعان البهجة وظلمة الأسى ودموع العاطفة الحنون. في بعض الأحيان أيضًا تشتعل فيهما نار الاستياء وتطلقان شرارة الغضب؛ وهو غضب ليس تافهًا أو ناجمًا عن شجار أو أمر عديم الأهمية، بل غضب إنسان كبير. يمكن للمرء أن يرى في هاتين العينين النفس الشريفة والسوية للقمص سافيلي التي تحوي إيمانه المسيحي بالحياة الأبدية.

أما القس زكريا بينيفاكتوف، الذي يُعتبر الرجل الثاني في كاتدرائية مدينة ستارجورود، فهو من نوع آخر. تُعد شخصيته برمتها تجسيدًا للجمال والاتضاع. اتساقًا مع روحه المتضعة التي لا ترغب في الإعلان عن نفسها، لا يشغل جسده سوى رقعة مادية صغيرة، كما لو أنه لا يريد أن يُثقل كاهل الأرض. إنه ضئيل البنية ونحيل وضعيف وأصلع. تهتز خصلتان صغيرتان من الشعر الأصفر الأشيب على أذنيه وحسب، وليست

(١) نحات ورسام ومهندس معماري يوناني قديم. صنع تمثال زيوس في أوليمبيا الذي كان أحد عجائب الدنيا السبع في العالم القديم.

لديه ضفيرة. تلاشت بقاياها الأخيرة منذ زمن بعيد بالفعل، وحتى قبل أن تتلاشى، كانت بالفعل ضفيرة بائسة، حتى إن الشماس أخيل لم يجد تسمية أخرى لها سوى «ذيل فأر». استعاض الأب زكريا عن اللحية التي لم تنمُ بما بدا كقطعة إسفنج صغيرة. يداه طفوليتان، وهو يخفيهما دائمًا داخل جيوب ثوبه الكهنوتي. قدماه واهنتان وصغيرتان إلى حد أن المرء بإمكانه أن يتصور أنهما مصنوعتان من القش، بل وهو نفسه مصنوع من القش. تتحرك عيناه الرماديتان اللطيفتان بسرعة، ولا ترتفعان إلا نادرًا، وتبحثان عن مكان يمكنهما أن تختبئا فيه عن النظرات الرعناء. يفوق الأب زكريا الأب توبيروزوف ببضعة أعوام، لكنه أضعف منه كثيرًا، وقد اعتاد مثله أن يظل مبتهجًا بالرغم من كل وعكاته الصحية. وبالرغم من ضعفه حافظ على حيويته ونشاطه الجسدي.

الشخصية الثالثة والأخيرة من إكليروس كاتدرائية ستارجورود هو الشماس أخيل، ويمكن أن نصفه أوصافًا كثيرة، من شأنها أن تساعد القارئ على رسم صورة أخيل القوي بصورة ملائمة.

قال له مفتش المعهد اللاهوتي الذي استبعده من صف علم النحو[1] بسبب «العمر الكبير والنجاح القليل»:

- يا لك من أخرق! أنت أيها القصبة الممدودة[2]!

تعجب رئيس المعهد اللاهوتي الذي أعاد قبول أخيل مجددًا في صف الواعظين[3] بالمعهد بناءً على التماس خاص، وهو ينظر إلى هذا العملاق، وقال له، مندهشًا من حجمه الضخم وقوته وغباوته:

---

(١) الصف الأخير في المعهد.

(٢) عبارة مستمدة من إحدى الصلوات الكنسية الروسية.

(٣) الصف الأول في المعهد.

- أظن أنه لا تكفي مناداتك بـ«القصبة الممدودة»، فأنت حزمة كاملة ولست قصبة واحدة.

وصف قائد جوقة المُرنِّمين التي انضم إليها أخيل ديسنيتسين بعد أن طردوه من صف الواعظين وجعلوه قارئًا وحسب، حالته بالشاذة. قال له:

- لديك صوت جهير (باس) جيد، كصوت إطلاق المدفع لكنه شاذ بدرجة رهيبة إلى درجة أني لا أعرف كيف يمكنني تدبر الأمر معه.

أما السمة الرابعة والأهم لأخيل فقد أطلقها الأسقف بنفسه، وقد فعل ذلك تحديدًا في يوم لا ينساه أخيل؛ يوم أن طُرِد من جوقة المرنمين وأرسلوه ليصير شماسًا في ستارجورود. من الضروري هنا أن نحكي الظروف التي صار من الملائم فيها أن يُطلقوا عليه التسمية الأخيرة: «المجروح».

منذ أول أعوام شبابه والشماس أخيل إنسان مرح ومبتهج، ومخلص بصورة لا يمكن وصفها. علاوة على ذلك لم يعرف حدًّا لعاطفته المتحمسة في شبابه، وسوف نرى ما إذا كان سيضع لها حدًّا أم لا في فترة الشيخوخة.

بغض النظر عن شذوذ صوته الجهير (الباس) الرهيب، فإنهم قدَّروه تقديرًا كبيرًا في جوقة المرنمين حيث كان باستطاعته أن يصل إلى أعلى درجات السلم الموسيقي، ويهبط به إلى أدنى درجاته. الشيء الوحيد الذي كان يريع قائد الجوقة في شذوذ صوت أخيل هو حماسته الرهيبة. على سبيل المثال، لم يستطع قَط في أثناء صلاة المساء أن يكتفي بقول «ليتقدس الرب إلهنا» ثلاث مرات فقط كالمعتاد، بل اندفع بحماسة وأنشدها بمفرده أربع مرات، ولم يستطع قَط أن ينهي ترنيمة «ليهبك الله إلى الأبد». لكن في كل هذه المناسبات المعروفة، ومن ثم التي من الممكن التنبؤ فيها بسلوكه

هذا، اتُّخذت الإجراءات اللازمة بحكمة لكبح جماح حماسة أخيل؛ الأمر الذي أنقذ الشماس وصوته الجهير من مختلف المحن؛ كلَّفوا أحد المنشدين الكبار أن يمسك بقدمَي أخيل بقوة، أو يمسك به من تحت كتفيه في اللحظة المناسبة. لكن ليس عبثًا أن ظهرت الحكمة القديمة القائلة: «لن يكون المرء ذكيًّا كل يوم!». بالرغم من كل الجهد الذي بذلوه بحرص ومحبة ليحموا أخيل من حماسته المفرطة، لم يستطيعوا أن يحموه كاملًا، وقد برَّر بصورة مدهشة تمامًا المثل القائل: «لا خلاص لمن حمل عدوه في نفسه». في أحد الأعياد الاثني عشر الكبرى في الكنيسة توجَّب على أخيل في أثناء إنشاد الترنيمة السابقة لتناول الخبز والخمر المقدسَين أن يؤدي صولو «إنشاد منفرد» شديد الصعوبة بصوت الجهير (الباس) قائلًا: «مجروح بالحزن...». هنا ألهمت الأهمية التي أولاها رئيس الجوقة، بل وكل أعضاء الجوقة، لهذا الصولو أخيل بمخاوف عديدة. لقد شعر بالاضطراب وفكَّر مليًّا كيف يمكنه ألَّا يجلب الخزي لنفسه، وكيف يمكنه أن يُميِّز نفسه في أداء الصولو المفضل للأسقف ويرفع من شأن نفسه أمام عيون كل أرستقراطيي المدينة الذين سوف يجتمعون في الكنيسة. لذا تقتضي منا الأمانة أن نقول إن أخيل درس هذا الصولو دراسة رائعة. ظل طوال الليل والنهار إما يذرع غرفته ذهابًا وإيابًا، أو يذرع الفناء الخارجي أو حتى حديقة الأسقفية أو الحقول الموجودة على أطراف المدينة، ويردد بنغمات مختلفة: «مجروح، مجروح، مجروح»، وظل يواصل مثل هذه التدريبات المكثفة حتى حلَّ أخيرًا يوم مجده الذي يتوجب عليه فيه أن ينشد «مجروح» أمام الحضور جميعًا في الكاتدرائية. بدأ اللحن. يا إلهي! كم بدا أخيل الضخم عظيمًا ومشرقًا، وهو واقف ممسك بالنوتة الموسيقية

بين يديه! كان من الضروري رسم منظره، فالقلم عاجز عن وصفه. بدأ زملاؤه الفورشالج[1] بالفعل حتى وصلوا إلى اللحظة التي يجب أن يبدأ فيها الصولو من صوت الجهير (الباس). لكزه الواقف بجانبه بكوعه وردد أخيل في نفسه إيقاع الصولو «مجروح» حتى وصل إلى سرعة الإيقاع المطلوبة، ورأى يد قائد الجوقة ترتفع بالشوكة الرنانة، حينها نسي أخيل العالم كله، بل ونسي نفسه وهتف سريعًا بصوت عالٍ إلى درجة مدهشة كبوق من مدينة أرخانجيلسك «مجروح مجروح، مجروووح، مجرووووح، مجروح». أوقفوا أخيل عنوة عن تكراره الزائد والمفاجئ وأنهوا الترنيمة. لكنها لم تنتهِ في رأس أخيل المدهش، ووسط التحيات التي ألقاها عليه السادة الأرستقراطيون الذين مضوا نحوه، بدا كما لو أن صوت بوق انطلق فجأة من السماء «مجروح، مجرووووح». ظل أخيل ينشد وقد استغرق في حماسته ولا أحد يفهم كلمة مما يقوله، فسحبوه وهو ينشد، وأمسكوا بقدميه وهو ينشد، وحاولوا إخفاءه خلف رفاقه وهو لا يزال ينشد «مجروووح»، وأخيرًا أخرجوه من الكنيسة، لكنه ظل ينشد «مجروووح».

يسأله بعض المتعاطفين من أصحاب القلوب الرقيقة: «ماذا بك؟»، فينظر إليهم أخيل مباشرة، ويتوقف عند باب الرواق الغربي للكنيسة ويقول: «مجروح». حتى يهدِّئ النسيم العليل من نشوته الحماسية.

إذا قارناه بالقمص توبيروزوف والقس بينيفاكتوف يمكننا أن نقول إن أخيل ديسنيتسين شاب، لكنه تخطى الأربعين بالفعل منذ فترة طويلة،

---

(١) زخارف لحنية من صوت أو اثنين تسبق اللحن الرئيس.

وظهر خط أشيب رمادي وسط خصلات شعره فاحمة السواد. أخيل طويل القامة، صاحب قوة هائلة، ومن حيث الطباع فهو صعب المراس وحاد، ولكن بالرغم من كل هذا يتسم بعذوبة شديدة، ويبدو وجهه جنوبيًّا، وهو يقول إنه يتحدر من قوزاق روسيا الصغرى[1]، ويبدو أنه ورث منهم رباطة الجأش والشجاعة وفضائل قوزاقية أخرى كثيرة.




* * *

(١) مصطلح جغرافي وتاريخي يُستخدم لوصف مناطق أوكرانيا الحديثة.

# الفصل الثاني

عاش كل هؤلاء الأبطال القدامى في المجمع الكنسي الخاص بكاتدرائية ستارجورود بالقرب من نهر توريتسا الصالح للملاحة. حظي كل منهم؛ سواء توبيروزوف أو زكريا أو حتى الشماس أخيل، ببيته الخاص على ضفة النهر أمام الكاتدرائية القديمة ذات القباب الخمس العالية مباشرة، لكن مساكن هذه الشخصيات الثلاث اختلفت باختلاف شخصياتهم. كان منزل الأب سافيلي توبيروزوف رائع الجمال، مطليًّا بطلاء زيتي أزرق فاتح، ومزينًا بأشكال نجوم مختلفة الألوان وأشكال مربعات ونبتات أرقطيون مُسمَّرة على نوافذه الثلاث. ظلت هذه النوافذ مؤطرة بالعوارض، كما حافظت ألواحها الخشبية على ألوانها الزاهية، وكذلك المصاريع الخضراء التي لا تُغلق أبدًا، ففي أثناء الشتاء لا يخشى هذا المنزل الصغير المتين البرد، كما أن الأب القمص يحب أن يظل المكان منيرًا، ويحب النجوم، ويحدِّق ليلًا في السماء من غرفته، ويحب مشاهدة شريط ضوء القمر الذي يظهر على أرضية منزله الخشبية.

كل شيء في منزل الأب القمص نظيف ومرتب، وذلك لأنه لا يوجد في المنزل من يبعثر الأشياء أو يوسِّخ المكان أو يخرق نظامه. المنزل خالٍ من الأطفال، وهذا أحد مصادر الحزن الدائمة للقمص وزوجته.

منزل الأب زكريا بينيفاكتوف أكبر بكثير من منزل الأب توبيروزوف، ولكنه لا يتسم بتلك الأناقة ولا ذلك الجمال اللذين يتسم بهما منزل القمص. يبدو منزل الأب زكريا الرمادي المتهالك ذو النوافذ الخمس أشبه بقفص طيور كبير، والأمر الذي زاد من هذا التشابه هو أنه من خلف الستائر الصغيرة المسدلة على نوافذه الخضراء تتعارك أنوف وأعراف مختلفة، وتفرك وتطارد بعضها بعضًا. إنه نسل الأب زكريا الذي باركه الرب كيعقوب، وبارك نسل زوجته كراحيل[1]. لم يتسم منزل الأب زكريا بهذه النظافة التي تجعل بيت القمص كالمرآة، ولا بالنظام الصارم الذي لمنزل القمص، ففي كل بقعة فيه ثمة آثار أقدام أطفال متسخة، ومن كل زاوية فيه يبرز رأس طفل، وكل شيء فيه يحركه الأطفال، وكل شيء يصدر صريرًا وينطق بوجودهم، بدءًا من صراصير الفرن وانتهاءً بالأم التي تهدهد أبناءها بالأغنية الآتية:

أطفالي يا أطفالي،

إلى أين أذهب بأطفالي؟

أين أضع أطفالي؟

كان الشماس أخيل أرملًا وليس لديه أطفال، ولم يكن مهتمًا بادخار المال أو تشييد المساكن. في أبعد مكان في زاريتشي كان لديه كوخ روسي صغير، ولكن لم يكن في هذا الكوخ أي مرافق خدمية ولا سياج يطوقه؛ باختصار لم يكن في الكوخ شيء عدا فناء للماشية يتجول فيه

(١) بحسب سفر التكوين التوراتي رُزِق يعقوب باثني عشر ابنًا، هم آباء بني إسرائيل، واثنين منهما من زوجته راحيل: يوسف - بنيامين.

فحل مخصي أو فرس أسود، وتغوص سيقانهم في القش حتى مستوى الركبة. كان الأثاث في منزل أخيل هو الآخر قوزاقيًّا تمامًا، ففي النصف الأفضل من المنزل ثمة أريكة خشبية ذات ظهر مثقب مخصصة لصاحب المنزل، وقد صارت هذه الأريكة لأخيل فراشًا، ولذلك غطاها بمفرش أبيض من اللباد المصنوع من صوف الغنم، وقد وضع أعلاها سرجًا جلديًّا آسيويًّا، وجلب إليها وسادة صغيرة من قماش رقيق مغطاة بكيس وسادة مزخرف بأشكال صينية. كانت هناك طاولة جيرية بيضاء أمام هذا الفراش القوزاقي، وعُلِّق على الجدار جيتار بلا أوتار وحبل من القنب المجفف وسوط ولجامان معقودان. في الزاوية، فوق رف صغير، صورة لمنظر لرقاد السيدة العذراء الأخير، وصفصاف ذابل من خلفها وكتاب الصلوات الكيفي (نسبة إلى كييف -المترجم) الصغير. لم يكن هناك شيء أكثر من ذلك في منزل الشماس أخيل. بالقرب من المنزل كانت هناك سقيفة صغيرة عاشت فيها خادمة عجوز متقاعدة من عملها في منزل أحد السادة؛ إنها ناديجدا ستيبانوفنا المدعوة إسبيرانسيه[1].

كانت عجوزًا ضئيلة البنية صفراء البشرة، ذات أنف حاد ووجه مليء بالتجاعيد، حادة الطباع بصورة غير محتملة، حتى إنه بالرغم من يديها الذهبيتين لم تجد لنفسها وظيفة، وانتهى بها الأمر كخادمة بلا مأوى لدى أخيل حيث كان بوسعها أن تثير الجلبة والضجيج وقتما شاءت، لأن أخيل لم يكن يلحظ هذه الجلبة والضجيج، وأقصى مضايقة يمكن أن يفعلها لخادمته العجوز هو أن يوقفها في لحظات حاسمة بصيحة رعدية:

---

(١) كلمة فرنسية تعني: الأمل.

«إسبيرانسيه! توقفي!». عندما تسمع إسبيرانسيه هذه الكلمات تتلاشى من أمام وجهه عادة لأنها تعرف جيدًا أنها إذا لم تنصَعْ لأخيل، فسيمسكها من يدها، ويضعها في سطح كوخه، ويتركها هناك، ولا يسمح لها بمفارقته طوال اليوم. في ظل هذه العقوبة المريعة خافت إسبيرانسيه أن تعارض سيدها القوزاقي.

هكذا عاش كل هؤلاء الناس، وفي الآن ذاته تحملوا أعباء بعضهم، وعوَّضوا بعضهم عن تلك الحياة التي تفتقر إلى التنوع. ترأس الأب سافيلي الحياة هناك، وقد وقَّرته زوجته الصغيرة، ولم يسمع لها أحد صوتًا. كان الأب زكريا هو الآخر سعيدًا في قفص الطيور الذي يعيش فيه. لم يَشْكُ الشماس أخيل من شيء، وقد قضى كل أوقاته إما في إجراء المحادثات مع الآخرين أو في التنزه في المدينة أو في ركوب خيله وتغييرها، أو أخيرًا في مناكفة وترويض خادمته إسبيرانسيه أحيانًا.

كان سافيلي وزكريا وأخيل أصدقاء، لكن من الجائر بالطبع أن نفترض أنهم لم يبذلوا جهدًا كافيًا لإثراء الحياة ببعض حوادث العداوة اللطيفة وسوء التفاهم، وهو الأمر اللازم لإيقاظ الطبائع البشرية الغاطة في سبات بسبب الفراغ في حياة المدن الإقليمية الصغيرة. لا، لقد حدثت أمور من هذا القبيل هنا، وستكشف لنا صفحات من يوميات توبيروزوف تفاهات كثيرة لم تكن تافهة في عين من عايشوها وتنازعوا بسببها وعانوا منها. نشأت بينهم خلافات. على سبيل المثال حدث ذات مرة في أثناء عودة ممثل مجلس النبلاء بالمدينة ألكسي نيكيتيتش بلودوماسوف من بطرسبرج، أن جلب معه من هناك إلى رجال الكاتدرائية المحبوبين هدايا ثمينة بدرجة أو بأخرى، ومن بينها ثلاث عصي؛ اثنتان منها متماثلتان تمامًا

بمقبضين ذهبيين للكاهنين؛ أي واحدة للأب توبيروزوف والأخرى للأب زكريا، والعصا الثالثة ذات مقبض فضي مُحلًّى باللون الأسود للشماس أخيل. بدت هذه العصي لرجال كنيسة ستارجورود كالأفاعي التوراتية التي طرحها السحرة المصريون أمام فرعون. قال الشماس أخيل:

- يراودني الشك حيال هدية العصي هذه.

سألوه من اشتكى إليهم:

- ما الذي تراه مثيرًا للشكوك في الأمر أيها الأخ الشماس؟

- أنتم علمانيون[1]، ولن تفهموا شيئًا عن هذا الأمر، لذا لا تقولوا إن الأمر غير مثير للشكوك. لا، بل هو مثير لشك كبير.

وانطلق الشماس ليشرح مصابه الكبير. قال:

- أولًا، بوصفي شماسًا، ووفقًا لقدر كرامتي الكنسية، لا يجوز لي أن أحمل هذه العصا ولا يليق ذلك بي، لأني لست كاهنًا، وهذا أول شيء. الأمر الثاني هو أني أحمل هذه العصا الآن لأنها أُهديت لي. ثالثًا هناك جانب مثير للشك في الأمر برمته من حيث أنْ تُعطى عصا للأب سافيلي وواحدة مثلها للأب زكريا. لماذا المقارنة بينهما من الأساس؟ آه، عذرًا ولكن لماذا هذه المقارنة؟ الأب سافيلي كما تعرفون بأنفسكم هو الأب سافيلي؛ إنه ذكي وفيلسوف وهو لنا كوزير العدل، والآن أرى أنه لا يمكنه التفكير في أي شيء، بل ويشعر بالإحراج بدرجة رهيبة.

- ولماذا يشعر بالإحراج أيها الأخ الشماس؟

- لأسباب عديدة: أولًا يظهر الارتباك بسبب تماثل العصوين كاملًا.

---

(١) علماني في اللغة الكنسية تعني أي شخص لا ينتمي إلى رتبة كهنوتية أو دينية.

ما رأيكم؟ كيف يمكن معرفة لمن منهما هذه العصا؟ كيف يمكننا أن نعرف أيًا منهما للأب القمص، وأيًا منهما للأب زكريا ما دامتا متماثلتين تمامًا؟ لكن فيما يتعلق بذلك يمكننا أن نميزهما بشيء بسيط، كأن نضع مثلًا شمعًا أحمر بسيطًا تحت رأس إحداهما أو أن نحفر بالسكين ثلمًا بسيطًا في إحداهما، ولكن كيف ستعامل مع الأبوين فيما يتعلق بالمكانة؟ كيف يمكن أن نمنح المكانة والاحترام اللائقين لواحد منهما قبالة الآخر إذا كانتا متماثلتين تمامًا؟ اعذروني، ولكن لا يمكن أن تكون هناك مساواة كاملة بين الأب القمص والأب زكريا. هذا غير لائق! يشعر الأب القمص بذلك، وأنا أرى ذلك وأقول: «يا أبي القمص لا يمكن فعل أي شيء آخر حيال الأمر، وليس في يدي شيء سوى أن أضع شمعًا أحمر على عصا الأب زكريا أو أحفر فيها ثلمًا». وهو يقول لي: «لا تفعل ذلك ولا داعي له!». ولكن كيف لا داعي لذلك؟ أقول له: «باركني يا أبي، سوف أزيل جزءًا بسيطًا جدًّا من رأس عصا الأب زكريا من دون أن يلحظ، ولن يعرف شيئًا عن الأمر». وإذا به يقول لي مجددًا: «كم أنت أحمق!». حسنًا، لا يهمني إذا كنتُ أحمق، وليست هي المرة الأولى التي أسمعها منه، ولا أشعر بالاستياء منه لأنه يمكنه أن يقول لي ما يشاء، لكني أرى -على أي حال- أن الأمر برمته لا يرضيه، وذلك يزعجني. الآن ستقولون لي إني أحمق ثلاث مرات. لكني أسمح لكم أن تقولوا إني أحمق، فإذا تعلق الأمر بالأب سافيلي لا يكون بوسع المرء أن يتخابث عليه. أعرف يقينًا أنه لن يسمح لي بأن أتخابث عليه.

من الواضح أن الشماس أخيل لم يخطئ. لم يمر سوى شهر واحد منذ إهداء إكليروس كاتدرائية ستارجورود هذه العصي المثيرة للشك حتى

بدأ القمص سافيلي يُعد نفسه فجأة للذهاب إلى عاصمة المقاطعة. لم يكن هناك أي داعٍ لإعطاء رحلة الأب توبيروزوف هذه أي أهمية خاصة، فبحكم مركزه الديني اعتاد أن يسافر كثيرًا إلى مجمع الإكليروس. لم يثرثر أحد عن سبب ذهاب الأب القمص. لكن بعد أن جلس الأب توبيروزوف بالفعل داخل العربة، التفت فجأة إلى الأب زكريا الذي مضى معه ليُودِّعه وقال:

- أين عصاك يا أبي؟ أعطني إياها، سآخذها معي إلى المدينة.

بفضل هذه الالتفاتة وهذه العبارة، التي بدت كما لو أنها قيلت بعفوية، أضيئت فجأة أذهان كل الذين مضوا ليودعوا الأب سافيلي في الساحة.

قرقر الشماس أخيل وهمس في أذن الأب بينيفاكتوف:

- ألم أقل لك؟ هذه هي السياسة.

سأل الأب زكريا باتضاع وبعينين تطرفان، مُبعدًا عنه الشماس:

- لماذا تريد أخذ عصاي معك إلى المدينة يا أبي القمص؟

أجابه توبيروزوف:

- أتقول لماذا؟ سوف أريهم هناك كيف يحترمنا الناس ويتذكروننا.

أرسل الأب زكريا ابنه سريعًا إلى المنزل:

- أليشا! أسرع وائتني بالعصا.

سأل أخيل بأقصى قدر من الليونة:

- هل تأخذ يا أبي القمص عصاي أنا أيضًا لتريها لهم هناك؟

- لا، احتفظ أنت بعصاك.

- لماذا أحتفظ بها يا أبي القمص؟ أنا في كل الأحوال... أنا... أقصد أن الأمر مماثل معي، ولقد لفتُّ انتباه ممثل مجلس النبلاء.

هكذا أجاب الشماس بقدر من الاستياء، لكن الأب القمص لم يُقدِّره بأي إجابة، وبعد أن وضع بجانبه عصا الأب زكريا التي جلبوها إليه في هذه اللحظة تحرَّك.

رحل توبيروزوف ومعه العصوان المربكتان، وظل الشماس أخيل في منزله معذبًا بكيفية حل هذا اللغز: لماذا أخذ الأب توبيروزوف عصا الأب زكريا؟

أوقف زكريا قلق الشماس الفضولي قائلًا:

– ماذا بك؟ ماذا تريد؟ ما الذي يهمك في ذلك؟

– أقول لك أيها الأب زكريا إنه يتخابث.

– وحتى إذا كان يتخابث فما الذي يهمك في ذلك؟ دعه يتخابث.

– يملأني فضول لا يُحتمل لمعرفة ماذا سيحدث. لم يسمح لي بأن أحفر ثلمًا على عصاك ووصفني بالأحمق. اقترحت عليه أيضًا أن أُعلِّمها بعلامة لكنه منعني أيضًا من فعل ذلك. شيء واحد أتوقعه وهو...

– حسنًا حسنًا، ماذا تتوقع أيها الثرثار؟

– لا بد أنه سيُثبِّت على العصا حجرًا كريمًا.

– آه، ولكن أين؟ أين سيُثبِّت الحجر الكريم؟

– عند المقبض.

– في عصاه أم عصاي؟

– في عصاه لا شك. لا بد أنه سيُثبِّت فيها حجرًا كريمًا.

– ولماذا يأخذ عصاي إذن؟ إذا أراد أن يُثبِّت حجرًا كريمًا في عصاه، فما حاجته إلى عصاي؟

ضرب الشماس بيده على جبهته وصاح:

- لقد انخدعت!

أكَّد الأب زكريا، مضيفًا توبيخًا بسيطًا:

- آمل فعلًا أن تكون قد انخدعت. عليك أن تشعر بالخزي يا أخي، فقد درست المنطق.

- ما المخزي في أن أكون قد درست المنطق ولم أستطع فهمه؟ يمكن أن يحدث ذلك مع أي شخص. (هكذ أجاب الشماس، وظل الفضول يعذبه، وقال من دون أن يضيف أي تخمينات هذه المرة) ولكن ماذا سيحدث؟

مر أسبوع ثم عاد الأب القمص. كان الشماس أخيل الذي كان في هذه اللحظة على ظهر جواده السهبي[١] لترويضه، أول من لاحظ اقتراب عربة القمص السوداء، وهرع إلى كل الشوارع وتوقف أمام كل النوافذ المفتوحة للمنازل التي يعرف سكانها صائحًا: «إنه قادم، سافيلي، كاهننا العظيم قادم». فجأة خطرت على ذهن أخيل فكرة جديدة. قال لمن حوله، مسرعًا صوب بوابات منزل الأب القمص:

- الآن أعرف ما الأمر بالضبط. كل الأفكار التي راودتني سابقًا لم تكن سوى حماقة، أما الآن أقول لكم بكل تأكيد إن الأب القمص لم يفعل شيئًا سوى إصدار الأمر بحفر بعض الحروف اليونانية. لا بد أن الأمر كذلك. هذا مؤكد. لا بد أنه أمر بحفر الحروف، وإذا لم يصح تخميني فلكم أن تطلقوا عليَّ لاحقًا «أحمق» مائة مرة.

- انتظر انتظر. سنطلق عليك أحمق فعلًا.

---

(١) نسبة إلى السهوب.

هكذا أجابه الأب زكريا عندما رأى عربة الأب القمص تتوقف عند البوابات.

خرج الأسقف من عربته، وبدت على هيئته الجدية والصلابة، ودخل المنزل، وصلَّى ورأى زوجته وقبَّلها ثلاث مرات على جبهتها، ثم حيَّا الأب زكريا وقبَّل كل منهما كتف الآخر، وأخيرًا حيَّا الشماس أخيل، وقبَّل الأخير يد الأول، وقبَّل الأول رأس الثاني. بعد ذلك بدأوا يشربون الشاي وحان وقت المحادثات والحكايات عن أخبار المقاطعة، وأفسح المساء طريقه لحلول الليل، ولم يُلمِّح حتى الأب القمص بشيء عن العصوين اللتين أثارتا اهتمام الجميع. مر يوم والثاني فالثالث، ولم يذكر الأب توبيروزوف شيئًا عن الأمر، كأنه ذهب إلى المقاطعة بالعصوين وغمرهما في النهر هناك حتى لا يعود لهما ذكر.

ظل الشماس أخيل الذي نفد صبره طوال تلك الأيام الماضية يناكد الأب زكريا قائلًا:

- أعرف أن الفضول يقتلك. اسأله إذن.

- علام أسأله؟ وهل أنا لا أصدقه حتى أطلب منه تقريرًا عن وجهته؟

- يجب أن تسأله، ولو بدافع الفضول.

- إذا كان الفضول يُعذِّبك اسأله أنت بنفسك.

- لا، لا أستطيع. الخوف يمنعني من ذلك.

- مم تخاف؟

- هكذا أخاف وحسب، وإلا كنت سألته. لكن ما الذي يخيفك أنت؟ اسأله ببساطة: ماذا عن عصاي يا أبانا القمص؟ هذا كل ما في الأمر.

- ما دام الأمر كذلك اسأله بنفسك.

- مستحيل.

- لماذا مستحيل؟

- إنه يربكني بشدة.

- ألا يربكني أنا أيضًا؟

بيساطة، عذَّب الفضول الشماس، ولم يعرف كيف يجد فرصة ملائمة للسؤال عن العصوين. لكن لحسن حظه حُلَّت المشكلة من تلقاء نفسها. في اليوم الخامس أو السادس بعد عودة الأب سافيلي إلى منزله، وبعد انتهائه من صلاة القداس الإلهي في وقت متأخر، دعا الشماس إلى منزله بصحبة العمدة ومشرف المدارس والطبيب والأب زكريا لشرب الشاي عنده، وبدأ يحكي مجددًا عما سمعه ورآه في عاصمة المقاطعة. بداية تحدث الأب القمص بإسهاب كبير عن البنايات الجديدة، ثم عن المحافظ الذي أدانه القمص على عدم احترامه للرب وتشييد قنوات لجر مياه، أو كما عبَّر الأب القمص «أنابيب مياه». قال الأب القمص:

- هذه الأنابيب لن تنفع أحدًا، فالمدينة صغيرة. وعلاوة على ذلك تضم ثلاثة أنهار، ولكن المتاجر التي يتم افتتاحها مجددًا بدأت تعرض أغراضًا فاخرة للغاية. سأريكم الآن، أما بالنسبة للفن المعاصر فهناك فـ...

بعد أن قال القمص هذه الكلمات ذهب إلى غرفة جانبية، وبمرور دقيقة عاد منها، ممسكًا بكل يد عصا معروفة جيدًا. قال موجِّهًا المنطقتين العلويتين للمقبضين الذهبيين للحضور:

- أترون؟

حدَّق الشماس أخيل فيما فعله القمص الحكيم سافيلي ليُميِّز بين العصوين المتماثلتين، ولكن وا أسفاه! لم يلحظ اختلافًا واضحًا بينهما. على النقيض؛ بدا كما لو أن درجة تماثلهما قد زادت لأنه في منتصف مقبض كل من العصوين حُفِرت عين مضيئة كلية الرؤية، وحول العين زخارف منقوشة.

قال أخيل بنفاد صبر:

- ألم تُنقش حروف يا أبي القمص؟

أجابه توبيروزوف من دون أن ينظر إليه:

- وما حاجتنا إلى حروف منقوشة؟

- للتمييز بين العصوين المتماثلتين.

قال الأب القمص للشماس، واضعًا إحدى العصوين على صدره:

- هذه ستكون لي.

نظر الشماس أخيل سريعًا إلى مقبض هذه العصا، وقرأ حول العين المضيئة: «أفرخت عصا هارون[1]». أنهى القمص حديثه، مقدِّمًا العصا الأخرى للأب زكريا قائلًا:

- وهذه لك أيها الأب زكريا.

حول العين المضيئة حُفر بالخط السلافي القديم ذاته: «خذ عصاك[2]».

---

(١) بحسب القصة التوراتية أمر موسى كل سبط من الأسباط الإسرائيلية الاثني عشر أن يتخذ عصا، ويكتب اسم رئيس السبط على عصاه، وكتب اسم هارون على عصا لاوي. وأخذ موسى الاثنتي عشرة عصا ووضعها في خيمة الشهادة، وفي اليوم التالي دخل موسى إلى خيمة الشهادة وإذ عصا هارون قد أفرخت، وأخرجت فروخًا وأزهرت زهرًا وأنضجت لوزًا.

(٢) من سفر الخروج ٧: ٩ «خُذْ عَصَاكَ وَاطْرَحْهَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَتَصِيرَ ثُعْبَانًا».

ما إن قرأ أخيل هذه الكتابة الثانية حتى سقط خلف ظهر الأب زكريا، وقد أمال رأسه على بطن الطبيب، وانخرط في نوبة ضحك قوية لا تُقاوم رجَّت جسده.

التفت الأب زكريا إليه وتحدث سريعًا في أثناء انشغال الضيوف في تفحص النقش الإبداعي على مقبضي العصوين قائلًا:

- أقلتَ حروفًا؟ ها؟ حروف؟ هل أنت خروف بوبر؟ أين هي الحروف إذن؟

لكن الأمر لم يقتصر على أن الشماس لم يرتبك ولو بأدنى قدر، بل انفجر في نوبة ضحك أخرى.

- ما الذي يضحكك؟ ما الذي يجعلك تكاد تموت ضحكًا هكذا؟

بالكاد استطاع الشماس أن يقول وسط ضحكه:

- من هو الخروف الآن؟

- أنت الخروف بالطبع، ومن غيرك؟

انفجر أخيل ضحكًا مرة أخرى ضاربًا يدًا بالأخرى، وأمسك بالأب زكريا من كتفيه، وكاد يربض عليه كدُبٍّ، وهمس في أذنه بطريقة مسرحية:

- وأنت أيها الأب زكريا، كم تعلمت المنطق كثيرًا! اقرأ إذن المكتوب هنا: «خذ عصاك»، واحكم بالمنطق الذي تعلمته: ما الذي يتوافق مع هذا النقش؟

- ما هو؟ قل أنت.

- أتسألني ما هو؟ ماذا أعطاك يا ترى؟ لقد وجَّه إليك ضربة.

- كاذب.

– أأكذب؟ لماذا إذن منقوش على عصاه: «أفرخت العصا»؟ ألا تشير الكتابة المكتوبة على العصا إلى شيء؟ لماذا كتب ما كتب إذن على كل عصا؟ كتب ذلك على عصاه حتى يرفع قدره وكتب ما كتب على عصاك للحط من قدرك.

أراد الأب زكريا أن يعارضه، ولكن –والحق يُقال– ارتبك قليلًا. شعر الشماس بالانتصار حينما جلب هذا الارتباك للأب الهادئ بينيفاكتوف، لكن شعوره هذا لم يستمر طويلًا.

لم يكد يستعيد عدلته حتى رأى الأب القمص يحدِّق فيه، وما إن رأى القمص الشماس قد ارتبك كفاية من جراء هذا التحديق حتى قال لضيوفه بأهدأ نبرة ممكنة:

– لست أنا من اخترت هذه الكتابة المنقوشة التي ترونها، بل أمين المجلس أفاناسي إيفانوفيتش. حدث في أثناء تجولنا معه قبل المساء أن عرج على الصائغ وقال: «لقد خطرت على ذهني فكرة أيها الأب القمص أن ننقش على العصا نقشًا يليق بجنابكم، وليكن «عصا هارون»، وننقش على عصا الأب زكريا نقشًا لائقًا به». بالنسبة لك أيها الأب الشماس فقد فكرت في الأمر كما طلبت مني، ووجدت أنه من الأفضل لك ألا تأخذ معك العصا على الإطلاق لأنها لا توافق مكانتك.

حينها اقترب الأب القمص من الزاوية الموضوعة فيها عصا الشماس أخيل الشهيرة، وأخذها وأغلق عليها بالمفتاح في خزانة ثيابه.

هكذا بدأ أحد أعظم الخلافات التي نشبت في المجمع الكنسي لستارجورود. قال الشماس:

- وهكذا بدأت كل بلاياي، فبعد ذلك لم أستطع تحمل الأمر، وملأني الغضب، وبدأ الأب سافيلي يدمرني أكثر بسياسته، بل إنه أفضى بي إلى الحنق الشديد. صرت ضاريًا، وقد مزقني بسياسته تمامًا كما يمزق الدب فريسته بمخلبه حتى تخبَّلت تمامًا.

كان هذا نموذجًا للتفاهات التي انخرط فيها الأب سافيلي في هذا العمر المتقدم، ولطيش الشماس الذي جلب على نفسه حنق الأب توبيروزوف، ولكن كما يقولون في موسكو إن شمعة واحدة صغيرة تكفي لإشعال حريق، بدأت هكذا حكاية المجمع الكنسي في ستارجورود برمتها، وقد أبرزت أوجه القصور والتميز المختلفة في شخصيتَي سافيلي وأخيل.

كان الشماس أفضل من عرف هذه الحكاية، لكنه لا ينخرط في حكايتها إلا في أقصى درجات اضطرابه واستثارته وأسفه وقلقه، ومن ثم إذا تحدث عنها تسيل عادة دموعه وتصيب الرعشة صوته، بل وينفجر أحيانًا في البكاء.

* * *

# الفصل الثالث

قال الشماس أخيل المضطرب باكيًا:

«لا أعرف حقًّا ما العمل! كان عليَّ أن أركع عند قدمَي الأب القمص وأقول له كذا وكذا، وإني لم أفعل ذلك أيها الأب القمص بدافع الضغينة ولا بدافع السخرية الحادة، بل لأثبت فقط للأب زكريا أني حتى من دون القدرة على استخدام المنطق لست غبيًّا. لكن كبريائي منعتني من فعل ذلك. حزنت لأنه أغلق خزانته على عصاي، وبعد ذلك جاء المعلم برنابا بريبوتنسكي وزاد الطين بلة. آه! أقول لكم: صحيح أني غاضب من نفسي، لكن غضبي مضاعف من المعلم برنابا، وحتى إذا كلفني هذا موتي فلا بد أن ألقن ابن الخابزة هذا درسًا لا ينساه.

أوقفني الأب زكريا عن الحديث قائلًا:

– أقول لك مجددًا إنك لن تجرؤ على فعل ذلك.

– ولماذا لا أجرؤ؟ حتى إذا فعلت ذلك بسبب إلحاده؟ اسمح لي أن أقول لك إنك مخطئ.

– لن تجرؤ في كل الأحوال، ولا حتى بسبب إلحاده، ولن تستطيع العراك معه لأن برنابا هذا كان ابن خابزة القربان المقدس، والآن قد صار موظفًا؛ إنه معلم.

- وماذا يهمني في كونه معلمًا؟ بوسعي أن أهذِّب من أشاء بسبب إلحاده. هذا قانون يا أبي. نعم، سينتهي الأمر بسهولة فائقة. سألف يده بإحكام على شعره، وكما يقولون: هزه جيدًا ودعه بعد ذلك يذهب ويشكو قائلًا إن أحد الإكليروس (رجال الكنيسة -المترجم) ضربه بسبب إلحاده. لن يذهب إلى أي مكان.

يا إلهي! يا إلهي! ما إن أتذكر الأمر وأفكر في ما فعله بي، وأني استمعت إلى هذا الوغد برنابا، حتى أغضب بشدة لأني لم ألقنه درسًا حتى الآن. لا أعرف حقًّا من أين أتاني كل هذا الضعف! ضربت سابقًا القارئ سيرجي لجداله بشأن الرعد، وكذلك فعلت بـ«المفتش» دانيلكا بسبب تناوله البيض علانية في الشارع في أثناء الصوم الكبير السابق، وفي مرة أخرى قرصت الآذان بقوة، بينما لا أزال أترك ابن الخابزة هذا حتى الآن وهو أكثر من يستحق أن ألقنه درسًا! لولاه لما حدث هذا الشقاق. كان الأب القمص سيغضب مني بسبب حديثي مع الأب زكريا، لكن كل ذلك لم يكن ليستمر طويلًا، أما برنابا ابن الخابزة، وكما ترون بأنفسكم الآن، هو مدرس الرياضيات في مدرسة المقاطعة، وقد شعرت بالضغينة وبالجرح حينما دفعني قائلًا: «يُقال إن هناك نقشًا ثالثًا سيكتبه الأب توبيروزوف على عصا ثالثة؛ سينقش عليها كلمة أحمق». وكما يمكن أن تتخيلوا، عندما شعرت بالأذية تقت لشيء يؤذي الأب سافيلي نفسه. سألت برنابا: «لماذا تدعوني أحمق؟». أجابني: «أنت أحمق لأن ما تدعوها حقيقة هي شيء غير موثوق به، وليس ذلك وحسب، بل هي أمر غير محتمل من الأساس. من الذي شاهد عصا هارون تفرخ؟ أيمكن لشجرة أن تفرخ؟». أوقفته حينها عن حديثه وقلت: «من فضلك لا تتحدث هكذا يا برنابا فاسيليفيتش

لأن الله يمكنه إذا شاء أن يقهر قوى الطبيعة». لكن ما إن بدأت كل هذه المجادلات الفكرية الطويلة عند بيزيوكينا زوجة محصل الضرائب حتى بدأ تقديم مختلف أنواع الخمور الراقية؛ أفضل الخمور، أفضل النبيذ الفرنسي الأبيض صنف سوتيرن وصنف مارجو، وأقسم إني انتشيت تمامًا، وبرنابا هذا قال بطريقته العلمية الخاصة: «كل ما قيل عن الكتابة على الحائط في وليمة بيلشاصر (مَنَا مَنَا تَقَيْلُ وَفَرْسِينُ) هو محض هراء[1]. أستطيع كتابة الكلمات ذاتها بكبريت فسفوري». حينها شعرت بالهلع من هذه الكلمات، بينما واصل هو حديثه: «نعم، هناك هوة من المتناقضات في الكتاب كله». ودحض كل شيء، بينما أنا جالس أستمع إلى كل ذلك. مرة أخرى ينخرط في كل هذه الاستدلالات الكافية لإيذائي بشدة، ويتحدث بأسلوب أصحاب التفكير الحر[2] قائلاً: «أقول إنني إذا لم أشهد باستقامة الأب سافيلي، لأنني أعرف أن ذبيحته مقبولة أمام المذبح كذبيحة هابيل، فأنا لا أريد في الآن ذاته أن أصير كقايين وإلا كنت سـ...[3]». أتتصورون أنه يقول ذلك عن الأب سافيلي! ولماذا تحدثت معه؟ لماذا تحدثت معه في هذا الوقت؟ أليس أحمق؟ وهذه الجارية النفتالية[4] بيزيوكينا تقول: «هل تفهم ما تثرثر به؟ هل تعرف قيمة تقدمة قايين؟ ماذا يقول صاحبك

---

(١) الإشارة إلى قصة وردت في سفر دانيال ٥ عن وليمة أقامها الملك بيلشاصر وإذا بيد قد ظهرت وكتبت كلامًا غامضًا على الحائط ولم يستطع أحد تفسيره للملك سوى دانيال.

(٢) التفكير الحر هنا مصطلح شاع في تلك الفترة ليشير غالبًا إلى من يهاجمون الأفكار الدينية.

(٣) الإشارة إلى سفر التكوين ٤: «وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ، وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، وَلكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ. فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ».

(٤) نسبة إلى نفتالي وهو ابن يعقوب من جاريته بحسب التوراة. (المقصود تحقير للشخصية)

هابيل هذا؟ إنه لم يُقدِّم أكثر من مجرد حمل صغير. إنه مجرد متملق، لديه طبيعة عبد، بينما قايين لديه كبرياؤه، ولا يمكنه التصالح مع حياة العبودية. إنه تمامًا كما يصوره الكاتب الإنجليزي بيرون في مسرحيته». وصلتْ إذن إلى هذه المرحلة! لقد أسكروني جميعهم، وإذا بي فجأة أشعر أني أريد أن أصير قايين بل ولعينًا! خرجت من المنزل هناك، وذهبت إلى منزل الأب القمص، ووقفت أمام نوافذ منزله، وفجأة وضعت يدي على جانبَي بالطريقة العسكرية وصحت: «أنا قيصر، أنا عبد، أنا دودة، أنا إله[1]». يا إلهي! يا إلهي! كم يربعني تذكر كم كنت وقحًا، وكم شعرت بالخجل وكم جرحني ذلك! ما إن سمع الأب القمص ثغاء الماعز الذي أطلقه حتى هبَّ من فراشه واقترب من النافذة بلباس نومه، وفتحها وصاح بصوت غاضب: «اذهب إلى النوم. قايين غاضب». صدقوني، لقد جعلتني كلمة «قايين» هذه أرتجف تمامًا، فقد تصورت أني ذاهب إلى قايين فعلًا، وأنه رأى ما فعلته. يا إلهي! ابتعدت عن المنزل، ولم ألحظ أنا نفسي خطواتي واختفى كل تعنتي تمامًا، ومنذ ذلك الحين وأنا أنوح وأندب».

بعد أن يكرر الشماس هذه الحكاية يستغرق عادة في التفكير، ويهز رأسه بعد دقيقة وينتهد، ويواصل بصوت مرتعش وحزين:

«لكن الأيام تمضي سريعًا جدًّا، وإلى يومنا هذا لم ينقضِ غضب الأب القمص. ذهبت إليه واعترفت... اعترفت بكل شيء وأعلنت ندمي وقلت: «اصفح عني كما يصفح الله عن الخطاة». لكنه لا يجيبني إلا بإجابة واحدة: «اذهب». أسأله: «إلى أين؟ إلى أين أذهب؟». تنصحني زوجة

(١) بيت شعري من قصيدة «إله» للشاعر الروسي ديرجافين.

مدير مكتب البريد تيمونوفا طوال الوقت قائلة: «اذهب إلى الجيش أيها الأب الشماس. التحق بالجيش وستروق لهم هناك». أعرف أني سأروق لهم هناك، فأنا بطبيعتي مقاتل. لكن ما علاقة ذلك بالأمر؟ إذا التحقت بالجيش فسأصير فعلًا كقايين معهم. أعرف ذلك... أعرف جيدًا أن الأب سافيلي وحده من يبقيني في الكنيسة تحت إمرته، لكنه... لكنه...».

بهذه الكلمات تنهمر الدموع على صدر الشماس، وينهي حديثه منتحبًا بـ:

«بهذه الخدعة الرديئة يتعامل معي: إنه يصمت! مهما قلتُ يظل صامتًا. لماذا تصمت؟».

هكذا صاح الشماس، وبدأ فجأة يبكي مجددًا، مشيرًا بيده صوب الجهة القائم فيها منزل الأب القمص.

«أيظن أن ما يفعله حسن! أحسنٌ أن أقترب منه بدرجتي الشموسية (نسبة إلى شماس -المترجم) وأقول له باركني يا أبي وأقبِّل يده وأشعر أنها باردة حينما أقبِّلها! أهذا حسن؟ في عيد العنصرة، وقبل أداء الصلاة الكبرى طلبت منه بالدموع أن يباركني ولم يشفق عليَّ. قال: «أباركك». وما حاجتي إلى هذه الطريقة الرسمية بينما تخلو معاملته لي من اللطف!».

انتظر الشماس العزاء والمساندة. قال له الأب زكريا:

– فلتجعل نفسك مستحقًّا. اجعل نفسك مستحقًّا لكل ما هو طيب وحينها سيعاملك جيدًا.

– وكيف أجعل نفسي مستحقًّا يا أبي زكريا؟

– بالسلوك المثالي.

- وكيف أسلك بصورة مثالية إذا كان لا يلاحظني على الإطلاق؟ ربما تظن يا أبي أنه يسهل عليَّ أن أراه حزينًا بسببي، حتى إنه يستغرق طويلًا في التفكير. حينما أراه في هذه الحالة أقول لنفسي: «يا إلهي! فيم هو مستغرق في التفكير هكذا؟ ربما يكون ذلك بسببي». مهما غضب مني، أعرف أن كل ذلك مجرد تظاهر، فهو يحبني.

استدار الشماس إلى الناحية الأخرى وقال وهو يضرب بقبضة يده راحة اليد الأخرى:

- لكن ما فعله ابن الخابزة هذا لن يمر هكذا. آه لو أصير قايين فعلًا لا شماسًا! آه لو أقضي على هذا المعلم علانية!

يمكن للقراء أن يدركوا من هذا التهديد وحده أن المعلم المذكور هنا: برنابا بريبوتنسكي كان مُعرَّضًا لخطر جسيم من جانب الشماس أخيل، وقد صار هذا الخطر أشد وأقرب، كما بدأ أخيل يشعر في كثير من الأحيان، وبدرجة مؤلمة، بفقدان فردوسه السابق وخسرانه بركة الأب سافيلي. أخيرًا حلَّت الساعة التي بدأت فيها عقوبة برنابا بريبوتنسكي بيد أخيل، وبالتزامن مع هذا الحدث بدأت الدراما العظيمة لمدينة ستارجورود، وهي الدراما التي تؤلِّف أساس حكايتنا.

من أجل أن يفهم القارئ مجريات هذه الدراما سننحي جانبًا كل الممرات والطرق التي سلكها أخيل كمستكشف طرق أمريكي، وسنتقفى أثر عدوه المعلم برنابا، ونغوص في أعماق العالم الداخلي لهذه الشخصية الدرامية لقصتنا، ونطرق عالمًا مجهولًا وغير مرئي لكل من ينظر إلى هذا الوجه، سواء من قريب أو من بعيد. لندخل الآن المنزل النظيف للأب

توبيروزوف، ربما نجد في داخله وسيلة للنظر في نفس صاحبه كما ننظر عبر خلية نحل زجاجية حيث يشيد النحل قرص العسل بالشمع لينير وجه الله، وبالعسل ليبهج قلب الإنسان. لكن لنحذر ونتحلى بالحساسية. دعونا نرتدي صنادل خفيفة حتى لا تزعج خطواتنا القمص الحزين المستغرق في التفكير، ولنرتدِ قبعة للتخفي على رؤوسنا حتى لا تكدر نظراتنا الفضولية نظرة العجوز الهادئ الجادة ولننصت جيدًا إلى كل ما سيقوله.

* * *

# الفصل الرابع

أمسية صيفية الآن في ستارجورود. لقد غربت الشمس فعلًا من ناحية الجبل حيث ترتفع قبة الكاتدرائية، وتنعكس عليها أنوار القمر الشاحبة، وغرقت منطقة زاريتشي في ضباب دافئ. يمر البعض أحيانًا على الجسر العائم الذي يربط بين جانبَي المدينة. إنهم يسيرون مسرعين، فالليل في هذه المدينة الهادئة يدفع الجميع إلى أعشاشهم ليستدفئوا أمام النيران مبكرًا. تمر عربة البريد وتقعقع الأجراس وترن كلوحة مفاتيح الأرغن وتطقطق ألواح الجسر الخشبية، ثم يسكن كل شيء مجددًا. تبعث الغابات البعيدة روائح نضرة منعشة. تتعالى هتافات عجوز على الجزيرة التي تتشكل من فرع نهر توريتسا؛ عجوز يبدو كشامان قرغيزي غريب الأطوار، ذو أنف معقوف، يُدعى كونستنتين بيزونسكي، ويدعوه الجميع العم كوتين قائلًا:

– مولوفشا! أين أنت يا مولوفشا؟!

ينادي العجوز صبيَّه المرِح المُتبنى، وتصل أصداء هذه الهتافات إلى منزل القمص كما لو أنها تتردد داخل آذان الجالس عند نافذة منزله مباشرة. تتردد من عند الشامان ذاته ضحكة طفولية، وتُسمع رشرشة المياه ثم خشخشة أطفال حفاة على الجسر ونباح رنان لكلب مرح، وتبدو كل

هذه الأصوات قريبة، حتى إن زوجة القمص التي ظلت طوال هذا الوقت جالسة عند النافذة هبَّت من مكانها ومدَّت يديها إلى الأمام. لقد بدا لها كما لو أن أطفالًا راكضين وضاحكين سوف يسقطون على ركبتيها الآن. لكن بعد أن نظرت حولها جيدًا لاحظت أن ذلك مجرد توهم، وابتعدت عن النافذة إلى قلب الغرفة، وأوقدت شمعة على الكومود، ونادت فتاة صغيرة في الثانية عشرة وسألتها:

- ألا تعرفين يا فيكلينكا أين أبانا القمص؟

- إنه في منزل قائد الشرطة يا أمي يلعب معه الشطرنج.

- عند قائد الشرطة، آه! ليكن الرب معه وهو عنده. لنعد الفراش حتى يعود يا فيكلوشكا[1].

جلبت فيكلينكا وسادتين من الغرفة المجاورة إلى الصالة، وملاءة وبطانية من الصوف صفراء مبطَّنة، وجلبت زوجة القمص ثوبًا أبيض قطنيًّا وفولارًا (نسيج حريري -المترجم) قرمزيًّا كبيرًا. أُعِد فراش الأب القمص على أريكة صلبة من خشب البتولا الكاريلي[2]. كان الجزء الأمامي مفتوحًا، والثوب الأبيض على مقعد بذراعين، والمقعد بدوره موضوع عند نهاية الفراش، والفولار القرمزي على اللباس الأبيض. عندما انتهتا من ترتيب كل ذلك حرَّكت زوجة القمص بمساعدة فيكلينكا الطاولة الثقيلة المصنوعة من خشب البتولا الكاريلي صوب مقدمة فراش الأب سافيلي، وهي طاولة بيضاوية تتكئ على قاعدة ضخمة، وتحمل شمعة وكأس ماء

---

(١) فيكلوشكا: تدليل فيكلينكا.

(٢) نسبة إلى كاريليا في روسيا.

وطبقًا يحوي سكرًا مفتتًا وجرسًا. شهدت كل هذه الإعدادات والإجراءات الدقيقة التي قامتا بها على العناية العظيمة التي توليها زوجة القمص لكل عادات زوجها. لم تهدأ إلا بعد أن انتهت من كل هذه الإجراءات كما يجب كعادتها، وأطفأت الشمعة مجددًا، وجلست بمفردها عند النافذة الصغيرة في انتظار عودة القمص. بوسع من ينظر إليها أن يرى انتظارها مشوبًا بالقلق، وكان السبب هو الآتي: يبدو توبيروزوف متجهمًا منذ فترة طويلة، واليوم يبدو كئيبًا بدرجة خاصة، وقد أقلق هذا زوجته الطيبة. علاوة على ذلك قد أُنهِك. لقد ذهب اليوم إلى حقول الأحرار[1] عند ضواحي المدينة، وصلَّى هناك حتى يرفع الله الجفاف. بعد الغداء غفا قليلًا وخرج ليتمشى، لكن تبين أنه عرج على قائد الشرطة، ولم يعد حتى الآن. انتظرته زوجته ضئيلة البنية نصف ساعة، فساعة، ولم يعد بعد. صمت تام لا يخرقه شيء. لكن ها هي أصوات غناء مبهجة تتردد من ناحية الجبل. تنصت زوجة القمص. إنه الشماس أخيل يغني، وهي تعرف صوته جيدًا. إنه يهبط من على جبل باتافينا وينشد:

التحفَت السماء

بظلام الليل

ومضى كلٌّ إلى راحته

ولفوا بكرات الخيط

هبط الشماس من على الجبل، وأكمل بينما يسير على الجسر:

طرق فجأة

(١) فلاحون غير أقنان.

كيوبيد على بابي

وأفقت فجأة

في بداية حلمي

تستمع زوجة القمص بسرور إلى غناء أخيل لأنها تحبه بسبب محبته لزوجها، كما أنها تحب غناءه. استغرقت في أحلام اليقظة ولم تسمع الشماس وهو يتوجه صوب ضفة النهر، ويقترب أكثر فأكثر، وأخيرًا وصل غناؤه تحت نافذتها الصغيرة فجأة:

سألت من خلف الباب

من يطرق بقوة؟

صاحت زوجة القمص المستغرقة في أحلام يقظتها بهدوء «آه!»، ثم عاودها هدوءها.

بعد أن سمع الشماس هذه الصيحة كفَّ عن الغناء ووقف في مكانه. توجه إلى زوجة القمص، وقد أمسك بعتبة النافذة قائلًا:

- ألم تنامي بعد يا ناتاليا نيقولايفنا؟

ثم قفز على القاعدة السفلية قائلًا:

- لقد حلَّ السلام.

- ماذا؟

- السلام. السلام. (وأشاح أخيل بذراعه في الهواء وأكمل) أخيرًا... الأب القمص...

تمتمت فجأة زوجة القمص وقد أزعجتها هذه الكلمات:

- ماذا تقول؟ ماذا تقصد بـ«أخيرًا»؟

- أخيرًا حُسم الأمر. من الآن أنا في سلام وبركة. ما تاريخ اليوم؟ اليوم هو الرابع من يونيو. دوِّني الآتي: «النعمة والبركة في الرابع من يوليو»، لأن السلام للجميع وللمعلم برنابا اللعين.

- ماذا بك؟ لا تفوح رائحة الخمر من فمك. لا بد أنك تكذب إذن.

- أكذب؟! سوف ترين بنفسك سريعًا كيف أكذب! اليوم هو الرابع من يونيو، وهو ذكرى القديس ميثودي بيسنوشسكي. دوِّني هذا بنفسك، من الآن وصاعدًا سيصير هذا اليوم معروفًا عندنا.

كان الشماس لا يزال متكئًا على مرفقيه، دافعًا رأسه من النافذة إلى داخل الغرفة حيث وصل مستوى النافذة إلى وسطه تقريبًا، وهمس:

- ألا تعرفين ماذا فعل المعلم برنابا؟

- لا يا صديقي لم أسمع. ماذا فعل أيضًا هذا الوغد؟

- فعلة شنعاء! لقد غلى رجلًا في قدر.

صاحت زوجة القمص:

- أنت تكذب أيها الشماس.

- لا، لقد غلاه فعلًا.

- أنت تكذب فعلًا. لا يمكن وضع رجل في قدر.

واصل الشماس حديثه من دون أن يبدي أي اهتمام بما تقوله:

- لقد غلاه في قِدر خزفي كبير. بالرغم من أن الطبيب وقائد الشرطة قد سمحا له بهذه الفعلة الدنيئة، فإنه سقط أخيرًا بين يدي.

- أنت تكذب أيها الشماس. لقد اختلقت كل ذلك.

- لا، عذرًا، لم أكذب ولو في كلمة واحدة. (ظل الشماس يُكرِّر

العبارة، هازًّا رأسه، فاصلًا بين الكلمة والكلمة) اسمعيني جيدًا من فضلك وسأقول لكِ كيف تم الأمر بالضبط: لقد غلى برنابا إنسانًا فعلًا بسماح من القيادة العليا؛ أي بإذن الطبيب وقائد الشرطة. غلى أحد الغرقى، لكن روح الغريق وروح أمه تتعذبان الآن من جراء ذلك. يا إلهي! لقد اكتشفت كل ذلك وأخبرت الأب القمص عند قائد الشرطة، وأخبر الأب القمص قائد الشرطة عن ذلك بالفرنسية، وقال قائد الشرطة إنه سيصطحب الجنود ويضع حدًّا لذلك. لكني قلت له: ما حاجتك إلى جندي وأنا نفسي جندي؟! في الغد سترين أيتها المبجلة ناتاليا نيقولايفنا، زوجة القمص، كيف سيعدم أخيل المعلم برنابا الذي يُجدِّف ويُضل الأحياء ويُعذِّب الأموات. نعم، اليوم يوافق الرابع من يونيو، ذكرى القديس ميثودي بيسنوشسكي. دوِّني ذلك.

لكن في هذه اللحظة انتهت خطبة أخيل البليغة، فقد تناهى من بعيد؛ من ناحية الجبل، صوت سعال الأب القمص.

– آه! الأب سافيلي قادم.

هكذا صاح أخيل ما إن سمع صوت السعال، وهبط من القاعدة الواقف عليها عند النافذة إلى الأرض ومضى إلى طريقه. ظلت زوجة القمص واقفة عند النافذة، ولم تكن غارقة فقط في ضباب الجهل بسبب ما ثرثر به الشماس عن المعلم بريبوتنسكي، بل أيضًا في حالة من الفوضى التامة من جراء ما قاله. لم يكن لديها وقت كافٍ لتتأمل في أحاديث أخيل الخرقاء، فقد سمعت صرير خطوات عند الشرفة الخارجية، وظهر الأب سافيلي بغطاء رأسه الكهنوتي وفي يده العصا المكتوب عليها «أفرخت عصا هارون».

نهضت زوجة القمص وأشعلت شمعتين، ونظرت في ضوئهما إلى زوجها الذي دخل. قبَّل القمص جبهة زوجته بهدوء، وخلع رداءه الكهنوتي بهدوء أيضًا، وارتدى ثوبه القطني الأبيض، وربط الفولار القرمزي حول عنقه، وجلس عند النافذة الصغيرة.

نسيت زوجة القمص تمامًا كل ما حدَّثها الشماس عنه منذ دقائق بسيطة تمامًا، ولذلك لم تسأل زوجها عن شيء منه. دعته إلى الغرفة الطويلة المجاورة المخصصة لنومها حيث أعدت له هناك وجبته المسائية الخفيفة. جلس الأبِ سافيلي إلى الطاولة، وأكل بيضتين مسلوقتين، ثم صلى وبدأ يودع زوجته قبل النوم. لم يحدث أن تعشت زوجة القمص قبل ذلك. تجلس عادة أمام زوجها حتى يتناول وجبته الخفيفة، وتعرض عليه بعض الخدمات الصغيرة، فتقدم أو تأخذ أو تنظف شيئًا. ينهضان معًا ويصليان أمام الأيقونة المقدسة، ثم يرشم كل منهما علامة الصليب على الآخر. يؤديان هذه المباركة المتبادلة يوميًّا قبل النوم، وهما يفعلانها بمهارة وسرعة بصورة يستحيل معها ألا يتعجب المرء كيف لم تصطدم يداهما اللتان تؤديان الحركة بهذه السرعة.

بعد أن يبارك كل منهما الآخر يتبادلان القبلات؛ يُقبِّل الأب القمص جبهة زوجته، وهي تُقبِّل قلبه، ثم يفترقان؛ يمضي الأب القمص إلى غرفته وسرعان ما ينام. هكذا ذهب أيضًا إلى غرفته اليوم، لكنه لم يستلقِ على الفراش، بل ظل يذرع الغرفة طويلًا، وأخيرًا أغلق باب غرفة نوم زوجته بالقفل بهدوء. سألته زوجته التي عرفت أدق تفاصيل طباعه جيدًا من خلف الجدار:

- لا تبدو في حالة جيدة أيها الأب سافيلي.

- لا يا صديقتي، أنا هادئ.

سألته وقد هبَّت من مكانها وألصقت أنفها على جدار الباب:

- هل أجلب لك منديلًا نظيفًا ليكون معك طوال الليل؟

- منديلًا؟ وهل تعطينني منديلًا في يوم السبت؟

- وماذا في السبت؟ افتح أيها الأب سافيلي، فما هذه العادة الجديدة التي اكتسبتها بأن تحبس زوجتك؟

فتح القمص الباب صامتًا، وجلبت ناتاليا نيقولايفنا معطفًا فوليار نظيفًا، واستغل كلاهما هذه الفرصة ليودعا بعضهما مجددًا، ويرشمان علامة الصليب على بعضهما بالطريقة العجيبة ذاتها بالنسبة لأي شخص لم يعتد رؤيتها، ثم افترقا. ظل الباب مفتوحًا هذه المرة. تبين فيما بعد لماذا أراد العجوز إغلاق باب غرفة زوجته. لم يستطع النوم، وشعر أنه لن ينام. مرت ساعة وهو لا يزال يذرع غرفته بردائه الأبيض والفوليار القرمزي مربوط حول عنقه. بدا الأمر كما لو أن حربًا قد اشتعلت في داخل العجوز. بالرغم من كل الكرامة الخارجية التي تبدو على مظهره وحركاته، كانت خطواته غير واثقة، ففي بعض الأحيان يسرع قليلًا كما لو أنه يريد الاندفاع صوب مكان ما، وفي أحيان أخرى يبطئ، وأخيرًا يتوقف تمامًا ويستغرق في التفكير كلية. استمرت الحال هكذا لساعة كاملة قبل أن يقترب الأب سافيلي من خزانته الحمراء الصغيرة القائمة عند كومود عالٍ ذي لوح ممتد. تناول منه مفكرته الكنسية المغلفة بنسيج قطني أزرق سميك وظهره من جلد أصفر ووضعه على الطاولة البيضاوية القائمة القريبة من فراشه،

وأشعل شمعتين رخيصتين وتوقف؛ بدا له أن زوجته تتقلب على فراشها ولم تنم بعد، وكان الأمر كذلك فعلًا. سألته ناتاليا نيقولايفنا في هذه اللحظة من خلف الجدار بصوتها اللطيف الهادئ:

- ستقرأ الآن، أليس كذلك؟

- نعم، سأقرأ قليلًا يا صديقتي ناتاشا (تدليل ناتاليا -المترجم). نامي أنتِ رجاء.

- سأنام يا صديقي، سأنام.

- نعم، فلتنامي رجاء.

بهذه الكلمات وضع الأب القمص نظارته الفضية الصغيرة على أنفه الروماني الفخور، وبدأ يتصفح كتابه الأزرق ببطء. لم يقرأ، بل تصفح المفكرة وحسب، ولم ينتبه كثيرًا إلى ما كُتِب فيها لكنه اكتفى بالنظر إلى الصفحات التي دوَّنتها يداه. استدعت كل هذه الملاحظات المدوَّنة في أوقات مختلفة عالمًا كاملًا من الذكريات إلى القمص العجوز يحب الرجوع إليه بين الحين والآخر.

بوصولنا إلى القمص سافيلي وماضيه سنستمع بهدوء وتبجيل إلى الهمس الهادئ المنساب من شفتيه العجوزتين يرن في قلب سكون منتصف الليل.

* * *

# الفصل الخامس

## مفكرة القمص توبيروزوف ذات النسيج القطني

تصفح الأب توبيروزوف مفكرته من الصفحة الأولى المكتوب فيها: «تاريخ الرسامة بوضع اليد[1]: في ٤ فبراير ١٨٣١ أهداني نيافة الأسقف جبرائيل هذه المفكرة هدية لي لاجتيازي اختبارات الدراسة بدرجة جيدة ولسلوكي الصالح». خلف الكتابة الأولى التي خطها القس توبيروزوف كتابة أخرى: «إنها المرة الأولى التي أُلقي فيها العظة في الكاتدرائية بعد صلاة الأسقف. اخترت لموضوع العظة مَثَل الابنين العاملين في الكرم[2]. واحد قال: «لن أذهب» وذهب، والآخر قال: «سأذهب» ولم يذهب. يشير المَثَل إلى ما يتعلق بالأفعال والنيات الحسنة، وقد سمحت لنفسي بإلقاء بعض التلميحات على الموظفين الذين يؤدون القَسَم ويتجاهلون قسمهم،

---

(١) يُسيَّم الكاهن أو الراهب بوضع يد رتبة كنسية تفوقه على رأسه وأداء صلوات معينة.

(٢) ««مَاذَا تَظُنُّونَ؟ كَانَ لإِنْسَانٍ ابْنَانِ، فَجَاءَ إِلَى الأَوَّلِ وَقَالَ: يَا ابْنِي، اذْهَبِ الْيَوْمَ اعْمَلْ فِي كَرْمِي. فَأَجَابَ وَقَالَ: مَا أُرِيدُ. وَلكِنَّهُ نَدِمَ أَخِيرًا وَمَضَى. وَجَاءَ إِلَى الثَّانِي وَقَالَ كَذلِكَ. فَأَجَابَ وَقَالَ: هَا أَنَا يَا سَيِّدُ. وَلَمْ يَمْضِ. فَأَيُّ الاثْنَيْنِ عَمِلَ إِرَادَةَ الأَبِ؟». قَالُوا لَهُ: «الأَوَّلُ». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الْعَشَّارِينَ وَالزَّوَانِيَ يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ، لأَنَّ يُوحَنَّا جَاءَكُمْ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَمَّا الْعَشَّارُونَ وَالزَّوَانِي فَآمَنُوا بِهِ. وَأَنْتُمْ إِذْ رَأَيْتُمْ لَمْ تَنْدَمُوا أَخِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِهِ»». متى ٢١: ٢٨-٣٢.

كما أشرت ببعض التلميحات البسيطة إلى القادة والرؤساء. تحدثت بطلاقة ومهابة بدرجة أكبر من الطبيعي. وافق سيدي الأسقف على أفكار العظة التي دوَّنتها، وبالرغم من ذلك استدعاني نيافته بعد أن ألقيتها، وأخبرني أنه يوافق على عظتي بصورة عامة، لكنه أشار بصورة خاصة إلى التحدث في العظات عن أمور تحدث في الحياة بصورة مباشرة؛ خاصة ما يتعلق بالحديث عن الموظفين، فكلما ابتعدت العظات عن ذلك ازدادت قداستها، لكنه لم يوبخني على العظة السابقة، بل وبدا أنه يوافقني على ما قلته فيها.

١٨ ديسمبر ١٨٣٢: استدعاني نيافته وكلفني بالخدمة في ستارجورود حيث هناك انقسام قوي قائم. كلفني بمواجهة هذا الانقسام بكل طريقة ممكنة.

رحلت من قرية بلاجودوخوف ومعي زوجتي في ٨ فبراير ١٨٣٣، ووصلت إلى ستارجورود في فجر ١٢ فبراير. كادت مجموعة من الذئاب أن تفترسنا في الطريق. وجدت الكنيسة هناك مضطربة والانقسام قويًّا. بالنظر إلى الأحوال هناك أجد أن مقاومة الانقسام وفقًا لطريقة المجمع الكنسي لا تؤتي خيرًا، وكتبت ذلك للمجمع ووبخوني عليه».

فوَّت القمص بضع ملاحظات أخرى، ثم توقف مجددًا عند التالية: «بعد أن نلت توبيخًا على تكاسلي فيما يتعلق بعدم تنديدي بدرجة كافية، بررت موقفي بحالة الانقسام الموجودة والمعروفة للجميع منذ فترة طويلة، وأضفت في التقرير ذاته أن أخطر شيء هو أن الإكليروس في أقصى حالات الفقر، ولهذا السبب، ونظرًا للضعف البشري، لا يعارض

بعضهم تلقي الرشوة، بل وكثيرًا ما يشجعون الانقسام بأنفسهم، كما يعلن البعض أنفسهم أوصياء على الكنيسة الأرثوذكسية ويقبلون هدايا المنشقين. خلصت إلى أنه ليس هناك شيء آخر يمكن أن نبدأ به لمداواة حزن الكنيسة سوى تخليص الإكليروس أنفسهم من هذا النير الثقيل. استشهدت بانشقاقات المجمع الكنسي عن البطريركية، وقد أَمَلت بذلك أن أبرِّر نشاطي وأتجنب تلقي توبيخ آخر، لكني نلت توبيخًا آخر واستدعاء لشرح موقفي الشخصي وأُطلق عليَّ لذلك «حام[1] العاق الذي كشف عورة أبيه». عليَّ أن أشير إلى أني أدليت بهذه الملاحظات لإدراكي أن رجال الإكليروس الفقراء الذين يكادون يموتون جوعًا يجدون أنفسهم في كثير من الأحيان ينخرطون تلقائيًا في الانشقاق؛ خاصة ذلك الانشقاق الذي أشار إليه المجمع الكنسي. اغفروا لي رجاء إذا كنت قد أسأت إليكم. أرجو أن تصفحوا عن ذنبي العظيم في الاستشهاد بهذه الكلمات العلمانية، لكن الكاشفة في الآن ذاته، للسيد الكاتب تاتيشيف[2]: «الجائع، حتى لو كان بطريركًا، سيفعل أي شيء مقابل كسرة خبز». والحديث عن البطاركة، فما بالكم بصغار الإكليروس!».

بالأسفل، وبعد بضع ملاحظات، قرأ: «ذهبت لأداء بعض الأعمال في عاصمة المقاطعة، والتقيت هناك بنيافة الأسقف، وأبلغته بصورة شخصية بفقر الإكليروس. تعاطف نيافة الأسقف كثيرًا مع حديثي، لكنه أشار إلى

(١) وفقًا لسفر التكوين رأى حام (ابن نوح) عورة أبيه في أثناء نومه، ولم يغطه، بل وأخبر إخوته بذلك.

(٢) فاسيلي نيكيتيتش فاسيليف: مؤرخ شهير وأحد مساعدي القيصر بطرس الأكبر.

أنه حتى سيدنا المسيح لم يجد أين يسند رأسه[١]، ومع ذلك لم يمنعه ذلك من أداء رسالته. كما نصحني بقراءة كتاب: «عن محاكاة المسيح[٢]». لم أعارض نيافته في ذلك، فقد كان من العبث معارضته في هذا الأمر حيث إن الإكليروس الفقراء لم يكن بوسعهم نيل هذا الكتاب من أي مكان.

تحدثت بحذر مجددًا في أثناء العشاء على طاولة الكاهن المسؤول عن ممتلكات الكاتدرائية عن الموضوع ذاته، مع الأب الكريم وسكرتير المجمع الكنسي، إلا أنهما سخرا من حديثي. قال السكرتير مبتسمًا: «دخول الفقير أسهل إلى ملكوت السماوات[٣]»، وإننا عرفنا السيد المسيح فقيرًا، كما حكى الكاهن المسؤول عن ممتلكات الكاتدرائية طرفة عن طالب أكاديمي صار قديسًا ومعلمًا شهيرًا، أجاب عن سؤال نيافة الأسقف، كما لو أنه لا يزال في مرتبة دنيوية، عما إذا كانت لديه أي ملكية، قائلًا:

- لديَّ نيافتكم.

- أهي ممتلكات ثابتة أم متحركة (سائلة)؟

- كلتاهما.

سأله الأسقف مجددًا، وقد رأى حماسته:

- ما الممتلكات السائلة لديكم؟

- لديَّ منزل في القرية.

---

(١) «فقال له يسوع: للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه». متى ٨: ٢٠.

(٢) كتاب للراهب والفيلسوف توما كمبيسكي.

(٣) إشارة إلى متى ١٩: ٢٤ «إِنَّ مُرُورَ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ!».

- وكيف تعتبر المنزل ملكية متحركة (سائلة)؟ فلتفكر في مدى غباء إجابتك.

أما هو فلم يرتبك، وبيَّن أن إجابته صحيحة لأن منزله ما إن تهب الريح حتى تحركه كله.

بدت الإجابة لنيافة الأسقف غريبة جدًّا؛ الأمر الذي جعله لا يعود ينظر إليه بوصفه أحمق، بل على النقيض؛ ازداد اهتمامه به وسأله:

- وما هي ملكيتك الثابتة؟

- بالنسبة لملكيتي الثابتة فهي تتمثل في أمي زوجة القارئ الكنسي، وبقرتنا السمراء، فكلتاهما لا تستطيعان تحريك أقدامهما؛ واحدة من الشيخوخة، والأخرى من الجوع.

ضحكنا كثيرًا من هذه الحكاية، بالرغم من أني وجدتها محزنة ومأساوية أكثر من كونها كوميدية ومرحة ومسلية. صرت الآن ألاحظ في الجميع قدرًا عظيمًا من السخرية والطيش بصورة لا يمكن معها انتظار أي خير منهم.

أقضي أوقاتي بين النوم والطعام. لا يمكنني أن أقاوم الانقسام بأي قدر، فأنا مرتبط بالجميع، وعلاوة على ذلك أنا جائع بينما قائد الشرطة متخم. أنا مستاء حقًّا من إرسالي بهذه الطريقة التي تتضمن سخرية من الرسالة الدينية، فلمن أعظ؟ لا أحد يستمع. قائد الشرطة يعظ أفضل كثيرًا مني، فعلى الأقل لديه إمكانية أن يتحدث في موضوعات عديدة. بينما أنا مُطالَب بأن أندد وحسب. يا إلهي! ما الجدوى من هذه التنديدات؟ إلام ستؤدي؟ إنهم لا يسمحون لي بكتابة رأيي الخاص. أُفضِّل أن أترك ورقي فارغًا بدلًا من كتابة هذه التنديدات.

قدَّمت تقريرًا أطلب فيه أن يسمحوا لي بإجراء مجادلة مع المنشقين في عيد القيامة، ورُفض الطلب. بالإضافة إلى الورقة الرسمية التي أرسلها لي سكرتير المجمع كتب لي ورقة أخرى ساخرة على انفراد، يقول فيها إنه في حالة أن غلبه الملل سيأتي إليهم. لا، شكرًا جزيلًا لك، ولا داعي لأن تكلف نفسك أي عناء. لا يمكنني حتى أن أذهب بثوبي الكهنوتي المهترئ هذا إلى زفاف، كما أن حالة ثياب زوجتي لا تقل سوءًا. سيكون من الضروري في هذه الحالة ارتداء ثياب جيدة بقدر الإمكان لأن الناس هنا يُقبِّلون الأيدي، وليس لديَّ زي رسمي لائق بعد، ولكن أكثر ما يثير الاشمئزاز حقًّا هو تلك اللهجة الوقحة المليئة بالاحتقار والازدراء التي يُحدِّثون بها رجال الكنيسة: «ألا تريد أيها القس أن تنضم إلى المجمع الكنسي لتحلب المزيد؟». لا يا صديقي، لا أريد... لا أريد، الأفضل لي أن أبحث عن مرضعة!

١٣ أكتوبر ١٨٣٥: استغرقت في قراءة كتاب يهاجم الانقسام. إنه يذكر كل شيء، لكن شيئًا واحدًا يغيب عنه؛ ألا وهو أن المنشقين يحمون ضلالتهم، بينما نحن نهمل طريقنا الصحيح، وهذا في رأيي هو الأمر الأهم.

صباح اليوم: ١٨ مارس ١٨٣٦ لمَّحت لي زوجتي ناتاليا نيقولايفنا بأنها تشعر بالحمل. فلتهبنا يا رب هذه الفرحة. سننتظر بداية نوفمبر.

٩ مايو: يوم القديس نيقولاي: تم تدمير كنيسة طائفة المؤمنين القدامى[1] في قرية ديبفا. كان المشهد مريعًا وفاحشًا ومشينًا حقًّا، وما زاد

---

(١) مجموعة من الطوائف الأرثوذكسية الروسية ظهرت إثر الانقسام الكنسي الذي حدث نتيجة إصلاحات البطريرك نيكون في موسكو بين ١٦٥٢-١٦٦٦، وهم يحاولون الحفاظ على الطقوس والمعتقدات الكنسية القديمة قبل هذه الإصلاحات، وهؤلاء هم المنشقون الذين تتحدث عنهم الرواية.

على ذلك هو أن الصليب الحديدي قد سقط من القبة، وعُلِّق بالسلاسل، وبدا كما لو أنه قد غضب بشدة من إجبار آلات الهدم على إسقاطه، فسقط فجأة وكسر جمجمة أحد الجنود اليهود، وقتله. آه! كم شعرت بالكآبة من رؤية كل ذلك! عونك يا إلهي! على الأقل لم يكن عليهم أن يرسلوا يهوديًا لتكسير الصلبان. اجتمع الناس في غرفة الصلاة المدمرة الخاصة بكنيستهم وكذلك في غرفة كنيستنا، وبكوا جميعًا طويلًا وبحرقة، بل وعانقوا بعضهم في النهاية نشدانًا للوحدة.

١٠ مايو: ارتكبت القيادة خطأ كبيرًا. قبل منتصف الليل سرت إشاعة أن الناس قد جلبوا المشاعل وبدأوا يصلون في غرفة الصلاة المدمرة. ذهبنا جميعًا إلى هناك ورأينا الصلاة تجري هناك، والشعلة بين يدي العجوز لا تنطفئ. أمر قائد الشرطة بهدوء بجلب أنابيب الإطفاء وغمر الناس بالمياه ليفارقوا المكان. كان هذا تصرفًا طائشًا، بل وأحمق، فالناس أشعلوا الشموع في طريقهم إلى بيوتهم، منشدين ترنيمة: «قُضِي على فرعون[١]»، صائحين: «ينصر الرب الإيمان المعذب والريح لا تطفئ الشموع». بينما أومأ لي آخرون قائلين: «تمنحنا والدة الإله المقدسة الخاصة بنا حماية أكثر من خاصتك حاسرة الرأس ذات الفستان الألماني». كل ما فعلته هو أن أشرت لقائد الشرطة بأنه كان من الطيش أن يأمر بهدم الكنيسة واقتلاع الصلبان وتمزيق الأيقونات، ولكن ماذا سيفعل غير ذلك؟ إنه يتزلف إلى الألمان[٢].

---

(١) ترنيمة قديمة تتغنى بإهلاك فرعون وقواته بمياه البحر بحسب القصة التوراتية حينما طارد بجنوده بني إسرائيل بقيادة موسى.

(٢) إبان حكم يكاترينا فتحت روسيا الباب لعدد كبير من المواطنين الألمان ليستوطنوا بعض المناطق الروسية. لذا نجد الروايات الروسية تمتلئ بشخصيات ألمانية من نسل هؤلاء المستوطنين. أحيانًا يكون الخطاب عن الألمان بلهجة عنصرية بعض الشيء.

١٢ مايو: تغلبت الرغبة في التأنق. اقترضت فستانين حريريين لأجل زوجتي من مدبرة منزل ممثل مجلس النبلاء وأرسلتهما إلى المدينة من أجل صبغهما بلون أرجواني داكن كما هو الأمر مع رئيس الشمامسة هناك، وسأحوك لنفسي ثوبًا كهنوتيًّا حريريًّا. لا يمكنني تدبر الأمر من دون ذلك، لأنني لا أنوي إذلال نفسي حينما أدخل بيت أحد النبلاء.

١٧ مايو: لمَّحت لي زوجتي ناتاليا نيقولايفنا بأنها أخطأت في ظنها.

٢٠ يونيو: تم استدعائي مجددًا بسبب تقرير إلى رئيس المقاطعة لعدم ذهابي بالصليب في عيد الفصح إلى منزل المنشقين. وضَّحت تفصيلًا لنيافة الأسقف أني لم أذهب إلى المؤمنين القدامى لا تكاسلًا، ولا حتى لأني أنا من سيتحمل تكاليف الذهاب، بل فعلت ذلك حتى يشعر المنشقون بأنهم قد حُرِموا من شرف زيارتي ككاهن لهم. فكَّر نيافة الأسقف مليًّا ثم قبل تبريري. كل سيد أعلم بشؤونه. نظرًا لأن قضية الإهمال الموجهة إليَّ تتعلق في بعض جوانبها بالسلطة المدنية أيضًا، ومن أجل وضع حد لهذا الادعاء الفارغ، أرسلني نيافته لتوضيح هذا الأمر المهم للمحافظ. آه! كم تحملت أنا الخاطئ! آه يا إخوتي وأصدقائي! كم تحملت خزيًا وإهانة من هذا الشرير الوقح! إنه كألماني، يتقفى طموح سيده لوثر[1]، ولم يسمح لي أنا الكاهن الروسي بلقائه، بل أرسلني إلى الحاكم لأتحدث معه عن الأمر. تكرم هذا الحاكم البولندي بالنظر في هذه المسألة المهمة، لكنه سرعان ما صرخ في وجهي قائلًا إني بسلوكي هذا أشجع الانقسام وأقاوم إرادة سيدي، يقول لي إني أنا اللعين أقاوم إرادة القيصر بتصلبي هذا. إلا

(١) الإشارة إلى مارتن لوثر، المصلح الديني الألماني البروتستانتي الشهير.

أني تحملت كل ذلك صامتًا وانصرفت متذكرًا المثل: «اربط الحمار كيفما يريد صاحبه». بدا كما لو أن كل ما حدث كان بسبب تجديد ثوبي الكهنوتي الحريري الذي صُنع جيدًا بالرغم من كل شيء، ولا يعيبه إلا أنه في الشمس يصير داكنًا بعض الشيء بسبب المواد المصنوع منها.

٢٣ مارس: اليوم في سبت النور[١] جاءني القارئ والشماس. يطلب مني بروخور أن نذهب حتمًا في عيد القيامة بالصليب إلى بيوت المنشقين، لأن عدم تنفيذ ذلك سيضر بهما. أعطيتهما ٤٠ روبلًا من مالي الخاص، لكني لم أُعرِّض نفسي لهذا الخزي الذي أطلب فيه صدقة على أبواب الفلاحين. الآن أرى مدى غبائي في تجديد ثوبي الكهنوتي، فقد كان بوسعي تدبر أمري من دونه، ولربما في هذا الوضع كنت لأصير مستحقًّا للمال أكثر في عيونهم، لكني قلت في نفسي: «يستحيل أن أذهب إلى المفوض من دون سروال تحت ثوبي الكهنوتي».

٢٤ أبريل ١٨٣٧: لحق بي الخزي إلى درجة البكاء والنحيب. وُجِّه لي اتهام مجددًا، ومَثَلْتُ ثانية أمام المحافظ لعدم حملي الصليب أمام منازل المنشقين. القارئ هو من اتهمني بنفسه. كيف بمكنني احتمال كل هذه الخسة والدناءة! السيد المفكر والمسؤول! فليفكر عقله المتنور إذن كيف هي حياة الكاهن الروسي! في أثناء عودتي إلى المنزل ظللت أندب حالي طوال الطريق لأني لم ألتحق بالأكاديمية. لو كنت قد التحقت بالرهبنة كالآخرين، لكنت بمرور الأعوام قد صرت رئيس دير ثم أسقفًا، ولكنت الآن أسافر في عربة خاصة، ولكنت الآمر لا المأمور. كل جلبة

---

(١) ليلة عيد القيامة.

الأفكار هذه أغضبتني بشدة، حيث ظللت أتخيل نفسي أسقفًا، ولكن بعد أن وصلت إلى المنزل شعرت بالامتنان لكوني كاهنًا، وشكرت الله على ترتيبه لحياتي بهذه الطريقة.

٢٥ أبريل: لحق بي الخزي عند المحافظ، لكن الأمر هين إذا قورن بمدى شعوري بالخزي اليوم في منزلي، كما يشعر تلميذ صغير. بالأمس فقط كتبت ملاحظاتي عن أحزاني وآلامي، واليوم بعد أن استيقظت مبكرًا، وأمعنت التفكير في أفعالي، وفكرت في ماضيَّ ومستقبلي، رأيت الشامان العجوز الفقير بيزونسكي من النافذة المفتوحة أمامي. في العام الماضي أنجبت ابنته الجميلة ناستيا طفلًا بعد أن أغواها جندي عابر، فألقت بنفسها في الماء وغرقت. تولى بيزونسكي العجوز رعاية الطفل وحيدًا، ونسيه الجميع، وأنا أولهم. لكن في الصباح أنظر الآن من أعلى إلى أرض بيزونسكي هذا، وأفكر في أفعالي، وألاحظ فجأة كيف تبدو هذه الأرض العفية السوداء، المائلة إلى اللون الأزرق، جميلة بدرجة استثنائية في ضوء شمس الصباح، وكيف تسير الطيور النحيفة على طولها في أخاديد بريشها اللامع، وكيف تغذي هذه الأرض الرائعة تلك الطيور بديدانها الطازجة. العجوز بيزونسكي نفسه وقف برأسه الأصلع في ضوء الشمس على سلم المشتل القائم على أعمدة، يمسك بيد وعاءً مليئًا بالبذور، ويغمس الأخرى في قلب الحبوب، واضعًا قبضته فيها بالعرض، ناظرًا إلى السماء، ومع إسقاط كل بذرة يقول العبارة ذاتها: «يا رب، أكثر وبارك نصيب كل جائع ويتيم ومعوز ومبارِك وجاحد». وعندما ينهي هذه العبارة، تصيح فجأة كل الطيور اللامعة السائرة على الأرض الزراعية السوداء وينقنق الدجاج وتنشد الطيور، ويرفرف ديك صاخب بجناحيه،

ويتحرك من على الحصيرة ذلك الصبي غريب الأطوار؛ حفيده من ناستيا. يبتسم ابتسامة طفولية لطيفة ويتمرغ ضاحكًا في المياه في أثناء زحفه على الأرض الرطبة. رأيت كل ذلك بوضوح. كان العجوز بيزونسكي سعيدًا، وأنشد بصوت عالٍ: «هللويا[1]... هللويا. يا رب». ينشد ويبكي من فرط البهجة والتأثر. داويت أحزاني بهذه الدموع الشافية، وفهمت مدى حماقة حزني، وظللت بعدها لفترة طويلة مندهشًا من الطريقة التي تداوي بها الطبيعة النفس الإنسانية. «أكثر وبارك يا رب الخير في الأرض للجميع: للطالب والمعوز والمبارِك والجاحد». لم أقرأ في حياتي صلاة كهذه في أي كتاب صلوات. يا رب، يا رب، لقد بذر العجوز من أجل اللص أيضًا، وهو يصلي من أجله. ربما لم يحدث من قبل أن وضَّحت أي مقالة نقدية مثل هذا السلوك، لكنه مؤثر بدرجة رهيبة. آه يا روسيا رقيقة القلب، كم أنتِ رائعة!

٦ أغسطس عيد التجلي: أي جمال هذا الذي تتمتع به زوجتي ناتاليا نيقولايفنا! أقول مجددًا: أين يمكن للمرء أن يجد زوجة كهذه خارج روسيا المقدسة؟ كنت أتحدث معها عن كم أثَّرت فيَّ رقة بيزونسكي الفقير مع الأطفال، أما هي فقد فهمت وخمنت الفكرة الكامنة خلف تعطشي. عانقتني وقالت وقد احمرت وجنتاها حياءً: «انتظر أيها الأب سافيلي فربما يهبنا الله...». لقد قصدت «يهبنا طفلًا»، لكني كعادتي ظننت أن مثل هذه الآمال تكون دائمًا مُضلِّلة وخادعة، ومن ثم لم أسألها عن أي تفاصيل، واتضح فعلًا أنه لم يكن هناك داعٍ للقلق. لكن

(١) عبارة عبرانية مستخدمة بكثرة في العهد القديم من الكتاب المقدس، وتعني سبحوا الرب.

حتى هذا الإنذار الكاذب أثَّر على مشاعري تأثيرًا رائعًا. ألقيت اليوم عظة عن ضرورة التجلي الدائم للنفس، بهدف نيل القوة اللازمة في كل الصراعات من أجل صياغة النفس، كي تصير كالمعدن القوي واللين في الآن ذاته الذي لا تفسده الضربات أو نوعية الطين الوضيع أو الجفاف، مع الاحتفاظ بأثر آخر قدم وطئته. في أثناء قولي هذه الكلمات، انجذبت بعض الشيء إلى الارتجال، وأشرت للشعب إلى بيزونسكي الواقف عند الباب. بالرغم من أني لم أذكر اسمه، فقد تحدثت عن أحد الحاضرين بيننا يأتينا عاريًا ويسخر منه جميع الحمقى بسبب فقره، وبالرغم من ذلك لم يهلك نفسه، ليس ذلك وحسب، بل إنه أدى أيضًا واحدًا من أعظم الأفعال البشرية بإنقاذه وتربيته لفرخ صغير لم ينبت ريشه بعد. تحدثت عن كم هو جميل أن ندفئ الأطفال الذين بلا مأوى ونزرع في نفوسهم بذور الخير. بعد أن قلت ذلك شعرت بالدمع قد بلل جفوني، ورأيت كثيرين من المستمعين يمسحون دموعهم ويبحثون بعيونهم عن أحدهم في الكنيسة، وقد أدركت عمن يبحثون؛ يبحثون عن كوتين[١] المتسول؛ كوتين معيل اليتامى. عندما لم أجده في الكنيسة، وغالب الظن أنه فهم تلميحي فخرج بانضاع، شعرت إذا جاز التعبير بألم حاد مقدس واختناق عندما أحرجته بالثناء قائلًا: «إنه ليس بيننا أيها الإخوة، وهو ليس في حاجة إلى كلمتي الضعيفة هذه، لأن إصبع الله النارية قد نقشت الحب على قلبه المتضع منذ زمن بعيد». قلت منحنيًا صوبهم: «أطلب منكم جميعًا أيها المواطنون الموقرون المجتمعون هنا أن تسامحوني على أني لم أذكر في حديثي أحد

---

(١) كوتين هو بيزونسكي.

الأجلاء كنموذج للقوة، بل استشهدت بواحد من الصغار، وإذا جلب هذا إليكم أي نوع من الإرباك، فانسبوه إلى ضآلتي أنا كاهنكم الخاطئ سافيلي الذي يعرف مدى ضآلته، ويشعر بذلك كثيرًا بين يدي الرب، ويرتدي هذا الرداء الكهنوتي؛ نعشه الذي يحجب عدم استحقاقه. آمين».

لا أعرف بالضبط ما هو الذكي والبليغ في هذه الكلمات البسيطة التي صدرت مني فجأة، ولكن بوسعي القول إن الحاضرين وجدوا فيها شيئًا ما، وعندما قدَّمت يدي لهم لأصرفهم شعرت بأكثر من دمعة سقطت عليها. لكن ليس هذا كل شيء. الأمر الأهم هو ما سأقوله الآن.

كما لو أنها مكافأة لي على كلمتي الصادقة عن التعزية وضرورة ألَّا يهتم المرء بأطفاله فقط، بل بالأطفال الآخرين أيضًا، أخذ الله كلي العلم والقدرة عدم استحقاقي بيمينه. لقد كشف لي اليوم القيمة الحقيقية للكنز الذي أملكه بكرمه غير المحدود، وأمرني أن أتجلى لأصير إنسانًا أكثر رضا بمصيره. ما إن أعود إلى المنزل ومعي خمس تفاحات مباركات حتى أجد على عتبة المنزل لقاءً في انتظاري بمعرفة قديمة نوعًا ما؛ إنها زوجتي ناتاليا نيقولايفنا وقد تسللت بهدوء خارج الكنيسة في أثناء صرفي للناس، وأعدَّت لي كالعادة شايًا وإفطارًا بسيطًا. انتظرتني عند عتبة المنزل، ولم تنتظرني بيد فارغة، بل بباقة من الزنابق والزهور الرمادية. قلت لها: «ألستِ امرأة ماكرة يا ناتاليا نيقولايفنا!». ولم أكن قد نعتُّها بذلك قبلًا. إنها ذكية كفاية حتى لا تستاء من هذه الكلمات، وفهمت أني أمزح وحسب، وعانقتني بهدوء لكنها بكت بمرارة. ما هذه الدموع؟ إنها سرها، ولكني أعرفه. إنها امرأة صالحة ولا تعرف كيف تواسي زوجها مواساة إسرائيل بصغيره بنيامين. بالزنابق والزهور الرمادية التقتني في

هذا اليوم، بنية صالحة وقلب محب. في وسط هذا الحزن الهادئ جلسنا نحن الزوجان المحرومان من الأطفال لنشرب الشاي، لكننا لم نشرب شايًا، بل دموعنا، وبكى كلانا في غفلة من نفسي، وسقطنا على وجهينا أمام أيقونة المخلص وصلينا طويلًا وبحرارة كي يمنحنا عزاء إسرائيل. اكتشفت ناتاشا لاحقًا أنها قد سمعت وعدًا من ملاك، وبالرغم من أني فهمت أن هذا ثمرة خيالها، فإننا ابتهجنا كطفلين. عليَّ أن أشير إلى أن ناتاليا نيقولايفنا قد فاقتني في هذه الحالة كثيرًا أنا الرجل الفظ، من حيث الفطنة وسمو المشاعر على السواء.

اقتربت مني وقالت لي بلطف:

- قل لي أيها الأب سافيلي... قل لي يا صديقي، ألم تخطئ يومًا ما فيما يتعلق بوصية العفة قبل أن تتزوجني؟

عليَّ أن أعترف بصراحة أن هذا السؤال قد أحرجني للغاية، لأني فهمت فجأة لماذا سألتني زوجتي المسكينة هذا السؤال غير اللائق.

لكنها، بكل تواضعها الرائع، ورقتها الأنثوية التي اتسمت بها فطريًّا بالرغم من أنها زوجة كاهن، بدأت تفتنني حقًّا بذكريات شبابي فجأة، وذكَّرتني بأن ما لمَّحَتْ إليه لم يكن صعب التحقيق لأني وسيم، حتى إني عندما ذهبت إلى أبيها فاتيج في المدينة لطلب يدها، تنهدت كل الفتيات، من زوجات الإكليروس والعلمانيات على السواء؛ حسدًا لها. قد يبدو الأمر مسليًا، لكني حاولت أن أبدد كل الشكوك المتعلقة بفترة شبابي، ولم أواجه صعوبة في ذلك، فلديَّ مبرري حتى من دون الحاجة إلى الكذب. لكن كلما طمأنتها بمزيد من الحزم ازدادت كآبة، ولم أفهم لماذا لم تبهجها

تبريراتي، بل على النقيض، بدا كما لو أنها أحزنتها أكثر، وأخيرًا قالت:

- لا، تذكَّر أيها الأب سافيلي، فربما تكون قد سلكت يومًا ما بطيش. ألا يوجد طفل ما يتيم؟

هنا فهمت ما أرادت قوله، وما الذي رامته وخجلت من قوله صراحة. لقد سعت إلى إيجاد طفل غير شرعي من صلبي. يا لهذه الطيبة! أما أنا، فقد نهضت من مكاني كثور أصيب بالعمى، واندفعت صوب النافذة، وثبَّت عيني على السماء الممتدة لكي تنظر لي بدورها أنا وحدي، وبالرغم من كل رحابتها شعرت أن زوجتي تفوقها طيبة وحنانًا. إنها زنبقتي وصديقتي؛ إنها وردتي البيضاء النقية والعطرة والطيبة، وقد تسللت من خلفي، ووضعت يديها الصغيرتين على كتفَي وقالت:

- تذكَّر يا عزيزي، ربما يكون هذا الطفل في مكان ما، وإذا كان الأمر كذلك فلنذهب ونأخذه.

علاوة على أنها تريد أن تجد مثل هذا الطفل، تحبه وتشفق عليه مثل فرخ صغير بلا ريش. لم أتحمل ذلك، وعضضت لحيتي بأسناني، وسقطت على ركبتَي أمامها، وانحنيت حتى الأرض، وانتحبت نحيبًا لا يمكن وصفه. في الحقيقة أين يمكن عبر التاريخ الطويل، وعبر البلدان المختلفة أن تولد مثل هذه المرأة الفاضلة إلا في بلدنا المقدس روسيا؟ من علَّمها كل ذلك؟ من هذَّبها عداك أنت يا الله القدير ووهبتها لعبدك غير المستحق حتى يشعر بعظمتك وصلاحك عن قرب؟».

هنا نجد صفحة كاملة تقريبًا في يوميات الأب سافيلي ملطخة بالحبر، وفي الجزء السفلي منها نجد السطور الآتية:

«لن أصلح هذه اللطخة ولا هذا الحشو الأخرق الذي ألاحظه في السطور الأخيرة. سأدع كل شيء كما هو حيث يجب عليَّ أن أترك كل ما امتلأت به هذه اللحظة من دون تغيير. لم تكُف زوجتي عن المزاح بالرغم من أن الساعة قد صارت الثانية عشرة صباحًا، وبالرغم من أنها اعتادت النوم في هذا التوقيت، وبالرغم من أني أحب أن تنام دائمًا في منتصف الليل، فهذا مفيد لصحتها، كما أني أحب أن أنعش نفسي قليلًا في هدوء الليل بقراءة ما أريده، وفي أحيان أخرى أكتب في هذا التوقيت ملاحظاتي، وفي أوقات نادرة، وبعد أن أكتب القليل أقترب منها وهي نائمة، وأُقبّلها، وإذا كنت مستاءً أستعيد بهذه القبلة اللطيفة مرحي وقوتي، وحينها أنام هادئًا. مع ذلك تصرفت اليوم بطريقة مختلفة. في هذا اليوم وجدتني غارقًا في مجموعة مختلفة تمامًا من الأحاسيس حتى وجدتني منجذبًا لوصف ما وصفته سابقًا، وشعرت بالاستياء لأني منذ أن شعرت بالرقة صوبها لم أفكر في الاقتراب منها وتقبيلها، وقد لاحظت هذه الماكرة الرقيقة هذا الإغفال من جانبي وصححته بأصالة لا تُصدق. جاءتني منذ ساعة واحدة، ووضعت لي على الطاولة منديلًا نظيفًا وقبّلتني كما لو أنها ذاهبة للنوم. لكن يا للحيل النسائية التي لا يفهمها المرء في وقتها! فجأة، وفي أثناء انهماكي في الكتابة بجدية، أرى منديلي قد سقط على الأرض كما لو أنه يتحرك من تلقاء نفسه. التقطته ووضعته ثانية على الطاولة، وانشغلت مجددًا بالكتابة، ولكن المنديل سقط على الأرض مرة أخرى. وضعته على ركبتي وإذا به يسقط. حينها أخذت هذا المنديل العاصي ووضعته تحت المحبرة، لكنه هرب من تحتها، بل وأخذ معه المحبرة ذاتها، وقلبها وزيَّن دفتري بهذه البقعة. ماذا يعني هروب هذا المنديل الكتاني؟ يعني

ذلك أن زوجتي تتدلل على زوجها وهو أمر نادر. مساء اليوم وبَّختها فعلًا على ذلك، حين ابتسمت وجلست أمامي عند النافذة الصغيرة وأعربت عن أسفها، لأنها لا تستطيع غناء أغانٍ رومانسية. يا لأفاعيلها والطريقة التي تُبَلِّها بها! أخذت المنديل الذي وضعته لي، وقدمته لي، وإذا بها قد ربطت به خيطًا طويلًا مدَّته من تحت الباب حتى فراشها، واستلقت في هدوء لتجعل منديلي ينتفض ويتلوى. أما أنا، صاحب الأنف السمين، فلم أكتشف الأمر إلا مع سقوط المنديل الأخير حينما سمعت ضحكتها الهادئة والمبتهجة تتردد ثم وقع قدميها الحافيتين. عَبَثَتْ واستلقت على الفراش. ذهبت إليها وأخذت أُقبِّلها كثيرًا جدًّا، لكني غادرت ثانية لأختبر في نفسي فتنة زوجتي في ظل مشاعر جديدة.

٧ أغسطس: لم أنم طوال الليلة الماضية من فيض السعادة، ولن أكذب إذا أضفت أن ناتاشا ساهمت كثيرًا في هذه اليقظة. بدا الأمر كما لو أننا عاشقان نراقب الشمس في يوم بطرس[1]، وها نحن بعد خمسة أعوام من الزواج ننتظر الشمس اليوم جالسين عند النافذة معًا. اعترفت حماتي بأنها لا تنام عندما أكتب، بل تتظاهر بالنوم وحسب، كما اعترفت بأمور كثيرة أخرى. لقد اعترفت بأنها عندما سمعت عظتي بالأمس في الكنيسة، والتي لسبب ما راقت لها كثيرًا، نذرت أن تسير حافية إلى كييف إذا شعرت فقط بالحمل. لم أوافقها على ذلك لأنها لا تستطيع القيام بهذا الجهد الشديد، لكني سمحت لها بالوفاء بنذرها لأنه في هذه الحالة سأمضي معها بالطبع، وحينما تشعر بالإرهاق سأحملها. أدَّينا هذه التجربة فعلًا حيث حملتها

---

(١) وفقًا للاعتقاد السائد فإن رؤية الشمس في يوم بطرس (١٢ يوليو) تجلب الحظ السعيد.

على ذراعي وسرت بها حول الحديقة، وقد انخرطت في تخيل أنها حملت فعلًا، وأني أحملها خوفًا من أن يصيبها مكروه في أثناء السير. انجذبت إلى هذا التصور إلى حد أني بعد أن رأيت كيف وثبت ناتاشا فرحًا، وجلست على الأرجوحة التي علَّقتها ابنة الطاهية على جذع شجرة التفاح، خلعتُ هذه الأرجوحة حتى لا يتكرر هذا الأمر في المستقبل، وألقيتها بأكبر قدر ممكن من الخوف؛ الأمر الذي أضحك ناتاشا كثيرًا. بالرغم من أن حياتي لا تزخر بأمور في حاجة إلى السرية الشديدة، فإنه من الجيد أن صنع صاحب منزلنا هذا السياج الجيد حوله، كما طوَّق السيد الرب هذا السور بسياج كثيف من شجر التوت، وإلا قال البعض إنه ليس من الخطأ أن نطلق على الأب سافيلي مهرجًا.

٩ أغسطس: أرى حدثًا مضحكًا لم يكن مجرد موضوع لحديث بين زوجتي والشماس وحسب، بل صار موضوع جدال حاد بينهما. في الواقع الأمر كوميدي. لقد تجادلا عن الآتي: من الأذكى؟ يقول القارئ إن سليمان كان أذكى الجميع، بينما تؤكد زوجتي أنه أنا، وعليَّ أن أعترف بأن ملك صهيون قد حظي بمحامٍ أقل ثباتًا من محاميتي. آه! كم أضحكني ذلك! قولوا لي رجاءً ماذا يحدث في هذا العالم! لقد سمعت كل ذلك من غرفة نومي بعد قيلولة الغداء، وبعد أن استيقظت لم أجرؤ على مقاطعة جدالهما، وهاجم كل منهما الآخر، فالقارئ أصر على رأيه بأن سليمان أذكى الجميع، ودعَّم رأيه بكلمات الكتاب المقدس: «فَاقَتْ حِكْمَةُ سُلَيْمَانَ حِكْمَةَ جَمِيعِ بَنِي الْمَشْرِقِ وَكُلَّ حِكْمَةِ مِصْرَ»، بينما هاجمته زوجتي بطريقتها الخاصة: «لا، لا، كل هذا لا يعني شيئًا لأنه كُتِب قبل أن يُولَد الأب سافيلي». انضم إلى الجدال الكاهن القادم من مدينة نيكيتا الأب

زكريا بينيفاكتوف، وأكد أن كل حديث زوجتي صحيح؛ أي ما يتعلق بأني لم أكن موجودًا حين كُتِبت هذه الأسفار. هكذا انتهى الجدال بأن ثلاثتهم على حق، والوحيد غير المحق هو أنا؛ الشخص الذي توجهت صوبه كل آرائهم النقدية لينقدها! في البداية أحزنت ناتاشا بعد أن رفضت رأيها بخصوص أني أذكى الناس، وأجبت عن سؤالها: «ومن أذكى منك؟»، بأنها أذكى مني. تلقيت رفضها الأكثر إلحاحًا على النحو الآتي:

- الأذكياء يفكرون في كل شيء، لكني لا أستطيع أبدًا أن أحكم على شيء أو أفكر فيه، فما السبب؟

حينها لمست أنفها الصغير بهدوء وأجبتها:

- يعود ذلك إلى أنكِ لستِ في عجلة من أمركِ للتدخل في شؤون الآخرين، فأنفكِ العنيد هذا هو بمثابة نبتة متضعة زُرِعت في هذا المكان.

لكنها فهمت أني بهذه المزحة التي ألمح فيها إلى جمالها أهاجمها بتذكيرها بشجارها ذات مرة مع زوجة مدير مكتب البريد، وكيف سلبتها خادمتها التي عاقبتها بقسوة.

١٠ أغسطس صباحًا: يا لها من فكرة خطرت على رأسي وأنا على فراشي! أريد أن أنشر وصفة لجميع الأزواج التعساء، سواء من الإكليروس أو العلمانيين على السواء، لأن السعادة الأسرية هي الشيء الأهم. يقولون مثلًا رمزًا مفاده: الأفضل أن تسير المرأة بالماء عكس الرجل السائر بالنار؛ أي إذا سلك باندفاع يجدر بها أن تسلك بوداعة، ولكن كل هذا في رأيي لا يزال غير واضح، ولذلك تُقدَّم تفسيرات كثيرة. أما أنا، وبالنظر إلى نفسي وإلى ناتاليا نيقولايفنا، أجد أن أفضل وسيلة لتمضي الأمور بين الزوجين

جيدًا هي أن يعتبر كل منهما الآخر أذكى منه، وحينها سيصير كل منهما أذكى في عين الآخر. الآخر... الآخر... الآخر... كم استخدمت الكلمة عبثًا! لكن يليق بالحالم الحقيقي أن يستخدم اللغة هكذا بلا مغزى.

١٥ أغسطس: ذكرى وفاة السيدة العذراء مريم. في الوقت الذي ابتهجت فيه بزوجتي، لم ألحظ أن عظتي التي أثَّرت على ناتاشا في عيد التجلي، أثَّرت على الناس بصورة مختلفة تمامًا، وقد جلبتُ لنفسي سخطًا عامًّا غير مرغوب فيه من قِبل بعض الشخصيات في المدينة. شعر رعيتي؛ بعضهم بالطبع وليسوا جميعًا، وعلى رأسهم زوجة مدير مكتب البريد تيمونوفا، بالاستياء، فقد رأوا أني حططت من قدرهم بالتلميح إلى بيزونسكي. لكن كل هذا هراء عقول فارغة ومُحِبة للخصام. لن يجلب كل ذلك ضررًا لمحبتهم لأنفسهم ولمكانتهم، فهي جروح على جلد الكلب، سرعان ما ستُداوى.

٣ سبتمبر: ارتكبت خطأً عظيمًا. لا، لن يكون هذا الإهمال هو نهاية المطاف أبدًا. وصلني السؤال الآتي من المجلس الكنسي: هل ارتجلت فعلًا في عظتك بالإشارة إلى شخص حي؟ آه! في كل مكان عندنا يخشون الأحياء. أجبتهم بأني قلت في عظتي تحديدًا كذا وكذا. أظن أنهم لن يشنقوني على ذلك، ولكن بالرغم من ذلك وجدت الطمأنينة قد فارقتني تمامًا رغمًا عن إرادتي.

٢٠ أكتوبر: بالطبع لن يشنقوني على ذلك، لكنهم سوف يغلقون فمي، وبوسعهم فعل ذلك. استُدعيت في ١٥ سبتمبر لأوضح الأمر. هذه السرعة في استدعائي في حد ذاتها لم تُبشِّر بخير، فقومنا لا يسرعون إلى

فعل الخير، والسلطة أكثر منهم في ذلك، إلا أني ذهبت إليهم بشجاعة. في البداية ثبَّطوا شجاعتي هذه بأن جعلوني أمكث لمدة ٣٦ يومًا في انتظار أن أقدم تفسيري، ولكن بلا طائل، ثم أمروني أن أرسل مقدمًا كل ما سأقوله في عظاتي إلى الرقيب ترواديا. لكن هذا لن يحدث أبدًا. سامحني يا رب على كبريائي، لكني لا أستطيع أن أعظ ببرود. أحيانًا أشعر بشيء يحل عليَّ عندما تبحث موهبتي المفضلة عن فعل؛ حينما يتملكني نوع من القلق المقدس إذا جاز التعبير، وترتجف نفسي وتتقد، وتسقط الكلمة من فمي كقطعة فحم متقدة. أما الآن فلا... يريدون أن يجعلوا قانون الرقابة هو الموجود في نفسي. يطالبونني بأن أمارس تدريبات بلاغية أقدمها أولًا للأب ترواديا بدلًا من أن أتحدث حديثًا حيويًّا، من القلب إلى القلب، الأمر الذي يبيِّن أن أيام بيتر موجيلي وديميتريوس الروستوفي[1] قد ولَّت بلا رجعة، وكذلك أيام قديسين آخرين، وحل آخرون بدلًا منهم، حيث لا يعود الأذكى يوجِّه الأضعف، بل العكس؛ الأمر الذي يجعل العقل والشعور الإنسانيين في حالة صراع. لن أسلك هذا الطريق أبدًا.

لا، سأتمرد على ذلك، والأفضل لي أن أسد فمي عن التزلف وألزم الصمت، فأنا لست واعظًا مأسورًا.

٢٣ نوفمبر: لا أستطيع القول إن حياتي افتقرت إلى التغيير، بل على النقيض؛ يسير كل شيء بالتناوب، وبذلك لا يضعف الاهتمام ولو للحظة. أحيانًا يفتري عليَّ بعض الطيبين، وفي أحيان أخرى تهاجمني القيادة، وقد

---

(١) مطران كييف بيتر موجيلي (١٥٩٦-١٦٤٧) المعروف باتجاهه التنويري، وديمتري مطران روستوف (١٦٥١-١٧٠٩) مؤلف عدد من الأعمال التاريخية.

عيَّنوا تروادِيا هذا الفقير في العلم رئيسًا عليَّ. في بعض الأحيان أجدني منجذبًا إلى ملاطفات زوجتي، وألاحظ في نفسي حبًّا للذات، ولكن الوقت يمر ويمر، وأقترب من الموت أكثر فأكثر. لم ينتهِ كل شيء بعد، لم تتحقق كل عواقب العظة المشؤومة التي ألقيتها في عيد التجلي بعد. على بُعد ١٨ فرستًا من مدينتنا، على ضفة نهرنا توريتسا، تعيش في قرية بلودوماسوف الواسعة سيدة القرية البويار[1] مارفا أندريفنا بلودوماسوفا. لقد هرمت تمامًا حتى لم يعد أحد يلاحظ بالفعل أي علامة على استمرارها على قيد الحياة منذ فترة طويلة، والمعروف وحسب من الذكريات القديمة أنها إنسانة ذات قلب كبير. كانت على معرفة بالإمبراطورة يكاترينا والإمبراطور ألكسندر. لم أجد التحدث معها أمرًا شاقًّا. أكثر ما تشتهر به وسط الناس هو أنها في شبابها قاتلت بوجاتشيف[2] وحدها. أمر آخر يتذكرونه عنها، وهو حكاياتها الطريفة الأصيلة والمختلفة عن لقاءاتها بالمحافظين والموظفين الذين زاروها، وكذلك لقاؤها في الثانية عشرة بالأسرى الفرنسيين، لكن كل هذا حدث في القرن الماضي؛ الآن نسوا أمرها، وإذا تطرق الحديث إليها، يعتقدون أنها هي نفسها قد نسيت كل شيء. منذ اثني عشر عامًا ولا أحد بوسعه أن يتباهى برؤيته للبويار بلودوماسوفا.

في اليوم الثالث، في الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ذُهلت بصورة لا توصف حينما شاهدت ترويكا[3] كبيرة لأحد السادة تقترب مني، تجرها

(١) أعلى الأفراد رتبة في الأرستقراطيات الإقطاعية الروسية القديمة.

(٢) قائد ثورة القوزاق وأحد المطالبين بالعرش في عهد الإمبراطورة يكاترينا الثانية. كتب عنه ألكسندر بوشكين وعن ثورته في رائعته «ابنة الآمر» (١٨٣٦).

(٣) عربة تجرها ثلاثة خيول.

ثلاثة خيول حمراء، وفيها رجل صغير الحجم يرتدي قبعة زغبية ذات حافة طويلة ومعطفًا بنيًّا، كما تتضمن العربة عددًا كبيرًا من القبعات فوق بعضها.

تُرى من هذا الشخص المجهول؟ وهل يأتيني عمدًا أم انعطف صوبي بطريق الخطأ؟

سرعان ما انكشفت لي إجابات هذه الأسئلة، وقد كشفتها الشخصية الغامضة بنفسها التي دخلت ردهتي بقدر عظيم من اللياقة تروق لي دائمًا. في البداية طلب الضيف بركتي، وقال بعد أن حرَّك قدميه الصغيرتين على الأرض وتراجع خطوتين:

- لقد أمرتني سيدتي مارفا أندريفنا بلودوماسوفا يا سيدي القمص أن أنحني لك وأطلب منك أن تزورها من دون إبطاء.

- اسمح لي بدوري أن أعرف يا سيدي من الذي يشرفني بإبلاغ هذه الرسالة.

يجيبني الرجل صغير البنية:

- آه، أنا نيقولاي أفاناسيفيتش، أحد أقنان سعادة مارفا أندريفنا.

بعد أن قدَّم نفسه لي ذكَّرني مجددًا بأن سيدته في انتظاري.

- ألا تعرف ماذا تريد مني؟

- لا يمكنني يا أبي أن أعرف -أنا العبد- إرادة سيدتي.

هكذا أجاب القزم بتواضع عن سؤالي الأخرق؛ الأمر الذي أربكني، حتى إني بدأت أراوغه وكأني قصدت أمرًا مختلفًا تمامًا. حمدًا لله أنه لم يسألني عن المعنى الآخر الذي يمكن أن يعنيه مثل هذا السؤال.

بينما انشغلت بارتداء ثيابي في الغرفة المجاورة، انخرط هذا القزم المثير في حديث مع ناتاشا، وسرعان ما جذبها وأثار إعجابها بحديثه. في الحقيقة، في كلمات وحديث هذا العجوز صغير الحجم لطف لا يمكن التعبير عنه ونبل وود. وضع على الصينية التي قدَّمت له الخادمة عليها كأس ماء عملتين من فئة العشرة كوبيكات، وعندما ترددت الخادمة في قبول المبلغ ارتبك هو الآخر وقال: «لا أقصد أي إساءة، إنها مجرد عادة». عندما خرجت زوجتي من الغرفة وأتت إليَّ لتدهن شعري أمسك باليد القذرة لطفلة الطباخة التي سارت خلف أمها وقال: «فلتسمعي حديث البط الموجود عند ضفة النهر. تقول بطة غندورة لبط ذكر: فلتشترِ قططًا، فلتشترِ قططًا. ويجيبها الذكر: لقد طلبتها، طلبتها». ضحكت الطفلة، وابتسمت أنا أيضًا عفويًا من حديث الطائر هذا. بدا هذا الحديث مناسبًا للسيد لافونتين أو إيفان كريلوف[1]. لم ألحظ كيف مر الوقت وانقضى الطريق بسبب انخراطي في الحديث مع هذا القزم الرائع، حيث وجدت قدرًا كبيرًا من الذكاء والنقاء والصحة في كل أفكاره.

لكن الأمر الرئيس الآن هو أن ساعة لقائي بالسيدة البويار قد حلَّت. كان اندهاشي كبيرًا حتى إني باقتراب اللقاء، وبالرغم من أني بطبيعتي غير خجول، شعرت في نفسي بشيء يقترب من بهجة كبيرة. اقتادني نيقولاي أفاناسيفيتش إلى غرفة مستديرة، مرورًا بمجموعة مذهلة في روعتها ونظافتها من الغرف المليئة بالمحتويات، وكانت الغرفة ذات صفين من النوافذ المزينة بمرايا ملونة على شكل نصف دائرة. هنا وجدت امرأة

---

(١) جان دو لافونتين: أشهر كاتب قصص خرافية في تاريخ الأدب الفرنسي - إيفان كريلوف: من أشهر كُتَّاب القصص الأسطورية الروس.

عجوزًا أكبر حجمًا من نيقولاي بدرجة طفيفة وحسب. عند دخولنا كانت واقفة تعزف على أرغن كبير، وتوقعت أنها ليست السيدة البويار، ولم أنحنِ لها. لكنها عندما رأتنا نخطو في صمت على الأرض المكسوة بسجاد رقيق تركت الأرغن سريعًا واندفعت، وقد لاح عليها قدر من الضراوة، إلى الغرفة المجاورة، المسدلة على أبوابها ستارة كبيرة من الساتان الأبيض، والمطرَّزة عليها أشكال صينية متعددة بالحرير الملون.

هذه المرأة التي اختفت خلف الستارة بهذه السرعة، كما عرفت لاحقًا، هي شقيقة نيقولاي، وهي قزمة أيضًا، لكنها محرومة من لطف أخيها ووداعته.

توارى نيقولاي خلف شقيقته هو أيضًا خلف الستارة ذاتها، وأشار لي أن أنتظر على المقعد. انتظرت في مكاني لمدة نصف ساعة تقريبًا، وشعرت بنعومة في فمي أعرفها من أحاسيسي في أثناء طفولتي إبان الامتحانات. لكن أخيرًا وجدت نهاية لانتظاري، إذ سمعت من خلف الستارة هذه الكلمات: «حسنًا، أرني هذا الكاهن الذي سمعت أنه يقول الحقيقة». ومن ثم انفتحت الستارة ذاتها، كما لو بتعويذة سحرية على حبال غير مرئية، ورأيت أمامي السيدة البويار بلودوماسوفا بنفسها. كان صوتها الذي سمعته لتوِّي كافيًا لتغيير رأيي بخصوص شيخوختها، كما غيَّرت هيأتها رأيي أكثر وأكثر. وقفت السيدة البويار بقوة بدت لا نهائية. لم تتمتع بطول قامة استثنائي، ولا تمتعت بدرجة كبيرة من البدانة، لكنها بدت كما لو أنها تسود الجميع. يرتسم على وجهها تعبير صرامة وجدية كبيرتين، وإذا حكمنا بناء على هذه الملامح فعلينا أن نفترض أنها كانت باهرة الجمال يومًا ما. ارتدت زيًّا غريبًا عن أزياء زماننا. رأسها كله

متشابك مرات عديدة بشال بني كبير على الطراز التركي. علاوة على ذلك، ولا أعرف كيف أصفه بالضبط، ارتدت ما يشبه قفطانًا نسائيًا يصل حتى خصرها بلون مشرق، وتحت هذا القفطان تنورة مخملية بلون برتقالي مشرق وحذاء أصفر بكعبين فضيين عاليين، وأمسكت في يدها عصا ذات مقبض أرجواني. وقف نيقولاي أفاناسيفيتش على جانبها، وماريا أفاناسيفنا على الجانب الآخر، ومن خلفها كاهن قروي: الأب ألكسي، وقد كان واحدًا من أقنانها المحررين. قالت لي وقد أمالت رأسها قليلًا:

- مرحبًا. تسعدني رؤيتك.

انحنيت لها، ويبدو أني فعلت ذلك بشعور كبير بالإحراج. قالت لي:

- هيا باركني يا أبي.

اقتربت منها وباركتها، وتناولَت يدي وقبَّلتها؛ الأمر الذي بذلت قصارى جهدي لتجنبه. عندما لاحظَت ذلك قالت لي:

- لا تسحب يدك. أنا لا أُقبِّل يدك، بل كرامة الكهنوت الذي تمثله. اجلس الآن ولنتعارف.

جلسنا؛ أنا وهي والأب ألكسي، ووقف القزمان بالقرب منا.

- أخبرني الأب ألكسي أنك تتمتع بموهبة الوعظ والتفكير السليم. إنه لا يعرف شيئًا عن ذلك بصورة شخصية، لكنه سمعه من الناس، ومنذ زمن طويل لم ألتقِ بأناس أذكياء، ولشعوري بالملل أردت أن ألتقي بك. آمل ألَّا تغضب على امرأة عجوز بسبب ذلك.

اختلطت عليَّ الإجابات، ومن المحتمل أني لم أُجِب إلا بالقليل عما قيل لها عني، ولكن لحسن الحظ بدأت توجه لي الأسئلة وكان عليَّ أن أجيب. بدأت كالآتي:

- يُقال إنهم أرسلوك لتُعلِّم المنشقين، أليس كذلك؟

- نعم، لقد وضعوا هذا الهدف في اعتبارهم عندما أرسلوني.

- أفترض أنه أمر غير مُجْدٍ، فتعليم الحمقى يشبه مداواة الموتى.

لا أتذكر الكلمات التي أجبتها بها تحديدًا، لكني قلت ما يعني أنه ليس كل المنشقين حمقى.

- حسنًا، نظرًا لأنك تعتبرهم أذكياء، ما النجاح الذي حققته في إعادتهم إلى جادة الحق؟

- نجاح ضئيل. لا يمكنني حتى الآن أن أتباهى بأي نجاح حققته في هذا الأمر، ولكن هناك أسبابًا لذلك.

- ما الأسباب التي تقصدها؟

- الطريقة التي يتعاملون بها معهم غير مناسبة، والشر ينمو عبر الطيش الذي يراه المنشقون في المجتمع الكنسي وفي الإكليروس ذاتهم.

- أي شر تقصده؟ إنهم خطاة يا رجل الله لأنهم قرأوا الكتب المقدسة ويعرفون ما فيها.

- الكنيسة الأرثوذكسية لا تزال تعاني من التفسخ.

- لكن يجدر بالمرء أن يخدم هذه الكنيسة بمزيد من الإخلاص، لا أن يقلبها إلى دكان، وبذلك لا يجلب المرء المزيد من التداعيات إليها. الآن أنت تتاجر بكل شيء كما لو أنه قماش.

صمتُّ.

- هل أنت متزوج أم أرمل؟

- متزوج.

- إذا أنعم الله عليك بطفل فادعُني كي أكون عرَّابته، وسأحضر عماده. لن أذهب بنفسي، لكني سأرسل قزمتي، وإذا أحضرت طفلك إلى هنا فسأحمله بنفسي.

شكرتها مجددًا، وسألتها من أجل مواصلة الحديث:

- هل تحب سعادتكم الأطفال حقًّا؟

- ومن هذا الإنسان الذي لا يمكنه أن يحب الأطفال؟ إنهم ملكوت الله.

- وهل تعيشين وحدكِ منذ فترة طويلة؟

تنهدت وقالت:

- أعيش وحدي أيها الأب... وحدي منذ زمن طويل.

- الوحدة غالبًا تكون مؤلمة.

- ما هي المؤلمة؟

- الوحدة.

- هل عشت وحيدًا من قبل؟

- وكيف أكون وحيدًا وأنا متزوج؟

- وهل تفهم زوجتك كل ما يمكن أن يحزنك ويؤلمك كرجل ذكي؟

- أنا سعيد بزوجتي، وأحبها.

- تحبها؟ تحب قلبها لكنك وحيد مع أفكار النفس. لا تشفق عليَّ لأني وحيدة. لا ينظر الأخ إلى أبعد من أنف أخيه، ويشعر المرء منهم بالوحدة وسط إخوته. لديَّ ابن، لكني لم أرَه منذ ثلاثة أعوام، وأعرف أنه سئم مني.

- وأين هو ابنكِ الآن؟

- في بولندا، حيث يترأس فوجًا عسكريًّا.

- إخضاع الأعداء للوطن هو عمل شجاع.

- لا أعرف ما وجه الشجاعة في أن نعبث مع البولنديين الآن، ولكن في رأيي تتطلب لعبة الميليدا[1] ضِعف هذه الشجاعة.

- سيأتي الوقت الذي نفهم فيه الأمر بصورة صحيحة.

- لن يأتي هذا الوقت أبدًا لأنه قد مرَّ بالفعل، ووقفنا جميعًا كعصافير زمار الرمل في المستنقع بأنوف وذيول طويلة؛ إذا سحبنا الأنف علق الذيل، وإذا سحبنا الذيل علق الأنف. نحن لا نفعل شيئًا سوى تسلية الحمقى؛ الآن نجلد البولنديين بالسياط ثم نُقبِّل أيدي الماكرين منهم. من الدناءة والإثم أن نفسد الناس هكذا.

- على الأقل تمنع قواتنا البولنديين هناك من إيذائنا.

- إنها لا تمنعهم عن فعل شيء، ولن نشعر بالهلع من البولنديين إذا ارتبطنا معهم بعهود.

- أظن أن إدانة سعادتك قاسية من دون مبرر كافٍ.

- ليس هناك ما هو قاسٍ حقًّا في إدانتي هذه.

- من المحتمل أنكم تتذكرون بأنفسكم عام ١٨١٢ [2]، وإلى أي درجة كان الروس على قلب رجل واحد.

- وكيف لا أذكره؟! رأيت بنفسي من هذه النافذة كيف ضرب القوزاق فلاحيَّ، وكيف سرقوا حظائري.

---

(١) لعبة قديمة تتمثل في إزالة الخواتم ووضعها بشكل متكرر على قضيب من أجل نيل الجائزة.

(٢) العام الذي غزا فيه نابليون روسيا.

- يمكن أن يكون هذا الحادث قد وقع بالفعل، وأنا لا أدافع عن سمعة القوزاق، ولكن مع ذلك دافعْنا بصورة بطولية ضد شخصية ركعت أمامها أوروبا كلها.

- نعم، لحسن الحظ دعَّمَنا الله بالصقيع.

هذا التعليق، وبغض النظر عن لهجة الازدراء فيه، غير عادل، وقد أثَّر عليَّ تأثيرًا سيئًا حتى إني لم أُخفِ عنها استيائي وعارضتها قائلًا:

- هل من الممكن أن يحدث كل شيء في روسيا من وجهة نظر سعادتك بفعل الصدفة وحسب؟ ربما تؤتي الصدفة نفعًا مرة فالثانية، ولكن في المرة الثالثة، لا بد أن يكون ذكاء وشجاعة القائد قد لعبا دورًا ما.

- كل شيء أيها الأب الكاهن قد حدث بالصدفة، وأنا أرى كل ما يتعلق بالدولة ناتجًا عنها وحسب، بالإضافة إلى الإرادة الإلهية بالطبع. كان من الممكن أن يسحق منشقوك بطرس الأكبر سحقًا، وحينها كنا سنجلس على أرضنا المتبجحة هذه، لا كدولة عظيمة، بل كجماعة وسط البلغار الأتراك ذوي الشفاه السميكة، وكنا لنُقبِّل أيدي هؤلاء البولنديين. إننا نفخر بأمر واحد؛ ألا وهو كثرتنا. عسى ألَّا يلتهم الواحد منا الآخر، فربما تتاح لنا فرصة جيدة لفعل ذلك!

- أمر محزن.

- لا تحزن. الأراضي الأجنبية جديرة بالثناء، لكن بلادنا ستبقى قوية. لقد تحدثت معك كفاية، وأُنهكت بالفعل. وداعًا. إذا حدث أمر سيئ فتعالَ سريعًا من فضلك. ابتهِج إذا هاجموك، فلو كنت متزلفًا أو غبيًّا لما هاجموك، بل لنلت الثناء وصرت قدوة للآخرين.

بعد أن قالت هذه الكلمات التفتت إلى قزمتها التي ظلت طوال هذا الوقت ممسكة بحزمة، وقدَّمتها إليَّ قائلة:

- أعطِ هذا مني لزوجتك. هذا عُقد وهاتان قطعتان لصنع فستان، وهذه قطعة كتان لصنع ثوب منزلي، وهذا خاتم من الألمندين[١] لك.

بالرغم من أنها قدَّمت لي الهدية بكل بساطة، فإن الهدية أربكتني كثيرًا، وقلت بينما أنظر إلى العقد والأقمشة والخاتم الألمندين المتوهج:

- يا سيدتي، أشكركِ شكرًا جزيلًا على كل اهتمامك الرائع بنا، لكن هذه الأشياء فخمة، وزوجتي امرأة بسيطة و...

قاطعتني قائلة:

- أفضل لك أن تكون امرأتك بسيطة، فأينما وجدت زوجًا وزوجة يرتديان السراويل، فلن تجد فائدة تُرجى منهما. أفضل شيء إذا كانت امرأتك ترتدي تنورة، أن تأخذ هذا مني لتنورتها. الزوجات يحببن الهدايا، وأنا أحب إهداء الهدايا. خذ هذا ولتصحبك السلامة.

هكذا أنهت حوارها معي، وأعترف أنها أدهشتني بدرجة لا توصف. وفقًا لعادتي لمحاولة فهم منطق الأمور، انتهزت فرصة صمت نيقولاي أفاناسيفيتش الذي تولى توصيلي إلى المنزل، وحاولت أن أستوضح لنفسي حقيقة الحس الأخلاقي الكامن خلف كل ما قالته ومضمونه. لم أجد أي رابط منطقي، فكل ما قالته قليل جدًّا، ولم أسمع منها سوى مقتطفات بسيطة من أفكارها، لكني لا أزال أتذكر هذه المقتطفات لا

(١) أحد الأحجار الكريمة العقيقة. سُمي بذلك نسبةً إلى ألبندا وهي مدينة قديمة في الأناضول اشتهرت بفص المجوهرات.

إراديًا، ولا أستطيع نسيانها. آمل ألّا يتضح كذب من وصفوا هذه المرأة بالذكاء في زمانهم. الأمر الرئيس الذي يفاجئني هو شعوري بالارتباك في حضورها، ولا أعرف سببًا لذلك، كما لو أني فقدت رباطة جأشي من البداية والتصق لساني بحنكي، وإذا تحدثتُ عن شيء يكون حديثي ضعيفًا جدًّا، بينما حديثها الساخر مني يبدو كما لو أنه ناتج عن نزوة ما، وعندما أوليت انتباهي لضرورة أن أبدو أمامها أكثر ذكاء حتى لا يخيب ظنها فيَّ وجدتها تهمل الأمر تمامًا، وكان من الواضح أنها لا تفكر مليًّا فيما تقوله ولا تختبر ذكائي، وفي الآن ذاته لا أستطيع نسيان ما قالته. تُرى ما طبيعة تلك القوة؟ أفترض أن قوتها تتمثل في التعليم العلماني الذي نالته؛ التعليم الذي يتجاهله معلمونا من الإكليروس، وغالبًا ما يسلبنا ذلك التجاهل المهارة والبراعة اللتين نحن في أشد الحاجة إليهما في تعاملنا مع العلمانيين.

لكن لم يكن مقدرًا لهذا اليوم أن ينتهي بهذه الصورة، بل توجَّب أن يحدث فيه حدث مثير آخر. لم تكد الفرحة الأولى التي جلبتها الهدايا لناتاشا طيبة القلب تبعث العزاء في قلبي، حتى قدَّم لنا القزم نيقولاي أفاناسيفيتش الرائع هدايا. في البداية عرض عليَّ ورقة بيضاء ذات أقواس حمراء متماسكة، ثم أهدى زوجتي وشاحًا من الحرير الناعم، وقبل أن أتعجب من هذه الهدايا الجديدة المفاجئة وجدته يُخرج من جيبه جوارب صوفية ويعطيها لأكسينيا خادمتنا التي أعدت له السماور. وجدتني أصيح عفويًّا: «يا له من يوم هدايا!». ولم أستطع أن أزعجه برفض الهدايا. أجابني أن كل هذه الأغراض من صنع يديه. قال:

- بفضل إحسان سيدتي، ونظرًا لعدم قدرتي على عمل أي شيء آخر،

أمارس دائمًا الحياكة حتى لا أقضي وقتي متبطلًا، وحتى أقدم للآخرين أيضًا شيئًا من صنع يدي.

أُعجبت بهذه البساطة حتى إني رفعت هذا الرجل الصغير إلى صدري وأمطرته بالقبلات حتى كاد يختنق.

هل لي أن أنهي الآن وصف يومي الحالي؟ لم تنتهِ بعد كل عجائب اليوم بإمساكي بخادم السيدة البويار بلودوماسوفا. بعد أن أغلقت الباب ليلًا رأت أكسينيا شيئًا معلقًا على الشماعة وبدا لها غريبًا، وعندما استدعتنا الخادمة -أنا وناتاشا- لنرى ذلك الشيء وجدنا:

أولًا: قفطانًا حريريًّا لرجال الإكليروس.

ثانيًا: حزامًا صوفيًّا ثمينًا مزينًا بشرائط قرمزية.

ثالثًا: غَفَّارة رداء كاهن خضراء وغالية.

رابعًا: ثيابًا كهنوتية قطنية كاملة.

شُدِهنا بالعثور على كل هذه الأشياء، ولم نستطع أن نفسر لأنفسنا كيف وصلت إلينا. لكن أكسينيا رأت على أحد أزرار ياقة الغفارة الكهنوتية بطاقة بارزة مكتوبًا عليها بأحرف مستديرة تبدو -إذا جاز التعبير- كالخط المصري: «اذكر يا صديقي الأب سافيلي عبدة الله مارفا في صلواتك». صِحنا من الدهشة ولكن لم يكن هناك ما يمكننا أن نفعله، ووضعنا الثياب الجديدة على الطاولة، لنجد المزيد في انتظارنا. ما إن بدأت ناتاشا في إخراج البطرشيل (ثوب كنسي -المترجم) حتى رأينا ظرفًا باسمي سقط منه، ويحوي الظرف خمسمائة روبل، ومكتوب بالخط ذاته: «حتى لا يتكدر ذهنك أمام المذبح في حالة أن أصابت أسرتك أي أزمة، اشترِ

لنفسك كوخًا وازرع بقطينة بحيث تستطيع أن تفكر بمزيد من الهدوء في عمل الله».

ما حاجتي إلى كل ذلك؟ ما الذي يجعلني مستحقًّا لذلك؟ لماذا لا تفكر مثل سكرتير المجلس الكنسي والقائم على أملاك الكنيسة بأنه من الأسهل على الكاهن أن يمارس عمل الله من دون أن يجد مكانًا يسند إليه رأسه؟ ما حقيقة كل هذه المصادفات فعلًا؟

ها أنت أيها الأب سافيلي الذي بلا مأوى، سيصير لك كوخك الخاص، ولكن يا للأسف! يجب أن أضيف أن الأمر سيجلب الأسف.

٢٥ نوفمبر: ذهبت إلى بلودوماسوف لأقدم امتناني، لكن مارفا أندريفنا لم تستقبلني، وقال نيقولاي القزم إنها لا تحب أن يشكرها أحد، وأضاف أيضًا إلى ذلك: «لقد أحسنت يا أبي بمجيئك إلى هنا، وإلا شعرت بنكرانك للجميل». يمكننا أن نستنتج أن بحرًا كاملًا واسعًا من الأصالة يكمن في داخل هذه الشخصية.

٦ ديسمبر: أحضرت بالأمس الأغراض التي وصلتني من السيدة إلى خزانة الثياب الكهنوتية وارتديتها في أثناء القداس الإلهي. تليق عليَّ جميعًا، ولكن نظرًا لأني لا أزال أرتدي الرداء الكهنوتي لسلفي الراحل، وقد كان إنسانًا متوسط القامة، ضئيل البنية تمامًا، ونظرًا لأني إنسان طويل القامة، لم أبدُ مكللًا بالعظمة الكنسية، بل بدوت كغراب بذيل منتوف.

٩ ديسمبر: بديع! هكذا يصيح نيافة الأسقف في وجهي، لكني لا أعرف كيف أدين نفسي أمامه، وأشعر بالهدوء.

١٢ ديسمبر: دار بعض الحديث بيني وبين نيافته لأفسر له الأمر، ولكن لماذا؟ بسبب الغفارة الكهنوتية التي من السيدة بلودوماسوفسكا والتي كان

يجب أن تُسلَّم إلى الكنيسة، وأضاف أيضًا: «ثمة بعض الشائعات أنك تلقيت منها شيئًا آخر». ماذا يعني ذلك؟ أيعني ذلك أني لم أُضحِّ بتسليم كل شيء للكنيسة وسرقت شيئًا أم ماذا؟

٢٣ ديسمبر: يا لها من شائعات! يا إلهي الرحيم! آه يا خالقي الصالح! أنا لا أتحدث هنا عن شرفي، ولا عن عمرها، ولكن حتى كرامتي التي هي بالنسبة لي شيء لا يُقدَّر بثمن، تتعرض للإهانة! أوغاد. الأمر تافه، وأنا لا أريد أن أغلي غضبًا.

٢٩ ديسمبر: بدأت ألاحظ أن المحافظ الحالي لا يحبني، لكني لا أعرف السبب. فكرت في إجراء محادثات مع المنشقين في منزلي في فترة عيد الميلاد، ولكن الأمر عُرِف فجأة في المقاطعة، ووجدوه هناك غير مقبول، ومن ثم أرسلوا لي ملاحظة. أظن أنهم عهدوا إلى المحافظ بمهمة مراقبتي. أفضل طريقة للتعامل مع هذا الأمر هي اعتباره مزحة، لكني نثرت الماء المقدس على نفسي للحماية من العدو والجاسوس.

١ يناير: بارِكنا بإكليل صلاحك يا رب، وبارِك الكاهن سافيلي في رحلته الجديدة إلى المقاطعة. من الواضح أن المياه المقدسة لا تؤتي أثرًا ضد هؤلاء الأعداء.

٧ يناير: بالأمس، وبعد الصلاة على الماء، غمرت السيدة بلودوماسوفا نفسها في المياه الثلجية[١]. تعجبت! سألت إذا كانت معتادة على فعل ذلك، وأجابوني أنها تفعله دائمًا، وتسميه استحمامًا.

(١) من التقاليد الشعبية في روسيا أن يغمر الناس أنفسهم في عيد الغطاس في الماء المثلج في حفرة جليدية.

يا لها من عادة مدهشة! أظن أني لا أقوى على البقاء حيًّا بعد استحمام واحد من هذا النوع!

٢٠ يناير: أكتب هذه السطور، جالسًا في بقعة نتنة في باحة الأسقف عند بناية المجلس. علاوة على ذنبي المتعلق باللقاءات مع المنشقين أضافوا لي ذنبًا آخر؛ لقد أبلغهم المحافظ أن قارئنا الكنسي بافليوكان قد استبدل بكتاب مزامير داود الموجود في عهدتي كتاب المنشقين القديم. لقد حدث الأمر فعلًا، لكني أخفيته لعدة اعتبارات؛ أولها أني اعتبرت الأمر تافهًا، وثانيها لعلمي بأنه فَعَلَ ذلك لسبب واحد؛ ألا وهو فقره الشديد. لكن هذا الأمر التافه نَسب إليَّ مباشرة جريمة شريرة وتم إبلاغ الرؤساء، ومن ثم أرسلوني إلى المدرسة اللاهوتية ليذيقوني المرار.

٤ فبراير: بالأمس وصلني من جانب الأب ترواديا، من دون أي طلب مني، أشد الكتب ندرة، والذي يجب على المرء بالرغم من ذلك أن يعرفه جيدًا، لكنه نُشِر في روسيا بطريقة يبدو بها كما لو أنها تَعمد إلى إبقائه مخفيًّا عن أولئك الذين يجب أن يعرفوه جيدًا. إنه كتاب: «القوانين الإكليريكية[1]». استغرقت في قراءته بحمية شديدة. أدرك بوضوح في كل سطور الكتاب عظمة المشرِّع، وأتفهَّم البصيرة الحادة لمن أخفوا هذا الكتاب، وماذا كان بوسعهم أن يفعلوا خلاف ذلك؟ مكتوب فيه مثلًا: «على كل أسقف أن يعرف مقدار كرامته، ولا يرتفع فوقه. من أجل ذلك يجب ترويض كرامة الأسقف ليحافظ على سلامته، وعلى الإخوة ألَّا ينحنوا أمامه، حيث يركع أمامه أولئك المعجبون به عن طيب خاطر

(١) اللوائح الخاصة بإدارة الكنيسة، وإجراءات استبدال لجنة إدارية إكليريكية بالبطريرك.

ليطلبوا ما لا يستحقونه منه كي يحجب همجينهم وسرقتهم».

بذلك فإن إجباري على المثول أمامه بهذه الطريقة هو خرق للقانون في الأساس، وهو جريمة أيضًا بحسب هذه القوانين الخفية. مكتوب أيضًا فيه: «كم بالحري لن يجرؤوا على السرقة خوفًا من العقوبة القاسية، فخُدَّام الأساقفة هم عادة ماشية أنيقة، وحيثما يرون مجال قوة سيدهم، يسرعون بأقصى درجات الفخر والوقاحة إلى السلب كالتتار». رائع يا سيدي! رائع!

٩ أبريل: عدت إلى منزلي من جديد. تأثرت بشدة بدموع زوجتي التي عانت طويلًا في غيابي، ولكن ما أثَّر فيَّ أكثر هو دموع زوجة القارئ بافليوكان. بعد صمتها شكرتني على تحملي المعاناة بسبب زوجها. أما بافليوكان نفسه فقد أرسلوه إلى أحد الأديرة في الصحراء لكن العقوبة ستمتد لعام واحد فقط. المدة قصيرة يمكن لأسرته أن تتحملها من دون أن تهلك. يرون أنه بذلك سيصير أقرب إلى الله بحسب معايير المجلس الكنسي.

٢٠ أبريل: عرج عليَّ القزم اللطيف وأخبرني أن مارفا أندريفنا تقول إني مدعو لإقامة القداس الإلهي هناك في كنيسة بلودوماسوف ثلاث مرات في العام؛ صيفًا وشتاءً وفي عيد الغطاس، وإني سوف أتقاضى راتبًا يبلغ ١٥٠ روبلًا يعطيني الناظر إياه؛ أي ما يقابل ٥٠ روبلًا للمرة. ما هذه المصادفات! الأمر رائع إلى حد أني أخشاه.

١٥ أغسطس: عدت من عند قندلفت[1] المقاطعة بفتيخيتش، وقال لي إن جدالًا حادًّا قد دار بين الأسقف والمحافظ.

---

(١) رتبة كنسية منوط بحاملها صيانة مباني الكنيسة والمقابر التابعة لها، وأيضًا تعمير القناديل وملء درج البخور.

٢ أكتوبر: تزداد الإشاعات عن الجدال الذي حدث في الزيارة. اعتاد المحافظ في الأيام الكنسية[١] أن يتحدث بصوت عالٍ في الكاتدرائية. قرَّر الأسقف إيقاف هذه العادة، وأرسل مساعديه ليطلبوا من سعادته أن يسلك بمزيد من اللياقة في الكاتدرائية. استقبل المحافظ هذه الملاحظة بكبرياء شديدة، وفي غضون فترة قصيرة استأنف مجددًا أحاديثه العالية مع قادة الشرطة، ولكن في هذه المرة توقف الأسقف نفسه وقال بصوت عالٍ:

- سوف أصمت إذن سعادتكم حتى تنتهي من حديثك.

أوافق الأسقف تمامًا على فعله هذا.

٨ نوفمبر: حصلت على نابيدرينيك[٢]. لا أعرف كيف أبرر حصولي عليه. هل أنسبه إلى الزيارة السابقة أم ماذا؟! خاصة أن المحافظ لا يحبني.

٦ يناير ١٨٣٧: خبر جديد! أوقف نيافة الأسقف ابنة المحافظ في أثناء قداس رأس السنة عندما اقتربت لتناول الأسرار المقدسة وهي ترتدي قفازها، وقال لها: «اخلعي من يدكِ أولًا جلد الكلب هذا!».

لم أكن أعرف حتى الآن أن زوجة محافظنا ليست ألمانية.

١ فبراير: بأمر من الأسقف ارتديت سكوفيه[٣].

١٧ مارس: سار قمص كنيسة بوجويفلينسكي ليلًا ومعه الأسرار المقدسة، منصرفًا من منزل مريض، واصطحبه الجنود إلى القسم، ويُقال إنه كان ثملًا. في اليوم التالي زاره الأسقف مرتديًا عباءته الرسمية. آه أيها

---

(١) عطلات سنوية كنسية تُقام فيها المواكب الدينية والاحتفالات.

(٢) سترة يرتديها بعض الكهنة الأرثوذكس الروس، عبارة عن قطعة قماش مربعة أو مستطيلة.

(٣) ثياب دينية إضافية لإكليروس الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية كدليل على الشرف، عادةً ما تكون حمراء أو بنفسجية.

المحافظ! لا بد أنك ستستغل هذه المكيدة.

١٨ مايو: نقلوا الأسقف إلى إيبارشية أخرى.

١٦ أغسطس: زرت الأسقف الجديد. بدا لي رجلًا عاقلًا تمامًا وذا شخصية مميزة. تحدثنا عن أحوال الإكليروس وأمرني بكتابة تقرير عن هذا الموضوع. قال لي إن الأسقف السابق قد أثنى عليَّ كثيرًا. شكرًا لك أيها الجد المسكين والشرير على كلمتك الطيبة.

٢٥ ديسمبر: لا أعرف كيف يجب أن أنظر إلى نفسي، وما الذي وُلدت من أجله، وما هي دعوتي. تلومني زوجتي على أني أعمل حتى في عطلة عيد الميلاد، لكني لا أجد متعة لنفسي أفضل من هذا العمل. أكتب تقريري عن أحوال الإكليروس بدرجة من السرور والحب لا يمكنني التعبير عنها. جعلت عنوان التقرير: «عن وضع الإكليروس الأرثوذكسيين والوسائل التي يمكن بها الارتقاء بهم لصالح الكنيسة والدولة». أظن أنه عنوان جيد. لا أتذكر أبدًا وقتًا شعرت فيه بمثل هذا السرور والبهجة وقوة التفكير والفهم.

١ أبريل: قدمت تقريري للأسقف. تقول زوجتي إني قدَّمت التقرير في يوم غير ملائم، فبحسب إشارتها الساذجة اليوم الأول من أبريل هو يوم مخادع. سنرى!

١٠ أغسطس: تمت ترقيتي إلى درجة قمص.

٤ يناير ١٨٣٩: وصلتني رزمة من المجلس الكنسي، وثمة شعور سابق بالانزعاج يراود قلبي ويتوارى خلف الفرح. لم تكن هذه الرزمة بسبب تقريري، بل حوت صليبًا للصدر. أشكرهم جزيل الشكر لكني لا أزال أشكو من مصير تقريري.

٨ أبريل: عُيِّنت مساعدًا للأسقف. لم تصلني أي إشاعات بخصوص تقريري. لا أعرف كيف أجعل هذا البوق يصدر صوته.

١٠ أبريل ١٨٤٠: انقضى عام بالفعل، ولم يصلني خبر بخصوص تقريري. من الواضح أن معتقدات زوجتي ليست كلها هراء. سخرت مني اليوم قائلة إني قد أكون كتبت التقرير جيدًا لكني وقَّعت عليه بصورة سيئة.

٢٠ يونيو ١٨٤١: اجتزت الماء كاليابسة، وتجنبت شر المصريين، وها أنا أنشد للرب إلهي[1]. ما الذي حدث معي؟ ما الذي تحملته وكيف خرجت من كل ما مررت به إلى النور الإلهي؟ يعتريني الفضول بشدة حيال ما تفعله يا كاتب الحكايات الخرافية، والقصائد الشعبية، والقصص والروايات، من دون أن ترى في الحياة المحيطة بك خيوطًا تستحق أن تنسج منها حكاياتك المسلية! كما يعتريني الفضول حيالك يا مصلح الأخلاق الإنسانية، بالرغم من أنك في حقيقة الأمر لا علاقة لك على الإطلاق بالحياة الحقيقية التي يعيشها الناس، بل تستخدم فقط ذرائع المتحدثين العاطلين! أتعرف أي حياة يعيشها الكاهن الروسي؛ هذا الشخص الذي لا ضرورة له في رأيك، والذي ربما يدعونه عبثًا ليحضر ميلادك، ويدعونه مجددًا رغمًا عنك ليرافقك إلى القبر؟ أتعرف أن حياة هذا الكاهن الفقيرة ليست وضيعة، بل تمتلئ عن آخرها بالكوارث والمغامرات أم أنك تظن أن قلبه لا يمكنه أن يختبر مثل هذه المشاعر النبيلة وأنه لا يشعر بالألم؟ أم أنك لا تريد أن تُكرِّمني بالالتفات إليَّ؛ أنا الكاهن، من برجك العاجي؟

(١) ترتيلة كنسية تعيد تذكر عبور موسى بشعب إسرائيل البحر الأحمر، وغرق جيش فرعون، بحسب الرواية التوراتية.

ربما حتى تظن أن أواني قد فات وأن البلد ولدنا وربانا ولم يعد في حاجة إليَّ... يا لك من أعمى! أقول لك إذا ظننت الأمر الأول إنك أحمق، وإذا ظننت الأمر الثاني فأنت بموجب هذا الاستنتاج إذن لا تسعى إلى رفع وضعي وتأجيج الحياة فيَّ، بل تُكوِّم الأحجار عليَّ وتسخر من أني صرت فاسدًا ومخنوقًا.

سأهبط من مستوى التفلسف إلى الحدث الذي تعرضت بسببه إلى الهجوم بهذا التفلسف.

حُرمت من مركزي كمساعد للأسقف، وكدت أفقد كرامتي، ولماذا كل ذلك؟ تتطلب معرفة السبب أن أحكي الحكاية بالتفصيل.

في شهر مارس من هذا العام، كان هناك احتفال كبير بوصول المحافظ إلى مدينتنا وممثل مجلس النبلاء، واستغللت فرصة لقائي بالمحافظ بالتوجه إلى سعادته بشكوى من أصحاب الملكيات الذين يثقلون كاهل الفلاحين بالعمل في أيام الأحد، بل وحتى في الأعياد الدينية الكبيرة، وقلت له إن فقر الناس المدقع يزداد بهذه الطريقة أكثر فأكثر، حيث إن قرى كاملة لا يملك فلاحوها حبوبًا ولا شوفانًا... لكن ما إن قلت هذه الكلمة «شوفان» حتى وجدت سعادته قد اشتعل غضبًا عليَّ وهاجمني كأفعى صائحًا:

- لماذا تزعجني بأمر الشوفان؟ أنا من أنا، ولست كنيقولاي أوجودنيك أتاجر في الشوفان.

أجبته:

- عليَّ أولًا أن أوضح لسعادتكم بوصفكم إنسانًا غير ضليع في مسائل

الإيمان أن نيقولاي أوجودنيك كان أسقفًا ولم يتاجر في شيء. يلزم أيضًا أن تعرف أن الشعب الأرثوذكسي في حاجة إلى الكاهن والشماس، وهما حتى الآن الشيء الوحيد الذي لم نستعره من الألمان.

أطلق ضحكة شريرة ردًّا على كلماتي وقال لي:

- لا تخف أيها الأب، ما دام هناك مستنقع فلا بد من وجود شياطين[1].

بدت لي عبارته الأخيرة هذه أشد مرارة من الأولى، فقلت في نفسي غاضبًا: «من هم هؤلاء الشياطين؟ وماذا تسمي شفتيك الحقيرتين سوى مستنقع؟». ولم أستطع تمالك نفسي والالتزام بالصمت التام، فأجبت هذا الغبي قائلًا إنه احترامًا لكرامتي لا أريد حتى أن أصفه هذه المرة بالشيطان. تُرى كيف انتهى الأمر بي بعد ذلك؟ الآن أنا مساعد أسقف سابق، وحمدًا لله أني لم أصر كاهنًا سابقًا بعد، ولم يتم تجريدي من رتبتي الكهنوتية. لن نُدوِّن هذا طبعًا يا كاتب الروايات المعاصر، ولن تحاول أن تجعل الناس يدركون مدى صعوبة الأمر عليَّ.

٣ سبتمبر: طقس خريفي يبعث في نفسي أقسى درجات السأم. تعودت على العمل دائمًا، لكني الآن بلا عمل؛ الأمر الذي يجعلني أئن إلى حد أني أبكي كثيرًا خفية عن زوجتي.

٢٧ يناير ١٨٤٢: اشتريت من أحد اليهود أرغنًا ولعبة شطرنج بسبعة روبلات.

١٨ مايو: جلبت عصفور السسكن في قفص، وحاولت تعليمه الغناء على أنغام الأرغن.

---

(١) مثل روسي شعبي يشير إلى أنه دائمًا سيكون هناك من يسلك بصورة سيئة عندما تسنح الفرصة.

٩ أغسطس: بدأت أكتب رواية مستوحاة من حياة الإكليروس هنا. تبدو لي النساء هنا طيبات، سواء أمي أو بنات شماس المقاطعة اللاتي أطعمننا جميعًا بعملهن. عندما أفكر أرى كل هذا بوضوح، لكن حينما أحاول وصفه لا أستطيع. لا، لا يمكنني فعل ذلك.

٢ مارس ١٨٤٥: مرت ثلاثة أعوام من دون أي تغيير في الحياة هنا. أسست منزلي، وانشغلت في قراءة كتب آباء الكنيسة والمؤرخين. خرجت باستنتاجين، وأتمنى أن يكونا مخطئين. الاستنتاج الأول هو أن روسيا لم تعرف المسيحية بعد. الاستنتاج الثاني هو أن الأحداث تتكرر، ومن ثم يمكن التنبؤ بها. حدَّثت أحد زملائي عن الاستنتاج الأول، وهو شخص يتسم بذكاء شديد؛ ألا وهو الأب نيقولاي، واندهشت من موافقته لي على وجهة النظر هذه. قال: «نعم، صحيح أننا نعتمد باسم المسيح، لكننا لم نلبس المسيح بعد»[1]. هذا يعني أني لست وحدي من يرى ذلك، بل يراه آخرون أيضًا، لكن لماذا يبدو ذلك مضحكًا للجميع، بينما يصيبني بالحنق إلى درجة الشعور بأني أنزف ألمًا!

بداية عام ١٨٤٦: بدأوا يرسلون البولنديين إلينا. لم تصلني أخبار بعد عن تقريري. أنا مهتم بشدة بالأحداث السياسية التي تحدث في الغرب، ولذلك رقَّمت بنفسي جريدتي السياسية.

٦ مايو ١٨٤٧: وصلنا بولنديان جديدان: الكاهن الكاثوليكي ألويزي كوناركيفيتش والسيد تشيميرنيتسكي، وكلاهما في ريعان الشباب، لكن

---

(١) يقصد لم تتحد به، والوصف يعود إلى غلاطية ٣: ٢٧ «لَأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ».

الأمر قد تعقد بشدة فعلًا. زوجة المحافظ بولندية، وقد جمعت حولها عصبة كاملة منهم، وقرَّبت هذا الأخير بشدة إليها. يقولون إن سبب ذلك يعود إلى وسامة الشاب، لكن يبدو لي أن هناك شيئًا آخر خلف ذلك.

٢٠ نوفمبر: ألاحظ شيئًا مدهشًا تمامًا وغير مفهوم؛ يبدو الأمر كما لو أن البولنديين قد صاروا هنا أسيادًا، حتى إن الوصول إلى المحافظ يتطلب وساطتهم، كما تبين أن تشيميرنيتسكي صديق له.

٥ فبراير ١٨٩٤: فعلت ما لم أُرِد فعله قَط طوال حياتي: كتبت عن البولنديين بهذه اللهجة لأنهم قد خرقوا كل المعايير. لم يقتصر الأمر على أنهم منذ فترة طويلة وهم يسخرون علنًا من أخبار الصحف، ويقولون إن كل ما يُكتب فيها ليس كذلك، بل هو على النقيض، وافترضوا أنهم هم الذين يضربوننا، وأننا لسنا من هزمنا العدو، بل وصل الأمر إلى حيز الفعل بعد أن اقتصر سابقًا على الكلام. في أثناء حفل تأبين الجنود الذين قُتلوا في المعركة تعالت ضحكاتهم الفاحشة مع زوجة المحافظ، حتى إن الأب الأسقف بعث مساعده ليطلب منهم التزام الهدوء أو مفارقة المكان. بعد ذلك خرجوا من الكنيسة ضاحكين. لكن بعد أن انتهيت من الصلاة بصحبة بقية الإكليروس مررنا بالقرب من متجر الإخوة ليالبني، ووجدنا أحد البولنديين يخرج بكأس خمر إلى الشرفة، وقلّد صوت الشماس صائحًا: «أعوامًا مربعة!». فهمت أنه يسخر من قول الشماس «أعوامًا مديدة»، وهكذا وصفتهم، ولن أُخزى من عدم احترامي لهم، لأني روسي والتعامل برقة مع شخصيات كهذه هو أمر غير لائق.

١ أبريل مساءً: بالرغم من أن تقريري عن سلوك البولنديين جاء في وقت متأخر، يبدو أنه أتى فعله. صباح اليوم وصل قائد الحرس إلى مدينتنا

ودعاني للقائه وسألني لفترة طويلة عن كل ما ذكرته. حكيت له كل ما حدث، وأعلن لي أنه سرعان ما ستوضع نهاية لكل هذه الدناءات البولندية في روسيا، لكني أخشى أن كل ذلك قيل لي في الأول من أبريل. بدأت أصدق فعلًا أن هذا التاريخ مخادع.

٧ سبتمبر: يبدو أن الأول من أبريل لم يخدعنا هذه المرة. تم نقل كل من كوناركيفيتش وتشيميرنيتسكي للعيش في عاصمة المقاطعة.

٢٥ نوفمبر: طلبوا من المحافظ وزوجته الرحيل، وتم تعيينه قائدًا للشرطة في عاصمة المقاطعة، ومع ذلك لا يُعتبر ذلك عقابًا.

٥ ديسمبر: عيَّنوا محافظًا جديدًا يُدعى كابتن مراتشكوفسكي. اسمه مشتق من كلمة «مراك» (ظلام أو ضباب -المترجم). أنت يا رب من يفحص ما يأتي إلينا من النور.

٩ ديسمبر: التقيت اليوم بالمحافظ الجديد على مائدة الإفطار. كلاهما -هو وزوجته- يتمتع بقدر كبير من الدماثة. بعد أن شرب كثيرًا غنى لنا: «أتتذكر يا رفيقي الشرف العسكري؟». وبعدها أنشد ابنه أيضًا، وقد ارتدى قميصًا روسيًّا: «آه من الصقيع، أحسنت أيها الروسي!». هذه أخبار جديدة نوعًا ما. الأمر اللافت في حديث مراتشكوفسكي هذا، أو على الأقل أكثر ما جذب انتباهي، هو الحكاية التي قصها عن أحد الأساتذة بجامعة موسكو الذي أُجبِر على الاستقالة. قال في أحد الاحتفالات: Nunquam de republica desperandum، وتعني «لا تيأسوا من الدولة». لكن بعض الإكليروس الحكماء فهموا أنه يقصد لا تيأسوا من الجمهورية، وبسبب ذلك أُجبِر على الاستقالة. أمر لا يُصدق!

١٢ ديسمبر: قرأت في الصحف أن سمكة كراكي صغيرة قفزت إلى فم فلاح واقف وحده منحنيًا على الماء، وعلقت بخياشيمها به، ولم يستطع أن يقتلعها من فمه، ومن ثم مات. ما الذي يستحيل تصديقه بعد ذلك في روسيا؟ أنا أيضًا أؤمن بما قاله الأستاذ الجامعي.

٢٠ ديسمبر: لا، الأمر لا يقتصر على أن الأول من أبريل هو تاريخ مخادع، بل هو ملغز أيضًا. لا أريد حتى أن أسجل كل ما حدث معي في أثناء زيارة عاصمة المقاطعة، لكني سأقول أمرًا واحدًا: لقد شُتِمت وألحقوا بي الخزي بكل الطرق الممكنة، والأمر الوحيد الذي تبقى قبل أن يقضوا على كرامتي تمامًا هو أنهم لم يضربوني. لا أتعامل مع أحاديث من يهاجموني بصورة مباشرة قائلين: «لقد أسأمتنا بدعاواك المتكررة. لم يَعُد علينا تعليمك بشيء حسن، ولم يُعلِّموك حتى ألَّا تتدخل في شؤون غيرك وألَّا تنم وتقدم الدعاوى». آه يا قلبي! من الذي وشيت به وقدمت تقريرًا عنه؟ لكني لم أستطع أن أجيب بشيء لأن كل حركة لشفتي قوبلت بـ«صمتًا!» مخيفة. تخلصت من كل ما هو غير ضروري، وها أنا جالس في طريق عودتي كالدجاجة التي ألهب نبات القراص جلدها مرددًا لنفسي هذه الكلمة مرارًا وتكرارًا: «صمتًا!». وأرى أنها كلمة عاقلة فعلًا. شيء واحد لا أفهمه: لماذا لا يُفسَّر فعلي، بالرغم من اتسامه بعدم الحذر، بأي شيء سوى الحماقة والجهل؟ وما الذي تصوروه؟ لا بد أنهم تصوروا أني امتلأت حقدًا على البولنديين لأنهم لم يدعوني ولم أسكر معهم، لكني بفضل الله لم أشايعهم. ختامًا، من أصغر الأشياء إلى أعظمها أتذكر كلمة

السيدة شارلوت كورديه[1] وكيف كتبت في خطابها: «لدى الشعوب الجديدة عدد قليل من الوطنيين، وهم يفهمون أبسط أنواع الحماسة الوطنية ويؤمنون بإمكانية التضحية بكل شيء من أجلها. الأنانية في كل مكان، وكل شيء يفسرها». بالنظر إلى الناس هنا ربما أميل إلى استنتاج شارلوت كورديه، ولكن بوضع البولنديين أنفسهم في الاعتبار، الذين يبدون مقتلعين من جذورهم، فالمنشقون الذين لا تمنعهم كل الإهانات والاضطهادات من محبة روسيا عليهم أن يعارضوها تلقائيًا ويعتقدوا أنه لا يزال لدى الناس حب لوطنهم! بهذه الطريقة توصلت إلى شيء أمدح البولنديين عليه، إلا أني طوال الأيام الماضية لا تزال كلمة «صمتًا!» تتردد في أذني. لا تيأسوا من الدولة! (باللاتينية في الأصل -المترجم).

٢٠ يناير ١٨٤٩: ذهبت إلى جميع المنشقين وأخذت بعض القطع الفضية عند البوابات. ليس هذا هو الوقت الملائم للمقاومة، إلا أني شعرت في بعض اللحظات بالحزن، لكني فعلت ما فعلت من أجل زوجتي وزوجة القارئ، فبعد الذي حدث معي صار الأمر ممكنًا. ذهبت إلى المحافظ. إنه يعرف كل ما حدث معي، ويشفق عليَّ جدًّا في حديثه، ولكن الله وحده يعلم ما في قلبه تجاهي. لكن ما يستحق فعلًا الضحك هو مكيدة زوجة محصل الضرائب الأنيقة: بيزبوكينا. سألتني: «هل كتبت فعلًا تقريرًا ضد البولنديين؟ كم هي فِعلة دنيئة! إنك بعد هذه الفعلة قد

(١) سيدة فرنسية كانت رمزًا من رموز الثورة الفرنسية. في عام ١٧٩٣، أُعدِمت بالمقصلة لاغتيالها جان بول مارا رئيس حزب اليعاقبة الذي كان مسؤولًا من خلال دوره كسياسي وصحفي عن أبرز مشاهد راديكالية الثورة الفرنسية، وبشكل أكثر تحديدًا لدوره الكبير في عمليات التطهير السياسي للجيرونديين الذين تعاطفت معهم كورديه.

صرت وغدًا ومخبرًا. كم دفعوا لك مقابل هذا؟». أما أنا فقد أجبتها قائلًا: «لستِ سوى حمقاء ولذلك لا يدفعون لكِ حتى الآن».

١ يناير ١٨٥٠: انقضى عام بهدوء واعتدال. دفنت السيدة المحسنة إليَّ: مارفا أندريفنا بلودوماسوفا. ماتت بعد أن عاينت خمسة تيجان لخمسة حُكَّام: يليزافيتا - بطرس - يكاترينا - بافل - ألكسندر، ورقصت مع اثنين منهما في اللقاءات العامة. انتظرت مضايقات من جانب بيزيوكينا حيث كان بوسعها جلب المشكلات إليَّ بعلاقاتها في عاصمة المقاطعة، لكن كل شيء انتهى على نحو رائع، فنحن الروس مهما سلكنا بنوع من الشراسة نصفح سريعًا، وربما ذلك لأننا ليس لدينا من يشفع لنا. أظن أني سوف أبدأ بناء المنزل في العام القادم، فأنا أشعر الآن بالضعف. أحببت لعبة التفضيل[1] وبدأت أدخن بسبب الملل، وحمَّلني ذلك نفقات إضافية. في البداية دخنت مازحًا عند العمدة، لكني صرت أدخن باستمرار في المنزل. عليَّ التوقف عن التدخين.

١٨٥٠: يجب أن أتوقف. لا يا أخي، لا تتوقف. هكذا تعودت على التدخين حتى لم يعد بإمكاني التوقف عنه. قررت ألَّا أصلح في نفسي هذا الضعف، وتكفيرًا عنه سأجلب يتيمًا بلا مأوى وأربيه في منزلي. لدى زوجتي ناتاليا نيقولايفنا أمل سيئ، فقد لمحت لي أنها تشعر بشيء، لكن سيتضح أن كل ذلك محض آمال خادعة كما هي الحال مع الأول من أبريل.

١ يناير ١٨٥٧: لا أعرف نفسي إطلاقًا. مرت سبعة أعوام ولم أكتب

---

(١) إحدى ألعاب الورق.

سطرًا واحدًا. حياتي غريبة، وقد صارت متخمة وحرة. أتصفح كل ما كتبته هنا منذ يوم سيامتي كاهنًا. ألاحظ بوضوح كم بدأت أتعامل بطريقة مختلفة مع كل شيء بمرور الأعوام. لم أعد أناضل أو أكدِّر أحدًا أو أقلقه. أنهكتني مصاعب الحياة ولم تعد لدي رغبة في السير عكس التيار.

٢٠ فبراير: اختار مجلس النبلاء لنا قائدًا جديدًا للشرطة؛ ألا وهو صديقي البولندي الذي كتبت تقريرًا ضده في أيام شبابي حين كنت متعنتًا؛ إنه السيد تشيميرنيتسكي. لقد تزوج من أرملة روسية ثرية وصار أحد مُلَّاك الأراضي، واليوم قد صار قائدًا للشرطة. بالتأكيد سيصير السيد تشيميرنيتسكي عدوًّا لي، وربما سيصير أكثرهم إزعاجًا.

٧ أبريل: وصل قائد الشرطة الجديد السيد تشيميرنيتسكي وزارني بنفسه. لم يذكر شيئًا عن الخلاف القديم و«أعوامًا مريعة!» وما إلى ذلك.

٢٠ مايو: في البداية كنت أقرأ عند قائد الشرطة المجلة الروسية «الجرس[١]» التي يصدرها السيد ألكسندر في الخارج. الحديث فيها مفعم بالحيوية ومكتوب بأسلوب جيد، لكنه شجاع إلى درجة الضراوة.

٢ يونيو: أقمت وليمة بالأمس في يوم شفيعي[٢]. نويت في البداية أن تكون وليمة متواضعة بحسب ظروفي، لكن تشيميرنيتسكي أرسل لي صباحًا سلة كاملة من النبيذ والحلوى والرم، وفي المساء جاء ومعه العمدة الجديد بوروخونتسيف، وهو فلاح طيب حقًّا. شرب كثيرًا، وفجأة دعاني لمصالحة تشيميرنيتسكي، وتصالحنا واعتذرت عما فعلته وتبادلنا القبلات

---

(١) أول مجلة روسية تصدر في الخارج (في لندن) على يد ألكسندر جيرتسن وتميزت بالطابع الثوري. ألكسندر جيرتسن هو مؤلف أول عمل في سلسلتنا هذه «من المذنب؟».

(٢) ذكرى القديس الذي يحمل البطل اسمه.

أكثر من مرة. لا أعرف لماذا كنت سأفعل ذلك لو لم أشرب! صباح اليوم أعربت عن أسفي الشديد لبوروخونتسيف الذي أجرى المصالحة، لكنه قال بطريقته البولندية الخاصة إنه لا داعي أبدًا للندم على تقبيل أحد السكارى، فذلك أفضل دائمًا من العراك بعد السُّكْر. هذا صحيح، لكن الأمر لا يزال مؤسفًا. ترأست الصلاة اليوم وضغطت بقوة على أنفي، وظللت أردد لنفسي: «لا تشرب الخمر أيها الكاهن».

٢٣ أغسطس: قرأت في مذكرات داشكوفا[١] عن بافل بيتروفيتش (بطرس الأكبر -المترجم) وجميعها إصدارات صدرت في الخارج. إنها مثيرة للفضول جدًّا. أوافق داشكوفا في الكثير من آرائها عدا رأيها عن بطرس، فأنا لي رأي آخر بخصوصه. لكن الشكر لتشيميرنيتسكي على أنه يُبدِّد بهذه الكتب النادرة مَللي الشديد.

٩ سبتمبر: تشاجرت مع تشيميرنيتسكي في زفاف بوروخونتسيف. هذا البولندي الوقح بدأ يسأل ساخرًا من سذاجة زكريا ما الذي يعنيه غناؤنا في حفلات الزفاف: «البطن يطلب الحياة[٢]». وبدأ الجدال، وسأل: أي بطن تقصدون؟ تدخلت في الجدال وقلت له إنه لن يفهم ذلك إلا إذا ربط أحدهم حبل المشنقة حول عنقه.

٢٠ ديسمبر: أنا في أقصى درجات الارتباك. أرسلت زوجة القارئ الكنسي بسذاجتها روبلًا لابنها بريديًّا في ظرف من النوع العادي، لكنهم اكتشفوا الأمر في البريد بعد أن فتحوا ظرف الأرملة، وأدانوها وفرضوا عليها

---

(١) يشير إلى مذكرات الأميرة يكاترينا فورونتسوفا داشكوفا.

(٢) عبارة باللغة القديمة تعني بالمعنى الحرفي: البطن يطلب منك، والمقصود نشدان المرء للحياة.

غرامة. أما ما يتعلق بأنهم يقرأون الخطابات في البريد، فلا خبر عن ذلك، ولكن كيف يلتقطون روبل الأرملة ولا يلتقطون جريدة «الجرس» التي آخذها من عند قائد الشرطة؟ هل الأمر مجرد مصادفة بسيطة أم لصوصية؟

٢٠ أكتوبر: وصلنا شماس جديد من عاصمة المقاطعة بدلًا من شماسنا المتواضع بروخور الذي توفي، ويُدعى أخيل ديسنيتسين. إنه أكبر حجمًا وأسمن من الجميع، ولديه تلك الملامح وذلك الجسد اللذان يستحيل معهما أن ينظر المرء إليه من دون أن يتعجب من مدى قوة النمو الطبيعية. لديه صوت طيب وطباع مرحة جدًّا، وبدا لي للوهلة الأولى محترمًا جدًّا. لكن أكثر ما يروقني في هذا الإنسان هو طيبته. أراني نسخة من شهادة المعهد الخاصة به مكتوب فيها: «السلوك جيد لكنه مفرط». سألته: «ماذا يعني ذلك؟». فأجابني: «هذا محض هراء. كل ما حدث أنه في هذياني في أثناء مرضي في مستشفى المعهد اللاهوتي جلبت الفودكا للاهوتيين المرضى». وهذا كثير على حد تعبيرهم.

٩ ديسمبر: حصلت على قالوسة[١] ووسام القديسة آنا. تُرى بطلبِ مَن تم ذلك؟ كل ذلك تم بطلب من المحسن إليّ السيد تشيمبرنيتسكي مكافأة لي على اجتهادي في الخدمة الكنسية.

٧ مارس ١٨٥٨: في يوم ذكرى خروج بني إسرائيل من أرض مصر سافر إلى بطرسبرج كل أصدقائي الطيبين هنا: العمدة وقائد الشرطة وحتى تشيمبرنيتسكي سافر معهم إلى مكان طيب. إلا أني شعرت بالأسف فعلًا لأنه فارقني. الملل يزداد حدة.

---

(١) غطاء رأس صلب، وتستخدم ضمن الملابس الدينية المسيحية الشرقية.

١ ديسمبر: بإشارة من القارئ الكنسي سيرجي لاحظت أن شماسنا الجديد أخيل جبان بعض الشيء. يبارك الكثيرين من الحجاج الآتين من القرية المجاورة مباركة كهنوتية[1] بدافع الكبرياء الزائفة، ويمسك بيده اليسرى كم الذراع اليمنى للغفارة الكهنوتية. أخبرته أنه من غير المسموح له إطلاقًا أن يفعل ذلك.

١٨ يوليو ١٨٥٩: لوحظ الشماس أخيل مجددًا وهو يبارك أحدهم. أخذت منه عصاه حتى أقلل شبهه بالكهنة، وفي كل الأحوال لا يحق له كشماس حمل مثل هذه العصا. تحمَّل كل ذلك بوداعة وقد هدَّأني ذلك كثيرًا.

١٥ أغسطس: أقيمت وليمة عند العمدة، وكادت تحدث فضيحة في أثناء هذه الوليمة مجددًا بشأن جدال حول العقل، وقد ذكَّرني بجدال قديم أضحكني في شبابي. تجادل كل من الشماس أخيل والطبيب عني، حيث رفض الطبيب طريقة تفكيري بينما رفع الشماس من قدرها. في أثناء انخراطهما في الجدال، وتحديدًا عند صيحة الطبيب، دخلت بصحبة الآخرين، ورأينا الطبيب جالسًا أعلى الدولاب، مدليًا قدميه في بأس، يدق بهما عليه، بينما وجدنا أخيل جالسًا في هدوء على أحد المقاعد في منتصف الغرفة، وقال: «لا تُنزلوه رجاء، فأنا الذي رفعته هكذا عاليًا لمعارضته لي». منعت ضحكتي بصعوبة وقلت له مازحًا إن القوة ليست دليلًا على شيء. أما هو فأجاب على قولي بالانحناء لي وتوجه إلى الطبيب قائلًا: «كيف هو الأمر الآن؟ أظن أنك ترى جيدًا أنه وزير العدل لدينا». الرائع هو أن هذا الشماس القوزاقي يبدو وكأنه يعتقد أني أحبه حبًّا شديدًا

---

(١) هذه المباركة ليست متاحة للشماس، بل للكاهن فقط.

من دون سبب واضح، وهو يحبني جدًّا من دون أن يدرك ذلك هو الآخر.

٢٥ أغسطس: يا لها من فرحة كبيرة! أسس كهنة ليتوانيا الكاثوليك جمعية لمناهضة السُّكْر حيث يعظون ضده ويتوقفون عن الشرب؛ الأمر الذي يجعل الشعب يهدأ وأصحاب الحانات الذين يمصون دم الناس يكادون ينفجرون. آه! كم أردت أن أعظ عن ذلك أيضًا!

٥ سبتمبر: بدأ الأمر ذاته في بعض الجمعيات الأرثوذكسية، وأخشى أني لن أستطيع منع نفسي من قول الكلمة قريبًا. أود لو أقول كلمات كيريل بيلوزيرسكي[١]: «الفلاحون يشربون وتهلك النفوس». لكني لا أستطيع أن أعظ بشيء من دون إشراف الرقابة؛ الأمر الذي يجعلني أريد أن أؤسس جمعية لمناهضة السُّكْر بالمكيدة. وفقًا لإغناطيوس دي لويولا[٢] عندما لا تؤدي الطرق المستقيمة إلى الهدف المنشود يجب الالتفاف حولها.

١ أكتوبر: وضعنا خطة الجمعية، لكن الموافقة لم تأتِ بعد، لكنهم يكتبون أن أحد أصحاب الحانات قد قدَّم شكوى للوزير ضد الوعاظ، لأنهم لا يسمحون للشعب بالشرب. آه أيها الوغد الدنيء! أيجرؤ على الشكوى من ذلك، ويقدمها أيضًا للوزير؟!

٢٠ أكتوبر: أخبار جنونية! تذكر الصحف أنه في يوليو من هذا العام قدَّم أصحاب الحانات شكوى لوزير الداخلية ضد الكهنة الأرثوذكس الذين يمنعون الشعب من الشُّرب، وقد نقل السيد الوزير هذه الشكوى إلى السكرتير العام للمجمع المقدس، وأجاب الأخير قائلًا: «يبارك

---

(١) مؤسس لدير باسمه في نوفوجورود.

(٢) فارس إسباني وعالم لاهوتي أسس الرهبنة اليسوعية وأصبح أول قائد أعلى لها.

المجمع المقدس الكهنة الغيورين الذين يعملون على ظهور بعض المناطق الحضرية والريفية العازمة على التوقف عن شرب الخمور». لكن أصحاب الحانات لم يهدأوا، وطلبوا مجددًا إلغاء قرار المجمع المقدس، لأن مثل هذا القرار سوف يؤدي إلى انتشار جمعيات مناهضة السُّكْر في كل مكان. كما يُزعَم أن وزير المالية قد أبلغ سكرتير المجمع المقدس بأنه لا يجب السماح بالامتناع الكامل عن الخمور بواسطة التهديدات المستمرة من جانب رجال الدين لعقول الشعب البسيط، وإطلاق الوعود المقدسة للامتناع عن الخمر، حيث إن ذلك لا يتعارض فقط مع مفهوم فوائد الشرب المعتدل للخمر، بل يتعارض أيضًا مع المراسيم التي سمحت الحكومة على أساسها بدفع ضرائب على الخمور[١]. لذلك يُقال إنه صدر أمر بالقضاء على الجمعيات المدنية والحضرية المناهضة للخمور، وإنهم لن يسمحوا بأي اجتماعات، سواء في المدن أو القرى، تهدف إلى ذلك. اشرب إذن أيها الشعب الفقير واسكر!

٥ نوفمبر: في عيد جميع القديسين ورئيس الملائكة ميخائيل أرسلوا لي جاسوسًا حتى لا أفكر في إنشاء جمعية مناهضة للخمر، وبوضع ذلك في الاعتبار لم أستطع حتى أن أعظ بمناهضة الخمر. ألا يكفيني في النهاية أن أكتب كل ذلك؟ أشعر بخزي شديد من تسجيل ذلك!

١ يناير ١٨٦٠: حتى عظة رأس السنة أفوِّتها من دون أن ألمِّح في عظتي أي تلميحات عن الأمر. كم كنت متحمسًا في كل شيء، وكم أتعامل الآن تجاه كل شيء بلا مبالاة! تقول زوجتي ناتاليا نيقولايفنا إني

(١) فلنضع في الاعتبار أن الدولة في ذلك الوقت في روسيا احتكرت تجارة الخمور.

كما أنا، لم أتغير، ولكن أين أنا الآن مني في الماضي! قد تعتقد ذلك الآن لأنها وصلت إلى عمر سارة[1]، لكن بإمكاني أن أرى الأمر بصورة أوضح. جسدي لا يزال عفيًّا وممتلئًا، ولكن ما فائدة ذلك والمرض يكتنف النفس؟ أرى شيئًا عجيبًا في روسيا ينضج ويُعد بصورة منهجية، فالشعب إما منغمس في ميوله الشريرة أو يجمع الكثيرون الضرائب بلا رحمة قائلين إنهم يفعلون ذلك بأمر القيصر. المدهش أن أحدًا لا يلاحظ إلام سيؤدي كل ذلك.

٢١ مارس: فاحت روائح الربيع وبدأت الجداول تتدفق في منتصف النهار. يُعِد الشماس أخيل سروجه بالفعل، وهو يستعد لبدء رحلاته على ظهر الجواد إلى سهول قرغيزيا. حسنًا أن ذلك يسليه، وأنا لا أعوقه عن ذلك بأي طريقة، لأن الملل هنا فعلًا قاتل، وهو فلاح يتسم بالحيوية لذا عليه أن ينشغل بشيء ما.

٢٣ أبريل: ظهر أخيل ومعه المهاميز التي طلب من بيزونسكي أن يعدها له خصوصًا لركوب الخيل. الأمر السيئ أنه لا يستطيع أن يقيد نفسه بالسلوك باعتدال في أي شيء، بل عليه أن يصل إلى أقصى الحدود في كل شيء. أردت أن أوقفه، فقطعت هذه المهاميز عن حذاءيه بضربة واحدة من قدمي، وطلبت منه أن يتوقف عن هذا السلوك المبتذل وعن ركوب الخيل في هذا العام. هو الآن يخضع للتأديب. ماذا كان بوسعي أن أفعل خلاف ذلك لأوقفه عند حده؟ ها هو الآن يرتدي السيوف!

أبلغني القارئ الكنسي سيرجي اليوم أن الشماس يمضي في الليالي

---

(١) سارة هي زوجة إبراهيم، وبحسب القصة التوراتية عاشت ١٢٧ عامًا.

للصيد معلقًا أسلحته على وسطه، وأنه اصطاد أرنبين بالفعل. قلت لسيرجي إني لا أصدقه وإنه يفتري عليه!

٩ سبتمبر: الإشاعات كثيرة عن الشماس. بالأمس ضرب القارئ سيرجي بحزامه، ولا أعرف السبب؛ قد يكون انتقامًا منه لأنه أبلغني بأمر رحلات صيده، لكنه يقول إنه عاقبه بسبب تجديفه. أردت ألَّا يخضع لمحاكمة أمام خدم الأسقف الذين يطلق عليهم الإمبراطور «ماشية أنيقة» و«تترًا جشعين»، ومن ثم استدعيت المعتدي والمعتدَى عليه وأجبرتهما على الانحناء أمام بعضهما والتصالح، ولاحظت في أثناء ذلك أن الشماس أخيل قد فعل ذلك بكل إخلاص فعلًا. بالإضافة إلى الحماسة الكامنة في قلب هذا الفلاح يُظهر أحيانًا قدرًا لا بأس به من وداعة الحمام[(١)].

١٤ سبتمبر: أتاني القارئ سيرجي بحجة السؤال عن الملفوف، وأخبرني -وكأنها مصادفة- أن الشماس أخيل سيذهب الليلة إلى عرض الساحر الذي سيبدو في مروره بالسقائف الطوبية كالمارد العملاق. يتسم سيرجي بشخصية مقززة وانتقامية.

١٥ سبتمبر: ذهبت لألقي نظرة سريعة على العرض. كدت ألَّا أرى العرض جيدًا لولا أني استطعت أن أرى ما يحدث عبر شق ظهر بين الياقات. كان أخيل هناك، لكنه لم يكتفِ بدور المتفرج، بل شارك كأحد الممثلين. ارتدى معطفًا كبيرًا من جلد الغنم ذا ياقة مرفوعة ومربوط بها وشاح بحيث توارى شعره وكذلك جزء كبير من وجهه يصل حتى عينيه، إلا أني عرفته على الفور، وبعد ذلك سيكون من الحكمة ألَّا يتعرف عليه

---

(١) التشبيه مستمد من: «كُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسَطَاءَ كَالْحَمَامِ». (مت ١٠: ١٦)

أحد لأنه عندما خرج المارد العملاق الذي جلبه الممثل الكوميدي ليؤدي خدعة بجسد عارٍ، وأمسك بكلتا يديه خمسة بودات[1]، وتردد قليلاً قبل أن يحمل هذا الوزن أمام المقاعد التي امتلأت بالحاضرين، نسي أخيل نفسه وصاح بصوته المعهود: «وما المدهش في كل ذلك؟». وبعد ذلك عندما تحدى المارد أن يخرج إليه أي شخص يود أن يتحداه، تقدم إليه أخيل وربط الوشاح حول رأسه وأمسك به. توقعت أن تتحطم عظامهما؛ ينحني هذا الآن ثم يتغلب الآخر، وهكذا استمر الأمر لعدة دقائق، ولكن أخيرًا حطَّم أخيل هذا الألماني الفخور، وبعد أن لوى ساقيه مثلما يلوون ساقي الدجاجة حينما يطهونها على طريقة بولارد في منازل النبلاء، حمل العشرة بودات وظل يسير بها أمام الجمهور الذي صاح بصوت عالٍ: «برافو». أما أغرب ما فعله أخيل فهو هذه الخاتمة؛ توجه إلى الجمهور قائلًا: «أيها السادة، إذا ادعى أحدكم أني شخص آخر رجاء ابصقوا عليه، لأني ببساطة لست سوى التاجر إيفان موروزوف من مدينة سفسك». وكأن أحدًا طلب منه هذا التفسير! إلا أني استمتعت بكل هذا من فرط الملل. آه! كيف تمر الحياة منا؟! كيف مرت منا فعلًا؟! في طريق عودتي من السقائف التي أدوا فيها العرض اكتنفني نوع من التوتر وأذرفت دمعة لا أعرف سببًا لها، لكن شعورًا واحدًا كان جليًا لي؛ ألا وهو أنه من المستحيل ألَّا أبكي عندما أفكر في أحلام شبابي العريضة وأقارنها بحياتي الممتدة أمامي الآن! فكرت قبل ذلك، مجروحًا، في أن بوسعي أن أقضي حياتي بكرامة من دون الانشغال بالمظهر، بل بتحسين الذات، لكني لست فيلسوفًا، بل مواطن عادي، ولا

---

(١) البود: وحدة وزن روسية تُقدَّر بـ١٦,٤ كيلو جرام.

أشعر بالكفاية، فأنا فقير، كما أني أعاني من دون نشاط فعال، ولذلك لا أدين أبدًا هذه الميول الحيوية لعزيزي أخيل. فليسامحه الله ويباركه على بساطة قلبه الفاتن هذا الذي يعمل كل شيء فيه على بعث الراحة والسرور في صاحبه. قلت للقارئ سيرجي إنه كذب بشأن أخيل، وحرَّمت عليه الافتراء عليه. أشعر أني وقعت في حب هذا الرجل الطيب بكل ضعفي الأبوي.

١٤ مايو ١٨٦١: أي أفعال مدهشة يمكن أن يقع فيها الإنسان بسبب طيشه! لدينا مجموعة كبيرة من المهرجين، حتى في غياب الشماس أخيل، ولا أحد منهم قادر على منع نفسه من إضافة بصمته الخاصة في هذا المجال. حاول العمدة أن يبيع ستة جياد لحميه ممثل مجلس النبلاء: جليتش، لكن الأخير لم يوافق على شرائها، وتجادلا حول أن العمدة قد استدان أحد هذه الجياد، وتراهنا على ذلك. وافق العمدة على دفع روبلين للتاجر الجوال دانيلكا الذي يدعونه «المفتش»، إذا أكد أن هذا الجواد ملك السيد جليتش. سيكون من الرائع إرسال أحد ليسرق العمدة ولو من أجل المرح وحسب! لكن أفضل ما حدث هو الاستعداد الذي أبداه أخيل لتقديم يد العون لدانيلكا في هذا الأمر. أبلغني القارئ سيرجي بذلك فاستدعيت أخيل مبكرًا وجعلته يقضي اليوم كله تحت أنظار ناتاليا نيقولايفنا، وقضى معها الوقت فعلًا يساعدها في تعبئة الزبد في إبريق زجاجي، وجعلته يقضي ليلته على الأرض عندي، وأردت أن أضمن ألَّا يغادر ليلًا، فأغلقت على حذائه وملابسه. صباح اليوم استيقظنا جميعًا إثر بعض الضجيج. اندفعت عربة سريعًا صوب رواق العمدة وفيها المفتش دانيلكا يصيح عاليًا بين فلاحَيْن. خرجنا بدافع الفضول لنسمع ما الذي يجعله يصيح

هكذا، واكتشفنا أنهم سقوا دانيلكا من خمر القراص اللاذع. يبدو أن السيد جليتش أمسكه ووضع في فمه هذا القراص اللاذع، وأعاد خدمه دانيلكا الشاب إلى من أرسله. سألت الشماس هل كان ليشعر بالسعادة لو تقاسم المصير ذاته مع دانيلكا وعاد مشتعلًا بفعل القراص مثله؟ لكنه أجابني بأنه لم يكن ليتركهم يفعلون به ذلك، حتى لو هاجمه عشرة أشخاص.

- حسنًا، ولكن ماذا لو كانوا اثني عشر؟

- لو هاجمني اثنا عشر فلن يكون بوسعي فعل شيء. سيتغلبون عليَّ.

وحكى لي أنه ذات مرة -وكان لا يزال يدرس في المعهد- سار مع أخيه عائدَين إلى المنزل، وفجأة رأيا في وقت واحد، في أثناء مرور مجموعة من الجنود، شجيرة ويبرنوم[1] وعلى أغصانها عدد قليل من الثمار، واندفعوا ثلاثتهم للحصول على هذه الثمار: أخيل وأخوه وأحد الجنود في الأربعين تقريبًا، وقال لي أخيل: «وحدث شجار كبير بيننا وقُتِل أخي فينوجيشا». كم يبدو الأمر ساذجًا وبسيطًا! القصة والحدث! الحياة بالنسبة له ليست أكثر من كوبيك!

٢٩ سبتمبر ١٨٦١: وصل إلينا من عاصمة المقاطعة برنابا ابن خابزة القربان المقدس مارفا نيقولايفا بريبوتنسكي. تخرج في المعهد الإكليريكي بتفوق لكنه رَفض أن يُسيَّم كاهنًا، وجاء إلى هنا ليصير معلمًا للرياضيات في مدرسة المقاطعة. عندما سألته لماذا رفض الالتحاق بالإكليروس أجابني بإيجاز أنه لا يريد أن يصير مخادعًا. لم أحتمل هذه الإجابة الغبية وقلت له إنه أحمق. مهما كانت تفاهة هذا الإنسان إلا أني أحترم كل آرائه، لكن

---

(١) نوع من الشجيرات الطبية.

إجابته بدت لي كلسعة دبور سام. تُرى أين وصل الآن تقريري عن وضع الإكليروس والوسائل التي يمكن بها رفع مكانتهم وكرامتهم حتى لا يأتي أحمق ويتهكم عليهم ويبتهج بذلك عدو الوطن؟ من الواضح أن زوجتي محقة في قولها: «ربما كتبته جيدًا لكنك وقّعته بصورة سيئة». منذ فترة قرأت إشارات كثيرة عن كتاب بعنوان: «عن الإكليروس الريفي»، ورغبت في قراءته وطلبته فعلًا، ولكن بائع الكتب الذي من موسكو أخبرني أنه كتاب ممنوع وغير معروض للبيع. يا لها من فكرة عبقرية! كتاب عن الإكليروس ممنوع على الإكليروس قراءته، بينما كتب من نوعية أخرى مثل كتب العدميين[1] متاحة للقراءة والاستشهاد بها. ما المغزى من هذا الانتهاك؟!

٢٢ نوفمبر: ذهبت إلى عاصمة المقاطعة في يوم الأربعاء، وشاركت في صلاة قداسين، وفي كليهما كنت قسًّا مساعدًا للأب ترواديا. قبل أن يلتحق ترواديا هذا بالرهبنة كانوا يدعونه صاحب الوجه الكئيب، ولكن من ناحية أخرى، وبصفته رقيبًا وحارسًا للأرثوذكسية وحاميًا للأخلاق، توفر عنده هذا الكتاب المثير للفضول. كم وجدت فيه من حقائق! كم فيه من حقائق مريرة لكنها ضرورية جدًّا! أتصور أن الأب ترواديا لا يقرأ كل المذكور فيه بسرور واستحسان.

١٤ ديسمبر: قبل صلاة القداس المبكر دخل إليَّ في الهيكل ابن

---

(١) العدمية هي فلسفة، أو مجموعة من الآراء داخل الفلسفة، ترفض الجوانب العامة/ الأساسية للحياة وللوجود البشري، مثل الحقيقة الموضوعية أو المعرفة أو الأخلاق أو القيم أو المعنى. صارت العدمية في هذا الوقت صيحة رائجة وسط بعض الدوائر في روسيا.

الخابزة: المعلم برنابا بريبوتنسكي، وطلب أن أذكر أحد الموتى[١]، وأعطاني ورقة، ولكن نظرًا لأني لم أُولِها اهتمامًا كبيرًا، لم أنظر فيها جيدًا، وأدهشني فقط مثل هذا السلوك التقي من جانبه. تنامت دهشتي عندما حان وقت أوشية (صلاة) الموتى، ورأيت في الورقة اسم بيزيوكينا المتأنقة وكل المنفيين البولنديين عندنا. لم يظل الأمر لغزًا لمدة طويلة لأني فهمت المغزى فور أن قرأ أخيل في الورقة أسماء: بافل - ألكسندر - كوندراتي[٢]... يا لها من لعبة رائعة! اتضح إذن أني أصلي من أجل أرواح الديسمبريين، حيث إن اليوم يوافق تاريخ انتفاضتهم. سأتحلى بمزيد من الذكاء فيما بعد، فحتى إذا كان بوسعي أن أصلي من أجلهم، بل ويجب عليَّ أن أصلي من أجل الجميع، فإن الحمقى لن يوافقوني على ذلك. لم يلحظ أحد أو يفهم شيئًا في أثناء ذكر هذه الأسماء.

٢٧ ديسمبر: أحيانًا أكتشف في نفسي رعونة كبيرة لا يمكنني التسامح معها إذا نشدت مصلحتي. طَلَبَ طفل العجوز المسكين قسطنطين بيزونسكي من الشماس أن يُعلِّمه بعض الأبيات الشعرية اللامعة ليُهنِّئ بها العمدة، وتولى أخيل هذه المهمة عن طيب خاطر وأخذ يكرر له هذه الأبيات:

البوم ولد المسيح

وغضب هيرودس الملك

---

(١) في القداس الإلهي هناك صلاة يذكر فيها الكاهن أسماء الراحلين الذين يطلب أهلهم ذكر أسمائهم في ذكراهم أمام المذبح المقدس.

(٢) جميعها أسماء بعض من شاركوا في حركة الديسمبريين، وهي حركة ضباط ليبراليين حاولوا الانقلاب على القيصر لكن فشلت حركتهم وقُمعت.

أنا أهنئك

وأتمنى لك الأمر ذاته

لا، لا بد من التحلي بقدر كبير من الصرامة.

١١ يناير ١٨٦٣: شرَّح الطبيب أحد المتوفين بحكم وظيفته، وجلب المعلم برنابا بريبوتنسكي بضعة طلبة من المدرسة ليحضروا عملية التشريح، ثم قال لهم في الفصل:

- أرأيتم الجسد؟

- رأيناه.

- أرأيتم العظام؟

- رأيناها.



- أرأيتم كل شيء؟

- رأينا كل شيء.

- أرأيتم الروح؟

- لا، لم نرَ روحًا.

- كيف توجد الروح إذن؟

وقال لهم إنه لا وجود إذن للروح. لفتُّ انتباه الناظر إلى ذلك على انفراد وأخبرته أني لن أغفل ذكر الأمر أمام المدير.

ها قد قد ظهرَت الحاجة إليك أيها الكاهن. ناضلت المنشقين ولم تنجح، وناضلت البولنديين ولم تنجح، وعليك الآن أن تناضل الحماقة التي تنمو تحتك مباشرة، فهل ستنجح في ذلك؟

٢ فبراير: مريض بالذبحة اللوزية، ولا أفارق المنزل، والأب زكريا

يتولى التدريس بدلًا مني في المدرسة. وصل اليوم مضطربًا ومرتبكًا، وذرف الدموع، رافضًا التدريس بدلًا مني، وهذا هو السبب: طرح الأب زكريا في الدرس السابق سؤالًا على تلاميذ الصف الثالث عن العناية الإلهية، وفسَّر الموضوع، وكان عليه اليوم أن يختار الإجابة الصحيحة، ولكن أحد الطلبة، وهو أليوشا الذكي ابن البقال ليالين، أجابه فجأة قائلًا: «أنا أعترف بالله الخالق فقط، لكني لا أعترف بالعناية الإلهية». سأله الأب زكريا إثر سماعه لهذه الإجابة الغريبة عن القاعدة التي أسس عليها هذا اللاهوتي الشاب استنتاجه هذا، وأجابه الصبي أن إجابته تتأسس على وجود الكثير من ملامح الظلم والقسوة في الطبيعة، ودلَّل على الأول بالموت كحكم صدر على جميع البشر ظلمًا بسبب خطية إنسان واحد. وجد الأب زكريا نفسه ملزمًا بعدم تجاهل هذه الإجابة الوقحة، وبدأ يوضِّح للطلبة أننا بعقولنا غير الكاملة نطلق أحكامًا سيئة جدًّا، وأيَّد كلماته بالإشارة إلى أننا لو كنا عشنا في خطيتنا إلى الأبد لصارت الخطية أبدية، وصار الشر واللعنة أبديين، كما استشهد أيضًا بمثال ليوضِّح الصورة بدرجة أكبر عن نمر متعطش للدماء وسمكة قرش ضارية أبديين، وأقنع الجميع فعلًا. لكن في الساعة الثانية، عندما كان الأب زكريا يدرِّس لمرحلة دراسية أدنى، دخل الصبي ذاته إلى الفصل ودحض كلمات الأب زكريا هناك أمام الصغار قائلًا: «وماذا كان بإمكان نمر متعطش للدماء وسمكة قرش ضارية أن يفعلا بنا لو كنا خالدين؟». بدافع طيبته وبسبب افتقاره إلى سرعة البديهة لم يقل سوى: «لقد تحدث عن هذا الموضوع أناس أذكى مني ومنك». لكن الأمر أثَّر على العجوز حتى إنه ظل يبكي طوال ساعة عندي، وأنا لسوء الحظ مريض ولا أستطيع الخروج لأدين هذا السلوك الذي أشك في أن المعلم برنابا يقف خلفه.

١٣ يناير: يا لقدرتي على التخمين! تعرض الصبي أليوشا ليالين للضرب من قِبل أبيه بأغصان الكروم لتفكيره الحر، وقال باكيًا إن المعلم بريبوتنسكي هو من لقنه السؤال والإجابة. أنا أغلي غضبًا! لكن طبيبنا لا يسمح لي بالخروج وإلا سأصاب بحسب قوله بذبحة لوزية متكررة ومن بعدها أموت، ولا أرغب في ذلك بعد. كتبت ملاحظة مؤقتة ووصلتني الإجابة عنها ومفادها أن بريبوتنسكي قد تم إنذاره تلبية لطلبي. إنذار! ينذرونه وحسب بعد ما فعله من تدنيس للمقول وبعد أن أعثر هؤلاء الصغار وأساء لخادم المذبح الأصدق والأودع، بل ويمكن أن نقول الأمثل! لكن عندما يستبدل شماس جائع بكتاب المزامير الكتاب الآخر القديم يحرمون عائلته لعام كامل من عائلها! آه أيها الشرير!

١٨ يناير: تشجع بريبوتنسكي طبعًا عندما اقتصر الأمر على إنذار وحسب، وظل يهاجم الأب زكريا حتى الموت. هذا الوغد الغبي والقاسي في الآن ذاته لقَّن أليوشا ليالين الذي ضربه أبوه بأغصان الكروم أن يسأل الأب زكريا: «هل صحيح أن السكير بهيمة؟». أجابه الأب زكريا من دون أن يرتاب في شيء: «نعم هو بهيمة». «أين تكون روحه إذن بينما قلتَ سابقًا إن البهائم بلا أرواح؟». ارتبك الأب زكريا واكتفى بالقول: «انتظر وسأخبر والدك عن ذلك، وسيضربك مجددًا». لقد صارت المسألة خطيرة، وبحق السيد الرب ماذا علينا أن نفعل مع هذا العدو الجديد ابن الخابزة ومعلم الدناءات برنابا؟

١٩ يناير: ضرب البقال العجوز ابنه مجددًا بأغصان الكروم، وبعد ذلك أبعده عن المدرسة وأخذه إلى البقالة بعد أن قال له: «هذه ليست مدرسة، بل مكان للفجور». أكره هذه الذبحة اللوزية غير المحتملة التي

تضغط الآن على حلقي. يُشكِّل نجاح برنابا هذا ضربة حقيقية، فغنمة جرباء واحدة يمكن أن تفعل الكثير إذا سمحوا لها بالدخول إلى القطيع. يُبعَد الأطفال عن المدرسة بسبب بريبوتنسكي التنويري[1]، بينما الأب زكريا بكل نقاء روحه لا يستطيع الإجابة عن الأسئلة. لقد تخطى الحدود. أتشعر الآن أيها المواطن العاقل أني لست متطفلًا ولا مخادعًا؟ أتشعر بذلك؟ إذا شعرت بذلك فلا بد أنك تشعر أني مريض وعجوز وقد تخدرت قواي من كثرة سماعي لقولهم لي: «صمتًا!». تُرى ما الذي يمكن أن ينمو في داخلي عوضًا عن ذلك؟ فكِّر فيهم يا أخي، فكِّر يا قريبي المخلص لي لأن العدو الخبيث يواجهنا فعلًا وهو من لحمنا. الآن هو لا يزال أحمق وأبله، يتمثل في شكل برنابا، لكن الكاهن العجوز يقول لنفسه من واقع خبرته: كن حذرًا وابقَ يقظًا وراقِب إلى ماذا سيتحول. أين الآن تشيميرنيتسكي عمدتنا؟ ما الخطة التي يدبرونها؟ إلى أي مدى قد صاروا أكثر ذكاء منذ أن تحدثوا بصوت عالٍ في الكنيسة وغنوا في الشرفة «أعوامًا مريعة!» بدلًا من «أعوامًا مديدة!»؟ لنذهب الآن ونرى، ولكن احذر حتى لا يمسكوا بك.

٢١ يناير: تُحدِّث نفسك خفية ولا تشعر بالبهجة. لم يجف الحبر تمامًا بعد عن كتابة جملة: «ولكن احذر حتى لا يمسكوا بك». حتى وجدتهم قد أمسكوا بك فعلًا. جاءني اليوم العمدة بوروخونتسيف وجلب لي نسخة من ورقة رسمية من بطرسبرج مكتوب فيها أنه نمى إلى علم السلطات أن جريدة «الجرس» تُوزَّع في منطقتنا وغيرها من الإصدارات السرية المحظورة، ومن ثم يجب مراقبة هذا الأمر بعناية، وانتهت الورقة بتوقيع: تشيميرنيتسكي. ماذا؟!

---

(١) فلنلاحظ هنا أن لفظة التنويري في هذا الوقت وفي ذلك السياق لا تشير من وجهة نظر قائلها إلى شيء جيد، بل على النقيض، حيث ترتبط بالإلحاد.

٢٧ يناير: أشعر باضطراب فظيع. ليس من حق الوغد برنابا أن يفعل ذلك. لقد قال في أثناء الحصة إنه لا يمكن ليونان النبي أن يعيش في جوف الحوت لأن مريء الحوت ضيق جدًّا. لا أستطيع تحمل ذلك، لكن لن أشكوه إلى المدير وإلا اقتصر الأمر على مجرد إنذار.

٢ فبراير: بينما يَختم الخطابات وجد مدير مكتب البريد تيموفي إيفانوفيتش خطابًا يتضمن وصفًا لقضية توجانوف نسخه العمدة لتشيميرنينسكي وضحك الجميع بشدة. ما الداعي إلى فعل ذلك؟ ما الجدوى من هذا الختم الإضافي والثرثرة عن الأمر التي تقضي على أي مغزى للأمر برمته ومراسلة أحد ضباط الشرطة لأحد الثوريين؟ لمَّح العمدة إلى أنه يكتب لجريدة «الجرس». ألم يكن الأمر ليصير أهم من ذلك لو لم يكن هذا ولا ذاك موجودَين؟

١٤ فبراير: لا أزال مريضًا، ولا أفارق المنزل. قرأت قصة في الصحيفة بطلها كاهن، يعرض فيها المؤلف كيف وصل الكاهن إلى القرية، وكيف يحاول هناك أن يكون طيبًا وشريفًا لكنه يواجه هناك عواقب مريعة. بالرغم من أن كل ذلك موصوف بصورة طبيعية، ومن دون معرفة جذرية بوضعنا، فإني مسرور جدًّا من ورود فكرة كهذه على ذهن المؤلف. حلت أخيرًا الساعة التي ينظر فيها إلينا العلمانيون، ونحن بدورنا بدأنا نفهم تصوراتهم ومساعيهم. كم هو مضحك شماسنا أخيل! عندما رآني أعاني من المرض، ورغبة منه في مواساتي، أتاني بكلب بيزونسكي الصغير، وهو من نوع بودل هجين، يقول له أخيل: «أيها الكلب، اضحك». فيكشف عن أسنانه ويبدو كما لو أنه يضحك فعلًا. يجثم مجددًا أمام الشماس الضخم ويكرر الأخير: «اضحك أيها الكلب». فيضحك مجددًا. كم تقترب طفولية أخيل

هذا من الطبيعة! وكم يشغله كل شيء فيها!

١٧ فبراير: أفقدني بريبوتنسكي آخر ما لدي من صبر. لا يمكنني حتى أن أعتبره رجلًا بعد ما فعله، ولن أكتب عن أفعاله للمدير وحسب، بل لممثل مجلس النبلاء توجانوف. لا أعرف ما الذي سيفعله هذا الفولتيري العجوز، لكنه على أي حال مالك ولبس أجيرًا وسيشفق على منطقته. إن ما يفعله برنابا هو جنون حقًّا. بسبب مرض المعلم جونورسكي يُدرِّس برنابا التاريخ مؤقتًا، وقد بدأ حديثه عن لا أخلاقية الحرب ودلَّل على حديثه مباشرة بما يحدث في بولندا. لكنه لم يكتفِ بذلك، بل أدان الوطنية، ساخرًا من الحضارة ونشأة القومية، كما سخر أيضًا من الاحتشام أمام الأطفال، وكشف عن لا أخلاقية ذلك التوجه في الكثير من جوانبه، وساق لهم مثالًا عن كيف تخفي الشعوب المتحضرة الفعل الجنسي ولا تخفي القتل، بل ويحملون الأسلحة على أكتافهم. ماذا يريد هذا الأحمق؟ ما يقوله في حقيقة الأمر غبي جدًّا إلى درجة أن مجرد التفكير فيه أمر مخجل، لكني غاضب تمامًا. إنها مجرد تفاهات، لكني الوحيد الذي يلاحظها لأنهم وضعوني في مكان تافه.

٢٨ فبراير: آه! هذا الفولتيري لا يمزح. وصل المدير. لم أتحمل المكوث في المنزل، وبالرغم من أن الطبيب حذرني من خطورة الأمر فقد خرجت وحدَّثته عن الفظائع التي يرتكبها بريبوتنسكي، لكن المدير ضحك على كل ما أخبرته به. ما الذي يضحكهم هكذا! حوَّل كل ما قلته إلى مزحة وقال إن موسكو لن تحترق بسبب ذلك، وأضاف وقد لاحت عليه الجدية: «وإلى أين آخذ الآخرين إذن؟ الجميع مثله الآن». خرجت في وضع مربك بدوت فيه كفضولي أخرق. من الواضح أن هكذا يجب أن يكون الأمر.

١ مارس: لقد صرت فملًا مغفلًا عجوزًا يسخر الجميع منه. جاءني اليوم الطبيب وبصحبته العمدة، وقلت لهما إن حالتي الصحية ساءت كثيرًا بسبب خروجي بالأمس، لكنهما ضحكا وقالا إن الطبيب أبقاني هنا في الحجر الصحي مازحًا لأنه تراهن مع أحدهم على أن يبقيني شهرًا في المنزل. لهذا السبب أخافني بخطر غير حقيقي. اتفو!

١٤ مايو: لقد ازدادت وقاحة بريبوتنسكي إلى درجة أنه لم يتغير إلا قليلًا في وجودي. بعد أن حصل من واحد من المنشقين على كتاب صغير شائع يصوِّر المسيح الدجال في صورة أسقف بردائه الديني، أوضح أن المسيح كان اشتراكيًّا، وأننا نحن الكهنة والأساقفة نعارضه، ومن ثم فنحن نُمثِّل المسيح الدجال.

٢٠ يوليو: تعافيت تمامًا وتفقدت الإيبارشية. وجدت الطبيعة والناس في حالة يانعة وجيدة، والسلام والرضا يسودان. رمَّم الفلاحون في بلاجودوخوف الكنيسة على نفقتهم ودهنوها، ولكن حدث مجددًا أنه وسط هذا الهدوء يظهر شيء يعبر عن روح عابثة. في بهو الكنيسة رسموا على الحائط عجوزًا يستريح على فراشه، وكتبوا تحته: «فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ[1]». وجَّهت ملاحظة للأب ياكوف بشأن ذلك، وأمرته بأن يزيلوا هذه الصورة.

١١ مايو ١٨٦٣: أول أمس مر بنا الأسقف وترأس القداس في كاتدرائيتنا. سأل الأب ترواديا: هل محوا تلك الصورة في كنيسة بلاجودوخوف؟ وعرفت أن الصورة لا تزال موجودة؛ الأمر الذي

(١) تكوين ٢ : ٢ والمقصود في القصة التوراتية هو الله بعدما خلق الخليقة كلها في ستة أيام.

أزعجني، ولكن الأب ترواديا هدَّأني قائلًا إن الأمر تافه، وأضاف مازحًا أنه يعبر عن الروح الشعبية، وأضاف إلى ذلك مزحة عن حكاية النفس التي تلبست حذاءً، وأنهى حديثه بالعبث ذاته. آه! كم يشعرون جميعًا بالمرح!

٢٠ يونيو: سافرت إلى بلاجودوخوف وأمرت بإزالة اللوحة في حضوري. لا أجد أي ضرورة للتساهل مع الروح الشعبية الغبية. عرفت الرسام الذي رسمها، وتبين أنه القندلفت بافل، وأنه يتدرب على الرسم. انسجامًا مع الروح المرحة المنتشرة هذه الأيام أمرت هذا الفنان أن يجلس مع حوذيٍّ على الصندوق وبعد أن قطعنا بالعربة أربعين فرسخًا، تركته يعود المسافة سيرًا حتى يُتاح له الوقت الكافي للتأمل في خياله الفني.

١٢ أغسطس: الشماس أخيل يخرخر منذ فترة طويلة. عرفت منذ فترة قريبة أنه التحق بالجوقة البولندية وينشد أغاني بولندية عند كوليارسكي بصوت باس. أنذرته بأني سأبلغ الأسقف عنه لا محالة، لكني سامحته لأني أرى أنه يفعل ذلك بسبب رعونته المعتادة لا أكثر.

١٢ أكتوبر: عيَّنوا محافظًا جديدًا في فترة الانتقالات. عرج على الكاتدرائية والمدرسة، وفي كلتيهما طلب مباركتي. إنه روسي سلوكًا واسمًا. لا يزال شابًّا يافعًا، وقد درس في المعهد القانوني، وهذه هي المرة الأولى التي يفارق فيها بطرسبرج؛ وهو الأمر الواضح في سلوكه، حيث يثير كل شيء انتباهه هنا. سأل بفضول شديد عن طبيعة الخلاف بين الإكليروس وسلطة مجلس النبلاء، ولكن للأسف لم أستطع إشباع فضوله لأن كلًّا من بلودوماسوف وتوجانوف رجل محترم، وليس هناك أي تصادم بيننا وبينهما. قال إنه لا ينوي إبداء أي اهتمام باضطراب البولنديين، وعبَّر عن موقفه

كالآتي: «ببساطة علينا تجاهلهم كما لو أنهم غير موجودين»، وأضاف أيضًا: «يجب أن ينسحب المرء تمامًا من الأمر، فالجماهير سوف تبتلعهم من تلقاء نفسها ولن يبقى لهم أثر». في ذلك الصدد أضاف أيضًا من دون اللجوء إلى أي كلام معسول أنه لا يجب إلقاء اللوم على أحد. قال تحديدًا: «كل هذا لا يؤدي إلى شيء سوى إثارة الشقاق، وصرف انتباه أعضاء الحكومة عن أهدافهم الرئيسة». في هذا الصدد تحدث أيضًا عن التعصب القومي وعدم التسامح، ربما بهدف تطوير فكرته على نطاق أعلى كالنطاق السياسي.

١٤ نوفمبر: يقولون إن واحدًا من مُلَّاك الأراضي ذهب إلى المحافظ ليشكو إليه الفلاحين لعدم التزامهم بواجباتهم، وبعد أن أوقف المحافظ تدفق شكاواه قال له: «أرجو منك أن تتذكر في أثناء حديثك عن الشعب أني ديمقراطي».

٢٠ يناير ١٨٦٣: أكتب قصة رائعة وعظية عن البديل. يحكون هذه القصة الغريبة عن اللقاء الأول للمحافظ الجديد بممثل مجلس نبلائنا توجانوف. قدَّم هذا الشاب المطعَّم بالسياسة البطرسبرجية نفسه إلى الفولتيري العجوز باعتباره ديمقراطيًا، ومن ثم أشاد به توجانوف في إحدى الحفلات الراقصة بأحد اجتماعات النبلاء أمام الجميع، وأضاف أن هذا التوجه هو الأروع، وخاصة في الوقت الحاضر، حيث إن هناك مجاعة شديدة في مقاطعاتنا الثلاث، وحبًا في الشعب تم فتح المجال أمام عمل خيري واسع النطاق. سُرَّ المحافظ للغاية بهذه المجاعة، لكن ما أغضبه هو أنه لم يعرف عنها شيئًا حتى الآن، وبعد أن اتصل بممثل مجلس النبلاء وبَّخه بشدة على عدم إبلاغه بذلك من قبل، وعلاوة على ذلك أمر بإبلاغ بطرسبرج بذلك فورًا. لكن ممثل المجلس برَّر ذنبه أمامه قائلًا إن المجاعة

المقصودة في هذه المقاطعات لم تصِر خطيرة بعد، فبالرغم من اختفاء الخبز فإن «حبوب الدخن قد توفرت هناك». هنا بدأت القصة: «ما هي حبوب الدخن؟». هكذا تساءل المحافظ. أجابه النائب المثقف: «حبوب الدخن هي بديل للخبز». بدلًا من أن يقول له ببساطة إنها الحبوب التي يُعدُّون منها العصيدة، وهي الإجابة التي كان من الممكن أن ترضي خبيرنا القانوني لأنه لا بد أن يكون أستاذًا في طهي العصيدة، لكنه بدلًا من ذلك قال له: «بديل». ما إن سمع السياسي اللامع هذه الكلمة حتى قال: «عار عليك. عار عليك أن تخدعني بينما كل ما يتطلبه الأمر هو الدخول إلى أي متجر لبيع الفواكه كي يعرف المرء ما هي استخدامات حبوب الدخن. إنها تُستخدم في نقل العنب». صمت توجانوف، وبعد يوم أرسل إلى المحافظ قائمة بأسماء حبوب الخبز في روسيا من لجنة التغذية. ارتبك المحافظ بعد أن رأى اسم «حبوب الدخن»، واتصل بممثل مجلس النبلاء وقال له: «عذرًا على عدم تصديقي لك. أنت محق، حبوب الدخن هي نوع من أنواع الخبز. أعتذر لك بكل صدق يا عزيزي الديمقراطي». وبالرغم من أن الألماني اعتقد سابقًا أن نيقولاي أوجودنيك يتاجر في الشوفان، فإنه لم يصل إلى حد أن اعتقده حارسًا لأحد الكروم.

٦ ديسمبر: تصلنا أخبار باستمرار عن صراعات بين ممثل مجلس النبلاء توجانوف والمحافظ الذي يبحث عن شيء ما يحرج به ممثل مجلس النبلاء بعد موضوع «حبوب الدخن»، وأخيرًا تواجها. وقف المحافظ في صف الفلاحين تمامًا، بينما ناضل هذا الفولتيري من أجل حقوقه واستقلاليته. تشوه المعنى لدى أحدهما إلى درجة أنه يتوجب عليه

أن ينسى ما تعلمه سابقًا، بينما اتسم الآخر بغطرسة عالية كجبل أرارات[1] وهو لا يَكُنُّ احترامًا لأحد. سوف تندلع معركة حقيقية بينهما.

٢٠ ديسمبر: وصل في موسم عيد الميلاد ابن الأب زكريا، وهو يعطي دروسًا خصوصية في بعض البيوت المرموقة، وجلب معه خبرًا جامحًا لا يصدق: اختبأ واحد من الجنود المتقاعدين في أحد أركان كنيسة بوكروفسكي، وخلع التاج عن الأيقونة الخارقة للقديس يوحنا المحارب، وأخذه إلى منزله، وفسَّر موقفه بعد ذلك قائلًا إنه لم يسرق التاج، لكنه اشتكى له من شظف العيش بوصفه محاربًا روسيًّا متقاعدًا، وتوسل إلى هذا القديس المحارب أن ينقذه من فقره فاستجاب له القديس وقال: «سأعاقبهم على ذلك في القرن القادم، أما أنت فيكفيك ذلك في الوقت الحالي». وبعد هذه الكلمات المباركة خلع بيده التاج الثمين من على رأسه وقال: «خذه». هل يستحق هذا التفسير أي اهتمام؟ أما مسألة الدخن فقد عوملت بطريقة مختلفة، وسأل المحافظ المجلس الكنسي هذا السؤال: أيمكن أن تحدث معجزة كهذه؟ غني عن القول إن المجلس وجد نفسه في موقف صعب حيث يستحيل عليه أن يجيبه بأن مثل هذه المعجزة غير محتملة الحدوث، ولكن إلى أين سيؤدي كل ذلك؟ احتج ممثل مجلس النبلاء توجانوف سرًّا على ذلك، وكتب أنه يرى هذا السلوك غير معقول وأنه لا يهدف إلا إلى زعزعة الإيمان والسخرية من الإكليروس. بهذه الطريقة صار هذا العجوز الملحد مناصرًا للإكليروس بينما القانوني الملزم بالدفاع عنهم يسخر منهم. لا، يبدو أنه قد تأتي ساعة، بل وقد أتت

(١) أعلى قمة جبلية في تركيا.

فعلًا، حينما لا يجد الحس السليم أي غرابة في كل ما يحدث حوله. إن دفاع توجانوف في حد ذاته غير ناتج عن غيرته على الإيمان، بل عن عدائه للمحافظ، ولكن بالرغم من ذلك، فمن الواضح أنه يصب في صالح الإكليروس، إلا أنه لا يوجد هنا ما يُبهج، فما هو الخير الذي يمكن أن ينتظره المرء إذا صار الجميع في الدولة يسخرون من بعضهم، متناسين أنهم أقسموا الولاء لتاج واحد وبلد واحد! يا للسوء!

٩ يناير ١٩٦٤: لسبب ما ذهب توجانوف بنفسه إلى بلودوماسوف. لم أطق الصبر أكثر من ذلك، وذهبت بالأمس لأعرف نتيجة صراعه واعتراضه على ما يتعلق بأيقونة يوحنا المحارب. أمر مدهش! تحدث معي توجانوف هذا الذي كان يومًا ما مريدًا لفولتير بأسى ولهجة حزينة. إنه لا يرى اعتراضه قويًا كفاية لأنه قال: «إنني بصورة شخصية أرى كل ما يحدث عادة في حياتي الشخصية معجزة، لكني لا أستطيع مشاركة الرغبات الخاملة، ولا انتزاع الشيء الوحيد الذي لدى الشعب لإكسابه عادة التفكير حتى ينتقل إلى مستوى أعلى من مستوى الخنزير والبقرة!». يا للهراء! لكني لم أعارضه. ما باليد حيلة! يا إلهي! أعنه بالرغم من إلحاده، وإلا فلن نكون حقًا قادرين على الوصول إلى مستوى القطيع وتناول الجذور وصهيل الجياد.

٢٠ مايو: حقق الماجن نجاحًا جديدًا: بمناسبة انتشار هذا الوباء الضار في كل أنحاء المقاطعة، في الماشية والبشر على السواء، نشرت الصحف الإقليمية دعوة إلى الإكليروس لإرشاد أبناء الإيبارشية إلى أن «يُحذِّر الفلاحون من علاجات الدجالين والمشعوذين والعجائز التي تقوِّض حالتهم الصحية كثيرًا إلى الأبد، والتوجه مباشرة بدلًا من ذلك

إلى الأطباء والأطباء البيطريين». وأين نجد لدينا هؤلاء الأطباء والأطباء البيطريين؟ أجدني أتذكر تلقائيًا كتابًا لمؤلف إنجليزي قديم قرأته منذ فترة طويلة، وهو القس حاد الذكاء ستيرن[1] بعنوان «حياة وآراء تريسترام شاندي». وأستنتج أنه بنهاية هذه العدمية السائدة في بلادنا الآن ستبدأ فترة شاندية (نسبة إلى شاندي -المترجم) لأن كلتيهما ليستا تعليمًا بل مجرد حالة ذهنية خاصة، ووفقًا لتعريف ستيرن: «يذوب القلب والرئتان وتدور سريعًا عجلة الحياة متعددة الجوانب». الأمر الذي يزيد قناعتي بذلك هو أن روسيا قد لحقت بهذه الدرجة الشاندية، لذلك قال شاندي: «لو أعطوني الفرصة لاختيار الدولة التي أعيش فيها كما فعلوا لسانشا بانسا لما اخترت دولة تجارية ولا ثرية، بل دولة يضحكون فيها باستمرار، سواء في الجد أو في الهزل». أخشى أنها محقة. ألم تقصدنا بانسا العبقرية غريبة الأطوار نحن البؤساء؟ كل هذا مناسب لنا تمامًا، فأكثر الأماكن ملاءمة لنا ليست هي التي يوجد فيها الأغنياء أوالتجار بل التي تضج بالضاحكين!

٢١ مايو: عاد سيد بلودوماسوف من العاصمة، وجلب لي وللأب زكريا والشماس أخيل عصيًا غالية ذات مقابض من أحجار كريمة، وأرانا مصباحًا زجاجيًا يعمل بسائل ساخن «كيروسين[2]» أو بزيت جبلي مشتق من النفط.

٩ يونيو ١٩٦٥: سمحت لنفسي بهذه التفاهة المخزية المتعلقة بالعصي التي ذكرتها سابقًا، وانقلبت حياتي الماضية كلها كغربال وغطتني. أجلس

---

(١) لورنس ستيرن: روائي وقس أنجليكاني أيرلندي.

(٢) بدأ استخدام الكيروسين في الإضاءة في روسيا في عام ١٨٦٣.

تحت هذا الغربال كغراب شجاع حبسه بعض الصبية الأشرار ليلهوا به. هذا حقًّا هو الجانب الأكثر بؤسًا في عملية التحلل اليومية. لقد صرت سطحيًّا... صرت سطحيًّا تمامًا إلى حد أني صرت غير قادر على الثقة بنفسي أكثر من ثقتي بورقة بكماء؛ باختصار شعرت بالإحراج من أن تكون لدي ولدى زكريا عصوان متماثلتان مع العصا التي قُدِّمت لأخيل. يا إلهي! هل وصلت في يوم من الأيام إلى هذه الحالة التي أجدني فيها أستاء بسبب عصا، بل والأسوأ من ذلك أتدبر وسيلة لتمييزها عن عصي الآخرين؟ لا، لم أنشغل بمثل هذه التفاهات من قبل، بل انشغلت بأفكار سامية تهدف إلى تحسين ذاتي في هذه الحياة الأرضية، وكنت أرى نورًا لا ينطفئ وأهتم بالموهبة التي منحني الرب إياها».

بهذا تنتهي يوميات توبيروزوف القديمة، وبعد أن أنهى قراءتها تناول العجوز القلم، وكتب تاريخًا جديدًا وبدأ يكتب بهدوء وصرامة في صفحة جديدة فارغة:

«أبلغوني وقتها كيف أربك ذات يوم ابن الخابزة، المعلم برنابا بريبوتنسكي، الأطفال الأبرياء أمام جثة بشأن الروح الإنسانية، قائلًا إنه لا وجود لشيء يُدعى الروح الإنسانية، لأنه ليس لها مكان في الجسد. اعتبر الأذكياء حينها غضبي على هذا الشخص التافه، ولكن المؤذي، عبثًا لا داعي له، ووجدوا الأمر لا يستحق الاهتمام ولا يستأهل الغضب. حدث جديد اليوم: عندما حدث طوفان منذ فترة قريبة جلبت المياه جثمانًا مجهولًا. قالت والدة برنابا، الخابزة الفقيرة، اليوم لي باكية إن العمدة والطبيب قد أعطيا لابنها برنابا، من فرط كراهيتهما له، أو ربما سخرية منه، هذه الجثة، وقد قبلها بغبائه، وسلق الجثة في وعاء كبير بثيابها الكتانية، وسكب السائل

أسفل شجرة تفاح، وبعد أن جمع العظام أخذها إلى عاصمة المقاطعة، وهي تخشى الآن أن يقبضوا على ابنها العزيز كقاتل بحمل عظام هذا الجثمان. هدَّأتها بقدر ما استطعت، وطلبت تفسيرًا للأمر من العمدة. «ما الحاجة إلى تسليم جثمان شخص يجب أن يُدفن بإشراف الكنيسة بعد تشريحه إلى المعلم برنابا؟». أجابني أنهما فعلا ذلك لصالح حركة التنوير؛ أي أن المعلم برنابا فعل ذلك من أجل تثقيف نفسه في مجال العلوم الطبيعية بدراسة الهيكل العظمي. مثير للسخرية هو هذا الاهتمام بالعلم من جانب أناس بعيدين كل البعد عنه، مثل العمدة بوروخونتسيف الذي قضى نصف حياته في إسطبل سلاح الفرسان، حيث يتعلمون ربط ذيول الجياد، أو من جانب طبيب كاذب لا يحظى بالاحترام إلا داخل دوائر الجهلة، والأمر الذي يدلل على جهله الفج هو زعمه بأنه بعد أن شرب عن طريق الخطأ كأسًا من كيروسين المصباح بدلًا من الفودكا عند بلودوماسوف ظل بطنه مضيئًا طوال أسبوع كامل. لكن مهما كان ما حدث، تحول الجثمان الذي غلاه برنابا إلى هيكل عظمي. أخذ برنابا العظام إلى مساعد الطبيب في مستشفى خيري. هذا الخبير في عملية التشريح ربط العظام كلها ببعض، وكوَّن هيكلًا عظميًّا جلبه برنابا إلى المدينة هنا، وهو موجود الآن عند بريبوتنسكي، وقد ثبَّته على نافذته المواجهة لهيكل كنيسة نيكيتسكايا مباشرة. يظهر الهيكل العظمي هناك وقد تحول إلى مصدر جذب دائم للحشود والمشاحنات مع برنابا ووالدته البسيطة. بدأ هذا الميت ينتقم لنفسه. بدأ يظهر في كل ليلة في أحلام المرأة العجوز ويكدر حالها ويطلب منها باستمرار أن تدفنه. توسلت المرأة المسكينة البائسة بالدموع، أمام ابنها، واقفة أحيانًا وراكعة في أحيان أخرى، أن يتركها تدفن هذا الهيكل العظمي، وبالطبع واجهت أقوى أنواع

المقاومة. حينها قررت -من يأسها- أن تجمع العظام في غياب ابنها في صندوق صغير، وحملته إلى الحديقة، ودفنت هذه العظام بيديها العتيقتين تحت شجرة التفاح ذاتها التي سكب عندها برنابا مرق جثمان هذا البائس المسلوق. لكن النجاح لم يحالفها في كل ذلك، لأن ابنها العالِم استخرج العظام مجددًا من مكانها، وبدأ قصة جديدة مع هذه العظام لم تنتهِ حتى الآن. ببساطة ما ترتب على ذلك مجلبة للضحك والخزي في الآن ذاته. ظلا يسرقان العظام من بعضهما حتى تعهد شماسي أخيل في النهاية، الذي يتدخل في كل شيء، بوضع حد للأمر، وشرع فورًا في تنفيذ قراره، ولم تكن لدي أي فرصة لمنعه من تنفيذ هذا القرار حيث يبدو الأمر لي كما لو أن هاجسًا ما يربكني في أن يتسبب هذا الهراء في الإضرار بأناس جديرين بالاهتمام. علاوة على ذلك ارتبكت بشدة بسبب أحاديثي مع العمدة والطبيب اللذين حاولا استثارة غيرتي (على حد قولهما) ووبخاني على تسامحي مع الإلحاد، وهما يعتقدان أن أحدًا لا يساند الإيمان، ولم يستثنيا حتى أولئك المنوط بهم الدفاع عنه رسميًا. أنا أؤمن! أؤمن ولا يراودني أدنى شك في حقيقة إيماني، لكني أتعجب من أين جاءنا هذا العداء العنيف وهذه الكراهية المريعة للإيمان؟ أيكون مرد ذلك إلى التوق إلى الحرية؟ لكن من هو الذي يُشكِّل الإيمان عائقًا في طريق سعيه نحو حريته؟ لماذا لم يفكر المفكرون الحقيقيون في هذا الأمر؟».

تنهد الأب سافيلي بعمق، وطرح القلم، ونظر مجددًا إلى يومياته، وألقى نظرة عامة ثانية على كل من كَتب عنهم في حياته ولا يزال يحتفظ بذكرى فاترة عنهم، ثم أغلق دفتره ذا النسيج القطني وأعاده إلى مكانه القديم. اقترب من النافذة ورفع الستارة القطنية المسدلة، وبعد أن ألقى

نظرة على النهر انتصب بكامل قامته ورشم نفسه بعلامة الصليب بامتنان. امتلأت السماء بالسحب القاتمة، وبدأت تقطر بالفعل قطرات مطر بسيطة ملطخة بالغبار الكثيف. هذا هو المطر الذي ابتهل وصلى توبيروزوف في أثناء الصلاة العامة من أجل أن يهطل، ولكن العجوز رأى فيه علامة على عدم فاعلية صلاته. همس العجوز توبيروزوف بكلمات بعض المدائح الدينية الحماسية، ولم يلحظ كيف انهمرت دموعه في هدوء وازدادت سرعة انهمار المطر قطرة خلف قطرة، وأخيرًا انهمر كما لو عبْر منخل سميك، مُنعشًا ببرودته الرطبة رأس القمص الساخن قليلًا الذي غفا في أثناء جلوسه عند النافذة، حانيًا رأسه على يديه البيضاوين.

في هذه الأثناء هطلت الأمطار الهادئة وغير الرعدية، وصار الهواء نقيًّا ومنعشًا، وصَفَت السماء، وبدأ شفق رمادي في اللمعان من ناحية الشرق، مُعدًّا المكان لشروق الشمس الذي يعلن حلول يوم القديس ميثودي بيسنوشسكي، الذي أولاه الشماس أخيل -إذا كنا لا نزال نتذكر جيدًا- أهمية خاصة، بل ويمكننا القول إنه أولاه أهمية عظيمة حتى إنه أمر زوجة القمص القصيرة أن تتذكر موعد هذا اليوم جيدًا.

* * *

# الفصل السادس

تلاشى الفجر سريعًا، وبينما كانت الشمس تغتسل في الضباب خلف الغابة المدخنة، امتدت أشعتها الذهبية بحدة في الأفق. ارتفع ضباب خفيف فوق صفحة النهر وزحف حتى الشاطئ الصخري، وظل يدور تحت الجسر ويتماسك بالقرب من الأكوام القائمة والمبللة. يكتسب الرصيف من تحت هذا الضباب لونًا أزرق، ويظهر الشريط الأبيض للطريق. لا تزال ظلال غبشة الفجر تخيم على كل شيء، ولا تظهر أي علامات تشير إلى يقظة أحد؛ لا في داخل البيوت، ولا في الميادين والشوارع.

ولكن هنا، من أعلى نقطة في المنطقة الجبلية المرتفعة لمدينة ستارجورود، فوق الطريق الضيق المتقاطع المؤدي إلى النهر بطول جرف صخري، تتحدد بدقة ووضوح أشكال مجموعة غريبة للغاية. من خلال هذا الضوء الضعيف يبدو شيء رائع في هذه المجموعة. يقف إنسان في منتصفها، مغطى من كتفيه وحتى الأرض بخيتون[1] طويل فضفاض يضيق قليلًا عند الخصر. بدا هذا الجسد غير محسوس تمامًا، وكأنه يطفو فوق طبقة رقيقة من الضباب، يقف ساكنًا كشبح.

ربما يظن إنسان يؤمن بالخرافات أنه عفريت مدينة ستارجورود قد جاء ليتنهد فوق المدينة قبل ساعة يقظته.

---

(١) ثوب يوناني بلا أكمام.

إلا أنه بانجلاء الفجر أكثر فأكثر، وبمرور الوقت، تزداد الرؤية وضوحًا، ويتضح أنه ليس عفريتًا ولا روحًا، لكنه يظل كيانًا غير عادي. يمكننا أن نرى الآن يدين لهذا الجسد، يضعهما في جيوبه، ويُخرِج من أحد جيوبه قضيبًا طويلًا بحبل مقيد في نهايته، أو ربما هي على الأقل صنارة صيد، ويُخرِج من الجيب الآخر شيئًا يبدو كهراوة ثقيلة معلقة من أربعة خيوط. بعد ذلك تأتي نسمة هواء وتسري نموجات رقيقة على صفحة النهر الناعس، وخلف النوافذ المزخرفة للكاتدرائية ارتجفت أوراق البتولا، واهتزت الثنيات الجوفاء للأغطية الواسعة للتمثال القائم عند الجبل بهدوء، وكشفت عن القدمين الدقيقتين أسفل سراويل ليلية بيضاء. في هذه الثانية التي انكشفت فيها هاتان القدمان الدقيقتان ظهرت من خلفهما فجأة أربع أيادٍ لشخصين آخرين كانا متواريين في خلفية اللوحة. أمسكت هذه الأيدي بأطراف السروال المنتفخ بالهواء، وضمتها مجددًا على القدمين البيضاوين لهذا الطيف. إذا أمعن المرء الآن النظر يمكنه أن يرى الجسدين الآخرين. لاحت امرأة على اليمين. أول ما يلفت النظر فيها هو ارتفاع بطنها غير الطبيعي، خاصة مع السترة شديدة الضيق التي ارتدتها. أمسكت المرأة بدرع لامعة وقد ثُبِّتت في منتصفها خصلة شعر كبيرة بدت كما لو أنها قد أُزيلت حديثًا مع الجلد من جمجمة ما. من الناحية المقابلة، على يسار الشخصية طويلة القامة، ظهر شخص فظ ذو لحية عريضة قصير وبدين وأسمر. تحت يده اليسرى بدا أنه يحمل شيئًا يشبه أداة تعذيب، وأمسك باليمنى حقيبة ملطخة بالدماء يتدلى منها رأسان بشريان شاحبان، حليقا الشعر، ومن المحتمل أن يكونا قد فقدا أنفاسهما الأخيرة تحت وطأة التعذيب. بدت أجواء ملحمة شمالية تحيط

بهذه الشخصيات الثلاث، ولكن ها هي الشمس قد ازداد إشراقها وسطع ضوءها وبدا أنه لا وجود لأي ملحمة. إنهم ببساطة مجرد ثلاثة أشخاص أحياء، وإن كانوا مبدعين جدًّا. وقفوا من دون حراك لدقيقة أخرى ثم بدأوا يهبطون. خطوا عشر خطوات ثم توقفوا مجددًا، ووقف في المقدمة أطولهم وقال بهدوء:

- انظر أيها الأخ كومار[1]، لسبب ما لا تمكن رؤيتهم الآن.

أجابه كومار ذو اللحية السوداء:

- صحيح لا تمكن رؤيتهم.

- انظر أفضل.

يحدق كومار في صفحة النهر، ويقول ثانية:

- لا أرى شيئًا، لا أرى أحدًا.

- ويا له من هدوء يسود المدينة أيها السادة!

قالت المرأة الممسكة بدرع نحاسية تحت يدها:

- إنه سلطان النوم.

لم يسمع صاحب الجسد النحيل وسأل:

- ماذا تقولين يا فيليسي؟

- أقول يا فوين فاسيليفيتش إن سلطان النوم متسلط على المدينة.

- نعم إنه سلطان النوم، لكنهم سوف يستيقظون سريعًا. انظر يا كومار، هل هناك أي غاطس في المياه؟

---

(١) معنى الاسم المباشر: بعوضة.

يلتفت كومار إلى اليسار صوب الجزيرة التي ينبعث منها بخار خفيف يتلوى تحت الجسر ويجيب:

- نعم هناك غاطس.

وبدأ يتابع الدائرتين الصغيرتين اللتين بدأتا تتوسعان على صفحة المياه الهادئة. في منتصف الدائرة الأمامية يتأرجح بهدوء شيء ما يبدو كيقطينة صفراء يانعة.

- آه! غطس الوغد مجددًا من دون أن ينتظر إذن القيادة.

قال كومار بلا اكتراث:

- لقد خرج واستعد هناك.

- هل هذا معقول؟ أنت تكذب يا كومار.

- هناك! انظر هناك، إنهم يسيرون فوق صفحة النهر.

وضع الجوالون الثلاثة أيديهم فوق عيونهم ونظروا إلى النهر، ورأوا شيئًا طويلًا وممتلئًا قد برز، تغطيه أكفان بيضاء من رأسه وحتى قدميه، يشبه تمثال القائد بشدة، وتحرك التمثال بسلاسة وبطء ولكن باستقرار صوب النهر.

في هذه اللحظات انطلق أبوللو بعربته المتوهجة إلى أعلى السماء، وبدا الضباب الخفيف كأنه مشبع بلمسة كهرمانية، واكتست اللوحة بلون قرمزي وأزرق لازوردي، وظهر على أمواج النهر مارد عارٍ في هذه الإضاءة القوية والساطعة والمشهد الغارق في أشعة الشمس بشعر أسود أشعث على رأسه الكبير. تحرك عكس التيار على ظهر جواده الأحمر القوي الذي قطع الموجة الواسعة بصدره القوي، وشخر بغضب من أنفه ذي اللون الناري الداكن.

تسعى كل هذه الشخصيات؛ المشاة والفارس العائم، إلى نقطة واحدة من زوايا مختلفة، إذا رسمنا منها خطوطًا عرضية لأشارت مباشرة إلى حجر كبير يبرز في منتصف النهر. عرفنا أن الشخص الأول الذي يهبط الجبل هو رئيس شرطة وعمدة مدينة ستارجورود فوين فاسيليفيتش بوروخونتسيف، النقيب المتقاعد من سلاح الفرسان، النحيل والطيب الذي سمح للمعلم برنابا بريبوتنسكي، لأجل العلم، أن يستفيد بجثمان أحد الغرقى. ارتدى نصير العلم هذا طويل القامة رداءً حريريًا بلون المسك، وعلى رأسه يارمولكة[1] صوفية ذات حافة حادة، ومن أحد جيوبه، حيث وضع يده اليمنى، برز مقبض دقيق لسوط طويل، وبالقرب من الجيب الآخر الذي غمس فيه العمدة يده اليسرى ظهر بهدوء غليون تبغ كبير وأسود وحزمة تبغ مغربية شرقية معلقة بحزام صيد.

من ناحية كتفه اليسرى يسير بهدوء كبير الحوذية كومار، وهو صديق السيد وكاتم أسراره؛ الشخص الذي فقد منذ فترة طويلة اسمه الديني ولم يعد أحد يدعوه باسم آخر سوى كومار. لم يكن مع كومار أي أداة تعذيب ولا رأسان ميتان ولا حقيبة ملطخة بالدماء، بل الأمر هو أنه حمل ببساطة مقعدًا تحت ذراعيه، وبساطًا قرمزيًا قديمًا، وزوجًا من قِرَب الثيران المنتفخة، وقد ربط أحدهما بالأخرى بقطعة قماش.

الشخصية الثالثة التي بدت لنا منذ ربع ساعة مخيفة بدرعها النحاسية تحت ذراعها تبدو لنا الآن بوضوح؛ إنها زوجة كومار المتواضعة. كانت «الأم فيليساتا» -كما يدعونها في فناء البناية- مثقلة بعبء ثقيل للغاية،

---

(١) قلنسوة ضيقة يرتديها اليهود، وتُدعى أحيانًا كيباه.

لكنه عبء لا يلائم أي معركة بتاتًا. حملَت أولًا بطنها الكبير الذي يأوي ابن كومار المستقبلي، وحملَت تحت ذراعها طشتًا نحاسيًّا كبيرًا يلمع في ضوء الشمس، وفيه منشفة، وفيه قفاز من القماش، وفيه قطعة من صابون الكافور، وعلى رأسها ملاءة مطوية إلى أربع.

إنها لوحة تتألف من أهدأ السمات.

فقد الجسد الأبيض الذي سار بهدوء من ناحية زاريتشي هو الآخر عظمته، وفقد معها كل شبه له بالقائد. كان رجلًا يسير مرتديًا حذاء من جلد ناعم يرتديه أي ميت. سار بهدوء مغطى بملاءات حتى قدميه، وعندما اقترب من النهر ألقاها على العشب، واتضح أنه طبيب المقاطعة بوجوفكين صاحب الجسد الممتلئ والشعر الأشعث والخشن.

أما الفارس العاري ذو الشعر المجعد، والمبحر على ظهر جواد ذي عرف طويل وكستنائي اللون، فتبين أنه الشماس أخيل، وحتى اليقطينة اللامعة على صفحة المياه المتموجة تموجات صغيرة بدأت تتخذ هي أيضًا شكلًا إنسانيًّا، فاكتسبت عينين زرقاوين وديعتين وأنفًا مكسورًا. من الواضح أنها ليست يقطينة، بل رأس كونستنتين بيزونسكي الأصلع الذي يخفي جسده المجوز في المياه المنعشة.

تجتمع أمامنا إذن مجموعة من محبي السباحة في نهر مدينة ستارجورود، وقد اعتادوا منذ فترة طويلة الاجتماع هنا في كل صباح يوم صيفي رائع، والاستمتاع معًا باستحمام صباحي منعش. دعونا نلقي نظرة على هذا المشهد.

ألقى الأول (الطبيب الأبيض) ملاءته، وبمرور دقيقة نزع ملاءته

الثانية وقميصه الكتاني الوردي، وبعد تخلصه من كل شيء قفز إلى النهر بالمقلوب وسبح صوب الحجر الكبير الواسع الذي ارتفع قدمًا واحدة فوق سطح الماء في منتصف النهر. شكّل هذا الحجر فعلًا مركز تجمعهم. سبح المعالج ببضع ضربات من يده عبر المسافة التي تفصله عن الحجر، ثم صعد فوق السطح العلوي الناعم للحجر، وصاح ضاحكًا: «أنا أول من ينزل الماء منكم مجددًا». ثم صاح الطبيب في أخيل قائلًا: «اسبح أسرع أيها الفرعون. أتراه أيها الشيطان الصغير؟». ويضحك مسرورًا مجددًا، صائحًا بهذه العبارة في قائد الشرطة، ومن دون أن ينتظر ردًّا من نقيب سلاح الفرسان نادى على بيزونسكي وهو يحاول جذبه إليه كإوزة صغيرة بين الحين والآخر قائلًا: «تعالَ أيها الأصلع، تعالَ أيها الأصلع».

في هذه الأثناء اقتربت فيليساتا من قائد الشرطة أو رئيس المقاطعة الذي لم يتعجل النزول إلى الماء، وساعدته في فك أربطته، وخلعت من عليه رداءه، وتركته بثيابه الداخلية وقميصه اللبادي المبرقش.

هكذا كان المحارب لا يزال يستعد للنزول إلى الماء بينما كان الطبيب جالسًا بالفعل فوق الحجر، يلاعب الماء بقدميه ويدوِّرها في الاتجاهات كافة، ويصفِّر بمرح، وفجأة ضرب أخيل الذي ظل يسبح صوبه ظهره العاري براحة يده حتى إن الطبيب صاح، لا من قوة الضربة، بل من صوتها العالي. صاح الشماس:

– لماذا تثير هذه الجلبة؟

– لا تمس جسدي.

– وماذا إن كنت قد اعتدت ذلك؟

- اقطع عادتك.

وعاد الطبيب يصفِّر عاليًا.

- إني أفعل ذلك فعلًا، لكني أنسى.

لم يجب الطبيب بشيء وواصل صفيره، بينما هز الشماس رأسه وبصق، ثم فك الحبل الذي أحاط بجسده، وخلع منه مشط الحصان وفرشاة، وبدأ يغسل بكد عُرف جواده الذي كان في هذا الوقت يتجول في المياه، وقد لوى ظهره، ضاربًا المياه بركبتيه.

يُمثِّل هذا المشهد والأسلوب بساطة حياة مدينة ستارجورود، كالاستهلال الموسيقي في بداية عرض الأوبرا، لكن الاستهلال لم ينتهِ بعد.

* * *

# الفصل السابع

بسط الحوذي كومار بساطًا على الضفة اليسرى التي وقف عندها العمدة المتمهل، وثبَّتها بوضع دكة عليها، وأخذ يهزها يمينًا ويسارًا حتى اقتنع في النهاية بثباتها، ثم قال:

اجلس يا فوين فاسيليفيتش. إنها ثابتة.

اقترب بوروخونتسيف سريعًا من الدكة، ولم يجلس عليها إلا بعد أن حاول هزها بيده وتيقن من أنها ثابتة فعلًا. ما إن جلس السيد حتى أمسكه كومار من الخلف من تحت كتفيه، ووضعت زوجة كومار الطشت الذي يحوي منشفة تحوي بدورها صابونة على البساط، وبدأت في تعرية جسد عمدة المدينة الباسل. في البداية خلعت عنه البارمولكه ثم القميص المحبوك على جسده ثم الحذاء والجورب، ثم وضعت راحة يدها بحرص على ضلوع نقيب سلاح الفرسان الجافة وتوقفت، وأمالت رأسها إلى أحد الجانبين، دلالة على الانتباه.

سألها بوروخونتسيف:

– أظن أنه ليس هناك شيء يا فيليسي. يمكنني الركوب، أليس كذلك؟

– لا يا فوين فاسيليفيتش، لا تزال تنبض هنا.

– ما دمت لا تزال تنبض فعلينا إذن بالانتظار، وأنت يا كومار، هيا اغطس.

- سأذهب.

- اغطس يا أخي، اغطس. اسبح قليلًا ثم تعالَ.

- لا تكن زلقًا هكذا يا فوين فاسيليفيتش حتى لا تسقط مجددًا.

- لا، لا تخشَ شيئًا، لن أسقط.

خلع كومار قميصه من خلف سيده، وقفز في الماء، وأخذ يعوم بيديه بقوة.

قال بوروخونتسيف:

- انظري كيف يعوم زوجك كومار جيدًا.

أجابته الزوجة: «ممتاز». وكان من الواضح أنها لا تخجل إطلاقًا من رؤية أي من العائمين العراة، ولا هم شعروا بأدنى إحراج في حضورها.

تعودت فيليساتا، الفتاة التي كانت قنَّة سابقة لبوروخونتسيف، منذ زمن بعيد، على أن تكون كممرضة لسيدها، وفي عنايتها به لم يكن هناك بالنسبة لها أي مشكلة في اختلاف جنسهما. في هذه الأثناء سبح كومار صوب الحجر الذي جلس عليه الآخرون، وبعد أن سبح مجددًا صوب الشاطئ، وقف موليًا ظهره للدكة التي جلس عليها العمدة متخذًا شكل حرف منحنٍ. اعتلى فوين فاسيليفيتش كتفيه، وأحاط عنق كومار بيديه، وبهذه الطريقة مضى به كومار إلى الماء. عادة ما يعتلي نقيب سلاح الفرسان كتفي كومار بهذه الطريقة لينزل به الأخير الماء، لأن الأول لا يستطيع السير حافيًا على الحصى الناعم، ولكن في هذه المرة ما إن وصل الماء إلى مستوى إبطي كومار حتى توقف وأخبر سيده أنه لم تعد هناك أي أحجار، وأنه يشعر بالرمل تحت قدميه. حينها انسل فوين فاسيليفيتش من

فوق كتفيه واستلقى فوق بقبقات الماء. هذا ما حدث اليوم؛ استلقى العمدة بظهره على المياه، وأخذ كومار يدفعه من كعبيه حتى وصلا إلى الحجر، وصعدا كلاهما فوقه. صار الحجر الصغير الذي يعلو فوق سطح المياه ويتخذ شكل دائرة يبلغ قطرها قدمين مجلسًا لخمسة أشخاص؛ أربعة منهم، وهم بوروخونتسيف وبيزونسكي والطبيب وأخيل، جلسوا على حواف الصخرة، وظهر كل منهم للآخر، بينما وقف الخامس في الزاوية الرباعية الضيقة التي شكلتها ظهورهم، واستغرق في غسل رأس سيده بينما انخرط البقية في الحديث. حكى بيزونسكي وقد أخذ أنفه المقوس يرتعش كيف جلس زوج من البجع في غسق الأمس أسفل الجسر عند الكروم، وكيف ظلت البجعتان تنقنقان طوال الليل. قال كومار، مواصلًا غسل رأس سيده بكد:

- يصيح البجع عند وصول أي منهم.

أجابه بيزونسكي:

- لا، لقد أصدرتا هذا الصوت استمتاعًا بيوم جيد وحسب.

تدخل الطبيب في الحوار:

- ومن الذي سيطير إلينا هنا؟ نعيش هنا كالكيكيمورا[١]، حيث يمر قرن كامل من دون أن يطرأ أي شيء جديد.

أجابه بيزونسكي:

- وما حاجتنا إلى شيء جديد؟ لدينا هنا كل شيء. الطقس رائع،

---

(١) مخلوقة أسطورية في الأسطورة السلافية. تعيش عادة خلف الموقد أو في القبو، وعادةً ما تصدر ضوضاء مشابهة لتلك التي تصدرها الفئران.

ونحن نجلس هنا على حجر صغير، ولا أحد يديننا، عراة ولا أحد يخشانا. ما إن يأتي شخص جديد حتى يبدو له كل هذا خطأ ويبدأ في تغيير الأمور.

قاطعه كومار بحميمية:

- سيغيرها ويتساءل: لماذا يجلسون عراة بهذه الصورة؟

قال الطبيب:

- سيسأل: لماذا يُبقون عمدتهم في هذا الوضع وتغسله المرأة بهذه الطريقة؟

- هذا صحيح.

هكذا صاح نقيب سلاح الفرسان المنزعج وتقلقل في جلسته.

ملَّس كومار شاربيه، وابتسم وقال بهدوء:

- سيقول: لماذا يعتلي قائد الشرطة كتفي كومار؟

- اسكت يا كومار.

عاود بيزونسكي الوديع حديثه ثانية قائلًا:

- سيحرقهم الفضول بشأن ذلك (ثم تنهد وأضاف) أما الآن، في غياب أي شيء جديد يطرأ، نجلس في الجنة، عرايا، ونرى الجمال من حولنا: الغابة والجبال والكنائس والمياه والخضرة، وتتناهى إلينا أصوات فراخ البط والإوز عند الشاطئ ويلهو قطيع كامل من الأسماك الصغيرة؛ إنها قوة السيد الرب.

تردد صوت العبارة الأخيرة التي قالها بيزونسكي بصوت أعلى من بقية كلماته على صفحة النهر أولًا، ثم عبر التل، وأخيرًا ترددت في زاريتشي بصوت أعلى قليلًا. بعد أن سمع بيزونسكي هذه الترددات رفع

إصبعه السبابة فوق رأسه الأصلع وقال:

- قوة السيد الرب تستجيب لك ثلاث مرات: كيف يمكن للمرء أن يعيش حياة أفضل من هذه وسط هذا الصمت الذي ينتهي فيه كل شيء؟!

تنهد نقيب سلاح الفرسان قائلًا:

- صحيح. أنت محق فعلًا. لدينا خبر صغير أنا والطبيب؛ لقد أعطينا جثمان ميت لبرنابا ليسلقه، وكم نتج عن هذا الهراء! بالمناسبة أيها الشماس، لا تنسَ يا أخي أنك وعدت بأخذ هذه العظام من برنابا.

- كيف أنسى؟! لست أرستقراطيًّا حتى تُكرِّر الأمر على مسمعي مائة مرة. لقد وعدت وفعلت.

- فعلت ماذا؟ هل فعلت حقًّا؟

- فعلت بلا أدنى شك.

- أنت تكذب يا عزيزي الشماس.

لزم أخيل الصمت.

- لماذا تصمت؟ قل لي كيف انتزعت منه هذه العظام، أي شيطان يجعلك ساكنًا هكذا؟

أجاب أخيل بلا مبالاة:

- ولماذا لا أظل ساكنًا ما دام خصري يسمح لي بذلك؟ أنت والطبيب أفسدتما الأمر، وأنا عالجته؛ تسللت إلى منزل برنابا من النافذة، وجمعت كل هذه العظام في حقيبة.

- وماذا بعد ذلك يا أخيلوشكا (تدليل أخيل -المترجم)؟ ماذا بعد ذلك يا عزيزي؟

- هنا حدث التباس.

- قل بسرعة، قل بسرعة.

- وماذا أقول إذا كنت أنا نفسي لا أعرف من سرق مني هذه العظام؟

قفز بوروخونتسيف من مكانه وصاح:

- كيف تُسرق ثانية؟

- لا أعرف تحديدًا ما إذا كانت قد سُرِقت حقًّا أم لا، لقد جلبتها إلى المنزل، وأفرغتها جميعًا في إحدى العربات في الفناء لأدفنها، ثم نظرت هذا الصباح فإذا بها غير موجودة، ولم يتبقَّ منها شيء سوى هذا الذيل.

ضحك الطبيب. سأله الشماس الذي غضب قليلًا من ضحكته:

- ما الذي يضحكك؟

- ألديك ذيل؟

غضب أخيل وقال:

- إنه ذيل بلا شك، وإلا فماذا هو؟

فك الشماس عظمة كاحل بشرية مربوطة بمشط الحصان، وبعد أن أعطاها للطبيب أضاف بجفاف:

- انظر بنفسك إذا كنت لا تصدق.

- وهل البشر لديهم ذيول؟

- أليس لديهم؟

- أتعني أنك أنت شخصيًّا لديك ذيل؟

- أنا؟

- نعم أنت.

ضحك الطبيب ثانية، وشحب وجه الشماس وقال:

- اسمع أيها الأب الطبيب. أنت تمزح كثيرًا، ولكن تذكر أني من الإكليروس.

- حسنًا، قل لي، أين الأستراجاليوس[1] الخاصة بك؟

تركت هذه الكلمة المجهولة «الأستراجاليوس» في الشماس انطباعًا غير عادي. بدت له التسمية اللاتينية للكاحل مسيئة تمامًا، وهز رأسه موبخًا الطبيب، وتنهد عميقًا وقال ببطء:

- لم أنتظر منك يومًا أن تكون وغدًا إلى هذه الدرجة.

- أنا وغد؟

- بالطبع، فبعد أن تجرأت أن تسأل واحدًا من الإكليروس مثل هذا السؤال الغبي لا يمكن وصفك بشيء آخر سوى أنك وغد. اسمع، تركتك منذ فترة بسيطة تمزح كما تشاء بخصوص الذيل، لكن لا تجرؤ على ما هو أكثر من ذلك.

- أمر مريع!

- لا، ليس أمرًا مريعًا، لكن عليك فعلًا أن تلزم الحذر لأني مللت حقًّا من تفكيرك الحر هذا، وبالأمس فقط قلت للأب سافيلي إنه لن يجرؤ، وإذا فعل ذلك، فإني سوف أقضي تمامًا على كل هذا التفكير الحر المتكبر الذي انتشر لدينا.

- وهل كلمة «أستراجاليوس» تعني تفكيرًا حرًّا؟

صاح الشماس:

---

(١) عظمة الكاحل باللاتينية.

– اخرس.

هز الطبيب كتفيه وقال:

– أحمق.

صاح الشماس بقوة وقد رفع قبضته ولمعت عيناه بالتهديد:

– اخرس.

– حسنًا، أنا حمار، ولا يمكنك التحدث معي. ما دمت لست كسافيلي بالنسبة لك، فهل يمكننا الآن أن نستمتع بالمياه؟

بعد هذه الكلمات أمسك الشماس بزمام جواده بيده اليسرى، وأمسك الطبيب باليمنى ودفعه معه إلى المياه. غاصا، ثم خرجا، ثم غاصا مجددًا. بالرغم من أنه يمكن أن نستنتج من أفعال الشماس أنه لم يُرِد أن يغرقه بل أراد فقط أن يعذبه بتغطيسه وتخبيطه، فإن الرجال الثلاثة الجالسين على الحجر، وفيليساتا الواقفة على الشاطئ المقابل والتي سمعت صيحات الطبيب اليائسة، شعروا جميعًا بهلع لا يوصف حتى إنهم صرخوا صرخة لا يمكن إلا أن تثير هلعًا قويًا.

هكذا بدأ الشماس أخيل يقضي على التفكير الحر الخبيث الذي توطن في ستارجورود، وسوف نرى العواقب العظيمة التي ستترتب على هذه البداية الفعالة.

* * *

# الفصل الثامن

أيقظ صراخ وضجيج العائمين في هذا الحادث القمص المستغرق في النوم عند نافذته بصعوبة. فزع العجوز، وهب على قدميه ونظر إلى النهر، ولم يستطع أن يستوضح الأمر جيدًا بسبب عربة أنيقة وقفت أمام نافذته مربوطة إلى جواد بلون رمادي. جلست في هذه العربة سيدة شابة ارتدت فستانًا أسود، هي من تولت بنفسها قيادة الجواد، وبالقرب منها كان هناك قوزاقي صغير. إنها الأرملة الشابة، صاحبة الأملاك، ألكسندرا إيفانوفنا سيربولوفا، وكانت ذات يوم طالبة لدى توبيروزوف؛ طالبة أحبها بشدة، وتحدث عنها دائمًا بأشد درجات التعاطف. حينما رأت السيدة الشابة القمص، انحنت له وحيَّته بود. أجابها القمص:

- ألكسندرا لفوفنا! تقبلي أقصى درجات الاحترام. تُشعرني رؤيتك دائمًا بالسرور. سوف تنهض زوجتي الآن، واسمحي لي أن أدعوك لشرب الشاي معنا.

لكن السيدة رفضت وقالت إنها جاءت إليه كي يصلي على زوجها المتوفى، وطلبت من توبيروزوف أن يسرع إلى الكنيسة.

- حالًا، في خدمتكم.

- أرجو أن تبدأ أنت صلاة القداس، وأنا سوف أعرج لدقيقة واحدة على العجوز والدة بريبوتنسكي، وإلا استاءت مني.

قالت السيدة ذلك وأحنت رأسها وتحركت سريعًا بعربتها الخفيفة.
بدأ القمص سافيلي يُعِد نفسه سريعًا، وأرسل الفتاة كي تبلغهم في الكنيسة أمره بقرع الأجراس للصلاة، وأمرها أن تجلب الشماس أخيل سريعًا. وتوجه إلى خزانة ثيابه كالمعتاد. بمرور نصف ساعة رن جرس الكاتدرائية، وبعدها بدقائق عادت الفتاة، لكن بخبر مفاده أنها لم تجد الشماس أخيل، ليس ذلك وحسب، بل ولا أحد يعرف حتى مكانه. لم يكن من الممكن الانتظار، ومن ثم أخذ الأب توبيروزوف عصاه المنقوش عليها «أفرخت عصا هارون»، وخرج من المنزل متوجهًا إلى الكاتدرائية. لم تمر عشر دقائق على ذلك حتى رأت زوجة القمص ناتاليا نيقولايفنا أخيل. كان مشتتًا تمامًا. صاح:

- أيتها الأم[1]، كل ما أخبرتك به بالأمس عن عظام الموتى اتضح أنه هراء.

أجابته ناتاليا نيقولايفنا:

- قلت لك فعلًا إن كل هذا هراء.

- اسمحي لي أن أعرف لماذا كل هذا هراء؟ لقد فعلت بالأمس ما وعدتك به. سرقت بقايا هذا الرجل الذي سلقه برنابا. انسللت من نافذته وحملت العظام في حقيبة إلى الساحة عندي، ونمت في العربة، لكن لم أجد شيئًا اليوم في العربة. ما ذنبي في كل ذلك؟

- ومن الذي قال إنك مذنب في شيء؟

- هناك فعلًا من يلقي بالذنب عليَّ، حتى إن الشك راودني وقلت في

(١) صيغة الاحترام «الأم» توجه لها بوصفها زوجة الأب القمص، لا بوصفها أمًا بالمعنى المباشر.

نفسي ربما دفنتها ليلًا، وما إذا كنت نمت فعلًا، ولكن في أثناء السباحة اليوم في النهر غضب الطبيب، ومن ثم توجهت مباشرة بعد السباحة إلى برنابا، ووجدت النافذة مغلقة بالجرار، فنظرت من خلال الصدع الصغير وإذا بهذا المسلوق معلقًا ثانية على خطاف! أين الأب القمص؟ أريد أن أحكي له كل شيء.

أرسلت ناتاليا نيقولايفنا الشماس خلف زوجها، ولحق أخيل المسرع بتوبيروزوف في نصف الطريق. ما إن سمع سافيلي خطوات الشماس خلفه حتى سأله:

- ماذا بك تلهث وتشخر في أثناء الركض بهذه الطريقة؟

- يحدث لي هذا دائمًا أيها الأب سافيلي عندما أركض، ألم تلحظ ذلك من قبل؟

- لا لم ألحظ ذلك. لماذا لم تلجأ إلى الطبيب في ذلك؟ ربما يساعدك.

- آه الطبيب! لا تذكِّرني به رجاء أيها الأب سافيلي، كما أنه لا يستطيع أن يساعدني بأي طريقة. لقد سحقني هذا المعالج الهنغاري بأدويته، وكما يقولون: «اشرب حتى لا تعود قادرًا على التكلم أو حتى التنفس»، إلا أني شربت كل أدويته ولم تنفعني في شيء. علاوة على ذلك أنا مستاء اليوم من طبيبنا هذا أيها الأب القمص. صببت جام غضبي عليه اليوم. يا له من وقح أيها الأب القمص!

وهنا اقترب الشماس من أذن الأب سافيلي وهمس له ببعض الكلمات ثم قال:

- أيمكنك أن تتخيل وقاحة كهذه؟

أجابه القمص، وهو يصعد درجات الكاتدرائية بهدوء:

- لا أرى أي وقاحة في ذلك. أستراجاليوس هي عظمة الكاحل، ولا أفهم سبب غضبك منها.

تراجع الشماس خطوة إلى الخلف، وصاح في دهشة:

- أتقول إنها عظمة الكاحل؟

- نعم.

ضرب أخيل جبهته براحة يده، وصاح بصوت أعلى:

- آه! كم أنا أحمق!

- ماذا فعلت؟

- لا، رجاء فلتدعُني أحمق.

- قل لي لماذا؟

- يمكنك أن تدعوني أحمق بكل جرأة، فقد كدت الآن أن أُغرِق هذا الطبيب.

- حسنًا، إذا سمحت لي يا أخي فسأنفذ طلبك. أنت فعلًا أحمق، وأتوقع لك إذا لم تتوقف عن عاداتك الغبية فإنك لن تموت قبل أن تقتل أحدهم.

- لا يخلو ذهني من بعض التفكير أيها الأب سافيلي.

- لا، بل يخلو تمامًا، وهذه حقيقة. أنت حقًّا فرد من الإكليروس قد شاب نصف شعره، وبالرغم من ذلك أينما تذهب تتسبب في فضيحة. تثير ضجيجًا هنا وتصيح هناك، وتطرق شيئًا وتقلب شيئًا آخر، وتجلب فوضى دائمًا من خلفك.

- إني أحاول تدبر الأمر جيدًا أيها الأب سافيلي، ولكن ما هذا الذي

يحدث؟ لا يعرف المرء ماذا يمكن أن يقول حيال ذلك. هل أرحل من حيث أتيت؟

- إنك تخلف الفوضى خلفك دائمًا.

- لا أعرف لماذا يحدث ذلك، ولست مذنبًا، وأتصرف على نحو أخرق بسبب طبيعتي، وعبثًا ينتظر المرء شيئًا مختلفًا عن طبيعته. إنني أناصر الآن النظام أكثر من الفوضى، وقد فعلت كل شيء بمكنني فعله في ذلك الصدد.

بعد ذلك حكى أخيل، بسرعة ولكن تفصيلًا، كيف سرق بالأمس العظام من برنابا بريبوتنسكي، وكيف وجد الهيكل العظمي مجددًا عنده في مكانه القديم. استمع توبيروزوف لأخيل وعينه تنفتح أكثر فأكثر، ووجد نفسه قد تراجع بضع خطوات إلى الخلف وصاح:

- آه يا سيدي العظيم! يا له من إنسان منحوس!

- من هو أيها الأب سافيلي؟

هكذا صاح أخيل بقدر كبير من الدهشة.

- إنه أنت، أنت.

- ولماذا أنا منحوس؟

- أي روح شريرة تدفعك إلى فعل كل ذلك؟

- وماذا فعلت؟

- التسلل والسرقة والشجار.

أجابه الشماس بهدوء وإخلاص:

- أنت الذي دفعتني إلى ذلك. قلت لي إنه يجب وضع حد لهذا الأمر بطريقة أو بأخرى.

هز توبيروزوف رأسه، والتفت بوجهه إلى الأبواب، ودخل بهو الكنيسة حيث كانت سيربولوفا راكعة على قدميها تصلي، وقد جلس في الزاوية على محفة الموتى المعلم بريبوتنسكي وأخذ ينفض الغبار من على سرواله، وقد شعَّ وجهه في هذه المرة بالبهجة. نظر إلى عيني القمص والشماس مبتسمًا. من الواضح أنه قد سمع حديثهما على أعتاب الكاتدرائية، وإذا لم يسمعه كاملًا، فعلى الأقل سمع بعضه. لكن ما الذي دفع المعلم الذي يتجنب الكنيسة إلى الحضور هنا؟ أدهش الأمر أخيل وتوبيروزوف مع وجود اختلاف واحد بينهما؛ أخيل لا يستطيع أن ينحِّي عنه التساؤل عن سبب وجود بريبوتنسكي هنا، بينما أبعد سافيلي الرزين الفكرة عن رأسه فور أن انفتحت الأبواب أمامه وبان الهيكل المقدس الذي تعوَّد على الوقوف أمامه بخوف ورعدة. مرَّت ساعة وانتهت الصلاة المقامة لإحياء ذكرى الراحل. شربت سيربولوفا وأحد أقربائها يُدعى داريانوف الشاي في منزل الأب سافيلي ثم رحلا. ستعود سيربولوفا إلى منزلها قرابة المساء عندما تغيب حرارة الشمس. إنها تريد الآن أن تستريح. يأتي إليها داريانوف لتناول الغداء معها في منزل والدة بريبوتنسكي، ويمر الأب توبيروزوف عليهم هناك بعد الغداء بقليل ليشرب الشاي ويودع ابنته الروحية المفضلة.

ولكن أين أخيل وبريبوتنسكي؟

فور أن بدأت الصلاة اختفى المعلم من الكنيسة، وركض الشماس إلى خارج الكنيسة فور أن انتهت الصلاة. اعتقد الأب سافيلي الذي استلقى ليستريح قليلًا أن أخيل لا بد وأنه يلاحق بريبوتنسكي. هذا ما حدث فعلًا، فقد كان الشماس وبرنابا يستعدان لمعركة كبيرة.

# الفصل التاسع

مُقبِض وممل ومنهك منظر شوارع مدننا الصغيرة في كل الأوقات، لكنها تكون قاتلة بدرجة خاصة في مواتها في ظهيرة يوم صيفي حار. غبار رمادي كثيف وآثار المجلات على الطريق وعشب ذاوٍ وناعس يحيط بالشوارع غير المعبَّدة من ناحية الأرصفة المتخيلة، وأسيجة رمادية متعفنة آيلة للسقوط، وأبواب الكنيسة مغلقة بأقفال ثقيلة، ومتاجر خشبية هجرها أصحابها وأغلقوها بلوحين خشبيين متعارضين... يغط كل ذلك في فترة الظهيرة في النوم إلى درجة مُعدية، حتى إن الإنسان المحكوم عليه بالعيش وسط هذه الظروف يفقد كل حيويته ويضعف وينعس هو الآخر.

في هذا الوقت تحديدًا جاب فاليريان نيقولايفيتش داريانوف بضعة شوارع فارغة، وأخيرًا انعطف إلى زقاق ضيق جدًّا أُغلِق بإحكام بسياج قديم مثقَّب. ظهرت كنيسة خلف السياج. أحنى داريانوف رأسه بشدة ودخل من البوابة الصغيرة الواطئة إلى فناء الكنيسة. في منتصف هذا الفناء كان هناك كوخ صغير لحارس الكنيسة، لا تمكن ملاحظته إلا بصعوبة، وفي الأعماق، خلف غابة كاملة من صلبان القبور المتداعية توارى منزل بريبوتنسكي الصغير والواطئ ذو النوافذ الثلاث.

في فناء الكنيسة لم تكن هناك هذه الطبقة الكثيفة من الغبار التي تراكمت في جميع ميادين وشوارع المدينة. الأمر هنا على النقيض؛ لاحت

طبقة عشبية خضراء وظهرت دجاجتان أرادتا الاسترخاء في التراب في ضوء الشمس، وكان عليهما كي تحققا ذلك أن تخرجا من البوابة وتستلقيا عند عتبتها المطلة على الشارع. هناك انغمستا في التراب ولذلك لم تكن بالإمكان ملاحظتهما تقريبًا، وقد اعتادتا الاستلقاء في هذا المكان يوميًّا، وهما في تمام الثقة بأن أحدًا لن يكدِّر صفوهما، ولذلك عندما مر بهما داريانوف، لم تتحركا أدنى حركة، بل فتحت كل منهما إحدى عيونهما الكهرمانية، ورمقتا الضيف بنظرة ناعسة، ثم أغلقتاها مجددًا بأجفانهما الرمادية. توجَّه داريانوف مباشرة إلى بوابة منزل آل بريبوتنسكي الصغيرة وطرق بالحلقة الحديدية الثقيلة. لم يجبه أحد. الصمت في كل مكان؛ لا الكلاب تنبح ولا صوت إنساني ينادي. طرق داريانوف على الباب مجددًا، ولكن بلا جدوى. بعد أن فقد أي أمل في أن يجيبه أحد مضى أسفل النباتات المعرشة إلى التوت الذي نما بكثافة عند منزل الخابزة، وألقى نظرة من إحدى النوافذ. كانت النوافذ مغلقة على مصاريعها بسبب أشعة الشمس، ولكن كان بإمكان المرء أن يرى من بين المصاريع كل شيء في الداخل. كانت هناك غرفة واسعة مرتفعة السقف خالية من الأثاث تقريبًا، وبها بابان يمكن للمرء أن يرى من خلفهما غرفة أخرى زرقاء صغيرة تضم فراشًا عاليًا وعليه لحاف قطني مليء بالرقع.

كانت الغرفة الكبيرة الفارغة للمعلم برنابا، والصغيرة لأمه، ولم يتضمن البيت ما هو أكثر من ذلك، إذا لم نضع في اعتبارنا المطبخ الذي لم يكن فيه مكان حتى للالتفاف حول الزاجنيتكا[1].

---

(١) جزء صغير في مقدمة الموقد الروسي على اليسار.

لم يظهر أحد في أي من الغرفتين، لكن داريانوف سمع صوت أحدهم يعمل بكد في الردهة الداخلية خلف الباب، وآخر يفرك في الحديقة تحت النافذة، أو ربما يهذب قطعة خشبية بالمبرد. بعد أن ازدادت قناعة داريانوف الآن بأن الطرق على الباب هنا لن يسمعه أحد، عَبَرَ السياج المحيط بالحديقة، ووجد فجوة بين الألواح الخشبية، وبدأ يحاول تبين الأمر من هذه الفجوة، ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فقد نمت عند السياج أجمات كثيفة لا تسمح برؤية الشخص الذي يصدر هذا الصوت بحك الطوب أو الخشب. وجد داريانوف نفسه مضطرًّا إلى الانتقال إلى نقطة مراقبة أخرى. وضع قدمه على أحد الألواح الخشبية المرتفعة قليلًا، وأمسك بيده حافة الجزء العلوي من السياج، وصعد ورأى حديقة صغيرة لكنها كثيفة للغاية، وفي منتصفها ممر صغير صنعته يد الخابزة بنثر رمال صفراء نظيفة. جلس المعلم برنابا على الأرض مباشرة في هذا الممر. جلس وقد مد قدميه كما يفعل الأطفال الصغار حينما يلعبون بالكرة. بين ركبتيه كانت هناك كومة كاملة من العظام الإنسانية على الرمل وورقة زرقاء من عبوات السكر. أمسك المعلم في كل يد ورقة سكر زرقاء، وانهمك في الفرك بشدة. بالرغم من أن المعلم بريبوتنسكي جلس في الظل، وبالرغم من أنه لم يثقل على نفسه بالعناية بمظهره، فإن العرق انسكب على وجهه بغزارة. كان حافي القدمين ولم يرتدِ سوى قميص وسروال مثبت بحمالة صدر واحدة.

صاح فيه داريانوف: «برنابا فاسيليفيتش! افتح لي يا برنابا فاسيليفيتش». لكن صيحته تلاشت من دون أثر. ظل بريبوتنسكي يعمل بكد، ومرفقاه يتحركان أمام بعضهما كذراعَي التدوير، وشعره المبلل يهتز

من جانب لآخر، وهو نفسه يهتز كما لو أنه أسطوانة متحركة، ولم يسمع شيئًا ولم يُجِب بشيء.

كان بوسع الضيف أن ينال ردًّا أسرع من الموتى المدفونين في مقبرة مهجورة عن المعلم المنهمك في عمله. خمَّن داريانوف ذلك، ولم ينادِه مجددًا، بل قفز من فوق السياج إلى حديقة بريبوتنسكي. بالرغم من سهولة القفزة فإن الألواح الخشبية القديمة المتبعثرة قد أصدرت طقطقة عالية أدهشت المعلم، فترك سريعًا ما في يده واندفع على أربع، وأمسك العظام البشرية المتناثرة أمامه. من الواضح أن بريبوتنسكي قد تملكه خوف شديد لكنه لم يستطع أن يهرب، ومن دون أن يفارق وضعيته هذه نظر بقلق إلى توت العليق الكثيف، وواصل بعناية أكبر التقاط العظام الموضوعة أمامه. في هذه اللحظة عندما افترقت أمامه أقرب صفوف التوت، هب سريعًا على ساقيه الطويلتين، وبدا لعينَي داريانوف المندهشتين في أغرب هيئة. رأس بريبوتنسكي الأشعث، ووجهه المتصبب عرقًا، المغطى ببقايا الطوب الأحمر، وعيناه الخائفتان، وجسده الطويل الذي لم يرتدِ ثيابه كاملًا، وحمله لعظام بشرية، والطوب المبشور الناعم الذي يغطيه من خصره والذي جعله يبدو من بعيد وكأنه ملطخ بالدماء... كل هذا جعله يبدو متوحشًا من آكلي لحوم البشر أكثر من كونه شخصًا يعمل في مجال التعليم.

- حسنًا يا برنابا فاسيليفيتش، يبدو أنك تعمل بكد.

قالها الضيف في أثناء دخوله، وبعد أن رآه برنابا ابتسم فجأة ورمش بعينيه صائحًا:

- أهو أنت؟! ظننتك أخيل.

بهذه الكلمات بسط برنابا ذراعيه بسرور فسقطت منها كومة كاملة من العظام البشرية على أرض الممر الصغير، كما لو أن أحشاءه قد تدلت منه. قال:

- آه يا فاليريان نيقولايفيتش! آه لو تعرف ماذا يحدث لنا هنا! لا، ملعون من يبقى في روسيا اللعينة هذه بعد كل ذلك.

- يا إلهي! ماذا بك؟ لا يمكنك أن تقول ذلك.

- بل يمكنني بالطبع إذا لم تكن... إذا لم تكن جاسوسًا.

- آمل ذلك.

- اجلس إذن على الدكة الصغيرة وسوف أكمل عملي. اجلس رجاء، فأنا أشعر بالسرور بحضورك؛ على الأقل يكون هناك شاهد. سوف أكمل عملي وأحكي لك.

قَبِل الضيف الدعوة وطلب من صاحب البيت أن يحكي له سبب حزنه ومتى بدأ الأمر.



# الفصل العاشر

قال بريبوتنسكي:

- لقد بدأ حزني يا فاليريان نيقولايفيتش منذ يوم ولادتي، ويتمثل هذا الحزن في الأساس في أني وُلِدت من أمي.

قال داريانوف، مجففًا العرق من جبهته:

- عسى أن تتعزى يا صديقي عندما تعرف أن الناس جميعًا وُلِدوا من أمهاتهم. مكدوف وحده هو من انتُزِع من الرحم، ولهذا انتصر على مكبث[1].

- مكبث؟! أي مكبث هنا؟! لسنا في حاجة إلى مكبث، بل إلى العلم، ولكن ما العمل عندما لا يكون التعليم ممكنًا هنا؟! يعلم الله بماذا أجيب، فلو كنت في بطرسبرج أو في نابولي أو في أي بلد أراد إنسان فيه أن يتعلم لما واجهت عقبات مثلما الأمر هنا. يُقال إنه في إسبانيا... أي بلد هو إسبانيا؟ يُقال إنه في إسبانيا يستحيل الحصول على الأناجيل اللوثرية، ومع ذلك تتم المؤامرات والانتفاضات على قدم وساق. أنا على ثقة بأنه إذا أراد أحدهم هناك أن يجلب بعض العظام من أجل الدراسة، فلن يمنعه

---

(١) في مسرحية مكبث لشكسبير ثمة نبوءة من الساحرات لمكبث أنه لا يمكن أن يُقتل من قِبل رجل وُلد من رحم امرأة، فإذا بمكدوف يعلن له خلال المبارزة الختامية أنه وُلد بعملية قيصرية، لتتهاوى ركبتا مكبث فزعًا ويرمي سيفه مدركًا مصيره الحتمي، مستسلمًا للطعنة.

أحد. أما هنا، ومن اليوم الأول الذي جلبت فيه العظام، ظلت أمي العزيزة تكدرني قائلة: «أعطني هذه العظام يا عزيزي فارناشا، من الأفضل أن أدفنها». من الذي سيسأل عن عظامه؟ لماذا كل ذلك؟ أمحق أنا أم لا؟

- محق تمامًا.

- رائع! الآن يقولون إني لا أتحدث مع أمي باحترام. كذب. الأمر على النقيض، فأنا قلت لها: «لا تلمسي العظام يا ماما. هذه حماقة. أنتِ لا تفهمين، وأنا في حاجة إليها. إنها تساعدني على دراسة جسم الإنسان». لكن ماذا يمكنني أن أفعل معها حينما تجيبني: «فارناشا يا صديقي، لا، الأفضل أن تدعني أدفنها». الأمر خارج السيطرة.

- بالضبط.

- وهناك شيء آخر. لقد طلبتْ ذكره في صلاة القداس.

- كيف؟

- أؤكد لك ذلك. كتبت: اذكر يا رب عبدك فلان.

- ما هذه الغرائب التي تحكيها؟

- بل وهناك فضائح.

- حقًّا؟

- بالطبع. وكيف ترى الأمر؟ كل شيء هنا مرتبط بالكنيسة. وقد أثار الأمر سلسلة كاملة من سوء الفهم، بل وفاحت منه رائحة الإجرام.

- يا إلهي!

- الأمر بالضبط كما أقول لك، لأن أمي تذكر أناسًا لا تعرف أسماءهم، ومن ثم عندما قرأ الكاهن هذا الطلب استثار الأمر غرائزه البوليسية، فمن هو فلان المقصود هذا؟

- وهل حاولت إقناعها بألّا تفعل ذلك؟

- حاولت بالطبع. قلت لها: «لا تصلي يا ماما العزيزة رجاء من أجله. إنه يهودي». لم تصدقني. قالت: «أنت تكذب، ولقد بدأت خداعي. أعرف جيدًا أن لليهود ذيولًا». «لا اليهود ولا غيرهم لديهم أي ذيول». واندلع جدال عنيف، وصرت في نظرها مناصرًا لليهود وهي معادية لهم. أقول لها إنه ليس لديهم ذيول وهي تؤكد: بل لديهم. أقول لها: «لا». تقول: «نعم». وعندما غضبت صاحت فيَّ: «كش كش»، كأني دجاجة، وصفَّقت أمام أنفي. تصور أنهم بعد كل ذلك يطالبون بمزيد من الحرية للمرأة! ممتاز! أنا نفسي مناصر لحرية المرأة لكن في حالة واحدة؛ أن تكون امرأة شابة متطورة لا تريد أن تُخزى من أفعالها... مثل هذه المرأة أعطيها حريتها، ولكن العجائز؟! لا، أنا أول الرافضين لذلك، بل وأتعجب كيف لم يُطوِّر أحد ذلك الموضوع في الأدب. بعد كل شيء أكثر الناس إضرارًا بنا هم من يستغلون هذا الموضوع. حتى الأب زكريا تجده فجأة مناصرًا لتحرير النساء! نعم، إنه مناصر لتحرير امرأة كأمي! يقول: «كما أن لديك الحق في عدم الإيمان بالله، كذلك هي لديها الحق في الإيمان به». أتسمع ماذا يقول؟! لولا هذه الآراء لاستسلمت أمي منذ فترة طويلة، ولكفَّت عن الذهاب إلى الكنيسة وبقيت هنا، وتخلت عن خبز القربان وعملت مربية عند بيزيوكينا، ولكن الجميع يسلحونها ضدي، سواء أخبل أو توبيروزوف نفسه.

- يكفيك ذلك.

- كيف أكتفي وأنا لديَّ دلائل على ذلك؟ لم يحبني توبيروزوف قَط،

لكنه ببساطة يكرهني الآن بسبب العلوم الطبيعية لأني مزقته.

- كيف مزقته؟

- لقد مزقته مائة مرة، حتى إني مزقته هذا الأسبوع أيضًا. ظل يتحدث في غرفة الإشراف في المدرسة عن أن ثمة شيئًا غير سليم في أيام العطل، ومزقته تمامًا في حضور الجميع. ببساطة أثبتُّ له رياضيًا أمام الجميع صحة أيام العطلات. تقول أين عطلاتنا؟ لديك عطلة عيد الميلاد، وكانت منذ ثلاثة عشر يومًا، أليس كذلك؟

- منذ اثني عشر يومًا، لا ثلاثة عشر.

- نعم، يبدو أنها منذ اثني عشر، ولكن ليس هذا هو المهم. حينها ضرب الطاولة براحة يده وصاح: «فليكن في علمك أيها الرياضياتي، لن تصل بذلك أبدًا إلى ما تريده من فيزيائك». أولًا، ما الذي يعنيه هنا بالفيزياء؟ أنت تفهم بالطبع الجهل والسخرية هنا، ودعني أسألك أيضًا: أهذه إجابة؟

ضحك الضيف وقال إنه بالرغم من ذلك فهي إجابة، لكنها إجابة غريبة.

- إنها أيضًا إجابة غبية، لكن هناك سلسلة كاملة من هذه الأشياء الغبية هنا. مثلًا: مساء الأمس وبينما أنا منصرف من عند بيزبوكينا، رأيت أمامي بمسافة قليلة المفتش دانيلكا؛ هذا المتسكع الذي ذهب ليسرق جواد جليتش من أجل روبلين. تحدثت مع دانيلكا. قلت له: «أين كنت يا دانيلكا؟»، وإذا به يقول لي إنه كان عند قائد الشرطة حيث جلب له بعض الثمار من عند زوجة مدير مكتب البريد، وسمع هناك كيف قرأوا أنه في

مدينة تشوخونسكي في منطقة ريفيلي رقد جثمان ميت مائة عام من دون فساد، والآن أمروا بدفنه. قال دانيلكا: «لا أعرف مدى صحة هذه القصة، ولكن بعد ذلك دار الحديث عنك». انزعجت لكنه هدَّأني قائلًا: «ليس عنك أنت تحديدًا، ولكن عن موتاك الذين تحتفظ بهم». أتفهم هذه الدسيسة؟ أعطيت دانيلكا عشرين كوبيكًا، وماذا كان بوسعي أن أفعل خلاف ذلك؟ هذا ليس حسنًا، لكني في حاجة إلى جواسيس، وأنا أقول دائمًا إن هناك حاجة حقيقية إلى الجواسيس، وأنا متفق تمامًا مع بيزبوكينا في ذلك. يستحيل تدبر الأمر من دون جواسيس عن طريق إدخال تعاليم جديدة، لأنه يجب دراسة المجتمع. هكذا هو الأمر. حسنًا، ما الذي كنت أتحدث عنه؟ آه تذكرت: أعطيت دانيلكا عشرين كوبيكًا وقلت له: «احكِ لي». حكى لي كيف أنه في أثناء قراءتهم للصحيفة تحدث الشماس عن عظامي. قال لهم: «لقد جلبت هذه الصحيفة عمدًا لأوجه انتباهكم إلى الأمر»، وهو كاذب بالطبع تمامًا لأنه لا يقرأ أبدًا شيئًا، وكل ما في الأمر أن دانيلكا جلب له بعض المكسرات في هذه الجريدة من متجر الإخوة لباليني. قال فوين فاسيليفيتش: «لقد أخطأتَ خطأً كبيرًا أيها الطبيب بإعطائك برنابا غريقًا، ولكن يمكننا إصلاح الأمر». يعرف قائد الشرطة بالطبع طبيعة شخصيتي ويقول إني لن أستسلم، وأنا بالطبع لم أستسلم فعلًا. لكن أخيل قال: «يمكن الاستيلاء على عظامه بسهولة ودفنها بهدوء». يجيبه قائد الشرطة: «أنصدر إذن الأمر ربع السنوي بجمع العظام؟». لكن هذا المجرم أجابه: «لستُ في حاجة إلى ذلك. سوف آخذها من دون أمر ربع سنوي وأدفنها في مقبرة الأطفال».

فجأة انقض بريبوتنسكي على العظام وأحاطها بذراعيه كدجاجة تغطي أفراخها الخائفين من اقتراب طائرة ورقية بجناحيها، وقال بصوت متوتر:

- لا يا سيد، عذرًا. ما دمت أنا حي فلن يحدث ذلك. يكفيهم أنهم يبطئون كل شيء قليلًا.

- ما هو الذي يبطئونه تحديدًا؟

- ألا تفهم؟

- أتقصد الثورة؟

توقف المعلم عن العمل وهز رأسه بابتسامة.

* * *

# الفصل الحادي عشر

واصل برنابا حديثه:

- بعد أن عرفت عن هذا اللقاء من دانيلكا ذهبت مباشرة إلى بيزيوكينا لأُعلِمها بالأمر، وبمرور ساعة وصلت المنزل ولم أجد عظمة واحدة. صحت: «أين هي؟ أين هي؟». وإذا بوالدتي تجيبني: «لا تغضب يا صديقي فارناشينكا (وهو اسم رائع بالمناسبة حيث إن فارناشينكا على وزن تشيرتاشينكا[1])، لا تغضب. لقد طالب الرؤساء بها». صحت فيها: «ما هذا الهراء؟! ما هذا الهراء؟! أي رؤساء؟». قالت لي: «الأب الشماس أخيل جاء من النافذة وجمع العظام كلها». «أتقولين إن الرؤساء طالبوا بها وإن أخيل أخذها؟». «نعم أقول إنهم طالبوا بها وأخيل أخذها». «فلتُعملي عقلك قليلًا -لو كان لديك عقل من الأساس- فهل الشماس يمثل أي رؤساء؟». «يا عزيزي، ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ إنه ممسوح بالمسحة المقدسة». اصنع لي معروفًا. ها أنت تضحك وتجد الأمر هزليًّا، لكن الأمر بالنسبة لي لم يكن مضحكًا عندما ذهبت إلى هذا اللص. يقول لي أخيل إني جبان، وهذا ما يظنونه عني بصورة عامة، لكني أثبت بالأمس أني لست جبانًا، وذهبت مباشرة إلى أخيل. وصلت إليه وإذا به نائم. قرعت على

(١) تشيرتاشينكا مشتقة من كلمة روسية بمعنى الشيطان.

النافذة وقلت: «أعطني عظامي يا أخيل أندريفيتش». في البداية استيقظ بصعوبة بالغة وحاول إثنائي باللين: «ما حاجتك إلى العظام؟». ولتلاحظ أنه كلَّمني بضمير المفرد! يا للتواضع! قال لي: «أنت هكذا أفضل من دون عظام». قلت له: «هذا ليس من شأنك». «لا، بل على النقيض؛ الأمر من شأني تمامًا. أنا فرد من الإكليروس». «ألديك الحق إذن في الاستيلاء على ملكية شخص آخر؟». «وهل العظام تُعتبر ملكية خاصة؟ ألم تفهم بعد أنه من غير المسموح لك الاحتفاظ بهذه الملكية؟». «من المؤكد أن السرقة أيضًا غير مسموح بها لرجال الإكليروس. أنت بالطبع لا تعرف القوانين الإنجليزية. في إنجلترا كانوا اليشنقونك على فعلة كهذه». «ما دمت تحدثت عن قوانين مختلفة، فهل تعلم أنك إذا أُرسلت إلى مكتبة الشرطة فسوف ينزلونك حتى مستوى الخصر في باطن الأرض ويجلدونك بسوطين؟ ماذا ستفعل بإنجلتراك حينها؟ هل ستجديك نفعًا؟». «إنك تعرف كل شيء؛ حتى عدد الجلدات التي يجلدونها هناك». «بالطبع أعرف، فهذا يحدث وفقًا لأبسط القواعد؛ ألا وهي أن من يختبر شيئًا بنفسه يفهمه جيدًا. سيجلدونك على الجانبين، وسيبذلون قصارى جهدهم». «لوحة رائعة!». «نعم هي رائعة، ولقد لاحظت ذلك بنفسك. الآن الأفضل لك أن تستمع إليَّ يا أخي. فلتنسَ كل هذه الحماقات ولترحل». قال ذلك وأغلق النافذة ودخل إلى وجاره. هنا فهمت بالطبع كل شيء، فهمت أنه كاذب لكنني قلت له كي أكتشف المزيد: «لكنك لا تعمل مع الشرطة أيها الشماس حتى تتابع تنفيذ القوانين». تصور أنه لم يفهم شيئًا من كلامي! لم يفهم إلام أرمي وألمح. قال: «وما الذي يُدريك بأني لا أعمل مع الشرطة؟ ربما يكون لدي ذلك القفاز الأبيض الخاص بالشرطة، وسأريه

لك الآن إذا استمررت في إزعاجي ومنعي من النوم». لكني لم أنتظر أن يريني إياه بالطبع لعدة أسباب، أولًا: لم يهمني الأمر. ثانيًا: عرفت بالفعل كل ما أحتاج إلى معرفته، كما عرفت عادته البهيمية في العراك. قلت له: «لا، لا أريد أن أراه، ولا تهمني على الإطلاق أدلتك». وذهبت بعدها إلى بيزيوكينا لأحكي كل شيء سريعًا لداريا نيقولايفنا[1]. داريا نيقولايفنا مثلي تمامًا، وتقول إنها منذ فترة وهي تشك في أنهم يعملون جميعًا هنا في الشرطة السرية.

سأله صديقه بذهول:

- من الذي يعمل في الشرطة السرية؟

- جميعهم، وخاصة الكاهن سافيلي والشماس أخيل.

- لا... لقد جننت أنت وداريا نيقولايفنا.

- لا، داريا نيقولايفنا لا تخدعني في ذلك. لقد تحملت الكثير فعلًا منهم.

- إنها تكذب، ولم تتحمل أي شيء بسببهم.

- من الذي لم يتحمل شيئًا منهم؟ داريا نيقولايفنا؟

- نعم.

قال المعلم بانحناءة هزلية:

- شكرًا جزيلًا.

- ماذا تقصد؟

قال بريبوتنسكي بفخر:

(١) الشخصية واحدة: داريا نيقولايفنا بيزيوكينا. سيُذكر لاحقًا اسم داريا بصيغة تدليل: دانكا.

– عذرًا، ولكنهم جلدوها.

– في طفولتها، ومن الواضح أن الأمر كان بسيطًا.

– لا، ليس في طفولتها، ولكن قبل زواجها بيومين.

– إنك تدهشني أكثر فأكثر.

– لا تندهش، إنها حقيقة.

– حسنًا، اعذرني على جهلي، لكني لم أعرف هذه الحقيقة من قبل.

– الأمر كما أقول لك، ويجب على كل إنسان أن يعرف ذلك إذا أراد أن يحكم. بدأ الأمر حينما قررت داريا نيقولايفنا أن تفارق أباها.

– لماذا؟

– أتسأل لماذا؟ كم يبدو سؤالك غريبًا!

– أسأل سؤالي هذا لأني أظن أن أباها لم يضطهدها ولم يضايقها ولم يجبرها على شيء.

– يبدو أنك لا تعرف إلا القليل. حسنًا، لم يجبرها على شيء، لكنها أرادت ببساطة أن ترحل، ورحلت فعلًا. ما الذي يجعلها تواصل حياتها مع أبيها؟ لقد علَّم بيزبوكين أخاها الأصغر، ووافق على الزواج منها حتى لا يعود لأبيها أي حقوق عليها، لكن أباها لم يوافق على زواجها من بيزبوكين، واعتبره أحمق، أما هي فقد قررت أن تثير فضيحة، فلم تعد قادرة على التراجع، وأتمت الأمر بطريقتها الخاصة. لقد صارت على قناعة بأنه لا مجال لأن تتزوج من أي رجل آخر، وأخبرت والدها صراحة بذلك. أتسمعني يا فاليريان نيقولايفتش؟

– إني لا أسمعك فقط، بل إن كل كلمة تقولها تثير فضولي.

- لا بد وأن تثير فعلًا فضولك، وسيتزايد فضولك الآن. حدَّثت أباها بصراحة إذن عن هذه الحقيقة، لكنه لم يفعل شيئًا سوى الوقاحة التالية؛ قال لها: «اعرجي يا عزيزتي غدًا على عمتك وأخبريها عن هذا الأمر». لم تَشُك داريا نيقولايفنا في شيء، وذهبت فعلًا، وهناك ضربوها في حضور هذه السيدة. ذهبت من هناك مباشرة إلى قسم الشرطة. قالت لهم: «افحصوني كما تشاءون وأبلغوا بطرسبرج بذلك. لا أريد أن أخفي الأمر. ليعرف الجميع ماذا يفعل الآباء تحديدًا». أجابها الشرطي: «لا أريد أن أتحقق من شيء، ولن أبلغ أحدًا. أنا على وفاق مع أبيك العجوز، بل وأود أن أساعده إذا شاء أن يكرر الأمر». ما الذي تنتظره بعد كل ذلك؟ لدينا شرطة سرية بالطبع؛ الأب والعمة، كما يتبين فجأة أن الجميع ليسوا سوى شرطة سرية. لا تقول داريا نيقولايفنا سوى أمر واحد: «على الأقل ربحت شيئًا واحدًا؛ لقد خبرتهم وعرفتهم جيدًا». ولذلك عندما أخبرتها بالأمس عن اكتشافي بخصوص أخيل قالت لي: «الأمر كذلك إذن! إنه جاسوس. المسألة الرئيسة في وضعنا الخطير الآن هي كيف تستعيد عظامك. لا يمكن لأخيل أن يبيعها ليلًا، وإذا تسللت إليه يمكنك أن تستعيدها؛ إلا أن عليك أن تأخذ حذرك من أن يُمسك بك وإلا أوسعك ضربًا».

- أحقًّا ذلك؟

- مثلما قالت بالضبط لأنها تعرف عادات أخيل جيدًا، لكن بالرغم من ذلك قالت: «لا، لا تخشَ شيئًا. فلتلف حول عنقك وشاحي السميك ولترتدِ فوق رأسك قلنسوتي القطنية، وبهذه الطريقة إذا أمسك بك وضربك فسيكون أثر الضربات ضعيفًا ولن تتألم». فعلت كما قالت ولففت نفسي جيدًا وذهبت. وصلت إلى ساحة منزل هذا البهيمة للمرة

الثانية. كان الكلب سينبح لكن داريا نيقولايفنا تنبأت بذلك سابقًا ومن ثم أعطتني قطعة حلوى للكلب. أطعمت الكلب ورأيت عربة أمامي مباشرة، وفتشت العربة وإذا بي أجد كل عظامي.

- وأسرعت بالطبع إلى العمل، أليس كذلك؟

- بالطبع. خلعت قلنسوة داريا نيقولايفنا سريعًا، وربطت العظام فيها وعدت بأقصى سرعة.

- وهل انتهت القصة هكذا؟

- كيف تنتهي؟ بل على النقيض؛ إنها الآن في أوج اشتعالها. أتريد أن أحكي لك ما حدث؟

- نعم من فضلك.

* * *

# الفصل الثاني عشر

- سأبدأ بهذا التوضيح: كيف ولماذا ذهبت اليوم إلى الكنيسة؟ في ساعة مبكرة من صباح اليوم جاءتنا ألكسندرا إيفانوفنا سيربولوفا. معرفتك بها بالطبع لا تقل عن معرفتي بها. إنها مؤمنة، وأفكارها في كثير من القضايا رجعية، لكنها تساعد أمي بطريقة أو بأخرى، ولذلك أضحي من أجلها وأجبر نفسي على عدم الجدال معها. لماذا أقول لك ذلك؟ آه! تذكرت. فور أن وصلت إلينا قالت لي أمي: «انهض، انهض يا عزيزي برنابا واصطحب ألكسندرا إيفانوفنا إلى الكنيسة حتى لا تندفع إليها الكلاب وتؤذيها». ذهبت معها. كما تعرف أنا لا أذهب إلى الكنيسة أبدًا، لكني أدرك أن لا أخيل ولا سافيلي يمكنهما أن يمساني بسوء هناك، ومن ثم ذهبت. بينما أنا واقف هناك أدركت فجأة أني تركت غرفتي مفتوحة، والعظام فيها، ومن ثم ركضت عائدًا إلى المنزل. وصلت ولم أجد أمي، ونظرت إلى الحائط وإذا بي لا أجد عظمة واحدة.

- هل أخفتها؟

- نعم.

- هل حقًا أخفتها بلا مزاح؟

- نعم بالطبع، وما وجه المزاح هنا؟ وجدتُها وقلت لها: «ماما

العزيزة، سوف أبجِّلك ولكن أخبرني بأمانة: أين عظامي؟». «لا تسألني عنها يا برنابا. لقد نعمتْ بالهدوء أخيرًا». فعلت كل ما يمكنني فعله؛ بكيت وهددت بالانتحار، وأخيرًا وعدتها بأن أصلي لله، لكنها ظلت على رفضها. ذهبت إلى المدرسة وأنا أغلي غضبًا، وعزمت بكل إصرار على أن آخذ المجرفة الليلة وأحفر عند إحدى المقابر القريبة من الكنيسة، وآخذ لنفسي عظامًا جديدة، وأن أُتم الأمر سريعًا حتى لا يجادلوني. سيطلقون على هذه الفعلة جريمة، أليس كذلك؟

– بل وأكثر من ذلك.

– فلتحكم بنفسك إذن: من الذي أفضى بي إلى ذلك؟ أمي. كنت سأفعل ذلك سريعًا، ولكن فجأة، ولحسن حظي، وجدت صبيًّا يأتيني في الفصل ويقول لي إن خنزيرًا حفر على الشاطئ وهناك بعض العظام. اندفعت وكلي أمل أن تكون هي عظامي، وهذا ما وجدته فعلًا. التقطت العظام وركضت. أمسك أخيل بسترتي. التفتُّ، وطراخ! ألقيتها، ولتذهب السترة إلى الجحيم، وإذا به يمسك بياقتي. طراخ! ولتذهب الياقة إلى الجحيم، فأمسك أخيل بصدريتي، وطراخ! انشطرت الصدرية إلى اثنين. وأمسك أخيل بعنقي وطراخ! ركضت وها أنا جالس أنظف هذه العظام حتى أَخَفْتَني، فقد ظننتك أخيل.

– لا بد أن أخيل سيأتي إليك، حتى إذا تطلب الأمر أن يقفز من فوق السياج. إنه شماس!

– إنه شماس! أنت تقول: «شماس». إنه يولي ذلك أهمية بالغة. أخبرني المفتش دانيلكا بالأمس أنه في أثناء وداعه قال لتوبيروزوف: «أيها

الأب سافيلي، لا تدعُني أخيل الشماس حتى أقضي على المدعو برنابا، بل أخيل المقاتل». حسنًا، دعه يقاتل. لست خائفًا منه، كما أني أعرف من الآن ماذا سوف أفعل. لقد قررت ألَّا أعيش هنا أكثر من ذلك. لقد راسلت أحدهم في بطرسبرج. أحد السادة يُرتِّب لي الأمور وسأرحل إلى هناك. أقول لك إني حاولت فعلًا وأرسلت أنا وداريا نيقولايفنا بضعة مقالات إلى هناك، وجميعهم أجابونا قائلين: «إنها حادة». رائع هذا التوصيف «حادة». حسنًا، سأكون حادًّا هناك، ولن أبدي أي تساهل، ولكن هنا لا يمكن للأمر أن يستمر عندما يجد المرء أنه قد يزهق روحه من أجل عظمة ميتة! من ناحية أخرى احكم أنت بنفسك؛ يا للنذالة التي صارت في بطرسبرج! حتى أكثر الصحف من حيث حسن النية تبدأ الآن في السخرية من انتشار الولع بالعلوم الطبيعية! هل قرأت عن ذلك؟

- أظن أني قرأت شيئًا شبيهًا بذلك.

- وهل فهمت ذلك؟ أخبرني لماذا في هذه الحالة دعونا لنعمل على الضفدع وما إلى ذلك؟

- لا أعرف.

- لا تعرف؟ حسنًا، أقول لك إنهم لن يفعلوا الأمر بهذه الطريقة. سآخذ عظامي وأذهب إلى بطرسبرج، وألوِّح بها أمام وجوههم مباشرة! أمام وجوههم! ولتقُدني العظام إلى عهد جديد!

* * *

# الفصل الثالث عشر

فجأة قالت سيربولوفا التي كانت واقفة حتى هذه اللحظة خلف شجرة كرز كثيفة، ولم يلحظ وجودها أحد من المتحاورين:

- هههههه! رائع ما ستفعله!

أمسك بريبوتنسكي بقميصه المفكوك على صدره، ورفع بيده الأخرى سرواله الملطخ بأثر الطوب، وقال:

- اعذريني يا ألكسندرا إيفانوفنا على عدم ارتدائي ثيابي كاملة.

- لا مشكلة! ليس على الرجل العامل أن يولي انتباهًا كبيرًا إلى مظهره، ولكن تعالَ، أمك تدعوك إلى الغداء.

- لا يا ألكسندرا إيفانوفنا. لن أذهب إلى الغداء. لا يمكنني أنا وأمي أن نعيش معًا أكثر من ذلك. كل شيء قد انتهى بيننا.

- ينبغي أن تخجل من حديثك هذا. إنها تحبك.

- عبثًا تحاولين إحراجي. إنها تصادق أعدائي، وتدفن عظامي، لكني استطعت بطريقة ما أن أشعل سيجارتي من الشعلة الموجودة أمام أيقونتها المقدسة؛ الأمر الذي يغضبها بشدة.

- ولماذا تشعل سيجارتك من هذه الشعلة؟ أليست هناك طريقة أخرى لإشعالها؟

- ولكن هذا محض غباء.

ابتسمت سيربولوفا وقالت:

- أشكرك شكرًا جزيلًا.

- أنا لا أقصدك أنتِ، بل أتحدث عن الشعلة. إنها نار على أي حال.

- ما دامت هي نارًا على أي حال، يمكنك أن تشعل سيجارتك من شعلة أخرى.

- سيان. لا يمكن إرضاؤها بأي طريقة. بالأمس أعطيت كلبنا القليل من الحساء من الصحن؛ الأمر الذي أبكى ماما، وكسرت الصحن بحزن قائلة إن الكلب نجَّس الصحن. دعيني أسألكِ يا فاليريان نيقولايفيتش بحكم معرفتكِ بالفيزياء: هل يمكن تنجيس أي شيء؟ يمكنك أن تشمشم، ويمكنك أن تنبش، ولكن كيف يُنجس ذلك شيئًا؟ الأحمق وحده هو من يمكنه أن يقول ذلك.

- ولكن ألم يكن بإمكانك ألَّا تطعم الكلب من هذا الصحن؟

- كان بإمكاني، ولكن لماذا أفعل ذلك؟

- حتى لا تغضب أمك.

- أهكذا تنظرين إلى الأمر؟ في رأيي مثل هذه الألاعيب لا تلائم الإنسان النزيه.

- وهل يلائم الإنسان النزيه أن يأكل لحم خنزير أمام أمه العجوز؟

- آه! هل اشتكت لكِ من هذا أيضًا؟ بدافع الفضول اشتريت من أحد التتر من معارفي ضلوع خنزير مدخنة. صدقيني إنها لذيذة. أكلتها مرتين على الإفطار مع داريا نيقولايفنا، كما أنها أطعمت أطفالها منها، والمرة

الثالثة جلبتها لماما، ومن دون أن تعلم ماما شيئًا أكلت منها وامتدحت طعمها، وفجأة بدأت المصيبة عندما أخبرتها ماذا أكلَتْ.

ابتسمت سيربولوفا لداريانوف، وقالت:

- لا عليك، الأفضل أن تأتي وتتغدى، ولكن رجاء لا تذكر الأمر على الغداء.

- لا، لقد قلت لكِ إني لن آتي، لن آتي.

- هل يغضبك تناول الخبز والملح؟

- لست غاضبًا، لكن مستحيل أن أفارق موضعي الآن. إني في موقف يجعلني أنتظر مختلف أنواع الدناءات من كل مكان.

ابتسمت سيربولوفا بهدوء، ومدت يدها لداريانوف، وذهبا لتناول الغداء معًا تاركين المعلم لعظامه.

* * *

# الفصل الرابع عشر

اعتذرت الخابزة بريبوتنسكايا؛ العجوز ذات الجسد الضئيل والوجه الصغير والعينين الطيبتين المندهشتين دائمًا والحاجبين اللذين يبدوان كعلامتي الفاصلة العليا الفرنسية، لداريانوف على عدم سماعها طرقاته التي استمرت طويلًا، وسرعان ما دعته للجلوس إلى الطاولة وسألته همسًا:

- أرأيت برنابا ابني؟

أجابها بأنه رآه. اشتكت العجوز قائلة:

- سيظل يعذبني دائمًا يا فاليريان نيقولايفيتش.

- فليكن الله معه. ما الذي يزعجك؟ إنه شاب. سوف ينضج ويتزوج ويتغير.

- أسيتغير؟ لا. كيف يمكنه أن يتزوج يا عزيزي؟ هذا غير ممكن. إنه يسلك طريقًا ملتويًا لا نهائيًا، ولا يؤمن بالسيد الرب ولا بالأبدية، ويتناول اللبن واللحم في كل الأصوام؛ حتى في أسبوع الآلام. لقد جلب عظام موتى إلى المنزل، وأنا يا عزيزي، والحق يُقال، أخاف منهم خوفًا رهيبًا في المساء، وأنزعج انزعاجًا رهيبًا.

انعقدت الفاصلتان الفرنسيتان السوداوان فوق عيني العجوز الصغيرة والخجولة، وارتجفت وهمست:

- وعلاوة على ذلك، تراودني يا عزيزي دائمًا كوابيس مريعة، حتى إني فور أن أستيقظ أهمس: «فسِّر لي حلمي أيها القديس سمعان». لو كان بإمكاني التحدث مع أحد في هذا المنزل لاحتملت الأمر، لكني وحدي دائمًا؛ مع الأموات دائمًا. أنا لا أخاف يا عزيزي من رجل ميت مدفون، لكن برنابا لا يسمح لي بدفن هذه العظام.

- لا تغضبي منه، إنه طيب.

- طيب! طيب بالطبع، وأنا لا أريد أن أدَّعي كذبًا أنه شرير. لقد كنت أمًّا سعيدة، وكان طيبًا معي طيبة لا نهائية، حتى انتقل إلى دراسة الفلسفة في الصف السادس. في ذلك الوقت كان يذهب إلى الكنيسة وقد ذهبت به إلى الأب سافيلي، حتى إن الأخير لاطفه كثيرًا وساعده في بعض الأمور البسيطة، وفجأة بدأ يتفلسف دائمًا، وأنا نفسي لا أفهم ماذا أصابه تحديدًا. منذ هذا الوقت كلما جاء من المعهد بدا في كل مرة أسوأ من التي قبلها، وأخيرًا صار قاسيًا في معاملته لكل الطيبين، حتى إنه بدأ يضايق القمص زكريا في أثناء تأديته لطقوس العِماد. آه! كم يثقل ذلك نفسي! (واصلت العجوز وقد عبست بمرارة) عرفت الآن أنه أكل هو وزوجة محصل الضرائب بيزيوكينا ضفادع بالصلصة أول أمس. يا إلهي! يا إلهي! أي أم يمكنها تحمل ذلك! هل يفعل ذلك بسبب الجوع؟ لقد فسد. لقد قرأ لي الأب زكريا عمدًا من المجلة الكنسية «المحادثة المنزلية»: «تملك الغضب ابنًا نبيلًا، ولم يستطع عشرة أشخاص إيقافه». هكذا هو برنابا. لا أحد يستطيع إيقافه. إنه يتسم بخجل رهيب، حتى إنه منذ فترة قريبة لا تتخطى عامًا واحدًا، كان يتوجب عليَّ أن أرافقه في المساء، وإذا تركته أجده يصيح ملوحًا بذراعه: «لن أخون نفسي، لن أخونها. لا، سأقضي

على الجميع، سأقضي عليهم». هكذا أعيش دائمًا متوقعة أن أجده في قسم الشرطة أو في السجن.

تحركت الخابزة مجددًا ومسحت دموعها في المطبخ بمنشفة ثم جاءت مجددًا وقالت:

- أعترف لك أني أشرب كل يوم من مياهه السحرية. لا يعرف بالطبع شيئًا عن ذلك، ولا يلاحظه، لكني أشرب، ولكن بلا جدوى، علاوة على أنها خطية. لا يقول الأب سافيلي سوى أمر واحد؛ أن أبعده إلى طشقند[1]. أسأله: «لماذا لا نحاول معه باللين مرة أخرى؟». يجيبني: «لأن اللين لن يجدي معه نفعًا. يبدو أنه يفتقر إلى المشاعر الطبيعية تمامًا». إذا كان الأمر كذلك فإني يا أعزائي أشعر بالأسف الشديد عليه.

ثم اختفت الخابزة مجددًا.

بعد ابتعادها همست السيدة الشابة:

- يا لها من بائسة!

أكد رفيقها ذلك وأضاف:

- فعلًا، وهذا الأحمق لا يزال يعذبها ولا يريد حتى أن يتناول معها الغداء.

- لنذهب ونحضره.

- لن يأتي. إنه عنيد كالجواد.

- كيف لا يأتي معنا؟ قُل له إني آمره، وإني عميلة للشرطة السرية، وإني آمره أن يأتي للغداء الآن وإلا سوف أبلغ بطرسبرج عنه.

---

(١) امتلأت طشقند في هذا الوقت بمنتجعات صحية للعلاج والراحة.

ضحك داريانوف، ونهض وذهب إلى برنابا. في هذه الأثناء استغرق المعلم في إخفاء كنزه، وشعر بالشهية، وظل على رفضه لدعوة الذهاب إلى الغداء بصعوبة بالغة.

أراد داريانوف أن يُخرِجَ هذا الشهيد من المأزق الذي أوقع نفسه فيه طواعية، فانحنى صوبه وهمس في أذنه بما قالته سيربولوفا. صاح برنابا وقد اكتسى وجهه كله بالحمرة:

- أهي جاسوسة؟

- نعم.

- وربما...

- ربما ماذا؟

ربت برنابا على يد داريانوف بود وقال:

- أشكرك على أنك لم تُخفِ عني هذا السر. اسمح لي الآن أن أطيعك.

ذهب بعدها لتناول الغداء بضمير صافٍ.

* * *

# الفصل الخامس عشر

نجحت الحيلة. وجد برنابا ذريعة يمكنه بها الحضور إلى طاولة الغداء بكرامة. دخل الغرفة كما لو أنه ضحية قوى عدائية وانزوى عند ركن الطاولة الضيق أمام داريانوف. جلست سيربولوفا على الجانب الثالث بينهما، بينما ظل الجانب الرابع فارغًا. لم يحدث قَط أن جلست الخابزة نفسها إلى الطاولة مع ابنها، ولم تجلس الآن أيضًا مع الضيوف، بل خدمتهم وحسب. صارت العجوز في قمة الفرحة برؤية ابنها المثقف أمامها الآن، وتَصارَع الحزن والفرحة على وجهها واحمر جفناها وارتجفت شفتها السفلى بهدوء، ولم تسر على ساقيها الواهنتين، بل ركضت، وحاولت في أثناء هرولتها ووقوفها على السواء أن تتخذ وضعيات لا يرى فيها أحد ما يعتمل على وجهها.

قال لها داريانوف مازحًا:

- ألا يمكن إيقافكِ الآن؟

- لا، لا يمكن إيقافها الآن يا فاليريان نيقولايفيتش.

هكذا أجابت بفرحة وهرولت مجددًا، ونجحت في ابتلاع دمعة غير ضرورية في المطبخ.

استفاد الضيفان من الحيلة للحفاظ على العجوز، وامتدحا طبخها، أما هي فرفضت بتواضع كل هذا المديح، قائلة إنها لا تستطيع سوى أن تُعد أبسط أنواع الطعام.

- لكنه لذيذ جدًا.

- لا، إنه بعيد كل البعد عن اللذة، لكنه الأفضل صحيًا، وحتى هذا الأمر لست متيقنة منه، فبرنابا يأكل منه طوال الوقت وانظر كم يبدو جائعًا!

- إمممم!

قالها برنابا، بعد أن نظر نظرة توبيخ إلى والدته وهز رأسه.

- وكيف أنت إذن يا برنابا؟! بحق الله تبدو هزيلًا.

هدد المعلم قائلًا:

- أتكررين ذلك؟

- ما الذي يسيئك في هذا يا برنابا؟ تشرب اللبن صباحًا إلى ما لا نهاية، وتشرب الشاي وتأكل معه كعكة إلى ما لا نهاية، وكذلك تأكل العصيدة الساخنة إلى ما لا نهاية، وتنهض بعد كل ذلك من على الطاولة جائعًا تمامًا. هذا مَرَض! فلتستمع لي يا ابني؛ أقول لك إن...

قاطعها المعلم بصيحة غاضبة:

- ماما!

- ماذا بك يا برنابا؟ ما إن ينهض برنابا في الصباح حتى أدعو: «املأ معدته يا رب وأشبع جوعه».

- ماما! (صاح بريبوتنسكي بصوت أعلى)

- ما الذي يغضبك أيها الأحمق؟ كل ما أذكره هنا هو أني أقول: «أشبع يا سيد جوع ابني». فأنا كما تعلمون (تتوجه بالحديث إلى الضيفين) لا آخذ لنفسي سوى قطعة واحدة فقط حتى أكون معه في المكان ذاته في الحياة الأخرى، ومع ذلك لا يريد أن يقاسمني هذه القطعة الواحدة. لماذا يفعل ذلك؟

- أتسألين لماذا؟ أتريدين أن تعرفي لماذا؟ اسمحي لي أن أقول لكِ إذن. السبب هو أني لا أريدكِ أن تكوني معي في أي عالم. أتفهمين؟ لا في هذا العالم ولا في أي عالم آخر.

لكن قبل أن ينهي المعلم هذا الحديث، شحبت العجوز، وارتج كيانها، وانزلق من يدها طبقان صينيان وسقطا على الأرض وتحطما. صاحت:

- برنابا! أنت تتبرأ مني!

- نعم، نعم، نعم. أنا أتبرأ منكِ. أتبرأ منكِ. لقد أزعجتني هنا إلى حد أني لم أعد أريد أن أراكِ في هذا العالم، بل ولا في أي عالم آخر.

- هش! هش! هش!

قاطعت الخابزة ابنها باكية، وبدأت تصفق بيديها بصوت عالٍ تحت أنفه حتى لا تسمع حديثه. لكن برنابا صاح بصوت أعلى من تصفيقها. حينها اندفعت إلى الأيقونة المقدسة وصرخت بجنون وهي تمد أصابع يديها الضعيفتين أمامها:

- لا تستمع إليه يا رب، لا تستمع إليه، لا تستمع إليه.

قالت ذلك وسقطت في إحدى الزوايا وانخرطت في البكاء.

أثار هذا المشهد المؤلم والمفاجئ تمامًا كل الحاضرين عدا بريبوتنسكي نفسه. ظل المعلم هادئًا تمامًا، منخرطًا في تناول الطعام بشهيته التي لم تفارقه. نهضت سيربولوفا من على الطاولة وهرعت خلف العجوز التي خرجت راكضة. رأى داريانوف كيف عانقت الخابزة ألكسندرا إيفانوفنا. نهض وأغلق باب الغرفة الذي يكشف منظر المرأتين، ووقف بنفسه عند النافذة.

ظل بريبوتنسكي مستغرقًا في تناول الطعام كما كان. سأل في أثناء مضغه للطعام:

- متى تعود ألكسندرا إيفانوفنا إلى منزلها؟

أجابه داريانوف بجفاف:

- عندما تهدأ حرارة الجو.

تمطع بريبوتنسكي وقال:

- ومتى يحدث ذلك؟

- سوف يأتي توبيروزوف أيضًا إلى هنا.

- توبيروزوف؟ سيأتي عندنا؟ في منزلنا؟

- نعم في منزلكم، ولكنه لن يأتي إليك، بل لألكسندرا.

قال داريانوف هذه الجملة الأخيرة لبريبوتنسكي وقد ابتعد عنه، ناظرًا إلى ساحة الدار، ولكن بقوله هذه العبارة التفت إلى وجه المعلم وقال بابتسامة خفيفة:

- ألا تزال تخاف توبيروزوف؟

- أنا؟ أنا أخافه؟

- نعم، تغير لون أنفك منذ أن قلت لك إنه سيأتي إلى هنا.

- لون أنفي تغير؟ أؤكد لك أنك تتصور هذا وحسب، وأني لا أخافه وسأثبت لك هذا الآن.

بقوله ذلك نهض بريبوتنسكي من مكانه وخرج سريعًا. لم يخطر ببال الضيف قَط أي أفكار جريئة أينعت في هذه اللحظة في ذهن برنابا اليائس، أما القارئ الكريم فسيعرفها في الفصل القادم.

# الفصل السادس عشر

بخروجه من الغرفة توجه بريبوتنسكي سريعًا إلى سقيفة صغيرة، وهناك خلع لباسه العلوي، وانسل إلى مخزن التبن، ومن هناك أزال لوحين، ونزل عبر فجوة ضيقة إلى مخزن صغير مغلق من الخارج. احتوى هذا المخزن الصغير على أغراض منزلية. كانت هناك دلاء على الأرض، كما عُلِّقت فيه ساق خنزير، وكذلك تدلت حزم من النعناع والشبت. لم يلمس المعلم شيئًا من كل ذلك، لكنه اعتلى صندوقًا مرتفعًا من خشب الصنوبر ذا سطح مائل، وأخرج منه آنية جيرية متداعية لكنها نظيفة كزجاج واجهات المحلات، ثم أعادها إلى مكانها فورًا في السقيفة حيث أخفت العظام المشؤومة جيدًا.

لم يبالِ أحد بما يفعله المعلم بصورة خاصة، ولكنه بوصفه إنسانًا تَعوَّد أن يحلم بأنه في «وضع خطير» لم يثق بأحد، وانكمش على نفسه وتوارى حتى لا يعوقه شيء عن تنفيذ ما تعهد به في الوقت الذي يلائمه وبكل وقار. مرت ساعة تقريبًا منذ أن توارى برنابا في السقيفة، وبدأت تعتم في ساحة المنزل، وحينها رنت حلقة البوابات البائسة لمنزل الخابزة.

وصل توبيروزوف. سمع برنابا من سقيفته كيف تصر وتئن درجات الرواق المتداعية تحت قدمَي القمص الكبيرتين اللتين تطآنها، وتناهت إليه أصوات تحياته ومباركاته لسيربولوفا والعجوز بريبوتنسكايا، وبرنابا لا يزال كامنًا في مكانه لا يكشف عما ينتوي أن يفعله.

- حسنًا يا أرملة نايين[1]، كيف حال ابنكِ المثقف؟

هكذا قال الأب سافيلي للأرملة التي وضعت طاولة بيضاء في الرواق ليشربوا عليها الشاي.

- ابني برنابا؟ يعلم الله حاله أيها الأب القمص. لا بد أنه شعر بالخجل وتوارى في مكان ما.

- ما الذي يجعله يختبئ وهو في بيته؟

- إنه يخشاك أيها الأب القمص بشدة.

- يا رب! ما الذي يخيفه مني؟ على العموم الأفضل فعلًا أن يخاف ويحمي نفسه.

بدأ توبيروزوف يحكي لداريانوف وسيربولوفا كيف فاجأه أخيل بمغامراته الليلية في الليلة الماضية.

- من طلب منه ذلك؟ من كلَّفه بذلك؟ من أمره؟ (فكر العجوز ثم أجاب) لا أحد. هو من قرر بنفسه أن يلتقي ببرنابا فاسيليفيتش، وأجريا محادثات في جميع أنحاء المدينة.

سألت العجوز:

- وأنت أيها الأب القمص، ألم تأمره بذلك؟

- قولي لي رجاء، هل يمكن أن آمر بمثل هذه الحماقات؟

هكذا أجاب توبيروزوف، وبدأ يتحدث عن شيء غريب، وفي هذه الأثناء مرت نصف ساعة أخرى، وبدأ الضيوف يستعدون للعودة

---

(١) نايين بلدة في اليهودية، وبحسب القصة الإنجيلية التقى المسيح هناك بأرملة تبكي ابنها الميت، وأقام ابنها من الأموات. (لوقا ١١)

إلى منازلهم. لم يظهر برنابا طوال هذا الوقت، ولكن ما إن أتى حوذي سيربولوفا بالجواد إلى ساحة المنزل حتى انفتحت أبواب السقيفة التي توارى فيها برنابا بعنف، وأعلن عن نفسه بصورة احتفالية أمام عيون الحاضرين الذين تفاجأوا بحضوره.

كان بريبوتنسكي في كامل ثيابه كالمعتاد، وظهر وقد وضع يديه على رأس هذا الهيكل الذي سرق النوم من عينَي والدته في الليالي.

قبل أن يتمكن أحد من فهم ماذا يمكن أن يعني ظهور بريبوتنسكي مع هذا الهيكل، سار المعلم، وبصحبته الهيكل، بخطوة مهيبة بالقرب من الفناء الذي وقف فيه توبيروزوف، وأخرج له لسانه، وخرج إلى الشارع عبر المقابر.

صاح ضيوف الخابزة، ولم يستطيعوا مقاومة رغبتهم في رؤية كيف سينتهي هذا العرض. عندما خرجوا إلى الشارع الهادئ خلف برنابا رأوه يتحرك بهدوء مترنحًا حاملًا حمولته بحذر، كما لو أنه ليس لوحًا مغطى بعظام ذاوية، بل إناء ثمين هش ممتلئ بسائل ثمين حتى حوافه، ولكن تناهى إليهم من الخلف فجأة صوت منخفض مكتوم، وظهرت من خلفهم الخابزة باكية.

كانت العجوز الشاحبة ترتجف، واستغرقت في قضم أطراف أصابعها الخمس بتشنج وقالت هامسة:

- ماذا يفعل؟ لماذا يحمله عبر المدينة؟

بعد أن قالت ذلك أدركت ما يفعله، ومن ثم صاحت بألم وانطلقت بحميتها التي لا تلائم عمرها إلى مطاردة ابنها. ركضت الخابزة العجوز، تقفز وتتحرك بالصورة الحمقاء التي تسير بها الطيور قبل أن ترتفع إلى

الهواء، أما برنابا فسار بهدوء، ولكن كان من الصعب أن يقرر المرء ما إذا كانت الخابزة بهذه المشية السريعة سوف تدرك ابنها أم لا، لأنه وصل بالفعل إلى نهاية الشارع، بينما هي لا تزال في بدايته. الصدفة وحدها هي التي قررت ما إذا كانت العجوز ستصل إليه أم لا، حيث دفعت هذه المسيرة والمطاردة إلى منعطف مفاجئ تمامًا.

في الوقت الذي اندفعت فيه الأرملة لأهداف مجهولة خلف ابنها المعلم، تردد من مكان ما بالأعلى صوت مرتفع ومرح:

- إي! أورررريري! لا تضربه، لا تضرب، لا تضرب.

نظر الحاضرون إلى الاتجاه الذي أتت منه هذه الصيحة، ورأوا صعلوكًا على سطح إحدى البنايات المجاورة أمسك في يده عصا رفيعة يخيف بها الصيادون الحمام عادة. كان هذا الصاخب هو منادي مدينة ستارجورود؛ الشخص الذي ينفذ التعليمات التي تُوكل إليه؛ إنه المفتش دانيلكا. كان يحمل في هذا الوقت حمامه القادر على التشقلب، ولم يفوِّت فرصة إخافة المعلم والسخرية منه. حقق المفتش دانيلكا هدفه بأفضل ما يكون، حيث إن بريبوتنسكي ما إن سمع صيحته التحذيرية حتى غيَّر سرعة سيره واندفع إلى الأمام بسرعة الغزال.

وثب برنابا في الشارع الفارغ بكد، ووثبت معه وتناثرت في كل اتجاه العظام المثبتة في شكل هيكل عظمي، لكن بالرغم من ذلك، ما إن هربوا من بلية حتى أسرعوا لمواجهة بلية أخرى لا تُقارن في خطورتها بالأولى. عند منعطف الطرق القريب نظرت عينا المعلم برنابا المرتاعتان والمملوءتان بالخوف إلى الشماس أخيل الذي بدا أضخم من المعتاد وباعثًا للهلع.

كما يقول المَثَل: الهاوية أمامك، ومن خلفك يدفعونك.

# الفصل السابع عشر

ما إن رأى المعلم الشاحب أخيل حتى وهنت ساقاه، ولكن في خلال لحظة انطلقنا كالزنبرك، وعبر ثلاث قفزات قوية أبعدتاه مسافة لا يمكن للإنسان في حالته الطبيعية أن يقطعها بعشر قفزات. هذا ما أنقذ برنابا، فقد وصل تقريبًا إلى أسفل نافذة زوجة محصل الضرائب بيزيوكينا، ولحسن حظه كانت السيدة بنفسها واقفة عند النافذة المفتوحة. صاح فيها بريبوتنسكي لاهثًا:

- احذري. الجواسيس يطاردونني، وكذلك الإكليروس.

قال ذلك ودفع إليها من النافذة حمولته من العظام، لكنه شعر بالإنهاك إلى درجة أنه لم يعد قادرًا على التحرك خطوة واحدة أخرى، واتكأ إلى الحائط حيث وجد أخيل بجانبه يلهث هو الآخر، وأمسك بيده.

بدا الشماس والمعلم كصديقين ركضا معًا ويستريحان قليلًا. لم يكن هناك أدنى أثر للبغض على وجه الشماس، بل ظهرت عليه سريعًا أمارات السرور. بينما يتنفس بصعوبة وينظر من حوله، لاحظ في منتصف الطريق ضلعين بشريين بارزين من قلب التراب، فالتفت إلى بريبوتنسكي قائلًا:

- لماذا لا تلتقط عظامك الأستراجاليوس هذه؟

- انصرف عني وسألتقطها.

- حسنًا، سأنصرف عنك. (واقترب الشماس ببساطته وصراحته المعهودتين من النافذة، وشب على أطراف أقدامه، وألقى نظرة داخل الغرفة وقال) اسمعي أيتها الناصحة، لا جدوى من توسطك لهذا المعلم.

لكن بدلًا من الإجابة المنتظرة من الناصحة ظهر مفتش الضرائب الليبرالي بيزيوكينا وأشار أخيل إلى جمجمة الهيكل العظمي، وقال له بأدب:

- اسمعني جيدًا، أسْدِ لي معروفًا وأخْفِ هذه وإلا غضبت.

بدلًا من أن ينال أخيل إجابة علت من المنزل ضحكة مسيئة إلى أقصى حد، حتى إن مفتش الضرائب الواقف عند النافذة أخذ يطقطق بفكي الهيكل العظمي ساخرًا من أخيل.

صاح أخيل: «سوف أقتلكم أيها الملاحدة». وأمسك بكلتا يديه حجرًا بنية أن يلقي هذه القنبلة التي يصل وزنها إلى ستة بودات على المسيئين إليه، ولكن في هذه اللحظة حيث كانت عيناه تومضان ورفع الحجر استعدادًا لإلقائه ربت أحدهم على يده من الخلف وأمره صوت مألوف:

- اتركه.

كان صوت توبيروزوف. وقف القمص سافيلي صارمًا، يرتعش من فرط الغضب واللهاث. استمع إليه أخيل. رمق محصل الضرائب بعينين احمرتا من فرط الغضب وألقى الحجر بعيدًا بكل قوته حتى إنه ابتعد مسافة فيرشوك[1]. همس سافيلي له: «عد إلى المنزل». وابتعد هو نفسه. لم يعارضه أخيل، ومضى إلى منزله في هدوء خجلًا مثل تلميذ حسن النية قد أُدِين على سلوكه الطائش.

---

(١) مقياس روسي قديم للطول، استُخدم قبل إدخال النظام المتري.

قال توبيروزوف، متنفسًا الصعداء، عندما التقى بداريانوف الذي كان يتحدث معه قبل ذلك:

- يا إلهي! يا له من حادث أحمق ومزعج!

- لا تقلق، لن يحدث شيء.

- كيف لن يحدث شيء؟ بل سيحاكمون أخيل، ألم تسمعه وهو يهددهم بإلقاء الحجر؟ لقد أراد القضاء على الجميع.

- سترى أن كل ذلك سينتهي بضحكة وحسب.

- لا، لن ينتهي كل ذلك بضحكة، ولا يوجد هنا أي شيء مضحك، بل ثمة حماقة يمكن للأوغاد هنا أن يستغلوها أسوأ استغلال.

حث القمص خطواته عائدًا إلى المنزل وهو يحك الأرض بطرف عصاه بغضب.

في الجزء التالي من تسجيل هذه الوقائع سنرى النتائج التي ستترتب على كل ذلك، ومَن مِن الاثنين ستصدق نبوءته.

* * *

# الجزء الثاني

## الفصل الأول

وشى الصباح الذي حل بعد ليلة عيد القديس ميثودي بيسنوشسكي بأن اليوم سيكون هادئًا ورائقًا، بل كان بوسع المرء أيضًا أن يتوقع أن الأمر سيكون كذلك في كل شيء، في عناصر الطبيعة وفي قلوب سكان ستارجورود الذين تعرفنا عليهم في الجزء الأول من روايتنا على السواء. هكذا اعتقد القمص نفسه. أسدى له إنهاك الأمس خيرًا، فقد جعله ينام نومًا عميقًا وراودته أحلام هادئة، وبعد أن استيقظ صباحًا قال في نفسه إن قلق الأمس ربما كان كله بلا جدوى، وربما يجعل السيد الرب هذه السحابة تمر كما جعل سحبًا كثيرة أخرى تمر من دون أن يُصاب أحد بضرر.

بينما كان العجوز في طريقه إلى أداء القداس المبكر فكَّر في هدوء تام: «نعم، لسنا شعبًا شريرًا، بل طيب». لكن هذا الهدوء كان مخادعًا. «تحت السطح الهادئ للماء ثمة تمساح نائم في الأعماق[1]».

---

(١) من قصيدة للشاعر الروسي كونستانتين بانبوشكوف.

بعد أن انتهى توبيروزوف من صلاة القداس وعاد إلى منزله، شرب الشاي جالسًا على الأريكة ذاتها التي نام عليها ليلًا، وجلس إلى المكتب ذاته الذي كتب عليه ملاحظاته. اعتنت زوجة القس بزوجها؛ قدمت له الشاي وطبقًا فضيًا صغيرًا وضع عليه القمص سافيلي بحذر القربان الذي وضعه في جيبه.

اعتنت ناتاليا نيقولايفنا بزوجها الذي تشاركه مشاعره، وحرصت على توفير الهدوء له، وقد خشيت أن تطرح عليه أي سؤال يعكر صفو أفكاره المهمة. أمرت الفتاة همسًا أن تحشو غليونه بتبغ جوكوف، وأن تضع غليونيه على صينية في الركن، ووضعت يدها تحت ذقنها وانتظرت أن يشرب القمص شايه ويطلب كأسًا أخرى.

لكن قبل أن تنتظر هذا الطلب صرف انتباهها ضجيج غير معتاد تردد في مكان ما بعيد عن منزلهم. سمعت أصوات خطوات مسرعة وحديثًا مضطربًا تحوَّل في غضون دقائق إلى صرخة هائجة. نظرت زوجة القمص من نافذة غرفة نومها ورأت أن هذا الضجيج وهذا الصياح جاءا من حشد من الناس سائرين بخطوات سريعة جدًّا، متجهين صوب المنزل. تدافعوا في أثناء سيرهم ولوَّحوا بأذرعهم وتجادلوا، وبدا كما لو أنهم سيغيرون اتجاههم ثم عاودوا فجأة التقدم بسرعة في الاتجاه ذاته. قالت زوجة القمص في نفسها «تُرى ما هذا؟». ثم قالت لزوجها عندما خرجت إلى الردهة:

– ثمة حشد ضخم قادم أيها الأب سافيلي.

أجاب سافيلي بهدوء:

– حشود كثيرة يا عزيزتي وما من أفراد!

– لا، ثمة حشد ضخم جدًّا فعلًا. انظر.

– فليكن الرب معهم. دعيهم يتسكعون كما يشاءون، وأعطيني كأس شاي أخرى.

تناولت زوجة القمص الكأس وملأتها بالشاي من جديد، وبعد أن قدَّمتها لزوجها اقتربت مجددًا من النافذة، وإذا بالجمع الصاخب قد اختفى. بدلًا منه تناثرت هنا وهناك بعض التجمعات من ثلاثة أو أربعة أفراد، وكانوا ينظرون بارتباك وتشوش واضحين إلى منزل توبيروزوف.

– أيها الأب سافيلي، عسى ألَّا يشعلوا فينا النار.

هكذا صاحت وهرعت إلى غرفة زوجها القمص خائفة، لكنها توقفت عند العتبة وفهمت ماذا يحدث تحديدًا.

رأت زوجة القمص الشماس أخيل في فناء المنزل يركض، ملوحًا بذراعيه، فتهتز أكمام غفارته الواسعة، جارًّا المفتش دانيلكا من أذنه.

أشارت زوجة القمص لزوجها إلى ذلك، ولكن قبل أن يتمكن القمص من النهوض من مكانه انفتح الباب الأمامي بقوة وظهر أخيل في ردهة منزل القمص، ممسكًا بأذن دانيلكا المحرج والمرتبك.

بدأ أخيل حديثه بعد أن دفع دانيلكا بعيدًا واقترب من توبيروزوف:

– الأب القمص!

باركه سافيلي. من خلف أخيل اقترب دانيلكا ونال المباركة هو الآخر. بعد ذلك سحب أخيل دانيلكا خطوتين إلى الخلف وأمسكه بقوة مجددًا من أذنه وقال:

- تصور أيها الأب سافيلي! أسير في الشارع وفجأة أسمع حوارًا. يتحدثون عن المطر ويقولون إنه قد هطل مساء اليوم استجابة للصلاة، وهذا الشخص (يشير أخيل بسبابة يده اليسرى إلى أنف دانيلكا الذي تطرف عيناه لا إراديًا) يدحض كلامهم.

رفع توبيروزوف رأسه. عاود أخيل حديثه وقد سحب دانيلكا من أذنه مجددًا:

- تصور! يقول إن المطر الذي هطل هذه الليلة ليس له أدنى علاقة بصلاة الأمس.

سأله توبيروزوف بجفاف:

- كيف تعرف ذلك؟

صمت دانيلكا المرتبك. واصل الشماس:

- تصور أيها الأب القمص! قال إن المطر سقط بقوة الطبيعة وحسب!

قال الأب توبيروزوف ببطء وهو يلملم بقايا القربان:

- لماذا تقول ذلك؟

أجاب دانيلكا باتضاع:

- بدافع الشك يا أبي القمص.

- الشكوك مثل الغرور[1] غير ملائمة لك أيها الجاهل ولقد نلت ما تستحقه، والفاعل مستحق أجرته. اخرج من منزلي يا صاحب الكلام الفارغ.

بعد أن أرسل القمص دانيلكا المجدف إلى خارج منزله، جلس مجددًا

---

(١) هناك جناس لفظي بين الكلمتين في الروسية.

بهدوء وأكمل شرب الشاي في صمت، وعندما انتهى كل ذلك تمامًا قال للشماس أخيل:

- وأنت أيها الشماس هل تنوي الاستمرار طويلًا في الغضب هكذا؟ ألم أقل لك سابقًا أن تتخلى عن تدخلك في كل شيء وأن تلجم نفسك؟

- كان من المستحيل عليَّ أيها الأب القمص أن أتحمل ذلك لأني أردت منذ فترة طويلة بالفعل أن أبلغك كيف يتحدث ضد الله والكتاب المقدس، ولكن قبل ذلك تنازلت وتركته بسبب غبائي.

- نعم، لقد تنازلت حينما لم يكن عليك أن تتنازل.

- تنازلت وحق الله، ولكني بدأت أسمعه حينها يجدف على الطقوس.

ابتسم القمص قائلًا:

- حسنًا، وماذا فعلت؟

- لم أتحمل.

- أكان عليك إذن أن تتعارك معه أمام الناس كلها؟

- وماذا إن فعلت ذلك أمام الناس كلها يا أبي القمص؟ أنا خادم للهيكل، وعليَّ أن أناصر الإيمان قبل كل شيء. هكذا فعل القديس نيقولاي أوجودنيك أيضًا أمام الجميع[1].

قاطعه توبيروزوف:

- لا تقارن نفسك بالقديس نيقولاي. فلتدرك أنك غراب، وعلى

---

(١) قصة ملفقة عن أن القديس نيقولاي قد صفع أريوس «المجدف من منظور الكنيسة الرسمية» في مجمع نيقية على مرأى من الجميع.

الغراب أن يعرف درجة جماله، ومن ثم لا تتدخل في شؤون غيرك. لماذا تلوّح بعصاك؟ أنسيت أن للعصا طرفين؟ هل تعتمد على قوتك في كل شيء أيها البعير؟

- أفترض ذلك.

- تفترض ذلك؟ حسنًا، لا تفترض ذلك. لم تنقذك قوتك بل هذا ما أنقذك... هذا ما أنقذك. (قالها القمص وهو يجذب الشماس من كم ردائه)

- لماذا توبخني يا أبي القمص؟ أنا أحترم جيدًا درجتي الإكليروسية.

- ماذا؟ أتقول إنك تحترم درجتك؟

خطا الأب القمص خطوة صوب الشماس في أثناء قوله ذلك، وضرب براحة يده على ركبته هامسًا:

- ألا تعرف أيها الشماس من يجلس في محال البقالة مع الموظفين هناك ويدخن السجائر؟

ارتبك الشماس وتمتم:

- حسنًا، أنا... أنا بالتأكيد مذنب في ذلك، ولكن ليس هناك شيء أكثر من ذلك يا أبي القمص. الأمر بسبب الإهمال وحسب، بسبب الإهمال.

- فلتسمع ماذا يقولون: انظروا إلى شماسنا الرائع كيف يدخن السجائر!

- لا، الأمر ليس كذلك على الإطلاق يا أبي القمص. لماذا تلومني على ذلك وحدي؟ لست الوحيد بين الإكليروس الذي يدخن.

نظر توبيروزوف إلى الشماس من رأسه إلى قدميه نظرة ذات مغزى خاص، ورفع رأسه إليه وسأله:

- إلام ترمي بذلك؟ أتقصد أن تقول: أنت أيضًا أيها القمص تدخن؟

ارتبك الشماس ولم يجب بشيء. أشار توبيروزوف بيده إلى زاوية الغرفة حيث توجد غلايينه الثلاثة ذات لون الكرز وقال:

- أتقول إني أدخن؟

صمت الشماس.

- قل ما تريده. أتقول إني أدخن؟ أدخن التبغ؟

- نعم، تدخن التبغ.

- أدخن التبغ؟ ممتاز! أين أدخنه؟ هل أدخنه في المنزل؟

- نعم، تدخنه في المنزل.

- أحيانًا أدخن أمام بعض الضيوف وأحيانًا أمام بعض الأصدقاء المقربين.

- نعم، تدخن أمام الضيوف.

- لكني لا أدخن مع موظفي النضد في المتاجر! (هكذا صاح توبيروزوف مستندًا إلى الخلف، ونقر بأصابعه الكبيرة على راحة يده قائلًا) عد إلى منزلك وراقب أفعالك. لقد كبحتك كثيرًا، كثيرًا جدًّا، ولكن الآن اسمع، هناك نظم جديدة، وسيؤسسون محكمة جديدة، وستظهر عادات جديدة، ولن يعود هناك شيء في الظل، بل سيظهر كل شيء في العراء، وحينها لن أعود قادرًا على حمايتك.

بقوله ذلك وضع القمص قدمه الكبيرة على المقعد المصنوع من القش وبدأ يفتح بعناية قفص الكناري الأصفر.

قال أخيل في نفسه في أثناء خروجه من منزل القمص: «أوف!

يا إلهي الرحيم، دافعت عن الإيمان ومرة أخرى أُتَّهم بعدم اللياقة!». وسار بخطوات سريعة إلى المنزل الصغير الأصفر، ولاحت من نوافذه المفتوحة مجموعة من رؤوس الأطفال الصفراء.

دخل الشماس سريعًا الشرفة الخارجية للمنزل الصغير ثم ذهب منها إلى السقيفة وأزاح بجبينه العارض لينفتح باب الردهة الواطئة.

كان زكريا يتمشى في الردهة بخطوات جافة وصغيرة، عاقدًا يديه الصغيرتين خلف ظهره، مرتديًا سلسلته الفضية الطويلة على صدره الغائر.

دخل أخيل منزل الأب زكريا وقد اختلفت ملامح وجهه وطريقة سيره عنها عندما دخل منزل توبيروزوف، وفارقه الارتباك تمامًا، بل تلاشى تمامًا على عتبة منزل الأب زكريا، واستُبدل به شعور بالرضا الشديد. بسبب نفاد صبره بدأ الشماس حديثه مباشرة وهو لا يزال عند عتبة المنزل:

– آه يا أبي زكريا! آه يا أخي العزيز!

سأله الأب زكريا بابتسامة وديعة من دون أن ينتظر المزيد من الشماس:

– ماذا بك؟ ماذا تتمتم؟ ماذا تقول؟

في البداية قهقه الشماس بمرح ثم صاح:

– كم أشعر الآن بالذنب يا عزيزي! آه أيها الأب العزيز! وصل الأمر إلى حد أن رأسي يؤلمني من كثرة الفرك.

– من الذي وبَّخك يا عزيزي؟

– وزير العدل.

– آه! الأب سافيلي!

– ومن غيره! الأمر يا أبي زكريا غير عادي من البداية وحتى النهاية.

حاولت أن أقوم بدوري كخادم لمذبح الله لكنه سحق كل شيء، وحوَّل وجهه إلى موضوع آخر الله وحده أعلم به، وتوصل في النهاية إلى شيء لا أستطيع فهمه ولا يمكنني أن أقصه.

لكن الشماس، بعد أن جلس ورشف كأس الفودكا التي قُدِّمت له على صينية، حكى للأب زكريا بأدق التفاصيل كل حكايته مع دانيلكا والأب توبيروزوف. طوال استغراق أخيل في الحكي ظل يسير سيرته التي تبدو كالوثب، ولم يتوقف ولو للحظة واحدة، وبين الحين والآخر يزيح من طريقه واحدًا أو آخر من أصحاب هذه الرؤوس الصفراء، حتى أنهى الشماس حكايته تمامًا، وعض طرف لحيته وقال بجلال: «نعم... نعم... مؤكد! بالطبع!».

- لم أعد أجادله بسبب غضبه، وأيضًا...

- نعم! وماذا أيضًا؟ اذهبوا والعبوا بعيدًا. (قال الأب زكريا العبارة الأخيرة وهو يزيح الأطفال من طريقه ثم تساءل) وماذا أيضًا؟

- وأيضًا تطرقت إلى موضوع التبغ في وقت غير ملائم.

- نعم، بالطبع. يمكن عمل ذلك جزئيًا. اذهبوا والعبوا بعيدًا. لكن من الممكن أن نفترض أيضًا أنه لا يشعر بالاستياء منك. نعم، إنه لا يشعر بالاستياء منك أنت.

- نعم، أنا أيضًا أرى أنه غير مستاء مني أنا، فلماذا يشعر بالاستياء مني؟ أنا -كما تعرف- مُخْلِص له من دون تملق.

- نعم، ليس مستاءً منك أنت. أظن أن... هل تبتعدوا عن الطريق؟ العبوا بعيدًا. أظن أن ثمة ما يعتمل في روحه، أتفهمني؟

- لا بد أنه حزين.

أشاح الأب زكريا بيده بالقرب من صدره، وارتسمت تكشيرة حادة على وجهه وقال:

- إنه غاضب.

- أعرف أنه مجروح. المعلم برنابا يغضبه طوال الوقت، لكني سأتدبر أمر برنابا هذا.

قال الشماس ذلك من دون أن يوضح شيئًا تفصيلًا وودَّع الأب زكريا وانصرف.

في طريق عودته إلى المنزل التقى أخيل بدانيلكا وأوقفه وقال:

- اصنع لي معروفًا يا أخي دانيلكا ولا تغضب مني. إذا كنتُ قد عاقبتك فإني قد فعلت ذلك بسبب واجبي المفروض عليَّ كمسيحي.

أجابه دانيلكا بنبرة استياء، لكنها قريبة إلى التصالح:

- لقد أسأت لي أمام الناس جميعًا أيها الشماس.

- لكن ماذا ستفعل معي الآن وقد أسأت إليك؟ أعلم أني أسأت إليك لكن عندما أكون قاسيًا فأنا... أنا لست قاسيًا. في العام الماضي عندما قبضت عليك في سقيفة والد قائد الشرطة سافيليف ترش الماء بالأسبرجيل[1] قلت لك: «فكر كما تشاء يا دانيلكا في الأمور الدنيوية، فأنا لا أفهم كثيرًا في العلم، ولكن لا تقترب من الطقوس». ألم أقل لك ذلك حينها؟ ألم أقل: «لا تقترب من موضوع الطقوس»؟

هز دانيلكا رأسه بصورة عفوية وتمتم:

---

(١) أداة كنسية في بعض الكنائس الشرقية يستخدمها الكهنة لرش الماء المقدس.

- ربما قلت ذلك فعلًا.

- لا يا أخي، لا تتخابث عليَّ، بل اعترف. لقد قلت ذلك بالفعل؛ قلت تحديدًا: «لا تقترب من موضوع الطقوس». لماذا قلت لك ذلك؟ لأنها أساس حياتنا ووجودنا، ولا يجب عليك أن تمس هذا الأمر. أفهمت ذلك الآن؟

لم يفعل دانيلكا شيئًا سوى أن تنحى جانبًا وابتسم. بدا الأمر له مضحكًا حتى الموت حينما اقتاده الشماس في الشارع من أذنه، لكن الآخرين الذين حضروا هذا الحوار وبَّخوا الشماس على صرامته الشديدة، وهم يمسكون أنفسهم بصعوبة من الانخراط في الضحك. قالوا له:

- لا، أنت شديد الصرامة أيها الشماس. إنك صارم أكثر من اللازم.

بعد أن سمع أخيل هذه الملاحظة فكر في الأمر، وتنهد بورع، ووضع يديه على كتفي اثنين من الواقفين بالقرب منه وقال:

- تقولون إني صارم. نعم، أنا صارم. هذه حقيقة، ولكن لذلك أنا عادل. ماذا لو تولى الأمر قاضي الصلح؟ ستكون النتيجة أسوأ كثيرًا، وسينتزع منه ثلاثة روبلات تبرع للأطفال في دار الأيتام.

- لا، لو تولى قاضي الصلح الأمر فسيأخذ أيضًا روبلًا فضيًّا بقشيشًا.

- أترى! لا يا أخي، أنا أعرف أني عادل.

- أي عدالة؟ الله وحده يعلم عدالتك!

- لماذا؟

- لأن كل ذنب دانيلكا هنا هو أنه كرر ما قاله إنسان مثقف. إذا أردت الحقيقة فعليك أن تدين برنابا فاسيليفيتش، لأنه هو الذي قال لنا ذلك، أما

دانيلكا فلم يفعل شيئًا سوى أن شك في أن المطر ليس ناتجًا عن عوامل طبيعية كما قال المعلم وليس ناتجًا عن الصلاة أيضًا. لو كنت قد عاقبت المعلم لكنت قد راعيت القانون حقًا.

- المعلم! (بسط الشماس ذراعيه واسعًا ومد شفتيه لتقتربا من أنفه، وظل على هذه الوضعية لبرهة أمامهم ثم همس) القانون! أنا أعرف كيف يجب أن أنفذ القانون، لكن الأب سافيلي لا يريد أن يأمرني بذلك، والأمر غير ممكن!




* * *

# الفصل الثاني

مرت بضعة أيام وصار توبيروزوف على قناعة بأن خوفه كان بلا داعٍ تمامًا، حيث إن أفعال الشماس أخيل الجامحة لم تجلب له أي مشكلات قضائية، ومرت الأمور بسلام كعادتها، وأضفى الناس بعض التنوع على حياتهم الرتيبة في هذه المدينة الإقليمية بالشجار حتى يتصالحوا، والتصالح حتى يتشاجروا. لم يهدد شيء السلام في المدينة، بل على النقيض، حتى إن توبيروزوف نفسه نَعِم بيوم جميل قضاه في بهجة خالصة، لقد كان يوم ذكرى شفيعة زوجة قائد الشرطة، وقد حلَّ سريعًا خلف اليوم الذي أثار فيه أخيل فضيحة عامة مع المفتش دانيلكا بسبب غيرته على الإيمان. عندما انشغل كل الضيوف الذين اجتمعوا حول الفطيرة التي أعدتها زوجة قائد الشرطة بإشباع شهيتهم، اقترب قائد الشرطة من النافذة مصادفة، وفجأة صاح عاليًا في زوجته:

– يا إلهي! انظري يا زوجتي أي ضيوف قادمين إليكِ!

– من هناك؟

– تعالي وانظري بنفسك!

اندفعت صاحبة العيد، ومعها كل الضيوف الذين كانوا في الغرفة، إلى النوافذ، ورأوا منها بوضوح كيف تهبط من الجبل ترويكا تجرها

ثلاثة خيول قوية كستنائية بحذر كأفعى ذات ثلاثة رؤوس. يتلوى حصان الدولاب[1] ويدق بقدميه كجنرال عجوز يقترب من أحدهم ليوبخه، ويلوي شفتيه إلى اليسار تارة وإلى اليمين تارة أخرى، ويهز رأسه ويدق قدميه مرة وثانية فثالثة، وتتلوى الجياد كما لو أنها تؤدي رقصة، وتنكمش على بعضها أحيانًا لتبدو كغنم مضطربة ويدق الجرس القرمزي ويسكن مجددًا، وتدق بعض الأجراس الأخرى بقوة من دون أن يصدر منها أي رنين. لكن هذه الأفعى الثلاثية انزلقت وواصلت هبوطها، ولاحت ظهور الجياد التي تهز ذيولها في الهواء، وأعرافها تهتز بفعل الهواء، واندفعت الترويكا فوق الجسر. ظهرت قنطرة العربة المذهبة ذات اللوحة المحفورة عليها رسمة كبيرة وقديمة. جلس في العربة، جنبًا إلى جنب، مخلوقان صغيران يأتنسان ببعضهما؛ رجل وامرأة. ارتدى الرجل معطفًا مصنوعًا من الفرو بلون أخضر داكن وقلنسوة كبيرة من نسيج البلش، بينما ارتدت المرأة معطفًا واسعًا ذا ياقة أرجوانية وقلنسوة ذات أوشحة بنية.

– يا إلهي! إنهما قزما بلودوماسوف! مستحيل! انظر بنفسك! هما! هما بعينيهما! هذا نيقولاي أفاناسيفيتش، انظر. لقد رآنا وهو ينحني لنا بالتحية، وهذه ماريا أفاناسيفنا تحيينا.

ترددت هذه الصيحات من كل النواحي عند رؤية القزمين، وبدا الجميع سعداء بشيء ما غامض. انشغل الزوجان بتقديم الإفطار مجددًا للضيوف، بينما نظر الضيوف بانتباه إلى الباب الذي يجب أن يظهر عنده القزمان، وأخيرًا ظهرا.

---

(١) الحصان الأقرب إلى عجلات العربة.

سار رجل عجوز في المقدمة، لا يتعدى طوله صبيًا يبلغ من العمر ثمانية أعوام، ومن خلفه امرأة عجوز أكبر قليلًا.

بدا الرجل العجوز في تمام النظافة والأناقة، ولم تكن على وجهه أي بقع صفراء أو آثار تجاعيد من التي تفسد عادة وجوه الأقزام. بدا جسده متناسقًا للغاية، ورأسه كروي الشكل، ولديه شعر أبيض قصير، وعينان بنيتان صغيرتان، بينما بدت القزمة محرومة من مميزات أخيها؛ كانت ممتلئة الجسد، ولديها فم يبدو حسيًا وغبيًا وعينان بليدتان.

بالرغم من حرارة الجو في هذه الفترة ارتدى القزم نيقولاي أفاناسيفيتش حذاء طويل العنق دافئًا من نسيج البلش، وسروالًا أسود من قماش خشن كثيف، وصدرية لبادية صفراء، ومعطفًا بنيًا ذا أزرار معدنية. كانت ثيابه التحتانية نظيفة لا عيب فيها، وقد دعَّم وجنتيه برابطة عنق لامعة مربوطة بإحكام حول عنقه. أما القزمة فقد ارتدت قلنسوة حريرية خضراء وياقة كبيرة من الدانتيل.

دخل نيقولاي أفاناسيفيتش إلى الغرفة ومد ذراعيه إلى مفرق ثيابه ثم رفع يده اليمنى الممسكة بقبعته إلى ناحية قلبه، وأخذ يتقلقل على قدميه متوجهًا صوب السيدة صاحبة العيد، وتحدث بصوت شيخ هادئ:

- سيدنا نيكيتا ألكسيفيتش بلودوماسوف، والسيد بارمن سيميونوفيتش توجانوف، بالنيابة عن نفسيهما وعن زوجتيهما، أمرانا نحن خدمهما أن نبلغ السيدة أولجا أرسيتيفنا تهنئاتهم. كرري يا أختي.

وجَّه العبارة الأخيرة لأخته التي وقفت بالقرب منه، وعندما انتهت الأخت من التهنئة التفت نيقولاي أفاناسيفيتش إلى قائد الشرطة وأكمل حديثه:

- وكذلك أنقل إليك التهنئة يا فوين فاسيليفيتش وإلى كل صحبة السيدة الكريمة. لي الشرف يا سيدي أن أبلغك أن سيدي وبارمن سيميونوفيتش توجانوف، بالإضافة إلى إرسالهما لنا للتهنئة، يطلبان معذرتكم عن إرسالهما لنا بالنيابة عنهما، فهما لا يستطيعان الحضور الآن، لكنهما سوف يأتيان ويُقدِّمان اعتذارهما بنفسيهما مساء اليوم.

صاح قائد الشرطة:

- بارمن سيميونوفيتش سيأتي إلى هنا؟

- ومعه سيدي نيكيتا ألكسيفيتش بلودوماسوف، وهما في طريقهما إلى سان بطرسبرج، ويطلبان أن تعذرهما، وسيمران عليكم في الطريق.

أثار ذلك في الجمع الحاضر قدرًا بسيطًا من الضجيج، وقد استغله القزم واقترب من توبيروزوف ونال مباركته، وقال له بهدوء:

- السيد بارمن سيميونوفيتش يطلب منك أن تحضر الليلة.

- قُل له يا عزيزي إني سأحضر.

هكذا أجابه توبيروزوف. نال القزم البركة من الأب زكريا. تناول الشماس أخيل يد القزم الذي مدها له محييًا إياه بانحناءة، وابتسم الأخير وقال:

- أسْدِ لي معروفًا يا سيدي ولا تختبر قوتك الرهيبة عليَّ.

قال سيد البيت مازحًا:

- ماذا بك يا نيقولاي أفاناسيفيتش؟ ألست بصحة جيدة؟

أجاب العجوز:

- إنه يحب أن يجرب قوته عليَّ.

- وكيف حال صحتك يا نيقولاي أفاناسيفيتش؟

هكذا ظلت السيدات يعذبن القزم وقد أحطن به من كل الاتجاهات وأخذن يربتن على يديه الصغيرتين.

- يا لها من صحة يا سيدات! الإجابة مضحكة. لقد صرت في أسوأ حال. ها هو صوم القديس بطرس على الأبواب وأنا أعاني تمامًا من البرد.

- أتعاني من البرد؟

- فلتحكمن بأنفسكن. كل شيء واضح! لماذا العجب؟ ها قد وصل إنسان لا نفع له إلى العقد الثامن من عمره.

تسابقت السيدات على طرح الأسئلة عليه عن مختلف الموضوعات. جلس مع الجميع وأبدى احترامه لهن جميعًا، وأجاب عن الأسئلة كافة بذكاء ومهارة، لكنه رفض كل الحلوى التي قدمتها السيدات إليه، قائلًا إنه لا يأكل إلا كمية قليلة من الخُضر. قال متوجهًا إلى شقيقته:

- يمكن لشقيقتي أن تأكلها. اجلسي يا شقيقتي وكلي، كلي. لماذا الرسميات؟ لا تريدين أن تأكلي من غيري؟ حسنًا، اسمحي لي يا سيدتي أولجا أرسينتيفنا بطبق من فطير محشو بالجزر... كفى! كفى! الآن كلي يا شقيقتي. هذا يكفي بالنسبة لي. ليس هناك ما أفعله ليجعلني أشعر بالرغبة في تناول الطعام، فكل ما أفعله هو حياكة جورب، والآن لا أستطيع حتى إتمامه. كنت أحوك أفضل كثيرًا من شقيقتي، لكنني الآن أفسد كل العُقد.

قال توبيروزوف الذي صار في تمام حيويته وبهجته بوصول القزم:

- نعم، كنت تحوك بصورة ممتازة فعلًا يا نيقولا.

ابتسم القزم قائلًا:

- آه أيها الأب سافيلي! الزمن يا سيدي! الزمن! (ثم أنهى كلامه مازحًا) علاوة على ذلك لم يعد أحد يعاملني بصرامة أيها الكاهن، فقد

صرت مدللًا بعد موت سيدتي. ماذا إذن؟ الخبز والملح جاهزان، والجسد دافئ، ومن ثم أتكاسل دائمًا.

نظر القمص بابتسامة سعيدة إلى عيني القزم وقال:

– أراك يا نيقولا ماثلًا أمامي كقصة خرافية لطيفة أود لو أقضي عمري كله فيها حتى أموت.

– وثمة قصة خرافية طيبة يا أبي ماتت قبلنا.

سأل الشماس أخيل الواقف بالقرب من القزم بانفعال بينما بدا أن نيقولاي أفاناسيفيتش يخاف منه ويحذره:

– وهل تنسى يا نيقولوشكا سيدتك؟ أتنسى السيدة البويار مارفا أندريفنا؟

أجاب القزم بهدوء شديد وبنصف التفاتة وحسب صوب أخيل:

– لقد هرمت بالفعل يا سيدي الشماس، وأنا نفسي سوف أذهب إلى معزيتي وأخدمها هناك لفترة طويلة.

قال الشماس بلا مبالاة بالحاضرين جميعًا:

– يُقال إنها كانت سيدة مُعزية فعلًا.

سأل توبيروزوف:

– ماذا تقصد تحديدًا بكلمة «معزية» هنا؟

– أقصد مسلية[1].

ابتسم القمص ولوَّح بذراعه، بينما صحَّح نيقولاي أفاناسيفيتش حديث أخيل بأن قال له بصلابة:

---

(١) الكلمة الروسية تشير إلى عدة معانٍ منها العزاء والسلوان والتسلية. قصد القزم العزاء وتقديم الدعم، بينما قصد الشماس التسلية.

- إنها معزية يا سيدي، معزية وليست مسلية.

قال القمص ناصحًا:

- ماذا تحاول أن تقول له يا نيقولا؟ أليس من الأفضل أن تقص كيف أكسبتك صلابة؟ كيف دفعت الفدية؟

- إنها قصة قديمة يا سيدي القمص.

توجه توبيروزوف بحديثه إلى الحاضرين:

- يكون رائعًا عندما يحكي كيف أكسبته صلابة.

أجاب القزم سريعًا:

- هكذا هي سيدتي يا أبي، فقد عرفت جيدًا كيف تُكسب المرء صلابة وتعزيه، وقد أكسبتني فعلًا صلابة وعزتني عزاء لا يمكن إلا لملاك أن يجلبه. لقد حازت القدرة على التعمق في روح الشخص ويعث العزاء فيها، وبإيماءة منها تحقق له كل خيره على هذه الأرض.

- فلتحكِ كيف أكسبتك صلابة.

- نعم، احكِ يا نيقولاشا، احكِ.

- حسنًا أيها السادة الكرام، سواء كنتم تضحكون أم لا، لكن يبدو أنكم مهتمون فعلًا بسماع هذه القصة، وما دمتم جميعًا تريدون ذلك لا أستطيع أن أرفض طلبكم، وسأحكي لكم.

- احكِ من فضلك يا نيقولاي أفاناسيفيتش.

أجاب القزم مبتسمًا:

- سأحكي. سأحكي لأنها قصة لطيفة.

وبدأ القزم حكايته.

# الفصل الثالث

«حدث كل ذلك قبل أن يشتروني من سادتي السابقين بعام واحد. قضيت هذا العام في حزن مريع، فقد فصلوني عن ناسي؛ عن أهلي. لم يكشف مظهري بالطبع عن حزني حتى لا يبلغوا السيدة عن ذلك أو تلاحظ هي بنفسها، لكن لم تكن هناك جدوى من كل ذلك لأن سيدتي اكتشفت الأمر فعلًا. اقترب عيد شفيعي وقالت لي:

- أي هدية يجب أن أهديك يا نيقولاي؟

- سيدتي، ما حاجتي إلى هدية؟ أنا راضٍ بالفعل عن كل شيء.

- لا، أظن أني سأعطيك روبلًا.

لم أستطع الرفض، وقبّلت يدها قائلًا:

- هذا كثير! إنكِ تغمرينني بنعمتك.

وجلست مجددًا لأكمل حياكة الجورب. حتى ذلك الوقت كان لا يزال بإمكاني أن أرى جيدًا، حتى إني كنت أحوك جوارب لسيدي ألكسي نيكيتيش في الحرس. حِكت جوربًا وبكيت. يعلم الله ما الذي أبكاني، فقد تذكرت أقاربي وبكيت.

رأت مارفا أندريفنا بكائي لأني تعودت أن أحوك على المقعد المقابل لها، وسألتني:

- لماذا تبكي يا نيقولاشا؟

- لا شيء يا سيدتي. بعض الدموع وحسب.

كانوا قد أبلغوها بسبب بكائي ولم أكن أعرف. نهضت وقبّلت يدها وجلست ثانية على المقعد.

- اسمحي لي يا سيدتي؛ لا تلتفتي إلى ضعفي. إني أبكي بسبب غبائي وحسب.

عكفت مجددًا على العمل، وأخذت أحوك الجورب وسمحت لي بذلك. فجأة سألتني:

- وماذا ستفعل يا نيقولاي بالروبل الذي سأعطيك إياه غدًا؟

- سأرسله إلى أبي إذا أُتيحت لي الفرصة.

- وإذا أعطيتك روبلين؟

- سأرسل الآخر إلى أمي.

- وإذا أعطيتك ثلاثة؟

- إلى أخي إيفان أفاناسيفيتش.

هزّت رأسها وقالت:

- تحتاج إلى الكثير من المال يا أخي لتعطي للجميع! أنت لا تستحق ما أنت فيه أيها الصغير.

- سُر السيد الرب بأن يخلقني هكذا.

قلت هذه الكلمات وبكيت مجددًا وانقبض قلبي ثانية كما يمكنكم أن تتصوروا، وغضبت من نفسي بسبب دموعي وبكائي. نظرت إليَّ الراحلة وأشارت لي بإصبع واحدة. سقطت على الأرض أمامها، ووضعتُ رأسي على ركبتيها، وانخرطتُ في البكاء، ثم نهضتْ وقالت لي:

- ألا تتذمر أبدًا يا نيقولاشا على الله؟

- كيف أجيبك يا سيدتي! وهل يمكنني أن أتذمر على الله؟ لن أتذمر عليه أبدًا.

- سوف يعزيك بسبب ذلك.

نهضت بعد أن قالت ذلك وأمرتني أن أبلغهم أمرها بأن يرسلوا إليها العمدة ديمتي في مكتبها السفلي، وتوجهتُ إلى هناك.

«لا تبكِ يا نيقولاشا، سوف يعزيك الرب». لقد واستني بالفعل».

في هذه اللحظة طرفت عينا نيقولاي أفاناسيفيتش فجأة بصورة متكررة، وهبَّ سريعًا من على كرسيه، وتوجه صوب الركن حيث مسح عينيه هناك بمنديل، وعاد بابتسامة خجلى إلى موضعه. جلس مجددًا وبدأ بصوت مرح مختلف تمامًا لا يشبه الصوت الذي بدأ به حكايته إلا قليلًا.

«نهضت مبكرًا يا سادة، وذهبت لأغتسل بهدوء، فقد كنت أنام على السجادة حافيًا عند مارفا أندريفنا، وذهبت إلى الكنيسة لأحضر الصلاة هناك مع الأب ألكسي بعد صلاة باكر. دخلت الكنيسة يا سادة، وتوجهت إلى الهيكل مباشرة لآخذ بركة الأب ألكسي، ورأيت الراحل الأب ألكسي مبتهجًا بصورة غير عادية، وهنَّأني وسط فرحته هذه. ظننت أنه يهنئني بعيد شفيعي ولكن هذا ما تبين لي فيما بعد أيها السادة: خرجت متجهًا إلى جوقة المرنمين اليسرى وفي يدي قطعة القربان، وبينما كنت أنشد مع الشماس الراحل بفيميتش في الجوقة اليسرى بصوت منخفض، وجدت فجأة بين الشعب الحاضر أمي وأبي وأخي إيفان أفاناسيفيتش. لم أرَ أمي وأبي بوضوح كافٍ وسط الناس، لكني رأيت أخي إيفان أفاناسيفيتش،

وكم كان رائعًا! ظننتها رؤيا لأني أردت بشدة في هذا اليوم أن أراهم. لا، ليست رؤيا. رأيت ماما العزيزة الفلاحة منخرطة في بكاء شديد. ظننت أنهم طلبوا من سيدهم إجازة وجاءوا لرؤيتي من بعيد. اكتفيت بالطبع بالاقتراب منهم -حتى لا أعطل الصلاة- وانحنيت أمامهم انحناءة شديدة ودخلت الهيكل مسرعًا، ولم أنشد مجددًا. قلت بحسم: لا أستطيع. وهكذا انتهت صلاة باكر يا سادة ومن بعدها القداس كما يجب، وحينها... أخاف فقط أن تعوقني تلك الدموع الحمقاء مجددًا». قال نيقولاي أفاناسيفيتش ذلك ومسح عينيه بالمنديل سريعًا. «خرجت يا سادة بعد القداس من الهيكل من أجل صلاة شفيعي بناء على طلبي، وإذا بي أجد أمام المنجلية[1] مارفا أندريفنا بنفسها واقفة تحمل أيقونة شفيعي وقد أتت لحضور الصلاة، ومن خلفها شقيقتي ماريا أفاناسيفنا التي ترونها الآن أمامكم ووالداي وأخي. بدأوا يرنمون ترنيمة لشفيعي القديس نيقولاي وفجأة ذكر الأب ألكسي كل أقاربي في صلاته. تأثرت بشدة يا سادة بكل ذلك، ودفعت للأب ألكسي كعادتي بالرغم من أنه لم يُرِد أن يأخذ مني مالًا[2]، ولكن كان من المستحيل أن أتركه هكذا يصلي مثل هذه الصلاة مجانًا، واقتربت من مارفا أندريفنا لأشكرها. أبعدتني بيدها بهدوء قائلة:

- اذهب أولًا وانحنِ لوالديك.

التقيت بوالدي ووالدتي وأخي بالدموع. أما شقيقتي العزيزة ماريا أفاناسيفنا (وأشار نيقولاي أفاناسيفيتش بابتسامة رقيقة إلى شقيقته) فلا

---

(١) مثل منضدة عالية توضع عليها الكتب المقدسة في الكنيسة للقراءة.

(٢) في هذا الوقت كان الشعب يدفع للكاهن مقابل إجراء أي صلاة خاصة مثل عيد الشفيع أو تعميد طفل أو ما شابه.

تبكي أبدًا لأن شخصيتها أفضل من شخصيتي، وأنا ضعيف وأبكي. خرجنا إلى ساحة الكنيسة وأخرجت سيدتي مارفا أندريفنا من جيبها حافظة صغيرة كنت قد رأيتها وهي تحوكها ولم أعرف لمن تحوكها. قالت لي: «قدِّم هديتك لأسرتك يا نيقولاشا». بدأت أهديهم الهدايا؛ أعطيت لأبي العزيز روبلًا فضيًّا، وروبلًا لماما، وروبلًا لأخي إيفان أفاناسيفيتش، وكانت جميعها روبلات جديدة، ووجدت في الحافظة أربعة روبلات أخرى. قلت: «لمن تأمرينني يا سيدتي أن أعطي هذه الروبلات الأربعة؟». نظرت إلى العمدة ديمنتي وإذا به قد جلب معه فتاته الصغيرة وثلاثة صبية. أعطيتهم جميعًا -بكرم سيدتي- وعُدنا من الكنيسة إلى المنزل جميعًا معًا: سيدتي الراحلة والأب ألكسي وأنا وشقيقتي ماريا أفاناسيفنا ووالداي وكل الأطفال الإخوة. سارت شقيقتي أيضًا من دون أن يلوح عليها شيء، لكنني ظللت أبكي مجددًا كالأحمق وسالت دموعي كالنهر. بالرغم من بكائي أيها السادة الكرام فإني سرت، لكني رأيت فجأة عند الشرفة الخارجية لمنزل سيدتي ثلاث عربات وقد ربطوا بها الجياد وجهزوها، ورأيت العربات مُحمَّلة بكل أمتعة والديَّ وأخي. ارتبكت بشدة ولم أستطع لملمة شتات أفكاري. حتى هذه اللحظة ظلت مارفا أندريفنا تسير مع الأب ألكسي وقد انخرطت في التحدث معه عن الحصاد ولم تعرني انتباهًا، وفجأة صعدت درجات الشرفة الخارجية والتفتت إليَّ وقالت: «فلتنعم بعطلة يا خادمي. دع والديك وأخاك والأطفال يفعلون ما يشاءون»، ووضعت لي في جيب صدريتي أمر العطلة. حينها لم أتحمل...».

رفع نيقولاي أفاناسيفيتش يديه إلى مستوى وجهه وقال:

«صحت في جنون:

- أنتِ[1]... أنتِ قاسية، فأنتِ تريدين أن تسحقيني تمامًا بفضلك.

وهنا شعرت بالانقباض وآلمني صدغاي، وشعرت بأن مصابيح في كل مكان تومض أمام عينَي، وسقطت فاقد الوعي عند العربات التي تحمل أغراض والدَي ومعي أمر العطلة».

صاح أخيل بتأثر، وضرب كتف نيقولاي أفاناسيفيتش بحرارة:

- آه أيها العجوز! كم أنت حساس!

واصل القزم بعد أن مسح فمه:

«نعم أنا كذلك. لم أستعِد صوابي إلا بعد مرور عشرة أيام، فقد أصابتني حمى، ونظرت حولي وإذا بالسيدة عند رأسي تقول: «آه! سامحني، بحق المسيح سامحني يا نيقولاشا، كدت أجن عليك لئلا أكون قد تسببت في موتك». كم كانت عظيمة سيدتي بلودوماسوفا!».

صاح الشماس أخيل مجددًا، ممسكًا بنيقولاي أفاناسيفيتش من زر معطفه كما لو أنه سيمزقه على سبيل المزاح:

- آه! كم أنت عجوز رائع!

عدَّل القزم زر معطفه صامتًا، وقال بعد أن تأكد من سلامة الزر:

«أنا إنسان عديم الأهمية، لكنها اعتنت بي، حتى إنها أحيانًا كانت تكشف لي عن أحزانها الخاصة؛ خاصة حزنها على مفارقة ألكسي نيكيتيتش لها. اعتادت أن تقرأ رسائله في البداية قراءة سريعة ثم تقرأها لي جهرًا. تجلس وتقرأ خطاباته، وأنا واقف أمامها أحوك جوربًا وأسمع. تقرأ الخطاب وسرعان ما تقول: «الآن صار مع ضباط الجيش. لا بد أنهم

(١) يخاطبها هنا بضمير المفرد، والمفترض أن يخاطب سيدته بضمير الجمع.

سيرقُّونه سريعًا». وأقول لها: «لا بد أنهم سيمنحونه رتبة ضابط سريعًا يا سيدتي». حينها تقول لي: «ما رأيك يا نيقولاشا، هل سيحتاج إلى أن أرسل له المزيد من الأموال؟». أجيبها: «بالتأكيد يا سيدتي سيكون بحاجة إلى المزيد». «نعم، نعم، على كل حال لست في حاجة هنا إلى المال». «نعم يا سيدتي، لسنا في حاجة هنا إلى المال». وفجأة تغضب الراحلة من شقيقتي ماريا أفاناسيفنا لصمتها طوال هذه المدة، وتقول لها: «أنتِ أيتها الشجرة! تكلمي. لم أعطِ أخاك كي يمنحك هدية هكذا بلا طائل»».

استغرق نيقولاي أفاناسيفيتش فجأة في التفكير، واحمر وجهه بدرجة مريعة، والتفت إلى شقيقته البليدة وقال:

- أتسامحينني يا شقيقتي عما أحكيه؟

أجابته، محركة لسانها خلف وجنتها:

- احكِ كما تشاء. لا مشكلة.

واصل نيقولاي أفاناسيفيتش حكايته بعد أن اطمأن:

«انفجرت شقيقتي في البكاء، وجذبتها بهدوء للخروج معي إلى إحدى الزوايا عند السلم أمام عينَي مارفا أندريفنا وقلت لها: «اهدئي يا شقيقتي العزيزة، أشفقي على نفسكِ، إنها سيدة رحيمة». فعلًا، سرعان ما هدأ قلب سيدتي الرحيم والحنون ونادت بعد دقيقة: «ماريا! كفاكِ غضبًا! لماذا تقفين هكذا كما ينتصب شعر القطة؟! اجلسي هنا وعودي لعملك»». وقال لشقيقته:

- ألستِ غاضبة مني يا شقيقتي؟

أجابته ماريا أفاناسيفنا:

- احكِ، وما الذي يضايقني؟!

واصل حكايته:

«وبدا أن الأمر انتهى. تناولت شقيقتي مقعدًا وعادت إلى الحياكة. بمجرد أن عاد الهدوء حتى اقتربتُ من مارفا أندريفنا وطلبتُ أن أُقبِّل يدها وقلت:

- أشكركِ يا سيدتي بكل خضوع.

سالت منها دموعها وقالت:

- أنت رقيق في معاملتك لي يا نيقولاي. الأمر الوحيد الذي لا أفهمه لماذا تبدو ساكنة كالشجرة؟

عادت بسؤالها الأخير للحديث عن شقيقتي، أما أنا (وهنا واصل نيقولاي أفاناسيفيتش حديثه بعد ابتسامة) فقد تجاهلت إشارتها كما يفعل المساعد عادة، وهمست لشقيقتي قائلًا: «تعالي وقبِّلي يد سيدتك». سمعت مارفا أندريفنا وسرعان ما قالت: «اجلسي، لا داعي لأي قبلات». عاد ثلاثتنا للحياكة. لم يعد هناك صوت إلا لثلاث إبر: تي تي تي تي تي تي. بالإضافة إلى أزيز الحشرات الطائرة: زي زي زي زي. هكذا عشنا طوال حياتنا في هذا الهدوء».

بعد أن أنهى القزم قصته، وأراد أن ينهض لينصرف سأله أحد الحاضرين:

- ألم تحررك أنت وأختك؟

- تحررنا؟ لا، لم تحررنا يا سيد. أمرت بأن تلحق شقيقتي ماريا أفاناسيفنا بعطلة والدَي، لكنها لم تُطلقني. قالت لي: «بعد موتي عِش أينما

شئت (فقد خصصت مبلغًا لي ليصير معاشي التقاعدي) لكن ما دمت أنا حية فلن أطلقك». قلت لها: «وما حاجتي إلى أن تُطْلقيني يا سيدتي؟ سوف تنقرني الطيور حتى الموت».

صاح أخيل بتأثر:

- آه منك أيها الصغير!

- وماذا تظن؟ سوف تنقرني بالطبع حتى الموت. مدير المنزل عندنا جليب ستيبانوفيتش، يا له من رجل! إنه ببساطة جميل. أطلقته سيدتنا، وافتتحت له فندقًا وتناولوا النبيذ، وها هو الآن يجوب ساحة الفندق من أجل أن يعطيه التجار أي مبلغ تافه مقابل تأديته لمسرحية «الفارس البخيل»[1]. هل هذا جيد؟

أجابه توبيروزوف، متمنيًا بأن يبرز بإجابته مزايا القزم ويعيد المحادثة إلى الموضوع المطلوب:

- كان نيقولاي أفاناسيفيتش بمثابة ذراعها اليمنى.

- لقد خدمتها يا أبي القمص بكل طاقتي. سافرت سيدتي إلى موسكو وإلى بطرسبرج، ولم تأخذ معها قَط أي خادمات. لم يكن بإمكانها تحمل الخادمات في الطريق. اعتادت أن تقول: «لا أطيق قرقرة كل هؤلاء الفتيات اللاتي يشبهن ميليتريسا كيربيتيفنا[2]. يتسكعن في ردهات الفنادق، أما نيقولاشا فيجلس عندي في الركن كالأرنب». لم تعتبرني قَط رجلًا، بل أرنبًا.

ضحك نيقولاي أفاناسيفيتش وأكمل حديثه قائلًا:

---

(١) إحدى مسرحيات بوشكين.

(٢) قصة خرافية روسية عن أميرة متقلبة المزاج وشريرة بهذا الاسم.

- وعلى أي حال، أي رجل أنا ما دمت لاأستطيع أن أشتري لنفسي حذاء طويل العنق أو أي ثياب يرتديها الرجال بوجه عام؟! لقد كانت على حق في وصفها لي بالأرنب.

- جبان! جبان! جبان!

هكذا صاح أخبل ضاحكًا وهو يربت على كتفَي القزم.

قال قائد الشرطة بوروخونتسيف للقزم:

- لكنها لم تعتبرك أرنبًا تمامًا عندما أرادت تزويجك، أليس كذلك؟

قال بصوت خفيض:

- حدث فعلًا يا سيدي فوين فاسيليفيتش. حدث.

قالت عدة أصوات في وقت واحد:

- أحدث ذلك حقًّا يا نيقولاي أفاناسيفيتش؟

احمر وجه نيقولاي أفاناسيفيتش وهمس:

- الكذب خطيئة. حدث فعلًا.

اقترب كل الموجودين من القزم في هذه اللحظة قائلين:

- ألن تحكي لنا يا عزيزنا نيقولاي أفاناسيفيتش عن ذلك؟

قال مبتسمًا وقد احمر وجهه مشيرًا بذراعيه علامة الرفض:

- آه أيها السادة! الأمر لا يستحق الذكر.

ألحوا في طلبهم، وأمسكته السيدات من ذراعه وقبَّلن جبهته، وأمسك أذرع السيدات المتجهة نحوه وقبَّلها، لكنه ظل على رفضه، فقد وجد الأمر طويلًا ومملًّا. لكن فجأة دقت صاحبة العيد الأرض بقدميها، وكانت في هذه اللحظة واقفة أمام مقعد القزم، ثم تنحت جانبًا من الخوف. ورأت

عينا نيقولاي أفاناسيفيتش الشماس أخيل راكعًا على ركبتيه، رافعًا ذراعيه في الهواء، قائلًا بصوت عاصف:

- احكِ لنا يا عزيزي كيف أرادت تزويجك.

- سأقول... سأحكي كل شيء، ولكن أرجوك انهض أيها الشماس.

نهض أخيل، ونفض التراب عن غفارته، وقال وهو راضٍ عن نفسه:

- يقول الواحد منهم لن أحكي. ولماذا لا يحكي؟ قلت سأتوسل إليه ليحكي، وتوسلت فعلًا. الآن عودوا إلى أماكنكم أيها السادة حتى يعود الهدوء، وأنتِ يا سيدتي فلتأمري بأن يجلبوا كأس ماء مع نبيذ أحمر لنيقولاشا كي يحكي.

جلس الجميع وقدموا لنيقولاي أفاناسيفيتش كأس الماء التي وضع فيها بنفسه بعض قطرات النبيذ الأحمر وبدأ يحكي قصة جديدة عن نفسه.

* * *

# الفصل الرابع

حدث ذلك أيها السادة بعد الهدنة الفرنسية بفترة وجيزة، وكنت أتحدث مع الإمبراطور الراحل.

تصاعدت عدة أصوات في الوقت ذاته:

- هل تحدثت مع الإمبراطور الراحل؟

أجاب القزم بابتسامة هادئة:

- وماذا تظنون؟ نعم تحدثت مع الإمبراطور ألكسندر بافلوفيتش وتمتعت بالفطنة اللازمة للرد عليه.

صاح الشماس أخيل فجأة مسرورًا، وقد أخذ يضرب براحته على حقويه قائلًا:

- هاهاهاها! بحق الله لدينا وغد حقيقي يُدعى نيقولاي! انظروا إليه! صغير لكنه جبار! لقد تحدث مع القيصر!

قال توبيروزوف بلهجة آمرة:

- اجلس أيها الشماس، واهدأ.

لوَّح أخيل بذراعيه مشيرًا إلى أنه لن يقول شيئًا آخر وجلس. بدأت الحكاية مجددًا. قال نيقولاي أفاناسيفيتش بهدوء:

«كما لو أن محادثتي مع الإمبراطور قد بدأت! لقد أرادت سيدتي مارفا أندريفنا أن تذهب إلى موسكو وانتظرت الإمبراطور هناك بعد تحقيق

النصر الشامل على نابليون بونابرت. ذهبت معها بالطبع في هذه الرحلة بحسب رغبتها. كانت الراحلة في هذا الوقت قد هرمت، ولم تكن حالتها الصحية بخير، ومن ثم كانت سريعة الغضب والانفعال. هذا ما جعل السيد الشاب يشعر بالملل من عيشه معها في المنزل، وقد أدركت الراحلة ذلك وأحزنها بشدة؛ والأمر الذي جعل غضبها على ألكسي نيكيتيتش يزداد هو عدم التزامه بالنظام الذي وضعته للمنزل، والذي من خلاله رأت أن الجميع سيكونون سعداء. جلب ألكسي نيكيتيتش دعوة لوالدته إلى الحفل الراقص الذي سيحضره الإمبراطور. لم تُخفِ عني مارفا أندريفنا أن هذا الأمر يسعدها جدًّا. استعدت لهذا الحفل بثوب غالٍ جدًّا، وطلبت من الحائك الفرنسي أن يُعد لي معطفًا أزرق من قماش إنجليزي بأزرار ذهبية، وسروالًا -عذرًا أيتها السيدات- وصدرية ورابطة عنق، وجميعها بيضاء، وكذلك يعد لي قميصًا أبيض مزخرفًا وأبازيم للحذاء، ودفعت ٤٢ روبلًا. توسلت إلى ألكسي نيكيتيتش أن يصطحباني معهما من أجلها. أُصدِر الأمر لكبير الندل بأن يصطحبني إلى المشتل التابع للمنزل والمقابل مباشرة للردهة التي سيأتي فيها الإمبراطور، وأن يضعني هناك في أحد الأركان بين الزهور. تم كل ذلك فعلًا أيها السادة. وضعني كبير الندل في أحد الأركان عند شجرة كبيرة تُسمى «النخلة الصينية»، وقال لي أن أبقى هناك. التفت حولي لأرى ماذا أستطيع أن أرى من مكاني هناك، وإذا بي لا أستطيع أن أرى شيئًا. فعلت كما فعل زكا العشار[1] واعتليت حجرًا صغيرًا موجودًا أسفل النخلة. ساد الردهة ضجيج وألق وموسيقى، وأنا

(١) بحسب إنجيل لوقا ١٩ أراد أحد العشارين الأقزام، ويُدعى زكا، لقاء المسيح، ولم يستطع أن يراه وسط الجمع المحتشد بسبب قصره، فتسلق شجرة ليراه.

لا أزال واقفًا تحت النخلة ولا أرى شيئًا عدا بعض الرؤوس والشعور المستعارة. فجأة اضطربت كل هذه الرؤوس وبدأت تبتعد عن بعضها، ودخل الإمبراطور والأمير جوليتسين[1] مباشرة المشتل بسبب الحر. لكم أن تتخيلوا أنه لم يدخل إلى المشتل وحسب، بل أتى إلى الزاوية الباردة ذاتها التي اختبأت فيها. صُعِقت تمامًا أيها السادة. صعقت على الصخرة التي أقف عليها ولم أبكِ».

سأل توبيروزوف:

- هل شعرت بالهلع؟

- كيف يمكنني وصف الأمر؟ لم يكن هلعًا، بل نوعًا من الاضطراب.

لم يستطع الشماس الصبر أكثر من ذلك وقال:

- لو كنت مكانك لهربت.

- وما الذي يجعلني أهرب يا سيدي؟ لا أستطيع أن أقول إني لم أكن خائفًا على الإطلاق، لكني في الآن ذاته لم أهرب. ظل جلالته يقترب حتى إني بدأت أسمع وقع حذائه على الأرض. رأيت وجهه بالفعل وكانت لديه نظرة هادئة حلوة، وكما يمكنكم أن تتصوروا بدأت أفكر بيأس وأتساءل لماذا أظهر أمام جلالته بهذه الهيئة. التفت الإمبراطور فجأة، ورأيت عينيه قد وقعتا عليَّ وتوقف.

صاح الشماس بوجه شاحب:

- يا إلهي!

انحنيت أمامه.

---

(١) وزير التنوير الشعبي بين أعوام ١٨١٧-١٨٢٤.

تنهد الشماس وهو يضغط على يد القزم هامسًا:

- أرجوك احكِ بأقصى سرعة ولا تتوقف.

- نظر إليَّ وقال للأمير جوليتسين بالفرنسية: «آه! يا له من نموذج مصغر! أود أن أعرف بدافع الفضول: لمن هذا؟». واجه الأمير جوليتسين صعوبة في الرد، ولكن نظرًا لأني أفهم الفرنسية أجبته بنفسي: «أنا ملك السيدة بلودوماسوفا جلالتكم». التفت الإمبراطور إليَّ وسألني: «ما جنسيتك؟». «تابع لجلالتكم الإمبراطورية». سألني مجددًا: «أأنت روسي إذن؟». وأجبته: «من الفلاحين الخاضعين لجلالتكم». ابتسم الإمبراطور وقال: «برافو يا صغيري المخلص[1]». وربت بيده على رأسي.

أخفض نيقولاي أفاناسيفيتش أنفه بابتسامة هادئة، وأضاف همسًا، كما لو أنه سر سياسي عظيم:

- ضغط بيديه هنا؛ ضغط على أنفي، وآلمني بشدة زر طرف كمه.

سأل الشماس:

- ألم تصح بشيء؟

- لا يا أبي الشماس، وبماذا أصيح؟ هل يمكن لأحد أن يصيح من مداعبة الإمبراطور؟ كل ما فعلته هو أني قبَّلت يده ما إن رفعها عني. كم سعدت وتشرفت بهذا الحديث مع جلالته! بعد ذلك بالطبع، عندما أخذوني من عند النخلة وأعادوني في عربة إلى المنزل انخرطت طوال الوقت في البكاء.

سأل أخيل:

(١) بالفرنسية في الأصل.

- وما الذي أبكاك؟

- وكيف لا أبكي؟ وهل ما حدث هين؟ يبكي المرء من فيض المشاعر.

صاح أخيل مبتهجًا:

- صغير لكنه حساس!

عاود الراوي حديثه:

- لكن اسمحوا لي أن أكمل: ما إن عرف البعض بشأن هذا الاهتمام العرضي من طرف جلالة الإمبراطور بي حتى بدأت الراحلة مارفا أندريفنا تصطحبني معها في كل مكان وتعرضني أمام الآخرين، وأقول لكم الحقيقة من دون كذب: كنت حينها أصغر قزم في موسكو كلها. لكن بعد ذلك بفترة قصيرة، وفي أحد فصول الشتاء...

لكن في هذا الوقت، ومن دون سابق إنذار، شخر الشماس، وأمال رأسه على ظهر المقعد، وقهقه بهدوء. عندما لاحظ أن قهقهته أوقفت الحكي نهض من جلسته وقال:

- لا... لا تلقوا بالًا إليَّ. احكِ رجاءً يا نيقولاي. أنا أضحك على أمر يخصني حينما تحدث معي الكونت كلينيخين ذات مرة.

أجابه القزم:

- لا، الأفضل أن تحكي لنا أنت وإلا ستقاطعني مجددًا.

عارضه أخيل:

- لا، لا، فالأمر بسيط لا يستحق. نظر الكونت كلينيخين إلى بناية معهدنا، وانحنيت له فقال: «اذهب بعيدًا أيها الأحمق!». كان هذا هو كل حوارنا، وهذا ما أضحكني.

قال نيقولاي أفاناسيفيتش مبتسمًا: «مضحك حقًّا». وواصل حكايته:

«في الشتاء التالي جلبت زوجة الجنرال فيخوريفا من بطرسبرج مِينا، وهي قزمة أصغر مني بإصبع تقريبًا. لم تستطع الراحلة مارفا أندريفنا أن تسمع شيئًا عن الأمر. في البداية ظلت تقول طوال الوقت إن هذه القزمة غير طبيعية، بل تبدو كما لو أنها مصنوعة من الرصاص، ولكن ما إن رأت بنفسها مينا إيفانوفنا حتى غضبت من بياضها ومثاليتها. بدأت تحلم بشراء مينا إيفانوفنا، ولم ترغب فيخوريفا في بيعها بتاتًا. هنا قالت لها مارفا أندريفنا: «قزمي نيقولاي ذكي واستطاع أن يتحدث مع الإمبراطور، أما قزمتك فهي مجرد فتاة منظرها جيد». وهكذا بدأت السيدتان تتجادلان بحدة عنا. طلبت منها مارفا أندريفنا أن تبيعها لها، بينما طلبت منها فيخوريفا أن تبيعني لها، وفجأة صاحت مارفا أندريفنا: «أنا لا أساومك عليها من أجل التسلية، بل أريد أن أزوج نيقولاي بها». قالت لها السيدة فيخوريفا: «فليتزوجا عندي». قالت مارفا أندريفنا: «إذا رُزِقا بأطفال فسوف أعطيك إياهم». أجابتها الأخرى بالأمر ذاته؛ أنها ستعطيها الأطفال إذا رُزِقا بهم. غضبت مارفا أندريفنا وأمرتني أن أودع مينا إيفانوفنا. عندما لم تعد مارفا أندريفنا تحتمل الأمر عرجت عليها مجددًا وقالت لها: «اسمعي يا زوجة الجنرال، حتى لا يكون كلامي عبثًا، سوف أعطيكِ ألف روبل مقابل مسختك هذه». لحسن الحظ لم تشوهني الأخرى بحديثها وعرضت على مارفا أندريفنا ألفَي روبل ثمنًا لي. أخذتا تزايدان في السعر على بعضهما، وغضبت مارفا أندريفنا مجددًا وصاحت: «أنا لا أتاجر بمن هم ملك لي!». وأجابتها فيخوريفا هي الأخرى بأنها لن تتاجر بمن هم ملك لها، وأمرتني مارفا أندريفنا ثانية أن أودع مينا إيفانوفنا. وصلت المفاوضة بينهما حتى

عشرة آلاف روبل أيها السادة الكرام، لكن الأمر لم يتم لأن سيدتي وافقت أن تدفع عشرة آلاف مقابل ميتا، لكنها أرادت أحد عشر ألفًا ثمنًا لي. امتد الأمر حتى الربيع أيها السادة، وبالرغم من أن السيدة مارفا اتسمت بإرادة عظيمة لا يمكن هدمها، وبالرغم من شجارها مع بوجاتشيف، وبالرغم من أنها رقصت مع ثلاثة أباطرة، فإن السيدة فيخوريفا حطمت شخصيتها بدرجة رهيبة. لقد شعرت بملل... شعرت بملل رهيب، وبدأت تصب عليَّ جام غضبها. قالت: «الأمر كله بسببك أنت أيها الأحمق لأنك لا تستطيع حتى أن تدخل الفتاة إلى خيالك بحيث تطلب منك الأمر بنفسها».
قلت لها: «يا سيدتي مارفا أندريفنا، كيف يمكنني أن أدخلها إلى خيالي؟ أأدخلها بيدي؟ قولي لي يا سيدتي من فضلك لأني أحمق». ازداد غضبها مني. قالت: «أحمق، أحمق، لا يعرف شيئًا». لزمت الصمت».

شرح الشماس بتعاطف لأحد الحاضرين:

- آه من الصغير! آه من الصغير! المسكين لا يستطيع فعل أي شيء.

نظر إليه القزم وواصل حكايته:

«حسنًا، وهكذا اقترب الربيع وبدأت السيدة بلودوماسوفا تُعد نفسها للعودة من موسكو. أمرتني مارفا أندريفنا أن أرتدي ثيابي مجددًا، وهذه المرة جعلتني أرتدي ثوبًا إسبانيًا. ذهبنا إلى فيخوريفا، ولم تتفاوضا مجددًا. قالت لها مارفا أندريفنا: «على الأقل دعي سمكتك الحبار هذه تتمشى مع نيقولاشا أمام المنزل». وافقت زوجة الجنرال، وتمشيت مع ميتا إيفانوفنا على الرصيف المواجه للنافذة. سُرت الراحلة مارفا أندريفنا بذلك وحاكت مختلف أنواع الثياب لنا. أمرتنا في يوم: «سترتديان اليوم

يا نيقولاشا وميتا ثيابًا فلاحية». ارتدينا أحذية قروية، وارتديت كامزول[1] وقبعة، بينما ارتدت ميتا إيفانوفنا قلنسوة عالية، وتمشينا أمام المنزل والناس واقفون ينظرون إلينا. في مرة أخرى أمرتنا أن نرتدي ثيابًا تركية، وتمشينا مجددًا، وفي مرة ثالثة بدونا كبحار وبحارة. ارتدينا في مرة أخرى ثياب الدببة؛ أي تلك الثياب المصنوعة من قماش فانيلا بُني كالأغطية المرتقة، ألبسونا إياها، ووضعوا في اليد شيئًا كالقفاز، وفي القدم شيئًا كالجورب، ولم يظهر منا شيء سوى العين، وعلى قمة الرأس رفرفت الأربطة القماشية التي ربطوها بالأذنين. لكنهم لم يرسلونا إلى الشارع بهذه الثياب، بل أمرونا أن نظهر بها حينما تجلس السيدتان إلى الطاولة لشرب القهوة لنتصارع أمامهما لتسليتهما. كانت ميتا إيفانوفنا قوية بالرغم من كونها امرأة، أما أنا فإذا اتخذت وقفة صحيحة يمكنني أن أُحلِّق بقدمي، لكني استسلمت طوال الوقت لميتا لأني أشفقت عليها بوصفها أنثى، ونادت زوجة الجنرال على الخدم ليجلبوا كلبًا صغيرًا ليهاجمني، وأمسكني فعلًا من قدمَي وغضبت مارفا أندريفنا. في مرة أخرى طلبت الراحلة أفضل بدلة من أجلي، وهي سليمة لديَّ إلى الآن. جعلتني أرتدي ثوب رامي قنابل فرنسي، بينما جعلت ميتا إيفانوفنا ترتدي ثياب مركيزة. جعلتني أرتدي هذه القبعة العسكرية العالية المصنوعة من جلد الدب وثوبًا عسكريًّا طويلًا، وبندقية بحربة، وسيفًا ذا نصل حاد، بينما ارتدت ميتا إيفانوفنا ثوبًا من قطعة واحدة بأكمام طويلة وجعلتها تحمل مروحة كبيرة. أقف عند الباب بسلاحي، وتمر ميتا إيفانوفنا بمروحتها، وأحييها ثم تتساوم كل من

---

(1) سترة بلا أكمام.

مارفا أندريفنا وزوجة الجنرال مجددًا علينا ليزوجانا. لكن عليَّ أن أضيف أن سيدتي تحملت كلفة كل هذه الثياب والبدل لأنها أملت في أننا سوف نشتري ميتا إيفانوفنا، حتى إنها كلما جعلتنا نرتدي هذه الثياب ازدادت قناعتها بأننا سنصير لها، لكن الأمر لم يتم بهذه الصورة. السيدة فيخوريفا، زوجة الجنرال، لم تتدخل في أي شيء ما دام يصب في صالحها، لكنها في الآن ذاته لم تُرد أن تتنازل عن شيء. قبالة الربيع قالت لها مارفا أندريفنا فجأة: «هل سنظل هكذا نتجادل في الأمر ذاته لأجل غير مسمى؟ لا بد أن نحسم الأمر». انتهى الأمر فعلًا عند هذا الحد، وكانت في حالة كادت تفضي بها إلى مقبرة فاجانكوفو. ذبلت الراحلة، واكتسى وجهها بالصفرة، وبدأت تصب جام غضبها على الجميع، ولم تعد تتحمل أن تنتظر شيئًا ولو لدقيقة واحدة، بل تريد أن يرسلوا لها ميتا إيفانوفنا لكي تُزوجني بها حالًا! الناس ينعمون بالعيد المشرق لقيامة المسيح، بينما القلق يسود عندنا، وننتظر الرد الأخير بخصوص يوم الكراسنايا جوركا[1] ولا نعرف كيف سننقل الخبر إليها. هنا تكدر ألكسي نيكيتيتش -فلينعم الله عليه بالصحة والعافية- من الأمر وقد أدرك أن البلية قادمة حتمًا، وفجأة فكر في الأمر، أو تشاور فيه مع أحد الضباط الأذكياء معه في الفوج، وأبلغ والدته أن قزمة فيخوريفا قد اختفت. ما سهَّل الأمر على مارفا أندريفنا هو أن أحدًا ليس معها لتكتشف منه الحقيقة، ومن ثم بدأت تتحدث عن الأمر باستمرار. سألت: «كيف اختفت؟». ويجيبها ألكسي نيكيتيتش بأن يهوديًا سرقها، وتظل تسأله طوال الوقت: «كيف ذلك؟ أي يهودي؟». لفَّق الأمر قائلًا إن

(١) الاسم الشعبي ليوم الأحد التالي مباشرة لعيد القيامة، وعادة ما تُقام حفلات الزفاف في هذا اليوم.

يهوديًا ذا لحية حمراء خطفها وحملها، ورآه الجميع. «ولماذا لم يوقفوه؟». يجيبها قائلًا إنه ظل ينتقل من شارع إلى شارع، ويهرب من زقاق إلى آخر. «يا لها من حمقاء حتى يحملها ولا تفعل شيئًا ولا تطلق حتى صرخة! لو كان الأمر مع قزمي نيقولاي لما استسلم أبدًا». قلت لها: «وكيف يمكنني يا سيدتي أن أستسلم ليهودي!». صدَّقت الأمر كطفلة. لكن حينها ارتكب ألكسي نيكيتيتش خطأ بسيطًا من دون عمد أفسد كل شيء. لقد أراد بالطبع أن يرسل مارفا أندريفنا معي سريعًا إلى القرية حتى تنسى هناك الأمر سريعًا. قال لها: «لا تقلقي يا ماما، سيجدون هذه القزمة لأنهم يبحثون عنها، وما إن يجدوها حتى أرسلها إلى القرية عندك». تمسكت الراحلة بهذه الكلمة، وقالت له: «ما داموا سيبحثون عنها يجدر بي أن أنتظر هنا إذن، فأنا أريد حقًّا أن أرى هذا اليهودي الذي خطفها». كذبنا عليها يا سادة طوال ثلاثة أشهر، وفي كل يوم يأتي إليها قائلًا: «يبحثون عنها ولا يجدونها». واظبتُ كل يوم على إعطائي خمسة روبلات، وإرسالي إلى القداس المبكر للتشفع بالقديس يوحنا المحارب من أجل عودة عبدة هاربة».

قاطعه الشماس قائلًا:

– يوحنا المحارب؟ أتقول إنك تشفعت بالقديس يوحنا المحارب؟

– نعم.

– أهنئك إذن يا أخي، فقد تشفعت بالقديس الخطأ.

قال الأب سافيلي:

– أيها الشماس! اصنع لي معروفًا واجلس. وأنت يا نيقولاي، أكمل رجاء.

- حسنًا، سأكمل يا أبي حتى تنتهي الحكاية. ذهبت مرة بصحبة مارفا أندريفنا عند أيقونة والدة الإله إيفرسكايا[1] في أثناء صوم القديس بطرس، وإذا بنا نلتقي بزوجة الجنرال فيخوريفا في عربتها ومعها ميتا إيفانوفنا. هنا فهمت مارفا أندريفنا كل شيء. لكم أن تصدقوني يا سادة أو لا، فقد انخرطت في البكاء في عربتها؛ بهدوء ولكن بمرارة.

صمت القزم. استحثه القمص سافيلي:

- أكمل يا نيقولا.

- ما إن وصلنا إلى المنزل حتى قالت لألكسي نيكيتيتش: «اتضح يا بني أنك أحمق حتى تجرؤ على خداع والدتك، وتستمر في خداعك هذا طوال ثلاثة أشهر». وبعدها أمرت بإعداد أغراضها من أجل الرحيل.

* * *

(١) أيقونة شهيرة للعذراء مريم يتبرك بها المؤمنون.

# الفصل الخامس

استدار نيقولاي أفاناسيفيتش على مقعده ليواجه المستمعين جميعًا وأضاف:

- قلت لكم إن القصة بسيطة للغاية وليست مثيرة. (أضاف وهو ينهض) هيا يا شقيقتي، دعينا نذهب.

نهضت ماريا أفاناسيفنا واستعدت للرحيل، لكن الشماس جادل مرة أخرى قائلًا إن نيقولاي أفاناسيفيتش تشفع بالقديس الخطأ.

برَّر نيقولاي أفاناسيفيتش حديثه، ممسكًا بقبعته الزغبية قائلًا:

- ليس من شأني أن أعرف ذلك يا سيدي الشماس.

- كيف تقول إنه ليس من شأنك؟ بل شأنك بالطبع! عليك أن تعرف بمن يجب أن تتشفع.

- اسمح لي أن أوضح: ما إن وصلت إلى الكنيسة لأول مرة حتى قدَّمت الطلبة التي أعطتني إياها سيدتي عن العبدة الهاربة للكاهن، وهو من تشفع بالقديس يوحنا المحارب. هكذا تم الأمر.

- آه! ما دام الأمر هكذا، فهذا يعني أنه كاهن سيئ إذن.

فجأة تدخل الأب بينيفاكتوف في الحديث:

- ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟ كيف تصف الكاهن بأنه سيئ؟

أجاب الشماس أخيل الأب بينيفاكتوف بفظاظة:

- هو كذلك يا أبي بينيفاكتوف لأنه لا يعرف عمله جيدًا.

- ألا يجب التشفع بالقديس يوحنا المحارب من أجل عودة عبدة هاربة؟ قل لي أنت إذن بمن يجب أن يتشفعوا؟ بمن؟ بمن؟

- أتسألني بمن؟ أنسيت؟ في الأيام الخوالي كانت هناك قائمة مع شيخ الكنيسة مكتوب فيها ذلك. الآن نزعوها، لكني لا أزال أتذكر فيها القديس المناسب لكل طلبة.

- حسنًا.

- هو قديس واحد ملائم لهذه الطلبة؛ إذا شئت أن تعرفه فهو الأمير تادرس المشرقي.

- لا، أنت مخطئ. القديس الملائم لهذه الطلبة هو يوحنا المحارب. لقد توجهوا إلى القديس الصحيح.

- لا تحرج نفسك أيها الأب زكريا.

- وأنا أقول لك لا تحرج أنت نفسك عبثًا.

- لماذا تتجادل معي في الأمر؟

- لا، بل أنت الذي تجادلني. يمكنني الآن أن أحرجك لو شئت.

- فلتحرجني إذن!

- يا إلهي! سأحرجك!

- أحرجني! هيا أحرجني!

- وحق الله سأحرجك! الأفضل لك ألّا تحاول لأني أحفظ هذه القائمة عن ظهر قلب.

- حسنًا لا تتكلم بل أحرجني! أحرجني!

هكذا تحدث الأب زكريا ضاحكًا، ناظرًا تارة إلى الشماس وتارة إلى الأب توبيروزوف الذي حافظ على صمته.

قرر أخيل التحدث، وثنى الكُم الواسع لغفارته حتى وصل إلى مرفقيه، وثنى الإصبع الضخمة ليده اليسرى بيده اليمنى كما لو أنه سيكسرها وقال:

- أأحرجك؟ حسنًا. أول شيء: من أجل الشفاء من الحمى يتم التشفع بالمبجل ماروي.

كرر الأب بينيفاكتوف خلفه، مؤيدًا حديثه:

- حسنًا، المبجل ماروي.

أكمل أخيل وهو يثني إصبعه بالطريقة ذاتها:

- من شر العضة يتم التشفع بالشهيد العظيم أرتيمي.

- أرتيمي. صحيح.

- لعلاج العقم يتم التشفع بالقديس رومان صانع العجائب. إذا كره زوج زوجته يتم التشفع بالشهداء: جوري وسامون وأفيف. ولطرد الشياطين يجب التشفع بالقديس نيفونت. وللتخلص من شهوة الإغواء يجب التشفع بالقديس فومايد.

أضاف بينيفاكتوف بهدوء وهزة من رأسه:

- والمبجل القديس موسى الهنغاري.

لوى الشماس بالفعل أصابع يده اليسرى الخمس، وفكر للحظة، ناظرًا إلى الأب زكريا، ثم فتح يده اليسرى ليبدأ لَي أصابع يده اليمنى قائلًا:

- نعم، يمكن التشفع فعلًا بموسى الهنغاري.

- حسنًا، أكمل.

- من إدمان الخمر يجب التشفع بالشهيد فوينفاتي.

- وموسى مورين.

- ماذا؟

كرر الأب زكريا:

- فوينفاتي وموسى مورين.

- بالضبط.

- أكمل.

- للحماية من السحر الشرير يجب التشفع بالكاهن الشهيد كيبريان.

- والقديس أوستينين.

- عذرًا أيها الأب زكريا ولكن هذه الملاحظة الأخيرة ليست في محلها.

- لا يوجد ما تعذرني عليه. كتبوا الكلمة الروسية بوضوح: القديس أوستينين.

- حسنًا، حسنًا، والقديس أوستينين. ولإعادة الأغراض المسروقة والعبيد الهاربين (بدأ الشماس من هذه اللحظة يشدد على الكلمات) يجب التشفع بالأمير تادرس المشرقي والذي نحتفل بذكراه في ١٧ فبراير.

لكن ما إن لفظ أخيل عبارته الأخيرة هذه حتى تابع زكريا بهدوء ورباطة جأش قراءة محتويات القائمة:

- وكذلك القديس يوحنا المحارب، وتحل ذكراه في العاشر من يوليو.

رمش أخيل بعينيه وقال:

- صحيح، تذكرت الآن فقط اسم يوحنا المحارب.

سأله نيقولاي أفاناسيفيتش وقد مدَّ له يده ليودعه.

- علام تجادل إذن طوال ساعة يا أبي الشماس؟

- كل ما في الأمر أني نسيته.

- هذا ما يدعونه يا سيدي «أبحث عن القبعة وهي على رأسي». تقبل فائق احترامي العميق يا أبي الشماس.

قال أخيل مبتسمًا، وهو يرفع نيقولاي أفاناسيفيتش من على الأرض ويحمله على راحة يديه:

- أبحث عن القبعة! خفيف كالريشة.

أوقفه الأب توبيروزوف قائلًا:

- توقف.

أعاد الشماس القزم على الأرض وقال مازحًا إن نيقولاي أفاناسيفيتش لا يمكن بيعه أبدًا بسبب خفة وزنه، لكن القمص انزعج من ضجيج أخيل وقال له:

- أتعرف من الذي يُقدِّرونه بحسب وزنه؟

- من؟

- الوغد.

- أشكرك شكرًا جزيلًا.

- لا تغضب من فضلك.

ارتبك الشماس، وقال وهو يمسح قمة قبعته بمنديل:

- لا يمكن للمرء تدبر أمره في أي مكان من دون سياسة.

قال ذلك عابسًا بعض الشيء، وخرج من الباب.

سرعان ما تفرق الضيوف جميعًا، كلٌّ في طريقه.

استقل نيقولاي أفاناسيفيتش وشقيقته الترويكا بهدوء، وسار توبيروزوف بهدوء على ضفة النهر بصحبة داريانوف الذي التقينا به سابقًا في منزل الخابزة بريبوتنسكايا.

في أثناء عبورهما الجسر معًا، توقفا لدقيقة، وبدا أن القمص تذكر شيئًا ما، وقال:

- أليس عجيبًا أن هذه الحكاية القديمة التي قصها علينا القزم لتوِّه، والتي سمعتها منه عدة مرات، وهي حكاية تافهة عن إبر حياكة العجوز، لم تنعشني وحسب، بل هدَّأتني أيضًا من هذا الغضب الذي أغرقتني فيه هذه الأحداث الأخيرة؟ ألا يُعتبر ذلك علامة واضحة على أني هرمت بالفعل وأن شيئًا يسحبني للخلف؟ ولكن لا، الأمر ليس كذلك. هكذا كنت منذ الطفولة، وقد تذكرت الآن وحسب حادثًا بعينه: ذات مرة، وكنت طالبًا حينها، وصلت إلى القرية التي عشت فيها أعوام طفولتي، ووجدتهم هناك قد أزالوا الكنيسة الخشبية ويشيدون بدلًا منها كنيسة حجرية. انفجرت حينها في البكاء.

- ما الذي أبكاك؟

- شعرت بالأسف على الكنيسة الخشبية. صحيح أنهم يشيدون كنيسة رائعة ودافئة في روسيا، وأنها ستكون مشرقة ودافئة للمصلين، لكن آلمتني رؤية كيف يقطعون الأخشاب التي شُيِّدت منها الكنيسة القديمة من دون شفقة.

- إنها قصص تُذكِّرنا بذلك الزمن الذي كانوا يُزوجون فيه الأقزام ليسلوا أنفسهم.

- لتضع في اعتبارك أن هذا يشي بالكثير والكثير من الفقر، لكني أشم فيه أيضًا الرائحة الروسية. تذكرت تلك العجوز وشعرت بالسرور والحيوية، ومنحني ذلك جائزتي المُرضِية. يعيش السادة الروس في وئام مع قصتهم القديمة. يا للمفعول الساحر للقصة القديمة! ويل لمن لا ينعم بها في شيخوخته! ربما تمل من قصص العجائز هذه، لكنها بالنسبة لي حكايات تقطر حلاوة! كم أود أن أموت في سلام مع حكايتي القديمة!

- هذا ما سيحدث بالطبع.

- تصور! أخشى ألَّا يحدث ذلك.

- عبثًا تخاف! من يمكنه أن يحول بينك وبين ذلك؟

- ومن يمكنه أن يعرف المستقبل؟ من؟ مع ذلك، أتسمح لي أن أقول لك ما الذي أتوقعه؟

قال القمص جملته الأخيرة، ناظرًا إلى سحابة الغبار التي لاحت عند الجبل.

رافقت هذه السحابة ترويكا قادمة في الطريق جلس فيها اثنان؛ واحد طويل القامة وبدين وأسمر، ذو عينين مشعتين وشفة عليا غير متناسبة الحجم، والآخر نحيف وحليق، وذو وجه هادئ تمامًا وعينين مشرقتين ولطيفتين.

عدت العربة سريعًا فوق الجسر بهذين الراكبين، وبعد أن عبرت النهر انعطفت يسارًا بمحاذاة الضفة. التفت القمص صوبهما وقال:

- يا لهم من مزعجين!

- أتعرف من هما؟

- حمدًا لله لا أعرفهما.

- ما سأقوله لك سيحزنك إذن. هذا هو الموظف المنتظر هنا: الأمير بورنوفولوكوف. أنا أعرفه بالرغم من أني لم أرَه منذ فترة طويلة. لقد توقفا هناك عند بوابة بيزيوكين.

- قل لي من فضلك من منهما هو بورنوفولوكوف؟

- الصغير الجالس على اليسار.

- ومن الثاني؟

- لا بد أنه مساعده الخاص. إنه مشهور هو الآخر بشيء ما.

- أهو محامٍ كبير؟

- لا لا، لم أسمع عنه ذلك من قبل. بحسب بعض قصص الطلبة، سُجِن في القلعة.

- يا إلهي! وما اسمه؟

- إسماعيل تيرموسيسوف.

- تيرموسيسوف؟

- نعم تيرموسيسوف: إسماعيل بيتروف تيرموسيسوف.

- يا إلهي! أي نوع من الناس لا يملكه قيصرنا؟!

- ماذا تقصد؟

- اعذرني، ولكن أقصد شخصًا مريعًا بشفة سميكة، سُجِن في القلعة وأُطلِق سراحه ولقبه تيرموسيسوف.

قهقه داريانوف وصاح:

- أليس هذا فظيعًا حقًا!

أجاب توبيروزوف:

- ما رأيك؟ ربما يكون فظيعًا حقًا، أليس كذلك؟ اسم المرء ليس مجرد صوت فارغ لا معنى له. لم يقل مغني أوديسا عبثًا: «في لحظة الميلاد ينال كل شخص اسمه كهدية حلوة». إلى اللقاء الآن. هل سنلتقي في المساء؟

- بالطبع.

- رائع إذن. سيكون لدينا الوقت الكافي للحديث عن العلاقة بين الأسماء وحامليها.

قال القمص ذلك ومد يده ليصافح رفيقه ثم تفرقا.

كان توبيروزوف أول من وصل إلى منزل قائد الشرطة في المساء. لقد وصل مبكرًا حتى إن صاحب المنزل كان لا يزال ينعم بقيلولة بعد الغداء الحلو، بينما انهمكت زوجته في تنظيف زهور الكاميليا ونباتات الدفلي الخاصة بها بالإسفنجة المحيطة بأريكة خشنة في غرفة المعيشة الصغيرة.

التقت صاحبة المنزل والقمص بودية وبساطة شهدتا على صداقتهما.

سأل القمص:

- هل وصلت مبكرًا؟

أجابته ضاحكة:

- بل في وقت مبكر جدًا.

- ياه! كانت زوجتي محقة إذن عندما أوقفتني، ولكن شيئًا ما جعلني لا أود المكوث في المنزل، وتملكتني الرغبة في زيارتكما. دعيني أساعدك في غسل الأزهار.

قال القمص ذلك وخلع غفارته، وشمَّر كمَّي ثوبه، وتزود بقطعة قماش مبللة وشرع في العمل.

لم تستغرق هذه المشاغل والمناوشات الصغيرة مع سيدة المنزل حول حالة أزهارها أكثر من نصف ساعة، حتى علت من أسفل نوافذ المنزل قعقعة عربة. جفل توبيروزوف ونظر من النافذة قائلًا في نفسه: «آه! حسنًا أني عجَّلت أموري». ثم صاح عاليًا: «بارمن سيميونوفيتش! أهذا أنت يا صديقي؟». واندفع للقاء ممثل مجلس النبلاء توجانوف الذي كان يغادر عربته في هذا الوقت.

* * *

# الفصل السادس

شئنا أم أبينا، علينا الآن أن نمتثل للظروف التي لا يمكننا مغالبتها في طريق روايتنا هذه ذات الوقائع الفعلية، ومن ثم سنفارق لبرهة من الوقت قمص مدينة ستارجورود وممثل مجلس نبلاتها ونتعرف على دائرة مختلفة تمامًا من دوائر هذه المدينة. علينا أن ندخل منزل محصل الضرائب بيزيوكين حيث وصل اليوم ضيوف سان بطرسبرج الذين طال انتظارهم: صديق الجامعة القديم لبيزيوكين الأمير بورنوفولوكوف الذي صار الآن موظفًا بطرسبرجيًّا لامعًا، والذي أتى إلى المدينة بهدف مراجعة شيء ما، وجلب معه شيئًا ما، وكذلك سكرتيره تيرموسيسوف، وكان أيضًا يومًا ما زميلًا لبيزيوكين ومعاونًا له. سندخل هذا المدخل في هذه اللحظة تحديدًا التي وقفت فيها عربة البريد التي أقلت ضيوف العاصمة إلى مدينة ستارجورود.

في هذا الوقت تحديدًا لم يكن محصل الضرائب في منزله، ولم يكن هناك من أصحاب المنزل سوى الزوجة؛ السيدة الشابة التي نعرفها بعض المعرفة من كلمات الشماس أخيل والخابزة العجوز والمعلم بريبوتنسكي. انتظرت هذه السيدة المثيرة للاهتمام وحدها الضيوف

المهمين، وقد خصت تيرموسيسوف باهتمام خاص، فقد كانت على معرفة به بسبب نشاطه السياسي المؤثر. لقد سمعت الكثير عن شخصيته العظيمة وأهميته من زوجها، ومن ثم، ولكونها هي نفسها امرأة سياسية، انتظرت وصول هذا الضيف بفارغ الصبر. أرادت بيزيوكينا أن تريه الجانب الأفضل للمدينة والأنفع، ومن ثم انشغلت منذ الصباح بأن ترتب منزلها بحيث يترك مظهره الخارجي في الضيفين انطباعًا جيدًا من النظرة الأولى. ظلت زوجة محصل الضرائب منذ الصباح الباكر تجوب غرف المنزل عدة مرات، ووجدت أن كل شيء لم يكن على ما يرام. توقفت في منتصف غرفة المعيشة الأنيقة والمفروشة جيدًا، وصاحت في يأس: «لا، الشيطان وحده يعلم ما هذا! يبدو المنظر كما هو عند آل بوروخونتسيف وآل داريانوف وزوجة محصل البريد؛ باختصار يبدو المنظر هنا كما هو عند الجميع، بل ربما أفضل عندهم بكثير! مثلًا ليست هناك ساعة معلقة على المدخنة عند آل بوروخونتسيف، بل وليست عندهم مدخنة على الإطلاق، لكن دعونا نقول إن المدخنة ليست مهمة، بل وتتطلب تنظيفًا مستمرًا، وعلاوة على ذلك ما الجدوى من حوامل المصابيح الجدارية هذه، وهذه الدمى، ولماذا هذه الساعة بينما هناك ساعة بالفعل في الردهة؟ أأقول في الردهة؟ يا إلهي! البيانو هناك وكذلك أوراق النوت الموسيقية. لا، هذا غير ممكن بتاتًا، وأنا لا أريد أن يجد بعض الضيوف الجدد شيئًا عندي من هذه التفاهات. لا أريد أن يكتب لي تيرموسيسوف شيئًا شبيهًا بما كتبته ماشا الذكية لزوجها في الرواية الذكية «روح حية»[1]؛ الزوج

(١) رواية للكاتبة الأوكرانية ماريا فيلينسكايا التي كتبت بعض أعمالها باسم مستعار: ماركو فوفتشوك.

الذي عاش في منزل جميل، يشرب فيه الشاي من سماور فضي. كتبت هذه الفتاة الذكية له: «بعد أن رأيتك انتهى كل شيء بيننا». لا، لا أريد أن يحدث ذلك. أعرف كيف يجب أن أستقبل شخصيات مهمة. ثمة أمر واحد محزن؛ ألا وهو أني لا أعرف كيف تجري الأمور تحديدًا عندهم في بطرسبرج. من المؤكد أن كل شيء عندهم هناك سيئ بشكل ما. لا، قصدت أن أقول كل شيء هناك رائع. أوووف! أقصد سيئًا. الشيطان وحده يعلم كيف هي الأمور هناك. لكن للأسف كل شيء يفسد هنا، حيث تتطلب مثل هذه الأمور مالًا، وما فائدة أن يتخلص المرء من بعض الأغراض ما دامت هي في الجوار وستراها العيون على كل حال؟ ثمة ستائر من الدانتيل في غرفة النوم. لنفترض أن أحدًا لن يراها هناك، ولكن ماذا لو رأوها؟ سيكون الأمر مخزيًا للغاية. إلى جانب ذلك يرتدي الأطفال ثيابًا جيدة، لكنهم لن يظهروا للضيوف. فلندعهم يجلسون حيثما يجلسون الآن، ولكن لا يزال من المؤسف التخلص من كل شيء بعيدًا. لا، الأفضل الاكتفاء بترتيب غرفة زوجي وحسب».

قالت السيدة الشابة ذلك لنفسها ثم استدعت الخدم وأمرتهم أن ينقلوا كل ما هو زائد وزخرفي من وجهة نظرها في مكتب زوجها إلى المخزن فورًا.

مكتب محصل الضرائب الذي حُرم بالفعل من كل زخرفة لصالح غرفة سيدة المنزل وآمرته صار الآن ممزقًا، وعرض مشهدًا حزينًا تمامًا. لم يتبقَّ فيه سوى طاولة ومقعد وأريكتين. قالت بيزيوكينا في نفسها: «ممتاز! على الأقل ثمة غرفة واحدة تبدو في أفضل حال». ثم لطَّخت المكتب بنقطتَي حبر، وضربت المبصقة بقدمها ونثرت رمالها على الأرض. ولكن

يا إلهي! بعودتها إلى الردهة لاحظت زوجة محصل الضرائب أنها لم ترَ أفظع شيء؛ ثمة صورة معلقة على الحائط!

- يرموشكا، يرموشكا، اسحب هذه الصورة سريعًا واحملها. سوف أخفيها داخل الكومود.

أزيلت الصورة من على الحائط. قالت في نفسها: «كم من الحماقة أن يضرب العريس تماثيله ويمزق ستائره في انتظار ضيوفه!».

- يرموشكا، ائتني بالستائر، أسرع وأخفِها. هكذا أفضل. الآن أيها الشيطان الصغير ارتدِ ثيابًا أفضل من هذه.

- أفضل؟

- نعم، أفضل بالطبع. ماذا عندك هناك؟

- بيمشت[1] يا سيدتي.

- أي بيمشت يا أحمق؟ أتقول «بيمشت يا سيدتي»؟ ارتدِ صدرية وسترة تحتية وقفطانًا جديدًا حتى يكون كل شيء على أفضل ما يكون. ولا تُجبني أبدًا بطريقة الخدم هذه «اسمحي لي يا سيدتي، وبم تأمرين؟»، وما إلى ذلك. بل قُل ببساطة «ماذا تحتاجين؟»، أو «أقول لكِ كذا»... أتفهم؟

- أفهم يا سيدتي.

- لا تقُل «أفهم يا سيدتي» أيها الصبي الغبي، بل قُل «أفهم» وحسب. أفهم وحسب.

- أفهم.

- رائع. هيا اذهب وارتدِ ثيابك. الضيوف سيصلون. أتفهم؟

---

(١) ثوب رجالي ينتشر عند الشعوب التركية والقوقازية والمغولية، محكم على الصدر والخصر.

- أفهم يا سيدتي.

- أفهم وحسب أيها الأحمق، لا «أفهم يا سيدتي».

- أفهم.

- هيا اذهب إذا كنت تفهم.

دخلت السيدة القلقة مخدعها وفتحت دولابها بندقي الشكل المليء بالثياب الفاخرة، وألقت نظرة على كل خزانتها، واختارت أسوأ ما وجدته، واستدعت خادمتها وأمرتها أن ترتديه.

- مارفا، هل تكرهين السادة كثيرًا؟

- لماذا يا سيدتي؟

- لا تقولي «لماذا يا سيدتي؟»، بل قولي ببساطة: «لماذا؟». ولماذا تحبينهم؟

احتارت الفتاة.

- هل أسدوا لكِ أي خير؟

- لم يسدوا لي خيرًا يا سيدتي.

- لا تقولي «يا سيدتي» يا حمقاء. يعني ذلك إذن أنكِ لا تحبينهم. ها أنا أطلب منكِ بكل تواضع ألَّا تقولي لي بعد الآن «لماذا يا سيدتي؟»، ولا «لا شيء يا سيدتي»، بل قولي ببساطة «لماذا؟»، و«لا». أتفهمين؟

- أفهم يا سيدتي.

- لا تقولي «أفهم يا سيدتي»، بل «أفهم» وحسب.

- لماذا يا سيدتي؟

- لأني أريد ذلك.

- حسنًا يا سيدتي.

- لقد أخبرتكِ للتوِّ أن تقولي «حسنًا»، و«أفهم» وحسب.

- حسنًا، وأنا أفهم ذلك، ولكن الأمر صعب عليَّ.

- صعب؟ ستجدينه بعد ذلك سهلًا. الجميع يقولون ذلك في البداية. أتسمعين؟

- أسمع يا سيدتي.

- أسمع يا سيدتي مجددًا؟! حمقاء. اذهبي بعيدًا. سوف أطردكِ إذا أجبتِني مجددًا بهذه الطريقة. قولي ببساطة «أسمع» وحسب. قريبًا لن يعود هناك سادة على الإطلاق. أتفهمين ذلك؟ لن يكون هناك سادة على الإطلاق. ستمزقهم الفؤوس جميعًا قريبًا، أفهمتِ؟

أجابت الفتاة وهي لا تعرف كيف تُخلِّص نفسها:

- فهمت.

- هيا اذهبي بعيدًا وأرسلي لي يرموشكا.

«يلزمني أيضًا شيء واحد آخر؛ أن تكون عندي مدرسة». أعطت بيزيوكينا يرموشكا عشر عملات معدنية من فئة خمسة كوبيكات، وأمرته أن يغريَ الأطفال ويجلب أكبر قدر ممكن منهم من الشارع، بعد أن يقول لكل منهم إنه سينال خمسة كوبيكات أخرى.

عاد يرموشكا بعد مرور عشر دقائق، وبصحبته حشد كامل من أطفال الشوارع ذوي الثياب المهلهلة.

أعطت بيزيوكينا كل واحد منهم خمسة كوبيكات، وأدخلتهم إلى مكتب زوجها وقالت:

- سوف أعلمكم، وسينال كل منكم خمسة كوبيكات، موافقون؟

حرك الصبية أنوفهم وقالوا:

- حسنًا، حسنًا.

ثم قال أحدهم، وهو أذكى من الآخرين:

- لكننا لا نستطيع قراءة كتاب.

- سوف أعلمكم أغنية، لا قراءة كتاب، موافقون؟

- حسنًا، أغنية، هكذا أفضل.

- يرموشكا، تعالَ واجلس بجانبي.

جلس يرموشكا وغطى فمه بيده خجلًا.

- الآن كرروا ورائي:

يذهب الحداد إلى دكان الحدادة[1]

كرر الصبية من الخامس إلى العاشر خلفها.

صاحت بيزيوكينا:

- المجد.

صاحوا خلفها:

- المجد.

تحت الأرض ثلاث سكاكين حادة. المجد.

هنا رفع يرموشكا رأسه، وألقى نظرة من النافذة وصاح:

- الضيوف يا سيدتي!

---

(١) سطور مقتبسة اقتباسًا غير دقيق من أغنية دعائية للكاتب الروسي: ألكساندر بيستوجيف.

ألقت بيزيوكينا من يدها المسطرة التي كانت تلوِّح بها للصبية في أثناء تعليمهم الأغنية، واندفعت سريعًا إلى الردهة.

سبقها يرموشكا واندفع في البداية إلى الردهة الأمامية، ومن هناك ذهب إلى الشرفة الخارجية، واندفع لمساعدة بورنوفولوكوف وتيرموسيسوف في الهبوط من العربة. شعرت السيدة السياسية الشابة بالرضا عن نفسها حينما وجدها الضيوف -كما يُقال- في كامل زينتها.

* * *

# الفصل السابع

بالفحص المتمعن اتضح أن الأمير بورنوفولوكوف وتيرموسيسوف أكثر إثارة للاهتمام مما بدا لتوبيروزوف بالنظرة السريعة. بدا المفتش شبيهًا بسمكة راف نائمة؛ صغيرًا ومستديرًا، منفوش الريش، ذا عينين تكسوهما نداوة النوم دائمًا. بدا أنه لا يصلح لشيء ولا قادرًا على شيء. لم يكن إنسانًا، بل سمكة راف نائمة تجوب البحار والبحيرات جميعًا، والآن، بعد أن نامت لم يعد شيء فيها يتوهج أو يضيء.

يُذكِّر تيرموسيسوف من ينظر إليه بالقنطور[1]. بفضل حجمه الذكوري الهائل بدا جسده صحيحًا معافى، لكنه أنثوي الشكل تمامًا؛ ضيق الكتفين، واسع الحوض جدًّا، تبدو فخذاه كفخذي الجواد، وتبدو ركبتاه لحيمتين ومستديرتين. يداه جافتان ونحيلتان، وعنقه طويل، ولكن ليست لديه تفاحة آدم كما هو الأمر عند غالبية البالغين، بل يبدو عنقه كعنق الخيل حيث يوجد فيه هذا التجعد شديد الانحدار الذي نجده في عنق الجواد. الرأس وقمته ممتدان صوب جميع الجوانب، والوجه قاتم ذو أنف طويل كالأنوف الأرمينية، وشفة علوية ضخمة تتكئ بكل ثقلها على السفلية. كانت عينا نيرموسيسوف بُنيتَي اللون وبقع سوداء حادة في بؤبؤي العين، وبدت نظرته مؤثرة وذكية.

---

(١) مخلوق أسطوري إغريقي نصفه العلوي بشري والنصف السفلي لحصان.

كانت ثياب الضيفين اللذين وصلا حديثًا رائعة أيضًا. ارتدى بورنوفولوكوف معطفًا فضي اللون صغيرًا، بالإضافة إلى سترته الجلدية، كما ارتدى قبعة هولندية ذات خطوط ملونة، بينما ارتدى تيرموسيسوف سترة فضفاضة بلون بني قاتم، وحزامًا أسود عريضًا وقلنسوة متجانسة ذات خطوط خضراء وعقدة. ارتدى بورنوفولوكوف حذاء جلديًّا بنصف عنق، بينما ارتدى تيرموسيسوف حذاء طويل العنق من أحذية مدينة سوفوروف.

بوجه عام بدا تيرموسيسوف في هيئة أفخم وأصلب كثيرًا من رئيسه. ما دعَّم هذا الاختلاف الجوهري أيضًا هو سلوكه الممتاز.

بعد أن هبطت قدما المفتش بورنوفولوكوف من العربة، وقبل أن يصل إلى الشرفة الخارجية، خطا بضع خطوات سريعة ولكن غير متزنة، ناظرًا إلى الجانبين وإلى الخلف كما لو أنه يتأمل في المدينة ومعجب بها، بينما لم يُبدِ تيرموسيسوف أي حركات سطحية، ولم يلتفت حوله، ولم تُبدِ ملامحه أي تأثر، بل سار بهدوء على الجانب الأيسر لبورنوفولوكوف. خفض تيرموسيسوف وجهه الذي يبدو كوجه الجواد قليلًا على صدره، وبدا كما لو أنه يستمع باحترام لما يفكر فيه رئيسه في هذه اللحظة. رأت بيزيوكينا كل ذلك. راقبت الوافدين الجديدين من خلف النافذة وغرقت في الحيرة: من منهما المفتش بورنوفولوكوف ومن منهما تيرموسيسوف؟ تصورت أن الأمير بورنوفولوكوف لا بد وأنه هذا الضخم، لأنه يرتدي قبعة رسمية ذات عقدة، بينما الآخر لا يبدو مظهره مميزًا، ويرتدي سترة جلدية وقبعة ملونة. تيرموسيسوف رجل حر، يعمل موظفًا مستقلًّا. علاوة على ذلك عذَّب سؤال آخر السيدة: كيف يجب أن تلقاهما؟ أتخرج للقائهما في الخارج؟ يبدو هذا رسميًّا بعض الشيء. ألا تفعل شيئًا، وتجلس حتى

يدخلا؟ يبدو سلوكًا متكلفًا. أتقرأ في كتاب؟ نعم. قراءة كتاب ستبدو أمرًا تلقائيًّا تمامًا.

تناولت أول كتاب وقعت عليه يدها، ونظرت من فوقه إلى النافذة، ولاحظت أن يدي بورنوفولوكوف الذي ظنته تيرموسيسوف قذرتين، بينما يداها المتبطلتان بيضاوان كالزبد.

أمسكت بيزيوكينا فورًا بعض التراب من إناء زهور عند النافذة، وفركته في كفيها ولطخت ركبتيها به، وجلست متكئة على النافذة، ممسكة بكتابها.

في هذه اللحظة سمعت من عند الأغصان الظليلة صوتًا جهيرًا حلوًا ومرحًا، وانفتح الباب بقوة ودخل الضيفان الردهة الأمامية؛ تيرموسيسوف في المقدمة، والأمير بورنوفولوكوف من خلفه.

* * *

# الفصل الثامن

جلست السيدة ولم تتعجل. تذكرت في هذا الوقت وحسب كيف يمكن أن تبدو هذه الزهرة الموجودة عند النافذة غير ملائمة، ووسط ارتباكها فكرت كيف يجب أن تتحلى بمزيد من البراعة لتُلقيها من النافذة المفتوحة. شغلتها هذه الفكرة حتى إنها لم تسمع السؤال الأول الذي وجَّهه إليها واحد من الزائرَين اللذين وصلا حديثًا؛ الأمر الذي أضفى عليها هيئة من استغرقت في القراءة استغراقًا شديدًا.

نظر تيرموسيسوف إليها وهو واقف عند العتبة، وتوجب عليه أن يعيد سؤاله الهادئ:

- هل أنتِ السيدة بيزيوكينا؟

أجابته من دون أن تنهض من مكانها:

- أنا بيزيوكينا.

دخل تيرموسيسوف الردهة وقال:

- أنا إسماعيل بتروف تيرموسيسوف. كنت رفيقًا لزوجك في الطفولة، ولكننا انفصلنا بعد ذلك بسبب الغباء، وهذا هو الأمير أفاناسي فيدوسيتش بورنوفولوكوف، وهو موظف ومفتش قادم من بطرسبرج، وسوف ننظم كل شيء هنا. مرحبًا.

مد تيرموسيسوف يده.

مدت بيزيوكينا يدها لتيرموسيسوف، بينما وضعت باليد الأخرى الكتاب على النافذة، وأسقطت به الأصيص من فوقها.

- يبدو أنكِ أسقطتِ أصيص الزهور من النافذة، أليس كذلك؟

- لا، لا. الأمر بسيط. إنه ليس أصيصًا، بل بعض العشب من المرج لكنه ليس جيدًا.

- هذا غير جيد بالطبع. يتداوى بعض المغفلين الآن بعشب المرج. يبدو أنه لا يزال هناك مثل هؤلاء الحمير. أين زوجكِ؟

نظرت بيزيوكينا إلى المفتش الذي جلس في هدوء على الأريكة من دون أن يقول كلمة واحدة، وأجابت تيرموسيسوف بأن زوجها ليس في المنزل.

- حقًّا؟! حسنًا، لا يهم. سنلتقي. لقد كنا صديقين لكننا تشاجرنا قليلًا بسبب غبائنا، ولكن على أي حال أقول لكِ بصراحة إن زوجكِ غير ملائم لكِ. لا أقصد ذلك تحديدًا، وليست لديَّ طريقة لأفسر بها كيف هو غير ملائم لكِ. إنه ضيق الأفق، ومن حسن حظه أنكِ ساعدتِه في نيل هذه الوظيفة كموظف ضرائب. أنتِ شخصية رائعة، وقد توليتِ كل شيء، ووجدتِ عملًا لزوجكِ، وتبدو الأمور عندكِ هنا رائعة. (أضاف وهو ينظر بقدر ما يستطيع إلى كل الغرف التي تظهر من الردهة، وقد لاحظ بعض الأطفال قد تكدسوا عند العتبة في غرفة خالية من كل الزخارف) آه! لديكِ هنا مَدرسة! لذلك تبدو الغرفة سيئة، ولكن بالنسبة لمدرسة لا بأس بها. (اختتم كلامه بهدوء قائلًا) ماذا تُعلِّمين هؤلاء الجُرب؟

لم تعرف بيزيوكينا الحاذقة بماذا تجيب. لكن تيرموسيسوف عاونها

بنفسه. لم ينتظر منها ردًا واقترب من الصبية، ورفع واحدًا منهم على كتفيه وقال:

- ماذا؟ أتستطيع أن تسرق بعض البازلاء؟ اسرق يا أخي، وعندما ينفونك لسيبيريا تقبّل حينها بركتي! أطلقيهم يا بيزيوكينا، هيا يا صبية اخرجوا إلى الساحات وأثيروا ضجيجًا.

خرج الأطفال في هدوء، واحدًا تلو الآخر إلى الردهة، ثم ركضوا عبر الردهة الداخلية، ومنها إلى الساحة الخارجية.

- ما كل هذه المدارس؟ هراء.

تجرأت صاحبة المنزل وقالت:

- سأكتشف ذلك بنفسي.

- ألا تتلقين دعمًا؟

- لا، أي دعم تقصد؟

- كيف ذلك؟ ينال الآخرون دعمًا. أهذا هو ابنك حبوبك؟ (سأل السؤال الأخير، مشيرًا إلى يرموشكا الذي دخل إليهم متأنقًا، ومن دون أن ينتظر ردًا قال له) اسمع يا عزيزي، فلتأمر الخدم يا صديقي أن يجهزوا لنا المكان لنغتسل.

قالت السيدة بارتباك:

- هذا ليس ابني إطلاقًا.

لكن تيرموسيسوف لم يسمعها، وقد تمسك بفكرة أن من يراه أمامه هو ابنها، بل وطوّر الأمر وحدّثه عما يجب إعداده وكيفية تحضيره.

- عليكِ أن تكيفيه على العمل، حتى لا يود أن يصير أديبًا! ليس لديَّ

الحق في تكليفه بعمل، لكني بطريقة ما، حتى إذا كانت غير مباشرة، أكلفه بعمل. نعم يا سيدتي. صحيح أني عدمي قبل أي شيء آخر، بل وغضبت من زوجك لأنه التحق بوظيفة رسمية، لكن هذا غباء. لماذا لا يعمل في وظيفة رسمية؟ في الوظيفة سيحبونك، وفي الوظيفة ستنال المال، وفي الوظيفة سيكون لك تأثير، ولن يكون الأمر معك هكذا في مهنة الأدب. لا يزالون ينشدون أصحاب المواهب هناك، بينما هنا تضرهم ولا يحبون أصحابها. نعم يا سيدتي، نعم. علِّمي ابنك أن يلتحق بوظيفة.

قالت دانكا:

- ولكن سيأتي أوان العمل في الورش.

أجاب تيرموسيسوف بسخرية:

- سيأتي؟ نعم سيأتي، لكن أفضل له أن يظل ثابتًا في مكانه! لا، يبدو أنكِ روتينية. في روسيا القوة في الوظيفة الرسمية لا في ورش العمل عند فيرا بافلوفنا[1]. هذه سفاهة، ولكن في الوظيفة الرسمية أعمل عملاً حقيقيًا وأنتقي الناس وأسألهم: من أي نوع أنت؟ أنت كذا. وأنت؟ أنت كذا. ألست معنا؟ سوف أستعبدك وأخنقك وأسحقك، وستدفع لي مقابل كل ذلك. بالرغم من أنه قليل فإنك ستنال في النهاية ثلاثة أو أربعة آلاف. هذه نسبة ثابتة. لماذا تحدقين فيَّ هكذا؟ هل يبدو الأمر ضاريًا لمن يسمع عنه من دون أن يكون قد اعتاد عليه؟

صمتت سيدة المنزل المذهولة، بينما واصل الضيف حديثه:

---

(١) يدور الحديث عن ورش العمل التي أنشأها الديمقراطيون في الستينيات على غرار بطلة رواية ن. ج. تشيرنيشفسكي «ما العمل؟» فيرا بافلوفنا.

- تُقيمين مدرسة هنا، أليس كذلك؟ ربما يجب أن تنالي المديح على ذلك على أرض الواقع في ظل وجود كل هؤلاء المغفلين، ولكن تيرموسيسوف العملي لن يفعل ذلك. يقول تيرموسيسوف: كفى مدارس. إنها ضارة. عندما يتعلم الشعب، فسيبدأ في قراءة الكتب المقدسة. هل تعتقدين أن معرفة القراءة لها دور هدَّام؟ لا يا سيدتي، بل إنها تؤدي إلى البناء، بينما نحن في حاجة إلى الهدم قبل أي شيء آخر.

تجرأت صاحبة المنزل على الاعتراض قائلة:

- لكنهم يقولون إن شعبنا يستحيل أن يقوم بثورة.

- وما حاجتنا الآن بحق الجحيم إلى ثورة، بينما تسير الأمور في صالحنا من دون ثورة بأفضل درجة ممكنة؟ ها هو ابنك حبوبك يقف ويسمع. لماذا تسمحين له أن يسمع ما يقوله الكبار؟

أجابت زوجة محصل الضرائب:

- هذا ليس ابني تمامًا.

- ماذا تعنين بأنه ليس ابنك؟ من هو إذن؟

- خادم.

- خادم؟ ويتأنق هكذا؟ اذهب لتعد لنا الحمام يا عفريت!

أجاب يرموشكا بانضباط:

- جاهز.

- ولماذا لم تقُل إنه جاهز منذ وقت طويل؟ اغرب عن وجهي.

والتفت تيرموسيسوف إلى بورنوفولوكوف الذي ظل طوال هذا الحوار ساكنًا، وقال بعد أن لاحظ إشارته اللطيفة:

- أعطني المفتاح، سأُخرِج لك منشفتك من الحقيبة.

لكن الأمير الصامت استدار ولم يعطه المفتاح.

قالت سيدة المنزل:

- ثمة منشفة جاهزة لك.

صاح برموشكا من الغرفة:

- نعم، جاهزة.

- جاهزة؟ انظروا كيف يصيح هذا الوغد.

حاكى تيرموسيسوف برموشكا بصورة هزلية، ثم أضاف: «هذا عدمي أصيل». ودخل الغرفة خلف بورنوفولوكوف حيث أعدوا لهما المكان ليغتسلا.

انتهى العرض الأول، وبقيت سيدة المنزل وحدها؛ بقيت وحدها ولكن مع هاوية من المشاعر والأفكار العميقة الجديدة.

لم تنتظر بيزيوكينا ذلك من تيرموسيسوف قَط، بل وذُهلت منه. جعلتها أحاديثه الجديدة على أسماعها تشعر بالعذوبة والهلع في الآن ذاته. لم تستطع أن تقرر بعد ما إذا كان حديثه أفضل مما انتظرته أم أسوأ، لكنها مسرورة في كل الأحوال، فكل ما سمعته بعث فيها الكثير من الراحة. لقد أعجبها حديثه. قالت في نفسها، من دون أن ترفع بصرها عن الباب الذي توارى خلفه تيرموسيسوف: «هذا من يمكن وصفه فعلًا بالذكاء. الجميع يتحلون بدرجات مختلفة من الصرامة والقدرة على إصدار الأوامر، أما هذا فلا شيء لديه من ذلك. يسمح بكل شيء، وكل شيء ممكن لديه، وفي الآن ذاته لا يخاف أحدًا. يسهل العيش مع إنسان مثله، بل إن الامتثال لمن هم مثله يبدو لطيفًا».

لقد غزا شخص غريب ماكر قلب دانكا غزوًا مميتًا. فجأة فارقتها غدرًا كل حيويتها التي اعتادت أن تتسم بها أمام أبيها وزوجها وبرنابا والمجتمع كله. بعد حديثها مع نيرموسيسوف شعرت بيزيوكينا بانجذاب لا يُقاوَم إلى العبودية. لقد أحبته. أحبته قطعًا؛ أحبته لجدارته التي لا شك فيها. أُعجبت بكل شيء فيه: يا لصوته! يا لقوته! يا له من رجل! يا له من فاتن! ليس عاطفيًّا كزوجها، ولا يُهمهم كبريبوتنسكي. لا، إنه حاسم وعنيد. إنه رجل حقيقي. لن يستسلم أمام أي شيء. إنه يبدو كـ... يبدو كإعصار حقيقي؛ يهب ويشعل ويحرق.

نعم، لم يقتصر الأمر على أن داريا نيقولايفنا بيزيوكينا قد وقعت في الحب، بل إنها أُصيبت بجروح بالغة يتعذر علاجها من قِبل أقسى العواطف. كادت للحظة أن تفقد الوعي، وأغلقت عينيها، وشعرت ببرودة قارسة غامضة تتملك كل أجزاء جسدها، وبرد لسانها داخل فمها، وتردد صدى النبضات المتسارعة في أذنيها، كما كان بوسع المرء أن يسمع كيف يخفق الشريان السباتي بقوة في عنقها.

نعم، حُسِم الأمر. أين صرتِ الآن؟ أين صرتِ الآن يا زوجة موظف الضرائب البائسة؟ ألا تشعرين بحكة في جبهتكِ كمعزاة صغيرة قد قطعوا قرنيها؟

* * *

# الفصل التاسع

سمعت بيزيوكينا العاشقة منذ وقت طويل بالفعل من خلف باب الغرفة المغلق صوتًا يشبه بقبقة البطة؛ بقبقة حماسية ونحنحات حلقية، لكن كل هذا انتهى بالفعل ولم يظهر تيرموسيسوف بعد. هل لا يزال يتحدث مع أميره هذا ذي الشعر الأشعث أم أنه نائم؟ ترى أيهما؟ أيكون قد أُنهك من الطريق أم أنه يقرأ؟ ماذا يقرأ؟ وما حاجته إلى القراءة وهو أذكى من كل من يكتبون؟ لكن في أثناء استغراقها في هذه الأفكار انفتح الباب، وظهر على العتبة الصبي يرموشكا حاملًا طشتًا مليئًا بماء الاغتسال، ولم يغلق الباب من خلفه، ومن ثم استطاعت داريا نيقولايفنا أن ترى كل شيء في الداخل. بعيدًا في عمق الغرفة لاح الجسد الضئيل للأمير الأشعث ينظر من النافذة، وبالقرب منه، ولكن أقرب قليلًا، تيرموسيسوف ذو الجسد اللحيم. كان كلاهما؛ المفتش ومساعده، في ثيابهما غير الرسمية. ظهر بورنوفولوكوف في سروال أبيض وقميص هولندي أبيض كالزبد، وثمة حمالتان حريريتان على طول الكتفين تبدوان كشريطين قرمزيين، وكان رأسه الصغير الأشقر ناعمًا، وكان لا يزال يفركه بعناية بفرشاة معدنية. انتصب تيرموسيسوف، ولاحت كل ملامحه وكل جسده. كانت ياقة قميصه مفكوكة، وأظهرت الأكمام المطوية إلى ما بعد المرفقين ذراعين قويتين ومشعرتين.

أمسك تيرموسيسوف بهاتين اليدين منشفة روسية طويلة، وقد طُرِّز على طرفيها ديكان أحمران، وقد أخذ يفرك بها شعره المبلل والأشعث.

استنادًا إلى الحيوية التي نفَّذ بها إسماعيل بيتروفيتش هذه العملية يمكننا أن نخمن من دون أي خطأ أن هذه النعم المرحة والقوية والصادقة التي لاحت من الغرفة من دقيقة واحدة، لم تظهر إلا برغبة تيرموسيسوف، أما بورنوفولوكوف فقد اكتفى بإطلاق الصفير والاغتسال كالبطة. لكن سرعان ما عاد يرموشكا وانغلق الباب من خلفه وتوارى المنظر الحلو.

إلا أن تيرموسيسوف استطاع بالفعل في هذه الفترة القصيرة أن يمسح المنظر من حوله كله بعينه الثاقبة كعين النسر، ولم يفوِّت فرصة التأثير على بيزيوكينا بظهوره أمامها من دون الأمير الأشعث وسترته الفضفاضة على كتفه من دون أن يُدخِل ذراعيه فيها، وقد أمسك بأذن يرموشكا، ودفعه إلى الردهة الأمامية صارخًا فيه: «إياك أن تظهر أمامي إلا إذا ناديتك». وأغلق باب الغرفة بإحكام حيث وقف الأمير، وجلس بزيه مع زوجة محصل الضرائب.

– اسمعي يا بيزيوكينا، الأمر بهذه الطريقة مستحيل. (بدأ حديثه وقد أمسك يدها بطريقة حميمية) احكمي بنفسكِ وانظري كيف دللتِ صبيكِ الوغد هذا حتى أفسدتِه. ناديتُ ابن الخنزيرة هذا لأنه سكب الماء على كمَّي الأمير، فأجابني: «أمي يا سيدي لا تُدعى خنزيرة، بل أكسينيا». أنتِ المذنبة يقينًا في كل هذا. لا بد أنكِ أعتقتِه، أليس كذلك؟

ثم قال تيرموسيسوف فجأة بصوت آخر وبأكثر اللهجات نعومة: «صحيح؟ ها؟ فعلًا؟». قالها بطريقة خاصة جعلت قلب بيزيوكينا يخفق.

لقد فهمت أن الإجابة المطلوبة ليست عن هذا السؤال الذي طرحه، بل إنه يطلب منها إجابة عن شيء آخر ضمني أخافها من فرط واقعيته، ومن ثم لزمت بيزيوكينا الصمت، لكن تيرموسيسوف واصل هجومه. أصر على سؤاله بطريقة يشوبها نفاد الصبر:

- نعم أم لا؟ نعم أم لا؟

لم تكن هناك فرصة للاستغراق في التفكير، ومن ثم نظرت بيزيوكينا بقلق إلى عيني تيرموسيسوف وقالت بخجل:

- نعم، لقد حرَّ...

لكن تيرموسيسوف قاطعها بحدة قبل أن تكمل الكلمة صائحًا:

- نعم. نعم. كفى. لا أريد أن أسمع منكِ كلمة أخرى. أعطيني يدكِ. لقد عرفت ذلك من النظرة الأولى ولم أتوقع إجابة أخرى. الآن، دعينا لا نضيع الوقت ولتثبتي حبكِ بقُبلة.

تمتمت كما لو أنها لم تسمع كلمة:

- ألا تريد أن تشرب شايًا؟

- لا، لن تلهيني بهذه الطريقة. رأسي ليس رأس براد شاي، بل رأس رجل يائس.

همست داريا نيقولايفنا، محاولة أن تتهرب منه:

- أتريد خمرًا إذن؟

كرر تيرموسيسوف من خلفها:

- خمرًا؟ أنتِ أحلى من المر والنبيذ[1].

---

(١) تعبير مستوحى من إحدى قصائد بوشكين.

قال ذلك وجذب إليه السيدة بيزيوكينا وهمس في أذنها: «هيا، لنتحد بقبلة». وبلل فمها الأحمر بشفتيه.

قال مباشرة بعد أن قبَّلها، وقد أمسك بيديها ورفعهما أمام عينه مباشرة:

- قولي لي الآن، لماذا أنتِ مَلَكية راسخة بهذه الطريقة؟

نفت بيزيوكينا فورًا:

- أنا لست ملكية على الإطلاق.

- لمن تلبسين إذن ثياب الحداد هذه؟ ألمكسيميليان المكسيكي[1]؟ (وأشار تيرموسيسوف مبتسمًا إلى الخطوط السوداء خلف أظافرها وقال) اغسلي يدكِ.

احمرت زوجة محصل الضرائب خجلًا وأوشكت على الانفجار في البكاء. لقد حافظت دائمًا على نظافة أظافرها، وقد وسختها عمدًا لتستحق المديح، ولكن ما جدوى التبريرات هنا؟ اندفعت إلى غرفة نومها وغسلت يديها، وخرجت بابتسامة قائلة:

- ها قد عُدت جمهورية مجددًا، وقد صارت يداي نظيفتين.

لكن الضيف هدَّدها بإصبعه قائلًا إن النزعة الجمهورية فكرة غبية. قال:

- وما هي الجمهورية؟ معي بطاقات الصور الحكومية كلها. سيكلفكِ ذلك الكثير. أتريدين أن أعطيكِ إياها ونعلقها على الحائط؟

- لديَّ بالفعل.

- وأين هي؟ لا بد أنكِ خبأتِها، أليس كذلك؟ أقسم لكِ بإبليس

---

(١) خُلِع ماكسيميليان، إمبراطور المكسيك، وأُعدِم في ١٩ يونيو ١٨٦٧.

إني خمنت ذلك. لقد انتظرتِ ضيوفًا من بطرسبرج، وأردتِ أن تتباهي أمامهم بليبراليتكِ فأخذتِ البطاقات وأخفيتِها، أليس كذلك؟ هذه غباوة يا عزيزتي! غباوة! اذهبي وأحضريها بسرعة وسأعلقها لكِ.

احمرت زوجة محصل الضرائب المدانة مجددًا تمامًا، ولكنها أخرجت من الطاولة البطاقات المؤطرة، وجلبت بحسب طلب تيرموسيسوف مدقة ومسامير، أخذها منها وبدأ يعمل. قال مشيرًا بإصبعه:

– أظن أفضل مكان لها هو هنا؛ على هذا الحائط. أأضعها هنا؟

– كما تشاء.

– لماذا تخاطبيني بضمير الجمع حتى الآن بينما أخاطبكِ بضمير المفرد[1]؟ اجلبي لي الآن البورتريهات.

– هذا كل ما اشتراه زوجي.

– من الرائع أنه يبجل الرؤساء. رائع حقًّا! نحن السادة الوزراء قريبون من كل شيء. أعطيني. مَن هذا؟ إنه جورتشاكوف المستشار. بديع! لقد دافع لنا عن روسيا[2]. يستحق الشكر على دفاعه هذا. أعطيني صورته لتكن أول ما نعلقه. ومن هذا؟ يا للعجب!

رفع تيرموسيسوف صورة المرحوم الكونت مورافيف إلى مستوى وجهه وصاح:

– ميخائيل نيقولايتش! مرحبًا! مرحبًا! مرحبًا!

---

(١) يستخدم الروس عادة ضمير الجمع في الحوار دلالة الاحترام والرسمية.

(٢) يشير ليسكوف إلى الرفض الذي أبداه وزير الدولة والأمير: ألكسندر ميخائيلوفيتش جورتشاكوف، لمحاولة تدخل حكومات إنجلترا والنمسا وفرنسا في الشؤون الروسية-البولندية.

- هل كنت على معرفة به؟

- أنا؟ أتقصدين معرفة شخصية به؟ لا، عافانا الله. كل ما في الأمر أني كنت أستمتع بأحاديثه. إنه لا يستحق سوى الثناء والتمجيد، فقد وصل الأمر به إلى أن جلب إحدى سيداتنا للإيمان بالمسيح كما أنه صار ملهمًا لنيكراسوف[1]. أعطيني صورته، سأعلقها سريعًا. حسنًا، الآن كل شيء في مكانه الصحيح.

قفز تيرموسيسوف على الأرض وأمسك بالسيدة من مرفقها وقال:

- حسنًا، بم ستكافئينني الآن؟

بدا الأمر هزليًا لبيزيوكينا حتى إنها ضحكت بهدوء وسألت:

- مكافأة على ماذا؟

- على كل شيء. على عملي واهتمامي وتنظيمي. ألا تعترفين بالجميل؟

تناول تيرموسيسوف يد بيزيوكينا اليمنى ووضعها على صدره. استغل ارتباكها وسألها:

- أصحيح أن لدي قلبًا متقدًا؟

لكن داريا نيقولايفنا استاءت، ونزعت يدها من على صدره وقالت بغضب:

- يبدو أنك جريء للغاية.

قلَّدها تيرموسيسوف ساخرًا وهو يحيط خصرها بيده الأخرى:

(١) شاعر روسي شهير.

- يبتو أنك جلي‌ء للحاية![1]

قالت داريا نيقولايفنا بغضب وهي تنتزع نفسها منه:

- أنت ببساطة وقح. تتناسى أننا لا نعرف بعض تقريبًا.

- لست وقحًا على الإطلاق، ولا أتناسى شيئًا. تيرموسيسوف ذكي وبسيط وتلقائي وعملي بطبيعته. هذا كل ما في الأمر. تيرموسيسوف ببساطة يفكر كالآتي: إذا كنتِ امرأة ذكية فسوف تفهمين لماذا تتحدثين مع رجل بحميمية مثلما تتحدثين معي، وإذا لم تعرفي بنفسكِ لماذا تعاملينني بهذه الطريقة فسيتضح أنكِ حمقاء ولا يجب أن أقدِّرك.

أرادت بيزيوكينا بالطبع أن تكون ذكية. قالت وهي تشيح بوجهها قليلًا عن وجه تيرموسيسوف:

- أنت شديد الخبث.

- خبيث؟ ما وجه الخبث هنا؟ ما دمتِ تحبينني وتعجبين بي فـ...

- من قال لك إني أحبك؟

- كفاكِ كذبًا!

- لا، أنا أحدثك بالصدق. أنا لا أحبك بتاتًا، ولا أشعر صوبك بأدنى إعجاب.

- كفاكِ كذبًا وهراء! كيف تقولين إنكِ لا تحبينني؟ لا، يمكنني أن أشعر بكِ وأفهمكِ جيدًا، وسأكشف لكِ من أنا، لكن يلزم أن نكون على انفراد.

صمتت بيزيوكينا.

---

(١) يعيد كلامها بطريقة هزلية.

- أتفهمين ما أقوله؟ أقصد إذا أردنا أن نعرف بعضنا معرفة كاملة، فلا بد لنا من موعد خاص! لهدف سياسي بالطبع!

صمتت بيزيوكينا مجددًا.

تنهد تيرموسيسوف، وترك ذراعها بهدوء وقال:

- آه من النساء! آه من كل النساء الروسيات! في هذا تتساوين مع البولنديات. لا، لا يزلن بعيدات عن البولنديات. فلتعطي إسماعيل تيرموسيسوف لبولندية، ولن تفارقه أبدًا، وستقلب معه جبل أرارات رأسًا على عقب.

قالت زوجة محصل الضرائب:

- البولنديات مختلفات.

- لماذا هن مختلفات؟

- إنهن يحببن وطنهن، بينما نحن نكره وطننا.

- ماذا تقولين؟ لقد صار للبولنديين أعداء؛ كل أعداء استقلال بولندا، أما أعداؤكِ فهم كل الوطنيين الروس.

- هذا صحيح.

- لكن من هو ألد أعدائكِ هنا؟ أخبريني وسترين كيف سيضطر إلى المعاناة تحت وطأة ثقل ذراع تيرموسيسوف!

- لديَّ أعداء كثيرون.

- قولي لي من ألدهم! قولي لي اسمًا.

- ألدهم اثنان.

- أخبريني اسم هذين التعيسين! أعطيني الاسمين.

- الأول هو شماس المدينة: أخيل.

- الموت للشماس أخيل.

- والآخر هو القمص توبيروزوف.

- الموت للقمص توبيروزوف.

- المدينة هنا كلها تسير خلفه، المدينة كلها.

- وما أهمية المدينة والناس كلها؟ يعرف تيرموسيسوف من في السلطة، ومن ثم لا يخشى شعب أي مدينة.

- ولكنهم في السلطة لا يفضلونه تمامًا.

- ما داموا لا يفضلونه تمامًا فلا بد أنه أصدق منهم. سأجعل كل شيء على ما يرام. «أحبيني وكوني لي هيروديا[1]».

قبّلته هيروديا من دون وجل. صاح تيرموسيسوف: «هذا رائع». وسأل السيدة كيف أزعجها عدواها توبيروزوف وأخيل، وربت على يدها مبتسمًا، ثم ذهب إلى الغرفة حيث ترك رفيقه طوال كل هذه المدة.

* * *

(١) من قصيدة للشاعر الألماني هاينرش هاينه. أما هيروديا فهي المرأة التي تسببت في قتل يوحنا المعمدان حينما جعلت ابنتها سالوما ترقص أمام الملك هيرودس ليعجب بها وتطلب منه رأس يوحنا الذي عارض زواجها من هيرودس.

# الفصل العاشر

لم يكن المفتش قد نام بعد عندما عاد مساعده السعيد.

استلقى رفيق تيرموسيسوف الجليل على الفراش الذي أُعد له، مرتديًا سترة قصيرة من قماش كالامانكا، وقد غطى ساقيه ببطانية خفيفة، وغلبه النعاس أو ربما غرق في أحلام اليقظة بجفنين مغلقين.

أراد تيرموسيسوف أن يتأكد مما إذا كان رئيسه نائمًا حقًّا أم يتظاهر فقط بالنوم، ومن ثم اقترب في هدوء من الفراش، وانحنى على وجهه ونادى اسمه وسأله:

- هل أنت نائم؟

أجابه بورنوفولوكوف:

- نعم.

- ما دمت ترد فأنت غير نائم إذن.

- نعم.

- لكن هذا هراء!

ابتعد تيرموسيسوف صوب الأريكة وخلع سترته الفضفاضة، وحاول أن ينعم بغفوة. قال وهو يعدِّل وضعيته على الأريكة:

- بينما أنت تغفو هنا عالجت أمورًا كثيرة.

لم يُجب بورنوفولوكوف على حديثه إلا بـ«نعم» أخرى، لكنها ذات لهجة مختلفة تمامًا، إذا جاز التعبير هي «نعم» فضولية تشبه السؤال.

- نعم، هذا ما فعلته. يمكنني مثلًا أن أقول إني اكتشفت هنا أكثر الاكتشافات فائدة لنا.

- مع هذه السيدة؟

- أتسألني: مع سيدة؟ هذا أمر في حد ذاته جدير بالاهتمام. لا يا سيدي. أتتذكر ما قلته لك حينما وجدتك في موسكو في شارع سادوفايا؟

- آه نعم!

- قلت لك: «سعادة أميري الرحيم، يستحيل أن يتدبر المرء أمره من دون رفيق قديم، ومن ثم لا يجب أن يفارقه هكذا. الأوغاد وحدهم هم من يفعلون ذلك». أقلت لك ذلك أم لا؟

- نعم، قلت ذلك.

- أها! أنت تتذكر إذن. لا بد أنك تتذكر أيضًا كيف طوّرتُ فكرتي بعد ذلك وأثبتُّ لك أنك أنت أميرنا إجاليت[1]، وبالانتقال الآن إلى مزايا أسرتك ومركز وظيفتك، يجب ألَّا ترفع أنفك عاليًا أمامنا نحن المونتانيارد[2] وأصدقائك القدامى. لقد شرحت لك الأمر تمامًا.

- نعم، نعم.

- رائع أنك فهمت مدى سوء أن تعبث معي، وقد كان الأمر سهلًا

---

(١) إجاليت تعني بالفرنسية: المساواة. خلال الثورة الفرنسية، تخلى دوق أورليانز (١٧٤٧-١٧٩٣)، المعروف باسم فيليب إجاليت، وابنه الملك الفرنسي المستقبلي لويس فيليب (١٧٧٣-١٨٥٠)، عن لقبهما وصارا معروفين كمواطنين إجاليت (المساواة).

(٢) مونتانيارد تعني «أهل الجبل»، ويُستخدم المصطلح لمن هو في مكانة عالية.

جدًّا، وإني أمتدحك على هذا. لقد فهمتَ أنه لا يمكنك أن تنفضني هكذا لأنك غير معتاد على الشعور بالجوع، وعندما تتصور جوعًا لا يمكنك أن تتصور ما بوسعك أن تتذكره. أما تيرموسيسوف فلديه ذاكرة من طراز رفيع، بل وقدرة على التفكير السليم، وحتى عندما كنتَ أكثر الثوريين عنفًا، عرفتُ أنك سرعان ما ستتوارى جانبًا.

– نعم.

– لقد قررتَ أن تصطحبني معك كسكرتير مساعد لك. هذا يعني في الحقيقة ألَّا أسيء لك بالمداهنة. أنت لم تجرؤ على فعل ذلك، بل أنا من أجبرتك على أن تصطحبني معك. لقد أخفتك بإمكانية أن أكشف مراسلاتك مع بعض الإخوان من بريفيسليان.

– آخ!

– لا داعي للتنهد أيها الأمير. قلت لك في موسكو في شارع سادوفايا، عندما أمسكت بك من زر معطفك حينما حاولت أن تفر مني، وأقولها لك الآن مجددًا: لا تحزن ولا تئن لأن تيرموسيسوف هاجمك. سيقدم لك إسماعيل تيرموسيسوف خدمة كبيرة. أنت هنا مع حزبك الحالي حيث لا يوجد محتالون مثل تيرموسيسوف، ولكن هناك آخرين أكثر نظافة منه، يمسكون الصحف ويسعون إلى أن تنال سلطة التفتيش على الناس بطريقة أو بأخرى.

– نعم يا سيدي.

– لكنك لن تنال هذا أبدًا.

– لماذا؟

- لأنك غير حاذق على الإطلاق. سوف يتعرف عليك الآن الوطنيون في الشارع من قدميك ومن خصلة شعرك العالية.

- إمم!

- نعم يا سيدي، فلتترك هذه الصحف ولتترك تيرموسيسوف يتولى الأمر بالنيابة عنك. كُن إيفان تساريفيتش، وسأكون لك الذئب الرمادي[1].

- نعم، أنت الذئب الرمادي.

- أنا الذئب الرمادي حقًا، وسأساعدك إذا أردتُ في نيل الخيول الذهبية والطيور النارية وفتاة القيصر، وسأعيدك إلى الهيمنة مجددًا.

بعد أن قال الذئب الرمادي ذلك فارق وجاره سريعًا وقفز إلى فراش إيفان تساريفيتش وقال بهدوء:

- تحرك قليلًا صوب الحائط. سأهمس لك بشيء.

تحرك بورنوفولوكوف، وجلس تيرموسيسوف على حافة الفراش، وأحاطه بذراعه وبدأ يقول له بهدوء:

- اضرب بقوة في الكنيسة. هنا مكان القرحة! بهذا ستخيف الكبار بشدة.

- لا أفهم شيئًا.

- أتساوي المسيحية بين الناس أم لا؟ من المعروف أن رجال الدولة أدركوا ضرر ترجمة الكتاب المقدس إلى لغة الشعب البسيطة. لا يا سيدي، يمكن تأويل المسيحية ببساطة تأويلًا خطيرًا، ويمكن لكل كاهن أن يصل إلى هذا التأويل الخطير.

---

(١) شخصيتان أسطوريتان في الفلكلور الروسي.

- الكهنة عندنا سيئون، ولا يجب الخوف منهم.

- صحيح أنه لا يجب الخوف منهم ما داموا هم سيئين، ولكن لا تنسَ أن هناك بعض الفضوليين وبوسعهم أن يستميلوا البقية، وحينها سيختلف الكهنة. إنهم ليسوا في حاجة إلى إطلاق العنان لإرادتهم، بل إلى كبح جماحهم.

- نعم، مؤكد.

- بالإضافة إلى ذلك يا سيدي، واستنادًا إلى حقيقة أن كل شيء يجب تنظيمه والتحكم فيه، وبفضل القدر الذي أرسل لك تيرموسيسوف، عليك أن تتمسك بي كما تمسك إيفان تساريفيتش بذئبه الرمادي، وسأقدم لك هذا التقرير وأنظم لك المعلومات حتى إن أعداءك سيعظمونك ويعترفون بعبقريتك الإدارية.

أخفض تيرموسيسوف صوته أكثر وقال:

- أتتذكر عندما كنت هنا بالفعل في هذه المدينة الإقليمية، وتحدثت في المرة الأخيرة مع رئيس ديوان المحافظ وقال في أثناء عودته من النادي إن سعادته يأسف على فظاظاته السابقة؛ خاصة ما يتعلق بسماحه لنفسه بالتعرف على مختلف أنواع الوطنيين؟

- نعم.

- أتتذكر كيف أشار إلى أن أحد الكهنة من أصحاب الفكر الحر تحدثوا مع سعادته بوقاحة؟

- نعم.

- ربما إذن لم تلحظ أن اسم هذا الكاهن هو توبيروزوف، وأنه هنا

في هذه المدينة التي أنت فيها الآن، وبالتأكيد لن تكون قادرًا على كتابة أي شيء عنه.

هبَّ بورنوفولوكوف فجأة من نومته على الفراش وجلس عليه وسأل:

- ولكن كيف عرفت أني تحدثت مع رئيس ديوان المحافظ؟

- الأمر بسيط. سرت خلفك ببطء. من الجيد أن أعتني بك. لكن ليس هذا هو المهم الآن، وستفهم أننا سنبدأ تكتيكنا مع هذا الكاهن توبيروزوف؛ الأمر الذي سيثبت لك مع تقدم الأحداث مدى ضرر هذا الكاهن وهؤلاء المستقلين بصورة عامة في الوسط الكهنوتي. في النهاية ستتوصل إلى نتيجة منطقية مفادها أن الدين لا يمكن السماح به إلا كأحد أشكال الإدارة. ما إن يصير الإيمان جادًّا حتى يصير مضرًّا ويتوجب حينها تنظيمه وتحجيمه. ستكون هذه هي فكرتك الأولى، وسوف تتكرر مع اسمك، كما تتكرر أفكار مكيافيلي ومترنيش[1]. هل أنت راضٍ عني يا سيدي؟

- نعم.

- وهل تسمح لي بالعمل؟

- نعم.

- ما معنى هذه الـ«نعم»؟ أتعني أنك تريد ذلك؟

- نعم أريد.

- حسنًا. «نعم» عندنا تشير أحيانًا إلى «نعم» وأحيانًا إلى «لا».

---

(١) الأمير كليمنس فينزل مترنيش سياسي ورجل دولة نمساوي ومن أهم شخصيات القرن التاسع عشر. ينسب إليه وضع قواعد العمل السياسي التي سارت عليها القوى الكبرى في أوروبا طوال الأربعين عامًا التي أعقبت هزيمة نابليون بونابرت.

ابتعد تيرموسيسوف عن فراش رئيسه وأضاف:

- وكما تعلم، يستحيل على العبد أن يظل هكذا متبطلًا لفترة طويلة، ولن تقرأ لنا جداتنا الطالع لتفسر كيفية انتقال المرء من صفوف العدميين إلى صفوف حكام الحكام. سأتولى أمرك، فقد سئمت بالفعل من الجوع، لكني أينما ذهبت وجدت الشيء ذاته. ليس هناك سوى الأحمر ولا أحد يريد أن يأخذه.

- فلتُبيِّض نفسك إذن!

- ليس هناك ما أبيِّض صفحتي به.

- لماذا لم تعرض أن تعمل جاسوسًا لديهم في بطرسبرج؟

أجاب تيرموسيسوف بصفاقة:

- ذهبت وعرضت عليهم بالفعل، ولكن في ظل الظروف الحالية شُغِلَت بالفعل كل هذه الأماكن المربحة. يقولون إنه عليَّ أولًا أن أثبت جدارتي.

- فلتثبت جدارتك إذن.

- فلتعطني فرصة لأثبتها، وحينها، أقسم إني سأثبتها.

همس بورنوفولوكوف:

- بهيمة.

- موووووو!

هكذا صاح تيرموسيسوف عاليًا. هبَّ بورنوفولوكوف من جلسته، وقد أمسك رأسه مرتعبًا وسأل:

- ما هذا أيضًا؟

قال تيرموسيسوف بهدوء:

- أتسأل ما هذا؟ هذه بهيمة سوداء تخور وتنشد السخرية وتدعو أصحاب الصفحة البيضاء أن يتحلوا بمزيد من اللياقة معها.

صرَّ بورنوفولوكوف على أسنانه وعاد صوب الحائط صامتًا.

- أها! هكذا أفضل! تواضع يا أميري النبيل ولا تتباهَ ببياض صفحتك وإلا زخرفتك حتى تصير عندليبًا رماديًا مائلًا إلى الصفرة ببقع زرقاء في الجزء السفلي! لا تنسَ أني أُرسلت إليك يا أخي كعقاب لك. أنا شوكة بين ريش تاجك. فلتحملني باحترام.

تنفس بورنوفولوكوف المنهك الصعداء، وتظاهر بالنوم، أما تيرموسيسوف المنتصر فقد نام حقًا من دون أدنى شك.

* * *

# الفصل الحادي عشر

في هذا الوقت الذي حدث فيه المشهد السالف بين ضيفَي بيزبوكينا، جمعت بيزبوكينا كل خدمها، وبدأت نشاطها المكثف في إحياء شقتها. ابتهجت بالسماح لها ألَّا تحيا على النمط السبارطي المتشدد، حتى إنها سمحت لنفسها أن تنظم حفلًا صغيرًا تثبت به لضيوفها أفضليتها على مجتمع المدينة الصغيرة حيث تكاد تهلك وهي امرأة حساسة وحيوية وسط هذا المجتمع الذي لا يفهمها ولا يُقدِّرها.

سار العمل على قدم وساق وتقدم سريعًا. تزينت الغرف. عملت داريا نيقولايفنا، ووقفت بنفسها على الطاولة، واختارت لنوافذ غرفة النوم بعض الستائر البيضاء المترفة ذات بطانة وردية.

ما إن انتهى تعليق الستائر حتى تسللت إلى بؤرة الضوء مختلف أنواع الأغراض الصغيرة من الزوايا المظلمة؛ عُلِّقت اللوحات على الحوائط وانتصب ستار فاخر عند المدفأة، ووُضِعت على سطح المدفأة ذاتها ساعة رخامية سوداء ذات بندول مرصع بالنجوم، والتحفت الطاولات بمناشف جديدة وغالية، وامتلأت كل أماكن غرفة النوم والمعيشة بمصابيح وفخار وبرونزيات ودمى ومختلف أدوات الزينة التي تم دفعها ووضعها هكذا. أضفى كل ذلك على المكان إيحاء بأنها شقة سيدة ثرية اشترت كل هذه الأغراض عبثًا بلا أي جدوى.

بينما كان العمل على أوجه ظهر المعلم بريبوتنسكي وصاح بقوة.

لم يكن بوسعه بالطبع أن يوافق على كل هذه الأبهة، بل إنه لم يستطع حتى أن يفهم كيف يمكن لـ«امرأة جديدة» أن تسلك بهذه الصفاقة أمام شخصيات مهمة من بطرسبرج إلا إذا كانت قد جنت تمامًا، ومن ثم وقف بريبوتنسكي ونظر إلى كل هذا الترف بابتسامة ساخرة، ولكن عندما أمرت داريا نيقولايفنا، التي لم تُعرِه أي انتباه، الخادم بوقاحة، في حضور المعلم، بأن يزيل المفارش من على الأثاث، لم يتحمل بريبوتنسكي أكثر من ذلك وصاح:

- ألا تشعرين بالخزي؟

- على الإطلاق.

ومن دون أن تعير أدنى انتباه للمعلم المذهول بدأت بيزيوكينا ترتب وضع تعريشة اللبلاب الأخضر التي جلبوها بالأمس خلف الأريكة، وبدأت في ترتيب أروع ركن أمام المدفأة بأفضل وأنعم الأثاث.

صاح بريبوتنسكي، متنحيًا: «هذه ببساطة صفاقة». وجلس يتصفح كتابًا جديدًا.

بدلًا من أن تجيبه قالت له:

- انتظر لترى ماذا سيصيبك من جراء ذلك.

- يصيبني؟ وماذا فعلت ليصيبني شيء يا سيدتي؟

- حتى لا تجرؤ على الجدال هكذا مجددًا.

- ومن بإمكانه يا سيدتي أن يصيبني بشيء؟ من بوسعه أن يمنعني عن أن تكون لديَّ أفكار صادقة؟

لكن في هذا الوقت سُمِع سعال تيرموسيسوف، وقالت بيزيوكينا

بلطف وحسم في الآن ذاته لبريبوتنسكي:

- اسمع، فلتنصرف.

كان الأمر مفاجئًا حتى إنه لم يفهم المغزى الصارم من هذه الكلمات، وتوجب عليها أن تكررها له. سألها بريبوتنسكي المذهول:

- كيف أنصرف؟

- هكذا ببساطة شديدة! لا أريدك أن تأتي إليّ مجددًا.

- لا، اسمعي. هل أنتِ جادة حقًّا؟

- إني أتحدث بأقصى درجات الجدية.

سُمِع في غرفة المعيشة صوت حركة جديدة. صاحت بيزيوكينا بنفاد صبر:

- انصرف يا بريبوتنسكي. أسمعتني؟ انصرف.

- اسمحي لي أن أمكث. أنا لا أعوقك عن أي شيء.

- لا، هذا غير حقيقي. إنك تعوقني.

- يمكنني أن أصلح نفسي.

أصرت سيدة المنزل بانزعاج ونفاد صبر، وهي تنتزع الضيف من جلسته:

- لا، لا يمكنك أن تصلح نفسك.

لكن بريبوتنسكي أظهر هدوءًا وإصرارًا، وطلب منها بهدوء أن تُفسِّر له لماذا تُنكر عليه إمكانية أن يُصلح نفسه.

أخيرًا صاحت السيدة بيزيوكينا فيه بجنون:

- لأنك أحمق.

أجاب بريبوتنسكي، ناهضًا من جلسته:

- هذا أمر آخر. لكن في هذه الحالة أعيدي لي عظامي.

- اسأل يرموشكا عنها. لقد أعطيتها له ليرميها بعيدًا.

صاح المعلم: «يرميها؟!». واندفع إلى المطبخ، وعندما عاد بعد نصف ساعة، كانت داريا نيقولايفنا قد ارتدت ثيابًا باهرة، حتى إن المعلم بعد أن رآها، ترنح وأمسك بالموقد. أما هي فسألته بصرامة:

- ألم تغادر بعد؟

- لا، لا يمكنني أن أغادر، لأن خادمك يرموشكا...

- ماذا به؟

- لقد رمى عظامي في ذلك المكان، حتى إنه لم يعد هناك أي أمل في...

- آه، نعم، أرى أننا سنظل نتحدث طويلًا.

هكذا صاحت بيزيوكينا في غضب واضح، ثم أمسكت ببريبوتنسكي من كتفيه ودفعته إلى الردهة الأمامية، ولكن في هذه اللحظة، ظهر تيرموسيسوف عند عتبة الباب الآخر بعينين كعيون المقاتلين.

* * *

# الفصل الثاني عشر

- أوف! ما هذا الحديث عن الطرد؟

سأل تيرموسيسوف بيزيوكينا وهو يفرك عينيه الناعستين قليلًا. أجابته، تاركة بريبوتنسكي:

- لا شيء. إنه واحد من... إنه أحد الحمقى الذين اعتادوا زيارتنا.

- لماذا تطردينه الآن إذن؟ لماذا كل هذه الضجة؟

أجاب المعلم:

- لا شيء على الإطلاق. ليست هناك أي مشكلة.

نظر إليه تيرموسيسوف وقال:

- من أنت؟

- المعلم بريبوتنسكي.

- ماذا فعلت لتضايقها؟

- لا شيء. لا شيء على الإطلاق.

- تعالَ إذن لأصالحك.

عاد بريبوتنسكي. سأل تيرموسيسوف بيزيوكينا، وهو يمسك المعلم من كتفيه بقوة:

- لماذا تقولين إنه أحمق؟ لا أرى فيه شيئًا يوحي بذلك.

أجابه برنابا مبتسمًا:

- نعم، يمكنك بالطبع أن تتأكد أني لست أحمق على الإطلاق.

- أصدقك تمامًا، وأنا لا أمتدح سيدة المنزل على معاملتها لك بهذه الطريقة. فلندعها تُكفِّر عن خطأها بأن تُعد لنا الشاي. أحيانًا أحتاج إلى شرب الشاي قبل النوم.

انصرفت سيدة المنزل لتعد الشاي.

- وأنت أيها المعلم، فلتجلس ودعنا ندردش. أرى أنك إنسان رائع وسلس.

بدأ تيرموسيسوف حديثه بعد أن صارا على انفراد، وبمرور خمس دقائق كان قد دفع برنابا إلى أن يحكي له عن كل أوضاعه المؤسفة في المنزل وفي الحقول، وعلاوة على ذلك لم يغفل أن يحكي له عن أمه والعظام وأخيل وتويبروزوف، وقد أولى تيرموسيسوف هذه الأسماء انتباهه، ثم روى له أيضًا عن الواقعة الحربية الصباحية الأخيرة مع الشماس والمفتش دانيلكا.

في أثناء هذه القصة الأخيرة صاح تيرموسيسوف وضرب بيده ركبتَي بريبوتنسكي، وقال بهدوء:

- اسمع يا أستاذ، إني أكلفك بأن تأتيني غدًا بهذا التاجر.

- أتقصد دانيلكا؟

- نعم، الذي أساء إليه الشماس.

- سأفعل. ليس هناك ما هو أسهل من ذلك.

- اتفقنا.

- سيكون عندك في الصباح، بل حتى قبل الفجر.

- قبل الفجر تحديدًا سيكون رائعًا. لا، لستَ جيدًا جدًّا وحسب، بل أنت رائع. أحسنت. (امتدحه تيرموسيسوف، ملتفتًا إلى بيزبوكينا التي عادت في هذه اللحظة ثم أضاف) أنا معجب به جدًّا، وإذا عرَّفني على الكاهن توبيروزوف فسأصفه بالذكاء.

تمتم برنابا:

- لا أستطيع احتماله، ولا أنصحك بالتعرف عليه.

- الأمر ضروري يا صديقي. ضروري.

- في هذه الحالة دعنا نذهب في المساء إلى قائد الشرطة، وستتعرف على الجميع هناك.

- خذني حيثما تشاء ولكن من الضروري أن تتم دعوتي.

- لا تشغل بالك. هذا أمر سهل.

قال المعلم ذلك وأوضح أبسط الخطط؛ ومفادها أن يذهب الآن إلى زوجة قائد الشرطة ويقول لها باسم داريا نيقولايفنا إنها تطلب أن تسمح لها بالذهاب إلى منزلهم مساء، وبصحبتها ضيف.

صاح تيرموسيسوف:

- بريبوتنسكي! تعالَ! سأعانقك!

- نعم يا سيدي! (واصل المعلم السعيد حديثه) وسيسعدون هم أنفسهم بزيارة ضيف جديد لهم، وهناك لن تتعرف على توبيروزوف وحسب، بل وعلى أخيل المنفِّر وقائد الشرطة.

- بريبوتنسكي! تعالَ هنا سأقبِّلك! (هكذا صاح تيرموسيسوف، وعندما نهض المعلم واقترب منه، قبَّله فعلًا ثم استدار يسارًا وقال) امضِ

ونفِّذ.

التقط برنابا قبعته وانطلق، فخورًا، وقد أغواه تمامًا هذا التبجيل.

بمرور ساعة على حوار تيرموسيسوف مع بيزيوكينا بخصوص أنه لا يوجد أحمق واحد في هذا العالم يجب أن يشعر بأنه أحمق فعلًا. عاد المعلم بالدعوة لكل من يود زيارة منزل بوروخونتسيف في المساء، وأضاف بخصوص ذلك:

- أما بخصوص التاجر دانيلكا الذي أبديتَ اهتمامًا به، فقد بحثت عنه، وهو واقف في هذه اللحظة عند البوابة فعلًا.

بعد أن شجَّع تيرموسيسوف برنابا مجددًا بكل أنواع المديح، نهض وأخذ المعلم معه، وقد أمره بأن يأخذه إلى مكان ما منعزل، ويأتي بدانيلكا إلى هناك أيضًا.

اصطحب بريبوتنسكي إسماعيل بيتروفيتش إلى المكتب الفارغ لمحصل الضرائب، وجلب التاجر المطلوب ليمثل أمامه.

التقى تيرموسيسوف بدانيلكا قائلًا:

- مرحبًا أيها المواطن. كيف أساء إليك الشماس صباحًا؟

- ليست هناك أي إساءة.

- كيف ذلك؟ قُل لي كل شيء مباشرة، بشجاعة وصراحة، كما تعترف للكاهن، لأني صديق للشعب ولست عدوًّا. هل أساء إليك الشماس أخيل؟

- لا، ليست هناك إساءة. لقد سوَّينا كل شيء بيننا منذ فترة طويلة.

- كيف سويتما كل شيء؟ ألم يجرك من أذنك في الشارع؟

- ماذا تقول؟ لا، الأمر بسيط.

- كيف هو بسيط؟ إنها إساءة. فكِّر في الأمر أيها المواطن، فقد مزَّق أذنك.

- كل هذا لا يمثل أكثر من بعض الإزعاج، ونحن لا نأخذ مثل هذه الأمور على محمل الإساءة.

- كيف لا تستاء منها أيها المواطن؟ كيف لا تأخذ مثل هذه الأمور على محمل الإساءة؟ يُقال إنه فعل ذلك بك على مرأى من الناس جميعًا.

- نعم، على مرأى من الناس جميعًا يا سيدي. صحيح.

- عليك أن تقدم شكوى.

- لمن يا سيدي؟

- لهذا الأمير الذي جاء معي.

- حسنًا يا سيدي.

- هل ستقدم شكوى إذن أم لا؟

- وبماذا أطالب فيها؟

- ستطالب بغرامة مائة روبل.

- حسنًا.

- هذا يعني أنك موافق. حسنًا، فليكن الأمر. بريبوتنسكي، اجلس واكتب ما سأمليه عليك.

بدأ تيرموسيسوف يُملي بريبوتنسكي طلبًا موجهًا إلى بورنوفولوكوف، وكان طلبًا مختصرًا جدًا لكنه حاد للغاية، ولم ينسَ أن يذكر فيه اسم القمص كمحرِّض على الطغيان بالرغم من أن دانيلكا أخبره أن الشماس

قد تلقى من القمص تقريعًا على ما فعله.

عندما أنهى بريبوتنسكي كتابة السطر الأخير صاح تيرموسيسوف في دانيلكا:

- وقِّع أيها المواطن.

تردد دانيلكا.

- وقِّع. وقِّع.

أخذ تيرموسيسوف يحثه، ووضع القلم في يده عنوة، ولكن المواطن أجاب فجأة أنه لا يريد توقيع هذه الشكوى.

- ماذا تقصد بأنك لا تريد؟

- لأني لا أوافق على ذلك يا سيدي.

- كيف لا توافق؟ ماذا تقول عليك اللعنة؟! لزمت الصمت طوال هذه المدة بينما نكتب الشكوى بلا جدوى وفي النهاية تقول إنك غير موافق؟

- غير موافق يا سيدي.

- هل يجب أن أعطيك روبلًا كي تفعل ذلك؟ سأعطيك روبلًا يا أخي الشجاع. وقِّع الآن.

وأمسك تيرموسيسوف به بغضب عند البوابة وجرَّه إلى الطاولة. أسقط التاجر القلم على الأرض هامسًا:

- افعل سعادتكم ما يحلو لكم بي لكني لن أوقِّع.

- سأريك ما يحلو لسعادتي أن يفعله بك. سعادتي لا يمانع أن تُضرب على وجهك عشر مرات على ما فعلته.

تراجع المواطن المذعور إلى الخلف كاملًا وقال متلعثمًا:

- فليتحلَّ سعادتكم بالرحمة، ولا تضغط عليَّ، ففي كل الأحوال لن تنال شيئًا مني.

- لماذا؟

- لأني أردت فعلًا ذات مرة أن أتقدم بشكوى حينما ضربني الأمير جليتش ممثل مجلس النبلاء بالقراص لأسرق له جواده المرهون لدى قائد الشرطة، ولكن الناس جميعًا نصحوني قائلين: «لا تتقدم بشكوى يا دانيلكا، سيطلبون تقريرًا عامًّا عنك وسنقول جميعًا إنه كان يجب نفيك إلى سيبيريا منذ فترة طويلة». نعم يا سيدي. وأنا أعرف نفسي بدرجة تكفي لئلَّا أطالب برد شرفي.

- افعل ما تشاء بخصوص شرفك.

- علاوة على ذلك، يعرف السادة الموظفون هنا كل شيء.

- دع السادة الموظفين هنا يعرفون كل شيء عنك، لكننا لسنا من المدينة. نحن من بطرسبرج، أتفهم؟ من العاصمة نفسها، من بطرسبرج، وأنا آمرك أن توقِّع. وقِّع أيها الوغد اللعين من دون تفكير، وإلا ذهبت إلى سيبيريا من دون سبب.

في هذه اللحظة ضغط تيرموسيسوف بيدٍ على يد دانيلكا، وأمسك بالأخرى عنقه حتى احمر وجه الأخير كالسرطان وقال بصوت متحشرج بصعوبة:

- اتركني بحق الرب. سأوقِّع كل ما تريده.

بعد ذلك وقَّع باسمه مرتجفًا.

وضع تيرموسيسوف هذه الورقة فورًا في جيبه، وقال لدانيلكا مهددًا

بقبضته أمام أنفه:

- أيها المواطن، كل ما عليك هو ألَّا تخبر أحدًا بهذه الشكوى قبل الموعد المحدد، وإلا...

واصل دانيلكا سعاله، ولوَّح بيده فقط من دون أن يقول كلمة.

- إذا أخبرت أحدًا فسأشوه وجهك أيها الوغد كاملًا، من الوجنة للأخرى، وسأقطع أنفك وأكسر أسنانك.

لوَّح التاجر بكلتا ذراعيه.

- والآن كفاك سعالًا، اغرب عن وجهي، (بالفرنسية في الأصل) اخرج.

أمره تيرموسيسوف بذلك، وبعد إزالة المغلاق من الباب دفع دانيلكا إلى العتبة، حتى إن الأخير طار من فوق قن الدجاج الملحق بالشرفة الخارجية، ووجد نفسه جالسًا فوق النمل الدافئ. نظر من حوله وبصق وتنحنح ثم خرج من البوابة على أربع.

عندما رأى بريبوتنسكي هذه القوة العنيفة تراجع وأشاح بذراعيه. سأله تيرموسيسوف:

- ماذا بك؟

- أنت أقوى من أخيل، معك لم أعد أخشاه.

- نعم، لا تخشَه.

# الفصل الثالث عشر

في شارع المدينة التي حلت عليها حمرة المغيب؛ الشارع المؤدي من منزل زوجة محصل الضرائب إلى منزل قائد الشرطة، لمع ثلاثي جسور، وهم من نوع مختلف تمامًا عن العربة الثلاثية (ترويكا) التي أقلت صباحًا قزمي بلودوماسوف[1]. في المنتصف سارت بيزيوكينا التي بدت كرهوان السهوب البري، تنحني وتستقيم، وتلقي رأسها للخلف، وعلى اليمين تيرموسيسوف وقد أمال قبعته إلى الخلف، وعلى اليسار بريبوتنسكي وقد أخذ يركل بقدميه ويهز رأسه. بدا ثلاثتهم فريقًا مألوفًا؛ الأولى أتت من الساحة، والثاني من الفناء الخلفي، والثالث من حظيرة الكاهن. واحدة تختال، وآخر يقفز، وثالث يغني. لكن لا خلاف بينهم، وبالرغم من خطواتهم غير المتماثلة، فإن ثلاثتهم يحركهم شيء واحد، ويسلكون طريقًا واحدًا، ويتوجهون صوب الهدف ذاته. تيرموسيسوف وحده هو من يعلم هذا الهدف، وهو وحده من يعمل وفقًا لخطة، بل ويُجبِر المعلم وزوجة محصل الضرائب على خدمته، لكن جميعهم كانوا سعداء على السواء. إذا كان تيرموسيسوف يعرف ما يبهج نفسه الجريئة، فليس عبثًا إذن أن يخفق قلب داريا نيقولايفنا وبريبوتنسكي. كلاهما يتطلعان إلى

---

(١) يلعب ليسكوف على المعنى المزدوج لكلمة ترويكا: فهي تشير في الجملة الأولى إلى ثلاثي بشري، وفي الثانية إلى عربة ذات ثلاث عجلات.

نعيم بوسعه أن يأسرهما، وهما على أهبة الاستعداد للاستمتاع بالصراع بين يأجوج ومأجوج: توبيروزوف وتيرموسيسوف.

كيف سيتولى الوافد الجديد، الحاذق والمدمر، إتمام هذا العمل؟ ومن سيصمد في هذا الصراع غير المتكافئ؟

فلتختاروا من تشاءون، لكن الأمر مثير للاهتمام حقًّا.

* * *

# الجزء الثالث

## الفصل الأول

قبل أن يصل تيرموسيسوف وصحبته إلى التجمع الموجود في منزل قائد الشرطة، كان توبيروزوف قد قضى بالفعل أكثر من ساعة في حديث منفرد مع ممثل مجلس النبلاء توجانوف. اشتكى القمص العجوز للضيف المهم من الأمر ذاته الذي نعرفه من يومياته، ونال ردًّا متمثلًا في تلك النكات التي ذُكِرت سابقًا.

سأل القمص وقد عبس وجهه ورفع حاجبه:

- كيف سنكون نتيجة كل هذا الضعف؟

أما ممثل مجلس النبلاء فقد أجابه ضاحكًا:

- لا تكشف عما سيحدث يا عزيزي.

- في غياب المثال والإيمان وتبجيل أفعال آباء الكنيسة الأولين العظماء سوف تخرب روسيا.

أجابه توجانوف بلا مبالاة:

- إذا كان لا بد لها أن تخرب فسوف تخرب (وبعد أن نهض أضاف)

دعنا نذهب إلى الضيوف، فكما تعرف لن نتفق في شيء أبدًا. أنت ممسوس.

تجمد القمص في مكانه، ثم سأل بنبرة مليئة بالاستياء:

- لماذا تدعوني ممسوسًا؟

- لماذا تحشر نفسك في كل شيء؟ لماذا تريد أن تُلزم الجميع بالمثال والإيمان وما إلى ذلك؟ ليس هناك شيء يمكنك أن تفعله يا أخي، فمن الواضح للجميع أن كل هذا قد انقضى زمانه.

ابتسم توبيروزوف، وتنهد بلطف، وقال إنه لم ينقضِ أوان الإيمان والمُثُل، بل انقضى وقت الحديث.

- أَدِّ عملك يا أخي.

- ليس هناك الكثير من العمل الآن.

- ما المطلوب إذن؟

- المطلوب الآن هو المآثر.

- عليك بالمآثر إذن، ولكن بأي روح يجب أن تنفذ هذه المآثر؟

- بروح قوية، بنفس عاصفة حتى تشتعل طفايات[1] الشموع ذاتها.

- تريد أن تتشاجر إذن! لا أيها الأب العزيز. الأفضل أن نتصالح.

- السيد بارمن سيميونوفيتش، اليوم أسمع الكثير عن هذا التصالح. أي سلام هذا مع من لا يطلب الصفح؟ هذا سلام غير صالح. ليس عبثًا أن أوصانا أسلافنا: «لا تضرب عرابك ثم تشرب نخب السلام».

- سيُضرب لا محالة.

---

(١) أداة قديمة كانت تُستخدم لإطفاء الشموع.

- كيف ذلك؟ كيف سيُضرب لا محالة؟

- أنت يا أخي بورساك[1] حقًّا!

- أنا لا أعتبر نفسي نبيلًا.

- هل تتملكك رغبة لا تقاوم في المعاناة؟ لا يفعلون بك ذلك من أجل تفاهات. الأفضل أن تحمي نفسك حتى تتوفر لك فرصة جيدة.

- كثيرون هم من يتوخون الحذر، أما أنا فعليَّ أن أقوم بواجبي.

- حسنًا، لستُ أنا بالطبع من سيثنيك عن تنفيذ واجبك بضمير حي. فلتؤدِّه كما تشاء. فلتُخزِ من يتحلون بالوقاحة، ولتعض المزدرين، وستكون لك الراية، أما الآن فدعنا نذهب إلى أصحاب المنزل. لن أبقى هنا طويلًا.

تبع القمص توجانوف وقد بدت عليه الحيوية، لكنه في الحقيقة كان مثبط العزيمة تمامًا. لم ينتظر هذا قَط من هذا اللقاء، لكن لم يكن يعرف تقريبًا ما الذي في انتظاره.

* * *

---

(١) في النصف الأول في القرن التاسع عشر كان هناك نُزُل بهذا الاسم للطلبة الذين يدرسون في المعاهد الدينية، يعيش فيها التلاميذ على نفقة الدولة.

# الفصل الثاني

وصل تيرموسيسوف وبصحبته برنابا وزوجة محصل الضرائب الليبرالية إلى الأمسية في الوقت الذي كان نوجانوف وتوبيروزوف قد مرا بالفعل بالردهة وجلسا في غرفة الضيوف الصغيرة. جلس بعض الضيوف الآخرين في الردهة، وتحدثوا وعزفوا على البيانو وحاولوا الغناء. في هذا الوقت تحديدًا دخل كل من تيرموسيسوف وبيزيوكينا وبرنابا.

التقت بهم سيدة المنزل وشكرت بيزيوكينا على أنها جلبت معها ضيفها، كما شكرت تيرموسيسوف على بساطته الشديدة. قالت له:

– نحن أناس بسطاء، ونحب البسطاء.

– أنا أبسط إنسان.

هكذا أجابها تيرموسيسوف، وألحق قوله بانحناءة شديدة، ثم ابتسم ابتسامة مفعمة بالود، بل ودقَّ بكعبه.

عندما رأت بيزيوكينا هذا السلوك أقرته بدرجة أكبر كثيرًا من سلوك بريبوتنسكي الذي وقف منتصبًا كما لو أنه ابتلع مسطرة. سواء كان الأمر مصادفة أو بحسب الاعتبارات التي مفادها أن الضيوف الوافدين حديثًا هم أشخاص أكثر جدية، ومن غير اللائق لهم أن يضحكوا مع السيدات الشابات وأن يسمعوا قصصًا فاحشة وغناءً رديئًا، اقتادت سيدة المنزل

تيرموسيسوف وبريبوتنسكي مباشرة إلى غرفة المعيشة الصغيرة، حيث كان هناك توجانوف وبلودوماسوف وداريانوف وسافيلي وزكريا وأخيل.

استطاعت بيزيوكينا أن تجلس حيث أرادت، لكنها لم تتحلَّ بالجرأة الكافية لتدخل غرفة المعيشة خلف فارسَيها، وفي الوقت نفسه لم ترغب في التسكع مع السيدات، ولذلك جلست على الأريكة.

كانت غرفة المعيشة التي دخلها بريبوتنسكي وتيرموسيسوف ضيقة، وثمة أريكة في نهايتها وأمامها طاولة جلس خلفها توجانوف وتوبيروزوف، وتوزع على المقاعد من حولها بينيفاكتوف الوديع وداريانوف وعمدة بلودوماسوف. لم يجلس أخيل، بل وقف خلف المقعد الفارغ، ممسكًا بمكان النقش فيه. رأت بيزيوكينا كيف دخل تيرموسيسوف غرفة المعيشة وانحنى باحترام لمن فيها، بل وفعل أمرًا لا يمكن على الأرجح لأحد أن يتخيله؛ لقد اقترب من توبيروزوف وطلب منه بركته. أكثر من اندهش بالطبع كان الأب سافيلي نفسه حتى إنه لم يعرف ماذا عليه أن يفعل، ومنح تيرموسيسوف البركة التي طلبها بارتباك واضح. عندما أراد تيرموسيسوف علاوة على ذلك أن يُقبِّل يده، ارتبك القمص حتى إنه أخفض يده ويد تيرموسيسوف بحركة قوية، وصافح هذه اليد الخائنة بقوة كما لو أنها يد أفضل أصدقائه.

أراد تيرموسيسوف أن ينال بركة الأب زكريا لكن بينيفاكتوف المتواضع كان هذه المرة أكثر حيلة من توبيروزوف. لم يباركه فقط، بل رفع بنفسه يده الصفراء الصغيرة إلى شفتي هذا المغامر ليقبِّلها.

تشتت تيرموسيسوف، وكان على وشك أن يذهب في هذه الحالة

لينال بركة أخيل، لكن الأخير قال للضيف وهو يعدل وضع قدميه:

- لست كاهنًا. أنا شماس يا سيدي.

بعد ذلك تصافحا، وعرض أخيل على تيرموسيسوف أن يجلس على المقعد الذي يقف خلفه، لكن تيرموسيسوف رفض باحترام وجلس على أقرب مقعد، وكان قريبًا من الأب زكريا. في هذه الأثناء، وبدافع الإخلاص للقوانين الروتينية لمدرسته، ابتعد بريبوتنسكي بقدر المستطاع، وجلس أمام باب الردهة المفتوح.

اختار هذا المكان لجلوسه لعدة أسباب، أولًا: ليوضح أنه لا يرغب في مخالطة الجمع الموجود. ثانيًا: كان بوسعه من هذا المكان أن يرى بيزيوكينا، وستسمع هي أيضًا لا محالة كل ما يقوله. شعر المعلم واعترف أيضًا بضرورة أن يرفع من قدره الذي اهتز بوصول تيرموسيسوف، وبعد أن جلس انتظر الذريعة المناسبة ليثير جدالًا ليكشف لبيزيوكينا على الأقل مدى صفاء توجهه، إن لم يكشف لها أيضًا مدى تفوقه العقلي. بالنسبة لمن ينشد الجدال سيجد كل كلمة تُقال ذريعة ملائمة له، ومن ثم لم يتعذب برنابا طويلًا بالصمت.

* * *

# الفصل الثالث

في أثناء دخول الضيفين الجديدين كان عمدة بلودوماسوف يحكي لتوبيروزوف عن الإصلاحات الحديثة التي تتم في السلك الكهنوتي، واستأنف حديثه عندما جلس تيرموسيسوف وبرنابا.

كان العمدة مناصرًا لهذه الإصلاحات، وكذلك توجانوف، ولكن الأخير قال إنه عندما التقى يوم أمس بالأسقف، تحدث الأخير بحذر شديد عن الأمر، ومزح قائلًا إنه بإنهاء التوريث في السلك الكهنوتي ستنتقل إلينا السلالة الروسية الأكثر أصالة.

سأل زكريا بفضول:

– ماذا يعني ذلك يا سيدي؟

أوضح له توجانوف أن هذا التلميح إلى أصالة السلالة الروسية في السلك الكهنوتي يتعلق بعدم شيوع الزيجات المختلطة وسط هذه الفئة. لم يفهم زكريا، وكان على توجانوف أن يوضح له أكثر. قال:

– الأمر ببساطة هو أن جميع الإكليروس يتزوجون من بنات إكليروس أيضًا.

– نعم، من بنات إكليروس يا سيدي.

– والإكليروس جميعهم روس.

- نعم، جميعهم روس.

- هذا يعني أن الدم الجاري في عروق الإكليروس هو روسي خالص، بينما اختلط الآخرون بالأجانب؛ بالبولنديين والتتر والألمان، بل وحتى باليهود.

- أوف! حتى باليهود؟! تفو! نتانة!

قال زكريا ذلك وبصق. دعَّم أخيل حديثه قائلًا:

- نعم، وكذلك السويديون هم أصحاب رؤوس عنيدة. لا يسهل العبث معهم.

يبدو أن القمص قد خاف أن يقول الشماس شيئًا ما غير لائق، ومن ثم غيَّر هذا الحديث عن الجنسيات قائلًا:

- نعم، أسقفنا يتمتع بعقل راجح.

قال بريبوتنسكي من مكان جلسته البعيدة: «حتى إنه كتب شيئًا ما عن الحليب». لكن أحدًا لم يعلق على كلامه. واصل توجانوف:

- لديه قدرة كبيرة على السخرية. عينوا هناك شرطيًّا جديدًا وقحًا وقاحة لا نهائية، وكل شيء ممكن بالنسبة له.

قال بريبوتنسكي مجددًا: «الأمر هكذا حقًّا. يستطيع رجال الشرطة أن يفعلوا أي شيء». ولم يُعلِّق أحد على حديثه ثانية. واصل توجانوف:

- عرف الشرطي أن أحدًا لم يتناول الغداء من قبل عند أسقفك، وراهن قائد الشرطة في النادي على أنه سيتغدى، وللأسف عرف العجوز الأمر.

صاح زكريا:

- آه آه آه!

- جاءه هذا الفارس وجلس. جلس كما لو أنه جاء لتوِّه من صلاة القداس. ظل جالسًا حتى السابعة مساء. طوال هذه المدة ظل الأسقف صامتًا يستمع إليه ولا يتكلم، وصاحبنا يقول في نفسه: «حسنًا، سيدعوني الآن لتناول الغداء معه». وظل متأهبًا، وربح الرهان فعلًا. أبقاه الأسقف ساعة أخرى ثم اصطحبه إلى طاولة الطعام.

قال زكريا:

- آه! للأسف! للأسف!

- اسمح لي أن أكمل ما حدث: وصلا إلى الطاولة، ووقف الأسقف أمام الأيقونة المقدسة، وبدأ يتلو صلواته؛ صلاة تلو الأخرى. مرت ساعة أخرى ولم تعد قدما الضيف النحيل قادرتين على حمله. قال له الأسقف: «تفضل». وقدَّم له وعاءين صغيرين من حساء البازلاء مع بقسماط، وما إن استُثيرت شهية الضابط حتى نهض الأسقف مجددًا قائلًا: «حسنًا، يجب أن أصلي الآن صلاة الشكر للسيد الرب على هذه الوجبة». في هذه المرة ما إن نهض الأسقف ليتلو صلواته، حتى انسل الشاب بهدوء وفرَّ، إذ لم يستطع الانتظار. حكى لي الأسقف العجوز هذا بالأمس ضاحكًا: «هذَا الْجِنْسُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ[1]».

قال توبيروزوف بطريقة توحي بأن هذه الأحاديث الهزلية تُثقله:

- إنه رجل ذكي ولطيف ومهذب.

- نعم، لكنه يشكو أيضًا من عدم وجود أشخاص مخلصين. يقول:

---

(١) مرقص ٩: ٢٩، وهو قول منسوب للمسيح، قاله لتلاميذه عن إخراج الشياطين من البشر.

«نحن نبحر في لجة عميقة على متن سفينة متداعية وبصحبة بحّارة مخمورين. فليُثبِّتنا الله لننجو منها».

قال توبيروزوف:

- كلمة مريرة!

عاود توجانوف حديثه:

- ومع ذلك قال إن مدينتك هنا قوية. قال «لديَّ كاهنان هناك: واحد ذكي والآخر تقي».

قال الأب زكريا:

- يقصد بالذكي الأب سافيلي.

- لماذا أنت واثق هكذا بأنه يقصد بالذكي الأب سافيلي؟

أجاب بينيفاكتوف مرتبكًا:

- لأنه... لأنه حكيم.

قال الشماس:

- والأب زكريا في المرتبة الثانية خلفه مباشرة.

هز توبيروزوف رأسه بعلامة تأنيب. أسرع أخيل ليعدل حديثه وقال:

- لا بد أنه قصد بالتقي الأب زكريا. لا بد أنه قال إنه لا توجد أي شكاوى من الأب زكريا.

قال توجانوف مازحًا:

- الأب سافيلي إنسان قلق.

بدت هذه اللحظة لبريبوتنسكي ملائمة تمامًا، ولم يضيعها، ومن ثم أعلن فورًا أن وجود قلقين وسط الإكليروس يعني وجود وشاة، لأن الضمير الديني

لا بد أن يكون حرًّا. لم يتحلَّ توجانوف بالحذر وعقَّب على بريبوتنسكي قائلًا إن حرية الضمير ضرورية، ولكن للأسف ليس لها وجود بيننا.

عقَّب توبيروزوف قائلًا:

- نعم، تتحمل كنيستنا المسكينة عبثًا صنوف اللوم المختلفة من كل مكان بسبب ذلك.

توجه إليه بريبوتنسكي بالحديث بحيوية:

- ما الذي تشكو منه إذن؟

أجابه توبيروزوف بجفاف:

- إنني أشكو من عدم التسامح.

- لكنك لا تعاني منه.

- بل أعاني منه معاناة بائسة. أنت تعلن قناعاتك بصوت عالٍ وبحرية قائلًا إنه يجب ألَّا يكون هناك إيمان، ويلائمك ذلك، أما أنا إذا همست وحسب قائلًا إنه من الأفضل ألَّا تكون هناك تعاليم مثل تعاليمك هذه فـ...

قاطعه المعلم:

- ماذا تريد إذن؟ أتريد أن تحرضهم على القضاء علينا؟

- لا، بل أنت الذي تريد القضاء علينا.

لم يجد بريبوتنسكي ما يجيب به، فهو لم يُرِد إنكار ذلك، وخشي تأكيده مباشرة. أزال توجانوف هذه الصعوبة بقوله إن كل ما في الأمر هو أن الأب القمص مستاء من وجود أناس قد حملوا على عاتقهم مهمة تقويض الإيمان في قلوب البسطاء.

- أكثر ما يثير استيائي هو النجاح الذي يصيبونه بسبب التساهل معهم.

قال بريبوتنسكي مبتسمًا:

- إنهم ينجحون لأن الإيمان ترف لا يستطيع الشعب تحمل تكلفته.

قال توجانوف برباطة جأش:

- لكنه لا يكلف أكثر مما يكلفه السُّكْر.

- ولكن الشرب هو متعة روسيا كلها. إنه أمر وطني، وفي كل الأحوال للفودكا فائدة أكبر من الإيمان، فعلى الأقل تبعث الحرارة في الجسم.

تنهد توبيروزوف وضغط بيده بقوة على كُم ثوبه، ولكن في هذه اللحظة عارض توجانوف المعلم قائلًا إنه مخطئ، وأشار إلى أن الإيمان يبعث الحرارة في المرء أكثر مما تفعل الفودكا، وأن كل الأعمال الصالحة التي يفعلها فلاحنا الروسي تبدأ بالصلاة، وكل الأعمال السيئة التي ينفونه إلى سيبيريا بسببها تبدأ بعد شرب الفودكا.

اندفع بريبوتنسكي في الحديث فجأة:

- مع ذلك، فالاقتصاديون هم من دمَّروا الزراعة. لقد أكد الاقتصاديون أنه كلما صارت الفودكا أرخص، قل شرب الناس، وكذبوا في ذلك. لكن من ناحية أخرى لم يكذب الاقتصاديون، فهم يعرفون أن الأمر لا يقتصر على أن تصير الفودكا أرخص وحسب كي تقل درجة سُكْر الناس، بل يجب أن تسير الأمور بطريقة أخرى، وهذا ما لا يسعى إليه الاقتصاديون بل فئة واحدة وحسب؛ الأناس الجدد.

- إنها فئة سيئة ولعينة.

- لقد أمسك بهم الجواسيس.

- لا، إنهم ببساطة محتالون.

- محتالون؟!

- نعم محتالون، وهم دائمًا ما يحققون مرادهم بإثارة الاضطرابات التي لا يخلو تدخلهم فيها من فائدة ما. لقد عبثوا طويلًا عندنا، فمن هم العدميون على أي حال؟ في وقت من الأوقات ظلت الحكومة تعبث معهم، ولا يزال المجتمع والصحافة حتى الآن يعبثان معهم، ولن ينهي مثل هؤلاء أمرهم، بل ببساطة سينهي أمرهم المحتالون الذين يبلغون عنهم، ثم يتفوقون عليهم وأخيرًا يحل عليهم الدور.

نظر بريبوتنسكي بقلق إلى بيزيوكينا. لقد انزعج من حقيقة أن توجانوف يفترسه بحماسة كما يفترس ضباب ربيعي أكوام الثلج في أحد الحقول. بحث برنابا عن دعم، ونظر إلى تيرموسيسوف آملًا في أن يجد عنده الدعم، ولكن الأخير لم ينظر حتى إليه، وفجأة قال الشماس أخيل الذي كان يشير إليه بالتوقف منذ فترة طويلة:

- اسكت يا برنابا فاسيليفيتش. حديثك ليس شيقًا على الإطلاق.

أدت هذه العبارة إلى أن يصل المعلم إلى حد الانفجار؛ خاصة عندما أدار توجانوف ظهره إليه، ومن ثم اندفع بريبوتنسكي قُدمًا.

* * *

# الفصل الرابع

هبَّ المعلم من جلسته، واقترب من توجانوف الذي انخرط في حديث مع توبيروزوف.

- عذرًا على مقاطعتك، لكني... لكني أناصر الحرية.

أجابه توجانوف: «وأنا أيضًا». وتوجه مجددًا صوب القمص. صاح المعلم:

- اسمح لي يا سيدي أن أنهي حديثي معك.

التفت توجانوف إليه. سأله برنابا:

- هل تعرف أن الحرية لا توهب بل تؤخذ عنوة؟

- حسنًا.

- من سيأخذها عنوة إذا كانت فئة الأناس الجدد تتسم بالدناءة كما تقول؟

- سيتولى النظام الطبيعي أمرها.

- وهذا يعني أنها لن توهب بل ستؤخذ. أنا على حق إذن. هذا ما قلته: سوف تؤخذ.

قال الشماس أخيل من خلف المقعد:

- وهم يقولون لك الأمر ذاته.

- لكن هذا ما قلته: سوف تؤخذ.

دعَّم تيرموسيسوف حديث الشماس، متعمدًا نطق اسم توجانوف بأكبر قدر من الوضوح:

- وهذا ما يقولونه. بارمن سيميونوفيتش قال لك هذا.

همس توجانوف، ناهضًا من على كرسيه، وقد أراد أن يخرج إلى الردهة: «لقد حان موعد انصرافي». ولكن برنابا هاجمه مجددًا قائلًا:

- اسمح لي بكلمة واحدة معك. يبدو لي أنك قد تشعر الآن بالضيق من أن الجميع قد صاروا الآن متساوين، أليس كذلك؟

- لا يا سيدي! لا أحب ألَّا يكون الجميع متساوين[1].

توقف بريبوتنسكي، وبعد أن انتظر للحظة قال متلعثمًا:

- هذه حقيقة. يجب أن يكون الجميع متساوين.

أزاحه تيرموسيسوف من أحد الجوانب عن طريق توجانوف قائلًا:

- وهذا ما يقوله لك بارمن سيميونوفيتش.

حاول المعلم أن يأتي إليه مجددًا من جانب آخر قائلًا: «ولكن اسمح لي يا سيدي»، ولكن الشماس منعه قائلًا: «توقف، كل ما تقوله محض غباوة».

ناضل بريبوتنسكي مجددًا ليصل إلى وجهته من الأمام قائلًا:

- عفوًا، لكني لا أتحدث معك. أقول إنك تحب إنجلترا يقينًا لأن بها

---

(١) هذه الحذلقة اللغوية مقصودة، فهكذا تحدث البطل. لم يقُل مثلاً: أحب أن يكون الجميع متساوين.

أمراء. هل يزعجك ويؤسفك أن الامتيازات الطبقية قد تلاشت هنا؟

- وهل تلاشت حقًّا؟

- ابتعد، أنت لا تعرف شيئًا.

قال أخيل لبرنابا وهو يدفعه بعيدًا، لكن برنابا دار مجددًا ووقف أمام ممثل مجلس النبلاء قائلًا:

- يمكن أن تكون لي آرائي الخاصة عن كل موضوع.

صاح توجانوف ضاحكًا:

- ماذا تريد مني؟

- أقول إنه من الممكن أن تكون لديّ أحكام مختلفة.

قال تيرموسيسوف:

- واحد منها سيكون ذكيًّا والآخر غبيًّا.

قال المعلم بلهجة توحي بالمصالحة:

- واحد منها سيكون عادلًا والآخر ظالمًا.

قال الشماس:

- ثمة حقيقة واحدة لدى الله.

أصر تيرموسيسوف على رأيه قائلًا:

- خط واحد مستقيم هو الذي يمكن رسمه بين نقطتين.

لم يتمالك بريبوتنسكي نفسه وصاح:

- ماذا تقول؟ أهكذا يستحيل إذن الحديث عن أي شيء؟ أنا وحدي، وأنتم جميعًا تداهنون معًا. بهذه الطريقة يمكن التفوق على أي شخص. لكني أعرف أمرًا واحدًا؛ أنا لا أحترم أي شيء قديم.

- وهذا في حد ذاته أقدم شيء، فمتى احترم أحد التاريخ هنا؟

- اسكت أيها الأحمق.

نصح أخيل برنابا بود، وتنحت بيزيوكينا بازدراء عنه. دفعه تيرموسيسوف أيضًا بعيدًا عن الطريق وضغط على قدمه؛ الأمر الذي جعل المعلم الذي يتسم عمومًا في اللحظات الصعبة بصعوبة التحدث، ويخلط في هذه اللحظات الكلمات، يصيح:

- آه! لقد وطئت قدمي المفضلة.

تلى الضحك عبارة «قدمي المفضلة»، وفي هذه اللحظة ودَّع توجانوف صاحبة المنزل.

رنت الأجراس، وجرَّت ستة جياد بريد عفية عربة توجانوف عند الشرفة الخارجية، وظهر عند العتبة الحوذي الطويل وعلى كتفه قطة إنجليزية غالية صغيرة.

حلت الدقائق الأخيرة التي يمكن لبريبوتنسكي استغلالها حتى يتمكن من الهرب من بين يدَي تيرموسيسوف وأخيل اللذين أمسكا به، وقفز على قدمه الصغيرة المفضلة وركض صوب ممثل مجلس النبلاء وقال:

- هل قرأت رواية «دخان» لتورجينيف؟ إنه كاتب من طبقة النبلاء وقد أثبت أن كل شيء في روسيا محض «دخان». قال: «حتى السوط نفسه لم يخترعوه[1]».

أجاب توجانوف:

- نعم، لقد استعاروا السوط بالتأكيد، ولكن من ناحية أخرى هم من

---

(١) العبارة قيلت على لسان بوتوجين إحدى شخصيات الرواية.

ابتكروا فكرة تحرير الفلاح والأرض. قُل هذا للسيد تورجينيف.

- لكن من ناحية أخرى الفلاحون هم من انتزعوا الأرض من السادة.

لم يحتمل توبيروزوف أن يصمت أكثر من ذلك وقال:

- انتزعوها؟ غير حقيقي. يعود شرف هذه المبادرة إلى الملك، كما تعود بسالة قبول التضحية إلى النبلاء.

- لقد أمر فعلًا بذلك، ولم يجرؤ النبلاء على معارضته.

قال توجانوف:

- هم لم يريدوا أن يعارضوه من الأساس.

- في كل الأحوال الفلاحون هم من انتزعوا الأرض من السلطة.

- السلطة والزمن. ظل ألكسندر المبارك يحلم طوال حياته بتحرير الفلاحين، لكن لم يستطع ذلك، وحتى الآن لا يستطيع بارونات البلطيق تحقيق ذلك[1].

ضحك توجانوف ومد يده لتوبيروزوف، وقال لبرنابا بازدراء بسيط:

- يشرفني أن أنحني لك.

- لا حاجة إلى ذلك يا سيدي، وسأظل معارضًا لطبقة النبلاء ونصيرًا للحق الطبيعي.

أجبر انزعاج بريبوتنسكي الجميع على الضحك، وتوقف توجانوف في طريقه وقال له:

- وأكثر أشكال الحياة طبيعية هو حياة هذه الجياد التي تقلني، ولكنها

---

(١) حرر الإسكندر الأول في ١٨١٧-١٨١٩ في منطقة البلطيق (إقليم لاتفيا وإستونيا الحديثة) الفلاحين من دون حق ملكية الأرض، لكن السخرة ألغيت هنا واستبدل بها الإيجار النقدي. في ستينيات القرن التاسع عشر مُنح الفلاحون الأثرياء الحق في شراء الأرض.

-كما ترى- تُسخَّر لخدمة أحد النبلاء.

وقال الشماس:

- وسوف يستعمل معها سوطه في الطريق ليجعلها تُسرع.

أيّده تيرموسيسوف قائلًا:

- الماشية تُضرب دائمًا بالسياط.

صاح المعلم: «مرة أخرى جميعكم ضدي!». واختتم حديثه بأنه سيظل بالرغم من ذلك معارضًا لطبقة النبلاء.

قال أخيل:

- أنت مثير للمشكلات إذن!

قال زكريا:

- إنك تدعو إلى هاوية فوق هاوية[1].

قال برنابا:

- أتعرف ماذا يعني أن تدعو إلى هاوية فوق هاوية؟ معنى العبارة لا يؤيدك. إنها تعني: كاهن يدعو كاهنًا.

بدا ذلك للجميع مسليًا وملأ ضحك ودي الردهة كلها. توبيروزوف وحده هو من لمعت عيناه بغضب، وشد باندفاع الشريط الذي علّق عليه صليب صدره، وخرج إلى قاعة الاستقبال.

قال توجانوف مشيرًا إليه بعد خروجه:

- لقد صار عجوزك هذا ممسوسًا تمامًا.

---

(١) العبارة مستمدة من مزمور لداوود.

أجابهداريانوف:

- صحيح. يحصل على الصحف ويحملها معه، ويتنهد، ولا يمكنه أن يتحدث عن شيء أبدًا بهدوء.

همس أخيل بهدوء:

- إنه يسمعنا؛ يسمع كل ذلك.

هبط توجانوف السلم واستقر في عربته. ودَّعته صاحبة المنزل وبعض الضيوف؛ برنابا والقمص. كان برنابا متشجعًا، وبدا أن أسهمه قد ارتفعت سريعًا بعد موضوع «الهاوية»، وفجأة أمسك بيد توبيروزوف وقال له:

- اسمح لي أن أسألك: أول أمس كنتُ في الكنيسة وسمعت أحد القمامصة يقول: «أحمق». بما يجب أن ترد جوقة الشمامسة حينما يقول القمص: «أحمق»؟

- يكررون ثلاث مرات «المعلم بريبوتنسكي».

بهذه الإجابة المفاجئة ذُهل الحاضرون لوهلة ثم انفجروا في نوبة ضحك جنونية، ولوَّح توجانوف بذراعه وغادر في حالة مزاجية رائعة.

* * *

# الفصل الخامس

بدا كل شيء سيئًا حول بريبوتنسكي. حتى السيدات اللاتي يتساهلن مع هذا النوع من الحديث، وأي شيء يقوله الرجال هو بالنسبة لهن حديث يستحق الاستماع إليه، شعرن بالبغضة تجاهه. لذلك استجمع تيرموسيسوف قوته واستحوذ على انتباه الجميع. لم يستطع برنابا أن يعرف كيف استطاع تيرموسيسوف أن يتحدث مع السيدات، بل إنه غازل زوجة مدير مكتب البريد، ووفقًا لبريبوتنسكي كان أسوأ أنواع الغزل، فهو ليس غزلًا لها بوصفها امرأة بل بوصفها صاحبة سلطة.

خلال العشاء، ترك تيرموسيسوف السيدات واقترب أكثر من الرجال وشرب معهم. شرب كثيرًا معهم لكنه لم يثمل، وفجأة اقترب من أخيل وداريانوف والأب زكريا. حاول أن يتحدث مع توبيروزوف، لكن العجوز لم يعطه الفرصة للاقتراب منه كثيرًا. أما أخيل، فبعد مرور ساعة أو ربما حتى نصف ساعة، انتقل فجأة إلى التحدث معه بضمير المفرد؛ الأمر الذي أدهش جميع الحاضرين، وربت على يده وقبَّل شفته السميكة، بل وأطلق كنية على اسم عائلته. ثرثر الشماس قائلًا للجميع:

– وحق الله تيرموسيسوف هذا رائع! احكموا بأنفسكم كيف استطعنا اليوم أن نؤدب برنابا مرتين بمساعدته، أليس كذلك؟ من الأفضل لك يا أخي تيرموسيسوف ألَّا تغادرنا أبدًا. ماذا لديك في بطرسبرج؟ أي شروط

تحتم عليك العودة؟ فلنقضِ الشتاء معي هنا وسنصطاد الثعالب. سيكون أمرًا ساحرًا يا أخي، أليس كذلك؟

أجابه تيرموسيسوف: «صحيح بالطبع». وبدأ يمتدح أخيل وقال إنه رائع، وقبَّل الرائمان بعضهما مجددًا.

عندما انتهت الوليمة، وانصرف توبيروزوف وزكريا، كلٌّ إلى منزله، أمسك تيرموسيسوف بأخيل من يده وقال له:

- لستَ في عجلة من أمرك للذهاب إلى مكان ما، أليس كذلك؟

- نعم، ليس هناك مكان يجب أن أذهب إليه حالًا.

- انتظر إذن، ولنمضِ معًا.

وافق أخيل، وعرض تيرموسيسوف أيضًا الرقص على أنغام البيانو. في البداية رقص مع زوجة مدير مكتب البريد ثم مع بنتَيها، ثم مع سيدتين أو ثلاث أخريات، وأخيرًا رقص مع بيزيوكينا، واختتم الأمر بأن أمسك بالشماس ورقص معه الفالس، وقد جعله في مكان السيدة، وقرَّب يد الشماس إلى شفتيه وقبَّل يده هو بدلًا من يد الشماس.

ارتبك أخيل بشدة، ولم يكن يتوقع ذلك، وسرعان ما انتزع يده من يد تيرموسيسوف، لكن الأخير سخر منه قائلًا:

- هل كنت تتصور حقًّا أني سأقبِّل مخلبك هذا الذي يشبه أيدي الحوذية؟

استاء الشماس وقال في نفسه: «آه! لم يكن عليَّ أن أشرب معه بمودة!». لكن نظرًا لأن الجميع عادوا إلى منازلهم بعد ذلك مباشرة، لم يفترق كلاهما في الطريق. سار كل من أسرة مدير مكتب البريد والشماس

وبرنابا وتيرموسيسوف وبيزيوكينا معًا. مروا أولًا على منزل زوجة مدير مكتب البريد وبنتَيها، وهناك، على عتبة الغرفة، سمع أخيل زوجة مدير مكتب البريد تقول لتيرموسيسوف:

- آمل أن نلتقي ثانية.

- لا أشك في ذلك. قلتِ إنكِ معجبة بصور الأسرة الإمبراطورية كلها المعلقة على حائط منزل قائد الشرطة، أليس كذلك؟

- نعم، لقد أردت بشدة أن أفعل ذلك أنا أيضًا منذ زمن بعيد.

- غدًا سأدبر لكِ الأمر.

وافترقا.

كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحًا تقريبًا في الفناء، وهو توقيت بالنسبة لمدينة صغيرة متأخر جدًّا بالطبع، وقد استغرق بريبوتنسكي في التفكير أثناء السير في أي الطرق ستكون أكثر أمانًا له ليصل إلى منزله؛ هل يتسلل بعيدًا بهدوء حتى لا يلاحظه أخيل أم يثق بسماحته؟ لقد قرأ برنابا ذات يوم أن المرء لدى الشركس في القوقاز ينقذ نفسه أحيانًا بطريقة واحدة؛ بالتفكير في سماحة عدوه، ولسبب ما يميل برنابا الآن إلى التفكير في أخيل بالطريقة الشركسية.

لكن قبل أن يتخذ بريبوتنسكي أي قرار إيجابي غيَّر تيرموسيسوف كل شيء.

* * *

# الفصل السادس

ما إن فارقوا زوجة مدير مكتب البريد حتى أعلن تيرموسيسوف أن على الجميع أن يعرجوا معه لدقيقة على منزل بيزيوكينا، والتفت قليلًا صوب سيدة المنزل بالسؤال:

- أتسمحين لنا؟

لم يعجبها ذلك لكنها سمحت لهم.

- ألديكِ خمر قوي؟

ارتبكت بيزيوكينا. بدا لها الأمر كما لو أنها نسيت عمدًا أن تجلب الخمر، وتذكرت الآن أنهم شربوا على طاولة الغداء زجاجة شيري كاملة تقريبًا. لاحظ تيرموسيسوف ارتباكها هذا وقال:

- حسنًا، هل لديكِ جعة؟

- لديَّ جعة بالطبع.

- أعرف أن لدى محصلي الضرائب جعة دائمًا. وهل عندكِ عسل؟

- نعم عندي عسل.

- رائع! أيها السادة، لدينا جعة وعسل، وسأعد لكم من ذلك لامبوبو (وقبّل تيرموسيسوف أصابعه وأضاف) وسيجعلكم طعمه تأكلون أصابعكم خلفه.

سأل أخيل:

– ما هذا اللانبوبو؟

– ليس لانبوبو، بل لامبوبو. إنه مشروب يُعد من الجعة والعسل.

قال تيرموسيسوف ذلك وجذب أخيل من ذراعه، لكن الشماس تراجع قائلًا:

– انتظر، ما تسمية اللانبوبو هذا؟ يشربونه في جنازاتنا ويطلقون عليه «جعة العسل».

– وأنا أقول لك إنك لن تشرب جعة العسل بل لامبوبو. هيا بنا.

– لا، انتظر (التفت أخيل ثانية) أنا أعرف جعة العسل. إنها تؤلم القدم كما لو أنها علقت بفخ. لن أشرب منها.

– أقول لك إنك ستشرب لامبوبو، وليس جعة عسل.

– لا داعي منها اليوم، وإلا سينفجر الرأس غدًا.

كان لبريبوتنسكي الرأي ذاته، ولكن نظرًا لأن كليهما لم يتحلَّ بصلابة الشخصية الكافية ليصر على رأيه، أصر تيرموسيسوف على رأيه واصطحبهما إلى منزل بيزيوكينا. تزعَّم الجماعة وأراد أن يشربوا خمرًا قويًا في جناح الحديقة، وسرعان ما ظهرت المقبلات والجعة والعسل، وبدأ تيرموسيسوف يُعد اللامبوبو.

استقر برنابا بريبوتنسكي بالقرب من تيرموسيسوف. أراد المعلم أن يستوضح سريعًا من تيرموسيسوف لماذا أيّد توجانوف وساعده في اضطهاده.

لكن لدهشة بريبوتنسكي، فقد تيرموسيسوف كل رغبة في الثرثرة معه، وبدلًا من أن يرد عليه بكلمة لطيفة قال بنفاد صبر:

- الجميع سواء بالنسبة لي؛ التجار والنبلاء وأعضاء المئات السود[1]. كف الآن عن التحدث معي عن السياسة. أريد أن أشرب.

تمتم برنابا وقد بدأ يتخبط في كلماته:

- لكن لا بد أن توافقني على أن تربية المتعلمين أفضل.

قاطعه تيرموسيسوف:

- في البداية «قدمي المفضلة» والآن «تربية المتعلمين»! ماذا بك يا شيشرون!

- يحدث كثيرًا له عندما يتحمس أن يريد قول كلمة ويقول بدلًا منها كلمة أخرى.

هكذا قال أخيل مدعمًا بريبوتنسكي، وأوضح أن ذلك قد تسبب للمعلم في أن يفقد علاقة جيدة، فقد أراد أن يقول ذات مرة «ماتيرنا إيفانوفنا، فلتعطيني ليمونة»، لكنه بدلًا من ذلك قال: «ليمونة إيفانوفنا، فلتعطيني ماتيرنا»؛ الأمر الذي جعلها تستاء منه.

انخرط تيرموسيسوف في ضحكة مرحة، لكنه أمسك برنابا فجأة من يده، وجذب رأس برنابا إليه وهمس:

- اذهب الآن وسجِّل لي هذا الحديث الذي سمعناه من الكهنة والنبلاء حتى لا ننساه. اكتب ما قالوه عن أن الوقت قد حان وأن ألكسندر الأول لم يستطع أن يفعل كذا وكذا، وعدم إمكانية تنفيذ الأمر في منطقة البلطيق وما إلى ذلك... باختصار، اكتب كل شيء.

قال المعلم متعجبًا:

(١) أعضاء نقابات التجار والحرفيين.



- لماذا كل ذلك؟

- ليس هذا من شأنك. أسرع وسجِّل وستعرف فيما بعد السبب. سنوقِّعه ونرسله إلى المكان الصحيح.

صاح بريبوتنسكي ملوحًا بذراعيه في يأس:

- ماذا تقول؟ ماذا تفعل؟ أتريد أن تجعل بريبوتنسكي واشيًا؟ لا يمكنني أن أفعل ذلك من أجل أي شيء في العالم.

- ألا تكرههم؟

- وماذا في ذلك؟

- فلتمزقهم إربًا ما دمت تكرههم.

- يمكنني أن أمزقهم، لكني لست وغدًا حتى أصير واشيًا.

قاطعه تيرموسيسوف، وهو يدفعه صوب الباب:

- اغرب عن وجهي إذن.

- آها! اغرب عن وجهي تعني إذن أني اكتشفتك. أنت مثل أخيل.

- اغرب عن وجهي.

- حاضر يا سيدي. لقد دعوتني لشرب اللامبوبو، وبدلًا من ذلك...

- حسنًا، خذ هذا اللامبوبو.

قالها تيرموسيسوف وصفع بريبوتنسكي على مؤخرة رأسه، ودفعه خارج الباب ثم أغلق بالمزلاج.

ارتبك أخيل الذي راقب هذا المشهد، ثم نهض من مكانه وتناول قبعته. سأله تيرموسيسوف وهو يجلس إلى الطاولة مجددًا:

- ماذا تفعل؟ إلى أين ستذهب؟

- عذرًا، سأعود إلى المنزل.

- اشرب اللامبوبو أولًا.

- لا، لا أريد أن أشربه. وداعًا. تقبل احترامي.

ومدَّ يده لتيرموسيسوف، لكن الأخير لم يقدِّم يده إليه، وأزال القبعة من فوق رأسه ودفعه إلى مقعده صائحًا:

- اجلس.

- لا، لا أريد.

- أقول لك اجلس.

صاح فيه تيرموسيسوف بصوت أعلى ودفعه حتى سقط على المقعد.

- أتريد أن تصير كاهنًا؟

- لا، لا أريد.

- لماذا لا تريد؟

- لأني لست مؤهلًا لذلك وغير مستحق.

- وهل يسيء إليك القمص؟

- لا، لا يسيء إليَّ.

- ألم ينتزع منك العصا كما يقولون؟

- وماذا في ذلك؟

- ألم يدعُك بالأحمق؟

- لا أعرف، قد يكون دعاني بذلك فعلًا.

- أبلغ عنه بأنه قال ذلك.

- ماذا؟

- كما سمعت.

انحنى تيرموسيسوف وجلب قبعة أخيل من تحت الطاولة وألقى بها عند العتبة. قال الشماس، مسرعًا لالتقاط قبعته:

- ها أنا أرى أمامي وغدًا بطرسبرجيًا.

ولكن في هذه اللحظة وجد ضربة تصم الآذان على مؤخرة رأسه، وإذا به يسقط على أنفه في ممر الحديقة حيث ظهرت قبعته في اللحظة ذاتها، وعلى مسافة أبعد قليلًا جلس بريبوتنسكي على ركبتيه. لم يفهم حتى الشماس كيف حدث كل ذلك، ولكن بعد أن رأى تيرموسيسوف عند الباب يهدده بمجرفة الحديقة، أدرك لماذا كانت الضربة قوية وثقيلة إلى هذا الحد. وقف على قدميه وقال:

- أهذا هو مشروب اللامبوبو؟ شكرًا عليه! (ثم التفت إلى برنابا وقال) ماذا بك؟ لنعد يا أخي إلى منزلينا.

أجابه برنابا:

- لا أستطيع.

- لماذا؟

- لديَّ كدمات زرقاء في كل جسدي، كما أن رأتي يؤلرني[1].

- رأتك يؤلرك؟ سينقضي الألم. لنعد إلى المنزل. سوف أوصلك بنفسي.

ورفع الشماس بشفقة برنابا ليقف على قدميه، واقتاده ليخرجا من الحديقة. في الفناء الخارجي كانت الشمس قد أشرقت بالفعل.

---

(١) يقصد رأسي يؤلمني لكنه يبدِّل الحروف.

عندما فتحا بوابات الحديقة التقى أخيل وبرنابا فجأة ببيزيوكين.

كان محصل الضرائب الليبرالي بيزيوكين، وهو طويل القامة ووسيم المظهر، توحي ملامحه بالتفاهة لكنها ليست ملامح شريرة على الإطلاق، قد عاد لتوِّه من عاصمة المقاطعة. نظر إلى أخيل وبرنابا بريبوتنسكي وقال بسرور:

- يبدو أنكما قد ثملتما أيها الرفيقان.

قال الشماس:

- ثملنا فعلًا. يمكنك أن تقول ذلك يا أخي.

- ماذا شربتما؟

- شربنا لانبوبو. اذهب هناك إلى جناح الحديقة وستجد بعضه قد تبقى لك.

- من هناك؟ زوجتي؟ ومن معها؟

- ديونوسيوس طاغية سرقوسة!

- لقد ثملت تمامًا. أي طاغية؟ وأنت يا برنابا فاسيليفيتش، ألم تعد تعرف الناس أم ماذا؟

أجابه بريبوتنسكي، منحنيًا أمامه بخجل:

- عذرًا. الوجه مألوف لكني لا أتذكره.

قال الشماس، جاذبًا برنابا من فناء المنزل:

- انظر كم هو مسكين ولا يستطيع حتى أن يتحدث جيدًا!

بمرور بضع دقائق أوصل أخيل برنابا بأمان إلى منزله، وتركه في يد الخابزة التي اندهشت من محبة الشماس المفاجئة لابنها، وأعربت له عن امتنانها غير المحدود.

لم يُجب أخيل بشيء، وعندما وصل إلى المنزل طلب من خادمته إسبيرانسيه أن تأتيه سريعًا بالطوق النحاسي. عندما شاهدته العجوز يضغط به على مؤخرة رأسه سألته بفضول:

- لا بد أنك صدمت مؤخرة رأسك بشيء ما يا أبي الشماس، أليس كذلك؟

أجابها متنهدًا:

- بلى يا إسبيرانسيه، صدمتها. لقد قال لي الأب القمص الحقيقة حينما أخبرني أني لا يجب أن أعوِّل على قوتي. لقد قال لي يا إسبيرانسيه ألَّا أفتخر بقوتي وصلابتي.

صرف أخيل الخادمة، وجلس القرفصاء بالقرب من النافذة، وضغط بالطوق النحاسي على مؤخرة رأسه، متنهدًا، وهمس: «هذا اللانبوبو متورم حتى إني لن أستطيع الظهور به في الشارع ليومين».

* * *

# الفصل السابع

عاد القمص إلى منزله مضطربًا ومنزعجًا بشدة. نظرًا لأنه بسبب الاحتفال مكث عند قائد الشرطة أطول من المعتاد، لم تنتظره زوجته ناتاليا نيقولايفنا كعادتها، واستلقت على فراشها، إلا أنها تركت باب غرفة نومها مفتوحًا على الردهة التي ينام فيها زوجها. أرادت ناتاليا نيقولايفنا بذلك أن تستيقظ فور أن يعود زوجها.

فهم توبيروزوف ذلك، وعندما رأى باب غرفة نوم زوجته مفتوحًا دخل إليها وناداها. استيقظت زوجته وقالت:

– ألن تنام؟

– نعم يا عزيزة سافيلي، لن أنام.

– جيد، فأنا أريد التحدث معك.

جلس العجوز على حافة فراشها الصغيرة وبدأ يحكي لزوجته عن حديثه مع ممثل مجلس النبلاء، ثم بدأ يشكو من اللا مبالاة العامة تجاه الاعتقاد السائد في روسيا كلها الذي مفاده أن الإنسان المتطور بخجل من الإيمان. أفضى لزوجته بمخاوفه المختلفة من انهيار الأخلاق وفقدان المثال الصالح، فبوصفه رجل إيمان، وبوصفه مواطنًا يحب وطنه، وبوصفه مفكرًا متفلسفًا كان الأب سافيلي لا يزال يتمتع بالحيوية بالرغم من أنه قد وصل

إلى السبعينيات من العمر، ولا يزال يتسم بالوضوح والدفء، وفي كل كلمة يقولها يلمع عقله الرزين، وفي كل ملاحظة يدلي بها يلوح صدقه الشديد.

لم تقاطع ناتاليا نيقولايفنا أحاديثه النبيلة والعاطفية ولو بإيماءة واحدة، وتركته يتحدث كما يشاء؛ الأمر الذي لم يسمح منصبه بأن يفعله سابقًا في أي مكان آخر. اختتم حديثه بعد أن لاحظ أن الفجر قد حل، وعصفوره الكناري قد استيقظ وبدأ ينظف أنفه في القضيب الرقيق:

- تصوري يا ناتاشا! تصوري يا عجوزي الطيبة أن توجانوف نفسه لم يدحض حديثي بأي شيء، ووافقني على كل ما أقوله، حيث وجد هو نفسه أن لدينا ذيلًا طويلًا، كما اعتادت المرحومة مارفا أندريفنا أن تقول، وأنفًا طويلًا، وأننا نقف مثل عصافير زمار الرمل في المستنقع؛ نجذب الأنف فينغرس الذيل، ونجذب الذيل فينغرس الأنف، لكنه لم يُظهر الشدة التي تتطلبها مثل هذه الحالة... لا مبالاة مريعة!

ظلت ناتاليا نيقولايفنا صامتة.

- علاوة على كل ذلك وصفني بالممسوس! قولي لي رجاء، ما الذي يمكن أن يشير إليه هذا الوصف في شخصيتي، وماذا فعلت لأناله؟ (واصل سافيلي حديثه بعد أن خفض صوته) دعاني ممسوسًا! لقد طرحت عليه هذا السؤال، وسواء كان ما أشير إليه تافهًا أم لا، ولكن كل ذلك يشير إلى الروح التي تسود المجتمع. إذا لم نتمكن الآن من التعامل مع هذا التافه فربما يفكر كبارنا بعد ذلك في التأقلم مع هذا الوضع. بخصوص هذا الأمر قص عليَّ طرفة بروحنا الروسية الساخرة، صحيح أنها مناسبة تمامًا للموضوع، لكن لا يمكنني ككاهن أن أحكيها لأحد سواكِ. قال لي إنه كان هناك أحد الضباط قد انضم لإحدى الحملات، وسكن إحدى

الشقق، ولاحظ أن ثمة جارة في الغرفة المجاورة[1]، وهي فتاة باهرة الجمال، وطبقًا لعادة ضباط الأفواج استدعى الجندي المرسال وقال له: «كيف يمكنني يا أخي أن أتعرف على هذه الفتاة؟». تسمر الجندي في مكانه، ونظرًا لأنه ترك السماور صاح فجأة: «دخان!». هب الضابط من مكانه واندفع إلى غرفة هذه الفاتنة وقال لها: «آه يا سيدتي! ثمة دخان قادم من عندكِ، وها قد جئت لأنقذكِ بجمالكِ الباهر هذا من الحريق». وبهذه الطريقة تعرف عليها، وجلب له الجندي الفودكا وصب له. لكن بمرور فترة زمنية قصيرة انتقل صائد الجمال هذا إلى مكان آخر، ورأى هناك سيدة جميلة أيضًا، لكنها لم تكن في الغرفة المجاورة مباشرة له، بل في البناية المقابلة له في الشارع ذاته، وقال لجنديه المرسال: «آه! كم أود أن أتعرف على هذه السيدة!». لكن الجندي لم يستطع أن يقول شيئًا سوى «دخان!». وأدرك الضابط أنه لا جدوى من الاعتماد على عقل مساعده، ولم يعد يتعرف من خلاله على أي امرأة يود التعرف عليها. استخرجي بنفسكِ أوجه التشابه: بدلًا من احتياجنا إلى شخص مستنير نلجأ إلى الإلحاد والسخرية من الوطن، وبدلًا من تقدير الناس نهمل الروابط الأسرية، وفي حاجتنا إلى جمالنا نلجأ إلى أشكال الحضارة الخارجية الممثلة في هذه المرأة الجميلة، ولكن حينما نشعر بالحاجة إلى التعرف على جمال آخر؛ عندما نفتقر إلى الاستقلالية الروحية، ونرى من النافذة هذه الجميلة في البناية المقابلة، كيف نصل إليها؟ نصيح: «كيف يمكننا التعرف عليها؟!». ولا يمكن لجنود المراسلة الحمقى أن يجيبونا بسوى «دخان!». وحينها ما الفائدة التي يمكن أن نجنيها من صيحتهم «دخان!»؟

---

(١) من المعتاد في هذا الوقت أن يستأجر الفرد غرفة في شقة مشتركة.

تنهدت ناتاليا نيقولايفنا قائلة:

- نعم.

- الأمر اتضح لكِ إذن. من فينا الممسوس الآن؟ هل هو أنا الذي يشعر بالقلق لرؤيته الأمر بصورة أوضح، أم هو الذي يفهم كل شيء بوضوح لكنه يتعامل مع كل شيء بكسل شديد؟ لو صار كل رجال عصرنا هكذا لانهار كل شيء. إنه كمن يصيح «دخان!». أليس كذلك يا صديقتي؟

- نعم يا عزيزي، لقد نهضت الفتاة فعلًا لتعد السماور.

قالتها ناتاليا نيقولايفنا بصوت ناعس.

فهم توبيروزوف أنه ظل يتحدث طوال هذا الوقت بلا جدوى؛ تحدث لمن لا يسمعه، ومن ثم أحنى رأسه الأبيض وابتسم.

تذكر حينها الكلمات التي قالتها له منذ زمن طويل السيدة البويار الراحلة مارفا بلودوماسوفا: «ألستَ وحيدًا؟». ما جدوى أن تكون لديك زوجة طيبة تحبك ولكنها لا تفهم كل ما تعاني منه؟ كل مَن يرى أخاه بعيدًا يكون وحيدًا بين إخوته.

تمتم العجوز: نعم. وحيد. وحيد تمامًا. متى شعرت بذلك تحديدًا؟ عندما لم أُرِد إطلاقًا أن أكون وحيدًا لأن... سواء كنت ممسوسًا أم لا، لكني قررت ألَّا أتحمل ذلك بعد الآن، وما قررت أن أفعله سأفعله حتى لو وصل إلى حد الوقاحة.

نهض العجوز بهدوء من على الفراش حتى لا يقلق زوجته النائمة، ورشم عليها علامة الصليب، وحشا غليونه وخرج إلى الردهة وجلس في الشرفة الخارجية.

# الفصل الثامن

عقد توبيروزوف عزمًا شديدًا على تنفيذ ما ظل يفكر فيه مدة طويلة؛ ما ظل يمزقه ولم يَبُح به لأحد، فمن يمكنه أن يتشاور معه على أي حال؟ من يمكنه أن يفضي إليه بمكنون أفكاره؟ ألزكريا المتواضع الذي وجوده مثل عدمه، أم لأخيل الذي يعيش كقوة عفوية لا يعرف لماذا خُلِق ولا إلى أين يتوجه، أم للموظفين أو السيدات، أم أخيرًا لتوجانوف الذي كان يتوقع دعمه كسيد روسي أصيل؟ لا، ولا يستطيع حتى أن يفضي بما يعتمل في داخله لرفيقته ناتاليا نيقولايفنا التي لا تُذكِّرها كلمة «دخان» في أثناء نومها إلا بالسماور.

«حمامتي العزيزة لا تفكر في أثناء نومها إلا في الخبيز، وكيف تدفئني وتسقيني أنا العجوز، لكنها لا تدرك أن الفحم الذي يتقد في داخلي هو وحده القادر على بعث الدفء فيَّ، وأن الماء الحي[1] هو وحده القادر على إرواء عطشي الروحي الذي لا يمكن إرواؤه بمجرد التفكير في أني عجوز أشيب الشعر، نصف ميت. إذا فقدت عزائي فسأقول لنفسي قبل الموت إني على الأقل حاولت أن أفي بنذري وأوقظ روح الأخوة الساقطة».

استغرق العجوز في التفكير. تصاعدت أدخنة تبغ فاكشتاف (من

---

(١) تشبيه مستمد من إنجيل يوحنا ٤.

أنواع التبغ -المترجم) الدقيقة من تحت شاربه الرمادي إلى الهواء، وقد تلونت باللون الكهرماني للشمس المشرقة، وانسل الدجاج من أعشاشه وخرج من بيوته الصغيرة ونفض الغبار وانهمك في تنظيف ريشه. هناك على الجسر تعالى صوت عزف الراعي على نايه المصنوع من الزيزفون، وتعالى رنين الدلاء الفارغة على كتفَي امرأة حافية عند الشاطئ، وخارت الأبقار وطردت الخادمة الخاصة للقمص، وهي ترشم الصليب على فمها المفتوح تثاؤبًا، البقرة عند البوابة، وطقطقت طيور الكناري على النافذة، وبدا اليوم في كامل إشراقه.

ها هم يرنون جرس الكنيسة.

استدعى توبيروزوف العامل وأرسله ليأتي بالقارئ بافليوكان. قال القمص في نفسه: «نعم. لا بد أن أتخلص من أفكاري المزعجة، وأفارقها فورًا و... وأترك كل ما يقلقني. سأفعل ذلك».

ظهرت على عتبة البوابة شابة غجرية تحمل طفلًا على صدرها وآخر خلف ظهرها، وثلاثة آخرين يتشبثون بخرقها. اقتربت من سافيلي قائلة:

- أعطني صدقة أيها الأب القمص السعيد والموهوب.

- ماذا يمكنني أن أعطيكِ أيتها السيدة التعيسة وغير الموهوبة؟! زوجتي نائمة وليس معي مال.

- أعطني أي شيء لا يلزمك، وسيصيبك الشرف والسعادة من جراء ذلك.

- وما الذي لا أحتاج إليه؟ آه! قلتِ إن لديَّ ما لا أحتاج إليه!

مضى توبيروزوف إلى غرفته، وجلب منها غلايينه وكيسًا من التبغ

مطرزًا بالخرز تلوح عليه حفر صنعها الرماد، وأعطى كل هذا للغجرية قائلًا:

- خذي هذا أيتها الغجرية وأعطيه لأي غجري. سيكون وجوده معه أكثر ملاءمة من وجوده عندي.

ظلت ناتاليا نيقولايفنا نائمة، وألقى القمص باللوم في ذلك على نفسه، لأنه حرمها من النوم طويلًا بغيابه وبأحاديثه التي لم تستطع حتى أن تستمع إليها لكنها أيقظتها على أي حال.

ذهب إلى الإسطبل، وقدَّم بنفسه حصة مزدوجة من الشوفان لزوج بُني صغير من خيوله، وعبر الفناء بهدوء متجهًا إلى الغرف، وفجأة رأى جندي المراسلة العامل لدى بيزيوكين محصل الضرائب يدخل من البوابة ومعه كتاب.

أخذ القمص الكتاب من يديه وفتحه واحمر وجهه كاملًا. وجد في الكتاب ظرفًا مكتوبًا عليه العنوان التالي: «إلى قمص كنيسة ستارجورود الكريم: سافيلي توبيركولوف». ورأى شطبًا خفيفًا على كلمة «توبيركولوف»، وأعلاها مكتوب «توبيروزوف». قال الجندي:

- أُمرت بتوصيل هذا الخطاب.

- من أمرك؟

- السكرتير الوافد حديثًا.

- حسنًا، انتظر.

فهم القمص أن هناك شيئًا خلف ذلك، ولذلك تعاملوا بهذه الحمية، وأنه ربما هناك ما يريدون أن يورِّطوه فيه.

«ما الذي يمكن أن يكون مكتوبًا في هذه الرسالة؟ في وقت مبكر هكذا؟ من المؤكد أنهم لم يناموا ليلًا، وانشغلوا في أي دناءة ليلية. كل أوقاتهم فراغ». هكذا فكر توبيروزوف، ومضى إلى الردهة التي تغمرها أشعة الشمس، وارتدى عدستيه الفضيتين المستديرتين، وفتح الظرف المثير للفضول.

* * *

# الفصل التاسع

كانت الورقة الرقيقة غير منتظمة الشكل، وقد زخرت بعبارات سيئة ومخادعة مفادها دعوة المبجل توبيروزوف، أو بصورة أدق، استدعاؤه سريًا إلى الموظف بورنوفولوكوف «لتقديم تفسير واضح لأمور مهمة، وكذلك بشأن الأفعال المغوية والبذيئة للشماس أخيل ديسنيتسين».

«أوف! ما هذا الهراء! أهي مزحة غبية؟ هل يمكن أن يجرؤوا على ممازحتي بهذه الطريقة؟ لا. إنها ليست مزحة. مكتوب «إلى توبيركولوف[1]». اسم العائلة مشوه بصورة عمدية للإساءة إليَّ و... ثم «الأفعال المغوية والبذيئة» لأخيل! ماذا يعني كل هذا ومم هو مضفور؟ سأتبع طريقة الترقب حتى لا أسليهم وفي الآن ذاته حتى لا أرتكب أي خطأ، وهي الطريقة الوحيدة الملائمة في مثل هذه الأمور الغامضة».

تناول القمص قلمه وكتب أسفل المكتوب في هذه الورقة غير منتظمة الشكل: «المبجل توبيروزوف لم يحظَ بشرف معرفة من يطلب منه الحضور، ولا يعتبر أن من واجبه المثول أمامه تلبية لهذا النداء أو هذه الدعوة». ثم وضع الورقة في الظرف الذي أُرسِلت فيه وكتب في مكان العنوان: «فلتعد إلى الشخص الذي لا أعرف لقبه ومنصبه».

وضع الظرف في كتاب جندي المراسلة مجددًا ثم خرج إلى الشرفة

(١) توبيركولوف تعني بالروسية حدبية أو نتوءًا صغيرًا.

الخارجية وأعطى الكتاب للجندي، وأمر القارئ الطويل بافليوكان الذي أتاه أن يُعد العربة ويستعد للسفر معه في خلال ساعة إلى عاصمة المقاطعة لتعميد أحد الأطفال، وأرسل الخادمة لتأتي بأخيل.

في هذه الأثناء نهضت ناتاليا نيقولايفنا، واعتذرت كثيرًا لزوجها على نومها بالأمس في أثناء حديثه معها، وبدأت تُعد له حقيبة سفره، لكنها تعجبت من أن القمص أجاب باختصار عن سؤالها: «أين ذهب التبغ؟». بالقول إنه لن يدخن مجددًا. ثم التفت إلى الشماس الذي وصل في هذه اللحظة.

تحدث إلى أخيل قائلًا:

- أنا ذاهب الآن لتعميد الأطفال، لكني استدعيتك إلى هنا لأحذرك.

لكن أخيل قاطعه:

- كل الشكر لك يا أبي القمص، لكني أخذت حذري بالفعل.

- إلى الآن لم يحدث شيء خطير، وأنا لست خائفًا حقًّا، ولكن رجاء، أتوسل إليك، فلتتحلَّ بمزيد من القوة في التزام الحذر في أثناء غيابي.

- حتى إذا لم تكن قد تعطفت بتحذيري فأنا أقول لك أيها الأب القمص إني حسمت الأمر.

توقف توبيروزوف ونظر إليه نظرة ثاقبة متمعنة. بدا جسد الشماس ووجهه في حالة سيئة، وقد امتدت خصلات شعره الطويلة على جبهته كخصلة شعر مستعار نازحة من مكانها، وبدا صدغه الأيمن مكشوفًا تمامًا بينما توارى صدغه الأيسر تحت خصلات شعره النازحة عليه.

اعتقد القمص أن هذا يمكن أن يحدث لشماس مهمل، أما الشماس

فثبّت عينيه على قبعته بين يديه وقال:

- بالأمس يا أبي القمص، ما إن عدت إلى منزلي من عند بيزيو كينا التي عرجنا عليها جميعًا بعد مغادرتنا لمنزل قائد الشرطة حتى قلت لخادمتي: «أقول لكِ يا إسبيرانسيه إن الأب سافيلي محق في قوله لي ألّا أعوِّل على قوتي وألّا أتباهى بصلابتي».

بدلًا من أن يجيب القمص على حديثه اقترب من الشماس وعدَّل بيده خصلات شعره التي تغطي الجانب الأيسر من وجهه كاملًا. قال أخيل بهدوء، وهو ينقل يد القمص إلى مؤخرة رأسه:

- لا يا أبي سافيلي ليس هناك شيء هنا، بل هنا.

- أمر مخزٍ أيها الشماس.

- ومؤلم أيضًا يا أبي القمص. (أجاب أخيل ضاربًا صدره بيده وانخرط في بكاء مرير) سأظل معذبًا طوال الوقت بسبب ذلك.

لم يسكب توبيروزوف قطرة واحدة في كأس معاناة أخيل هذه، بل على النقيض؛ تناول ما فاض عنها وانسكب منها. ذرع الغرفة ثم لمس يد الشماس وقال له:

- أتذكر كيف عاتبتني ذات مرة على أني أدخن؟

- سامحني.

- لا، أنا أشكرك على ذلك بالرغم من أني لا أجد شيئًا شديد السوء في التدخين، وبالرغم من اعتيادي عليه، فإنني حتى لا تكون كلماتي مجرد خطب جوفاء قررت اليوم الامتناع عن هذه العادة وتخلصت من كل

غلايني وأعطيتها للغجر.

صاح الشماس ببهجة كبيرة:

- للغجر؟

- نعم. لا يهم إلى من أعطيتها، لكني أريدك أنت أيضًا أن تتخلص من وقاحتك وتعطيها لشخص ما. لم تعد شابًا. أنت في الخمسين الآن، ولم تعد قوزاقيًا لأنك ارتديت بالفعل غفارة الشماس. الآن أقول لك مجددًا: كن بخير، فقد حان موعد سفري.

رحل توبيروزوف، وتوجه الشماس إلى الأب زكريا ليطلب منه فورًا -بأي ذريعة ممكنة- أن يذهب إلى منزل محصل الضرائب ويعرف أصل تيرموسيسوف بالضبط. أجابه بينيفاكتوف:

- ولماذا تريد أن تعرف ذلك؟

- تلزمني معرفة منبته وأصل أسرته وأبيه وأمه.

تعهد زكريا بأن يجلب لأخيل المعلومات التي يريدها.

* * *

# الفصل العاشر

كانت الأمور شديدة السوء في منزل بيزيوكين صباح هذا اليوم. تذكرتْ زوجة محصل الضرائب القلادة المرصعة بالألماس التي ارتدتها مساء الأمس لكنها لم تجدها. بحث الخدم كلهم، وكذلك بحثت سيدة المنزل. بحثوا في جناح الحديقة وفي كل أنحاء المنزل ولكن بلا جدوى؛ لم يجدوا شيئًا.

بدأ بورنوفولوكوف عمله كمفتش، وانشغل تيرموسيسوف تمامًا بالصندوق الذي حوى كل متعلقاته. تناول منه بضع صور لأعضاء الأسرة الإمبراطورية ونظفها بشريط مطاطي وسكين حيث أزال منها كل ما بدا له فيها قذرًا، ثم وضعها في ظرف وبدأ يكتب خطابًا إلى شخصية مختلقة في بطرسبرج. لا يمكن تفسير ما فعله تيرموسيسوف من دون معرفة نياته تحديدًا. وصف في خطابه هذا جمال الطبيعة ولون السحب الأصفر الوردي، ثم تحدث عن صداقته ببورنوفولوكوف وآماله اللامعة في العمل الوظيفي وإرثه في مقاطعة سامارا، وفي النهاية أضاف مخططًا بسيطًا لمجتمع مدينة ستارجورود الذي شاهده بالأمس والذي انتقده بشدة، واستثنى زوجة مدير مكتب البريد وحسب من الشخصيات التي انتقدها. كتب: «هذه المرأة تستحق التوقف عندها طويلًا. أتصور أن ثمة شيئًا مصيريًّا يحدث هنا. فور أن رأيتها شعرت صوبها بشعور بنوي. أقول

لك ببساطة إنها حتى لو أرادت أن تمزقني لقبّلت يدها. أنا لا أعرف كيف سينتهي الأمر هنا، فلديها ابنتان؛ واحدة منهما هي أُم حقيقية ومن المؤكد أن الأخرى لن تكون أسوأ منها. من بوسعه أن يعرف يا أخي السبب الذي جعل القدر المجهول يقرِّبني بهذه الطريقة من أسرة هذه المرأة المحترمة؟ لا تَدِنِّي يا أخي، وعندما تعود إلى المنزل يجدر بك أن تأتي إلى هنا لأسبوع. من يعلم ماذا سيحدث لك عندما ترى الأمر بنفسك؟ على أي حال الحياة هنا ليست مبهجة، والأكثر من ذلك عندما يتوفر لكلينا الخبز هنا فسيكون بوسعنا أن نساعد الناس. وداعًا الآن! سوف أكتب لك مجددًا سريعًا، فقد فكرت في كتابة مقال أدبي مستوحى من شخصية زوجة مدير مكتب البريد، وسوف أرسله لك كي ننشره في أفضل مجلة أدبية. المخلص لك تيرموسيسوف».

بعد أن وجَّه تيرموسيسوف الخطاب إلى عنوان شخص يُدعى نيقولاي إيفانوفيتش إيفانوف، ثنى المغلف المختوم بين إصبعين، وقد صار على قناعة بأنه بهذه الطريقة تمكن قراءة كل ما كتبه عن زوجة مدير مكتب البريد وقال: «حسنًا، سنرى الآن ما إذا كان بريبوتنسكي صادقًا فيما قاله بالأمس عن أنها تفحص الخطابات أم لا. إذا اتضح أنه محق فسيكون الأمر رائعًا».

أخذ الخطاب والبطاقات وذهب إلى مكتب البريد. علاوة على هذا الخطاب كان هناك في جيب تيرموسيسوف خطاب آخر كتبه في هذه الساعة المبكرة التي أرسل فيها ملاحظته لتوبيروزوف. تضمن هذا الخطاب ما يلي:

«يمكننا أن نجد مؤامرة الاشتراكيين الديمقراطيين الذين يتنكرون بقناع الوطنية في كل مكان، وهي تتألف هنا من عناصر متنوعة أشد درجات التنوع، والأكثر ضررًا هو أن الإكليروس هنا يشاركون في هذه المؤامرة بدرجة عظيمة، وهم يمثلون عنصرًا فائق القرب من الشعب، ومن ثم شديد الخطورة. يمكننا أن نرى نتائج هذه الأخطاء الكارثية للتسامح الليبرالي هنا بصورة غير محدودة. سأذكر واحدة فقط: منذ أن سُمِح لبعض الصحف أن تشير إلى أهمية الإكليروس في جاليسيا[1]، بدأت مساعي كثيرين من الكهنة هنا بوضوح إلى محاكاة إكليروس جاليسيا. لم تعد تكفيهم تلبية المتطلبات الكنسية، بل صاروا يدعون إلى تحرر الكنيسة والشعب الروسي.

حدث بالفعل أكثر من مرة أن لفت قمص ستارجورود سافيلي توبيروزوف انتباه السلطة إليه بسبب شخصيته الضارية والوقحة وأفكاره المضرة، ووُجِّهت إليه أكثر من مرة تحذيرات بشأن سلوكياته المرفوضة، إلا أنه لم ينسَق إليها إلا بدرجة قليلة للغاية، وفي داخله لا يزال ممتلئًا بالمبادئ الثورية.

لا أريد أن أستبق الأحداث بالإشارة إلى حجم الضرر الذي يمكن أن يجلبه للحكومة، لكني أفترض أن الضرر الذي يمكن أن بجلبه، والذي يحدث الآن فعلًا بصورة جزئية، عظيم بصورة لا يمكن تصورها. يستغل القمص توبيروزوف الاحترام الكبير الذي بتمتع به هنا من قِبل الشعب

(١) منطقة تاريخية وجغرافية تقع بين أوروبا الوسطى والشرقية. فيما مضى كانت إمارة جاليسيا فولينيا الصغيرة، وبعد ذلك أرض التاج التابعة للإمبراطورية النمساوية المجرية، ومملكة جاليسيا ولودوميريا التي امتدت عبر الحدود المعاصرة بين بولندا وأوكرانيا.

كله، ولا بد أن نعترف أنه يتسم بذكاء لا شك فيه، ومن ثم يتسم بالوقاحة أيضًا التي ساعد على تطويرها التساهل الذي استمر طويلًا من قِبل السلطة، والذي أفضى به في النهاية إلى عدم خشيتها نهائيًا. كان من المفترض أن يتم تقييد كل أفعال هذا الشخص بحزم؛ الأمر الذي أدى عدم حدوثه إلى تواقحه بالتحدث عن الجميع من دون خوف، وعلاوة على ذلك يستغل الفرصة المتاحة له للتحدث إلى الشعب كله في الكنيسة.

هذا العنصر الكهنوتي قريب من الشعب، ومن ناحية أخرى من الواضح أنه قد بدأ الآن في التقرب من النبلاء المحليين. على سبيل المثال، يستغل هذا القمص المثير للشبهات توبيروزوف موقعه بصورة واضحة، وحماية ممثل مجلس النبلاء توجانوف له الذي تعرفون بالطبع شخصيته وآراءه جيدًا. جاء السيد توجانوف مساء الأمس إلى منزل قائد الشرطة وقال: «سيحجبون الشمس عن وجه الأرض». ومن الواضح أنه قصد بالأرض الشعب، وعنى بالشمس النظام الملكي، أما قصده بمن سيحجبونها فهو واضح، وعلاوة على ذلك وضَّح بنفسه ذلك بعد أن قال في حواره إنه مناصر للجان الزيمستفو[١]، أما المحافظ فهو «خليفة لساعة واحدة!»[٢]. أخيرًا، وعلاوة على كل ما سبق، عندما قال له أحد المدرسين المحليين، ويُدعى بريبوتنسكي، وهو إنسان أحمق تمامًا لكنه جدير بالثقة، إننا جميعًا لا نستطيع أن نجيب عن سؤال: «كيف تُحكم

---

(١) الزيمستفو هي لجنة للحكم الذاتي المحلي تم إنشاؤها في روسيا بين أعوام ١٨٦٤-١٩١٨ نتيجة بعض الإصلاحات الإدارية.

(٢) تعبير روسي يُستخدم للإشارة إلى القادة أو الرؤساء الذين يصلون إلى السلطة لفترة قصيرة أو عن طريق الصدفة، ويكون موقعهم في كرسي القيادة هشًا وقصير الأجل.

روسيا؟». أجابه بسخرية وقحة: «في هذه الحالة أولي ثقة كبيرة لكلمات بكاترينسكي بينين الذي قال إن روسيا تُحكم بفضل الله وغباء الشعب». يشرفني أن أوجِّه انتباه معاليكم إلى كل ذلك، كما أني أعتبر نفسي ملزمًا بأن أشير لسعادتكم إلى المزايا التي لا غنى لي عنها للموظف المدني إسماعيل بتروف تيرموسيسوف الذي قدَّم لي فائدة كبرى بمراقبته الخفية، وقدرته على اختراق كل طبقات المجتمع، وكشفه لكل هذه المعلومات الثمينة، وأجرؤ على أن أقول إنه إذا كانت السلطات مستعدة لاستخدام هذا الشخص الموهوب لعمل المراقبة بصورة مستقلة، فلا شك أنه سيجلب لها فائدة كبرى».

في أثناء سير تيرموسيسوف وفي جيبه هذه الورقة، عض على شفتيه وهمس لنفسه: «هل سيوقِّع الوغد بورنوفولوكوف على هذه الورقة؟ سأضغط عليه بشدة حتى يوقعها».

* * *

# الفصل الحادي عشر

في البداية عرج تيرموسيسوف على مكتب البريد، وقدَّم هناك الخطاب، ثم توجَّه مباشرة إلى زوجة مدير مكتب البريد. التقيا كصديقين؛ قبَّل يدها وقبَّلته في جبهته وشكرته على تشريفه لها بالزيارة. قال لها تيرموسيسوف:

- عليَّ أن أشكركِ. آه من هذا الملل! لم أستطع النوم طوال الليل خوفًا من سؤال أين أنا ومع من.

- نعم، داريا نيقولايفنا مهملة جدًّا. لا أقصد مهملة لكنها ليست مضيفة جيدة.

- يبدو ذلك فعلًا.

- وكيف لا تكون كذلك وهي منكبة طوال الوقت على الكتب؟

- يا لها من حماقة! على المرء هنا أن يرى لا أن يقرأ. كما ترين، بالأمس شاهدت الجميع واستمعت لهم، وأقول لكِ ببساطة: يا له من هلع!

- لقد قلتُ لبنتَي بالأمس فعلًا: «كان يجب أن يكون الأمر ممتعًا لضيفنا، أليس كذلك؟».

- لا، ليست هناك أي متعة في الأمر. أنا لا أعمل هنا من أجل المال بقدر ما أعمل من أجل التعرف على المنطقة.

- آه! ستجد لدينا هنا كومة هائلة من المواد والملاحظات الجديرة بالاهتمام!

- أعمل هنا تحديدًا من أجل هذه الملاحظات. بالمناسبة، هذه هي الصور التي سمحتِ لي بأن أجلبها لكِ. سأعلقها إذا سمحتِ.

- لم تعرف زوجة مدير مكتب البريد كيف تشكره.

- سوف أفعل ذلك بكل سرور إذا رأيت بنتيكِ الجميلتين. هل يمكنني أن آمل رؤيتهما؟

أجابت زوجة مدير مكتب البريد بأنهما لم ترتديا ثيابهما بعد لأنهما مشغولتان في شؤون المنزل، ولكن بالرغم من ذلك ستخرجان للقائه. توسل إليها تيرموسيسوف: «أرجوكِ فلتفعلا ذلك، أرجوكِ». وعندما خرجت زوجة مدير مكتب البريد المفتونة به بدأ يعلق الصور على الحائط بالمسامير التي جلبها في جيبه.

استمر تزين الفتاتين لنحو ساعة، وطوال هذه المدة لم تظهر زوجة مدير مكتب البريد. قال تيرموسيسوف في نفسه: «علامة مبشرة! علامة مبشرة! سأحدثهن عن الأدب».

ظهرت الفتاتان أخيرًا بقيادة أمهما. ألقى إسماعيل بيتروفيتش نظرة سريعة ونافذة إلى الأم. كانت مبتسمة ومتوهجة من فرط السرور. «نجح الطُّعم. غمزت الصنارة». قالها في نفسه وضاعف لطفه الفاتن عشرة أضعاف. لكنه أراد أن يتيقن تمامًا من أن زوجة مدير مكتب البريد التقطت الطُّعم حقًّا، ومن ثم تحدث مجددًا عن الأدب وعن ألبوم السفر الخاص به وما يتضمنه من انطباعات وملاحظات. سألته زوجة مدير مكتب البريد:

- صور أدبية؟! وحق الله المزيد من الصور! المزيد من الصور المستمدة من الطبيعة!

- لقد كتبت بالفعل انطباعاتي الأدبية عن كل أفراد المجتمع هنا، واعذريني، فلقد أشرت إليكِ وكذلك إلى بنتَيكِ. إنها مجرد ملاحظات عرضية حتى الآن. آه لو كان بوسعي أن أستعيد الخطاب الذي أرسلته لتوِّي!

صاحت زوجة مدير مكتب البريد:

- آه! ماذا؟

«غمزت الصنارة، والتقطتْ طُعمك أيها الماكر». هكذا واسى تيرموسيسوف نفسه وأصر على أن يقرأ للسيدات ماذا كتب عنهن. لمدة طويلة لم يُسمع من الردهة سوى: «ماذا؟ لا تقرأ لنا. نحن نصدقك». و«لا يا سيدتي. ولماذا لا أقرأ لكُن؟ يبدو أنكن لا تصدقنني».

تركت حجج تيرموسيسوف أثرًا مغويًا على فضول الفتاتين، ومن ثم بدأت واحدة فالأخرى في محاولة الهرع إلى أبيهما في مكتب البريد لإحضار رسالة الضيف المثيرة للاهتمام.

بالرغم من محاولات الأم لإيقافهما، بالكلمات أو بالإشارات، لم تلحظاها وأرادتا الإسراع إلى هناك، ولكن تيرموسيسوف فهم كل شيء؛ لقد كان الخطاب بين يديها، وكل ما عليه الآن هو أن يأخذه من بين يديها، وبالتالي يجعلها هي شخصيًا رهن إشارته.

لم يتردد تيرموسيسوف للحظة واحدة، وهبَّ من مكانه، وبالرغم من كل الممانعات والنداءات اندفع بتصميم صوب المكتب، صائحًا أنه لم تعد لديه القدرة على حرمان نفسه من تقديم لمسات بسيطة من بهجته العميقة للسيدات.

لم يكن بالإمكان إثناؤه عن سعيه بأي طريقة، ولكن الخطاب لم يكن موجودًا في المكتب.

# الفصل الثاني عشر

عاد إسماعيل بيتروفيتش إلى السيدات في أقصى درجات الارتباك، ووجدهن في ارتباك أكبر. عند عودته صاحت الفتاتان وركضتا لتخفيا دموعهما التي خلّصتهما من عقاب أمهما، لكن زوجة مدير مكتب البريد وجدت لنفسها فريسة أخرى.

وقف تيرموسيسوف أمامها صامتًا ومبتسمًا. قالت السيدة بتكلف:

- أراك فأشعر بالخزي.

- هل الخطاب معكِ؟

- وماذا كان بوسعي أن أفعل؟ لم أتحمل. ها هو.

- حسنًا أنكِ لم تتجاهلي الأمر.

أمسك بها تيرموسيسوف، وأخذ الخطاب من يدها.

- أشعر بالخزي. أشعر بخزي رهيب، ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ أنا امرأة.

- كفاكِ أرجوكِ. امرأة! حسنًا جدًّا أنكِ امرأة. الصديقة أفضل كثيرًا من الصديق، وأنا أمنح ثقتي كاملة كالأحمق؛ خاصة عندما تكون لصديقة. لقد تصادقت مع السيد بورنوفولوكوف. نحن صديقان منذ فترة طويلة، وهو الآن صديقي أكثر من كونه رئيسًا لي؛ على الأقل هذا ما أظنه.

- نعم، أرى... أرى ذلك. إنك ميال بشدة إلى منح الآخرين ثقتك والتعامل ببراءة.

- أنا أحمق يا سيدتي. هذا كل ما في الأمر. أنا أحمق تمامًا. حتى الأطفال الصغار بوسعهم أن يخدعوني.

- هذا أمر سيئ. هذا أمر شديد السوء.

- ولكن ماذا بوسعي أن أفعل إن كانت هذه هي طبيعتي؟ ثمة شخص يعرف عن صداقتي ببورنوفولوكوف يقول لي: «آه يا إسماعيل بيتروفيتش. أنت أحمق تمامًا في منح ثقتك للآخرين. لا تعتمد يا أخي على هذه الصداقة الغادرة. بورنوفولوكوف يتحدث عنك في حضورك بطريقة، وفي غيابك بطريقة أخرى تمامًا». لكني لا أستطيع تصديق ذلك.

- لماذا؟

- كما تقول الأغنية: «أريد أن أكرهك لكني لا أستطيع»[1]. لا أستطيع يا سيدتي أن أبدِّل علاقتي بإنسان بناء على مجرد شك، ولكن... آه لو ظهرت أمامي الأدلة! لو كان بإمكاني أن أسمع ما يقوله عني من خلف ظهري، أو أرى خطابه. حينها فقط لن أنسى طوال عمري الخدمة التي قدمتها لي هذه الصداقة.

أعربت زوجة مدير مكتب البريد عن أسفها، لأنها لم تتمكن من رؤية هذا البورنوفولوكوف الغادر، وسألت عما إذا كانت لدى تيرموسيسوف بطاقته.

- لا، ليست لديَّ بطاقته، ولكن لديَّ خطابه. هذا هو خط يده.

ووضع على مكتبها قطعة ورق عليها كتابة بخط يد بورنوفولوكوف.

---

(١) من قصيدة للشاعر ياكوف بولونسكي.

# الفصل الثالث عشر

أُلقي هذا الطعم الثاني بدقة أكبر من الطعم الأول، وقبل المساء، عندما جلس تيرموسيسوف مع بورنوفولوكوف وبيزيوكينا لشرب القهوة، جاء ساعي البريد بطلب أن يذهب إسماعيل بيتروفيتش الآن إلى زوجة مدير مكتب البريد.

أجابه تيرموسيسوف قائلًا: «نعم، لقد وعدتها بالخروج معها إلى بستان ما في ضواحي المدينة ونسيت تمامًا». وانصرف مع الساعي.

التقت زوجة مدير مكتب البريد به على انفراد في الردهة، وضغطت على يده وهمست: «انتظرني. سوف آتي حالًا». وخرجت. عادت إليه بعد دقيقة.

كان تيرموسيسوف واقفًا عند النافذة يضرب بقبعته على ظهره. نظرت إليه وأغلقت الباب بالمفتاح، وأخرجت في صمت خطابًا من جيبها وقدمته له.

تناول تيرموسيسوف الخطاب لكنه لم يفضه، بل لعب دور الأبله، وبدا كما لو أنه ينتظر منها تفسيرًا لما يجب عليه أن يفعله بهذا الخطاب.

قالت له سيدة المنزل:

- اقرأه بلا خوف. لن يدخل أحد هنا.

قرأ تيرموسيسوف الخطاب الذي شكا فيه بورنوفولوكوف لابن عمه البطرسبرجي نينا بليته من لقاء تيرموسيسوف مصادفة في موسكو، ووصفه بأنه «وغد ونذل رهيب»، وطلب من ابن عمه نينا أن «يعمل بكل قوته ويستغل كل علاقاته ليوفر لهذا الوغد فرصة جيدة في بولندا أو بطرسبرج، فنظرًا لأن هذا الوغد يعرف كل هذه الحماقات القديمة يمكنه أن يتسبب في فوضى الشيطان وحده يعلمها، حيث إنه قادر على إدهاش العالم بمدى خسته، وإلى جانب ذلك يكاد يكون لصًّا، ففي كل مكان يذهب إليه تبدأ بعض الأغراض في الاختفاء».

أنهى تيرموسيسوف قراءة خطاب صديقه ورئيسه بهدوء تام، ولم يهتز له جفن، وبعد ذلك أعاده إلى زوجة مدير مكتب البريد صامتًا.

- أعرفت صديقك جيدًا؟

هز تيرموسيسوف رأسه وتنهد قائلًا:

- لم أنتظر ذلك. وحق الله لم أنتظر ذلك قَط.

قالت زوجة مدير مكتب البريد، وهي تُقلِّب الرسالة من زاوية لأخرى:

- أعترف بأني نفسي ذُهلت. فتاتي تقول لي: «يا سيدتي، يا سيدتي، شخص ما مجهول ألقى رسالة في الصندوق». قلت لها: «وماذا في ذلك؟». لكني أنا نفسي أخذت أفكر لماذا يلقيها في الصندوق. هذا أمر غير معتاد هنا، ففي العادة يسلمون الخطاب يدًّا بيد. أي إنسان شريف لن يحاول إخفاء أنه يرسل خطابًا، ومن ثم فلا بد أن ثمة نذالة ما في هذه الرسالة. لن تصدق كيف ولماذا، ولكني قلت من منطلق بعض الهواجس وحسب: «أشعر أن شيئًا في هذا الخطاب يهدد هذا الشاب الذي... الذي أحببته كابن».

تناول تيرموسيسوف يد زوجة مدير مكتب البريد وقبَّلها. قالت والدموع تترقرق في عينيها فعلًا من دون اصطناع:

- حقًّا... حقًّا إنه وحيد هنا، وأنا أحبه كابني، وأنا لست مخطئة في ذلك، وحمدًا لله أني قرأت الخطاب. (واصلت حديثها وهي تمد الخطاب لتيرموسيسوف) خذه، خذه وتخلص منه.

- أتخلص منه! لماذا؟ لا، لن أتخلص منه. لا، دعيه يُرسل إلى العنوان المطلوب لكن اسمحي لي أن أحصل على نسخة منه لنفسي.

تصور تيرموسيسوف على الفور أنه بالرغم من أن هذا الخطاب لا يضفي عليه شرفًا، فإنه مفيد جدًّا له، فبتصويره له كشخص خطير ربما يوفرون له فرصة جيدة.

كتب نسخة منه لنفسه وأخفى الأصل في جيبه ومضى ليتنزه.

ظل يتمشى في حقول الضواحي وعاد في ساعة متأخرة حيث كان الزوجان بيزبوكين قد مضيا إلى فراشهما، وبورنوفولوكوف جالسًا بمفرده يكتب شيئًا ما. قال له تيرموسيسوف بمرح:

- خربشة يا صاحب السعادة؟ ماذا تخربش ثانية؟

لم يُجبه بسوى كلمة واحدة قصيرة خالية من أي عاطفة: «نعم».

- أتكتب بعض الدناءات مجددًا؟

ارتجف بورنوفولوكوف. قال تيرموسيسوف بتكاسل: «حسنًا، هكذا هو الأمر حقًّا!». وأغلق الباب فجأة، وأخذ المفتاح ووضعه في جيبه.

هبَّ بورنوفولوكوف من مكانه وبدأ يمزق سريعًا الورقة التي كان يكتب فيها.

# الفصل الرابع عشر

قهقه المغامر القاسي وقال:

- كم شعرتَ بالخوف! لم أغلق الباب إلا لأتحدث معك حديثًا وديًّا بقدر أكبر من الحرية، أما أنت فقد فزعت تمامًا.

جلس بورنوفولوكوف.

- وقِّع على هذه الورقة، ولكن لا تمزقها من فضلك.

وضع تيرموسيسوف أمامه الورقة غير منتظمة الشكل التي وصف فيها أمورًا حقيقية وأخرى غير حقيقية عن توبيروزوف وتوجانوف، وشهد فيها لنفسه.

- ماذا إذن؟ (سأله تيرموسيسوف عندما رأى أنه انتهى من قراءتها) أستُوقِّعها أم لا؟

- كان بإمكاني أن أخبرك بأني متفاجئ ولكن...

- لكني فطمتك بالفعل عن أي مفاجأة مني! أعرف ذلك تمامًا، وأنا نفسي غير متفاجئ (ووضع تيرموسيسوف أمام بورنوفولوكوف نسخة من خطابه لابن عمه نينا وأضاف) النسخة الأصلية معي يا سيدي.

- معك؟! لكن كيف استطعت الحصول عليها؟

- حسنًا، أنا أحدثك هنا عن الشجاعة. لديَّ هذه الورقة بحق ما أتمتع به من قوة ومعقولية.

- هل سرقتها؟

- سرقتها.

- الشيطان وحده يعلم ما هذا!

- وكيف لا يعرف الشيطان ما هذا! أن أكون صديقًا ورفيقًا ونسعى معًا من أجل تدمير روسيا ثم تشهد فجأة بأني وغد ونذل! لا يا عزيزي، هذا سيئ، ولهذا ستشهد لي شهادة مختلفة تمامًا.

هب بورنوفولوكوف وتحرك في المكان.

- اجلس. لن يجديك هذا نفعًا. علينا أن ننهي الأمر بهدوء، وإلا فأنت تعرف ماذا يمكنني أن أفعل بك بهذا الخطاب المكتوب بخطك، والذي تثبت فيه بنفسك أن صفحتك لم تكن بيضاء في الماضي. لن يساعدك البولنديون ولا ابن عمك نينا.

ضرب بورنوفولوكوف على فخذيه بنفاد صبر صائحًا:

- كيف استطعت أن تسرق خطابي بينما وضعته بنفسي في صندوق البريد؟

- فلتخمن أنت كيف سرقته. هذا عملي، وأقول لك للمرة الأخيرة: وقِّع. اكتب على الورقة الأولى وظيفتك ودرجتك واسمك ولقبك، وعلى نسخة رسالتك وقِّع بعد إضافة كلمتين أخريين سأمليهما عليك.

- سوف تمليهما عليَّ؟

- نعم، سأمليهما عليك، وستكتبهما وتعطيني أيضًا ألف روبل متخلفة عليك.

- متخلفة عليَّ؟ مقابل ماذا؟

- لأدعك في سلام.

- ليس لديَّ ألف روبل.

– أثق بك. ادفع مائة، بل مائة وخمسين، وسأنتظر بقية المبلغ. لن أتحدث معك طويلًا في الأمر. افعل ذلك أو لا تفعل، كما تشاء (بالفرنسية في الأصل –المترجم) فأنا يشرفني أن آخذ عطلة وأغادر.

ظل بورنوفولوكوف يذرع الغرفة. تمتم تيرموسيسوف:

– فكِّر. فكِّر. لا يجب أن تفعل شيئًا كهذا من دون تفكير، ولكن في الوقت نفسه سيان إذا لم تفكر، فأنا أدير عملي بعناية.

قال بورنوفولوكوف بجرأة:

– هات الورقة، سأوقعها.

– تفضل يا سيدي.

نظَّف تيرموسيسوف القلم وغمسه في الحبر وقدمه باحترام لبورنوفولوكوف ومعه نسخة من خطابه إلى ابن عمه البطرسبرجي نينا.

– ماذا أكتب؟

– حالًا يا سيدي. (تنحنح تيرموسيسوف وبدأ يمليه) اكتب يا سيدي: «الوغد تيرموسيسوف...».

توقف بورنوفولوكوف وحدَّق فيه قائلًا:

– أتريدني أن أكتب ذلك حقًّا؟

– نعم يا سيدي. اكتب: «الوغد تيرموسيسوف...».

– ألا يسيئك هذا؟

– يسيء لي أو لا يسيء هو أمر يتوقف على ممن يأتيني.

– حسنًا، قُل بسرعة ما تريده: «الوغد تيرموسيسوف...».

– جزيل الشكر لك يا سيدي.

وأكمل إملاءه.

# الفصل الخامس عشر

حدق السكرتير في أثناء وقوفه خلف طاولة بورنوفولوكوف، من خلف كتفه، في الورقة، وواصل إملاءه:

«الوغد تيرموسيسوف استطاع بطريقة مجهولة ومبتكرة أن يحصل على خطابي الذي كتبته بخط يدي إليك، وبسبب إهمالي الشديد كتبت مثل ما تقرأه الآن بالأعلى، إلا أن هذه النسخة مكتوبة بخط الوغد تيرموسيسوف».

- انتهيت؟

- لا يا سيدي. ثمة إضافة أخرى. اكتب رجاء:

«لا يمكنني أن أفهم كيف استطاع أن يأخذ خطابي الذي سلَّمته شخصيًّا في البريد، لكن هذا تحديدًا يمكنه أن يُشهدك على مدى شجاعة ومجازفة هذا الوغد الذي أخذ على عاتقه ألَّا يفارقني ويستمر في تعذيبي حتى تجد له وظيفة براتب جيد. بحق أيام سعادتنا المشتركة أن تفعل له كل ما هو ممكن وما هو غير ممكن، لأنك إذا لم تفعل ذلك فإنه يُقسِم أن يكشف الحماقات التي ارتكبناها في زمن ثوريتنا الغبي».

- ألا يمكن أن نُغيِّر الكلمات الأخيرة في هذا التنقيح؟

- لا يا سيدي. أقول لك مثل بيلاطس: «ما كتبت قد كتبت»[1].

انتهى بورنوفولوكوف من عمله المذل ونحَّى عنه الورقة بعيدًا.

- والآن وقِّع ببساطة هذه الورقة عن الإكليروس والحركات الضارة بالمجتمع.

تناول بورنوفولوكوف الورقة وبدأ يتفحصها مجددًا، ثم استغرق في التفكير وسأل:

- ماذا فعل لك توبيروزوف وتوجانوف؟

- لا شيء.

- قد يكونان شخصين رائعين.

- محتمل جدًّا.

- لماذا تشي بهما إذن؟ أليس هذا افتراء عليهما؟

- ليس كله، بعضه حقيقي وبعضه افتراء.

- لماذا تفعل هذا إذن؟

- وماذا بوسعي أن أفعل؟ أنا في حاجة إلى إظهار نفسي. الأعمام والعمات مشغولون بكم يا أصحاب الصفحات النظيفة، أما نحن العوام فيجب أن نعد طريقنا بأنفسنا.

تنهَّد بورنوفولوكوف ووقَّع بمقت الورقة التي شيد عليها نيرموسيسوف خزي وهلاك سافيلي وقضى على سلامه.

أخذ نيرموسيسوف ورقة الوشاية وطواها قائلًا:

---

(١) يوحنا ١٩: ٢٢.

- الآن نفعل الأمر الثالث ثم أرتدي قبعتي وأودعك. لقد أعددت كمبيالة بثمانمائة روبل، ويجب أن تعطيني الآن مائتي روبل نقدًا.

صمت بورنوفولوكوف ونظر إلى تيرموسيسوف المتكئ بمرفقيه على المكتب.

- هل ستوافق في سلام أم ستراوغ؟

- أنا أنظر إليك وأتعجب.

- تعجب من ترتيب القدر كما تشاء ووقِّع الكمبيالة وأعطني المال.

- من أجل ماذا يا سيد تيرموسيسوف؟ من أجل ماذا؟

- أتسألني من أجل ماذا؟ من أجل الملذات السرية في الليالي الهادئة في موسكو المقدسة وبطرسبرج الآثمة. من أجل الأحاديث والخطط والقوائم وكل التسالي التي حافظت على آثارها في جيبي وذاكرتي ويمكنني بها أن أقضي على حياتك المهنية.

وقَّع بورنوفولوكوف الكمبيالة وأعطاه المال.

- شكرًا يا سيدي (أجابه تيرموسيسوف وهو يخفي الكمبيالة والمال في جيبه، سعيدًا بأنه لم يتردد).

- هل تريد شيئًا آخر؟

- لولا قولك هذا لطلبت منك أمرًا آخر.

بعد أن انتهى تيرموسيسوف من كل ابتزازاته بدأ يبحث عن قبعته. قال:

- سوف أنام في العربة، فالجو هنا يبدو خانقًا على نحو مضاعف.

- رائع، لكن آمل أن تعطيني الآن رسالتي الخاصة.

- لا. لا تأمل هذا. لم نتفق عليه.

- وما حاجتك إليها؟

ضحك تيرموسيسوف وقال:

- لم نتفق على هذا.

- إذا شئت يمكنني أن أمنحك المزيد من المال.

- لا يا سيدي، لست جشعًا. لقد اكتفيت بما أخذت.

- أوف! يا لك من...

- أتريد أن تقول يا لي من بهيمة؟ لا مشكلة، قل من دون خجل، فأنا لن أسمع على أي حال. باي باي.

- استمع على الأقل إلى هذا: أين الألماس الذي فقدَتْه بيزيوكينا؟

- ومن أين لي أن أعرف؟

- لقد كنتَ... كنتَ عندها في جناح الحديقة، أليس كذلك؟

- وماذا في ذلك؟ كنت معها أنا وآخرون؛ المعلم والشماس.

- قُل لي على الأقل: هل هذا الألماس مخبأ وسط أغراضي؟

- ومن أين لي أن أعرف هذا؟

صاح بورنوفولوكوف غاضبًا:

- يا إلهي! سوف يفضي بي هذا الشخص إلى الجنون!

همس تيرموسيسوف ضاغطًا على يديه:

- ماذا ستفعل؟ ألن تكتب عن هذا لأبناء عمك؟ لستُ وحدي من يقرأ خطاباتك هنا.

# الفصل السادس عشر

ألماس بيزبوكينا الضائع، واللامبوبو، وهزيمة أخيل وبريبوتنسكي، والحيل التي مورست على داريا نيقولايفنا وزوجة مدير مكتب البريد، وأخيرًا كش ملك لبورنوفولوكوف... حقيقة أن كل ما فات تم في يوم واحد تقريبًا أذهلت تيرموسيسوف نفسه. شعر باحتياج لا يُقاوم إلى النوم، وتمدد على التبن في العربة، واستغرق في نوم عميق حتى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي. السقيفة الرائعة التي وقفت فيها العربة وحوَّلها تيرموسيسوف إلى غرفة نوم، ظلت مغلقة، واستلقى إسماعيل بيتروفيتش طويلًا، حتى بعدما استيقظ ظل متمددًا لفترة طويلة، وقد أخذ يخدش كعبيه مستغرقًا في التفكير.

الأمر الذي بدا مثيرًا بدرجة خاصة في أفكاره التي استغرق فيها هو أنها لم تتوقف عند الماضي ولو للحظة واحدة، ولم تتناول أيًا من الشخصيات الجديدة التي استطاع أن يلتف حولها بهدوء وجرأة بأكثر الحيل فجاجة. بالرغم من أن ذلك قد يبدو غريبًا، فإن بوسعنا أن نقول إن في تيرموسيسوف نوعًا من اللطف مقترنًا بلا مبالاة أخلاقية وقحة بدرجة غير محدودة، وازدراء للناس جميعًا وللآراء كافة. بدا وكأنه قد قرر نهائيًّا أن الضمير والشرف والحب، وبشكل عام كل هذه المشاعر التي يصفونها بالسامية، هي محض هراء وعبث وتفاهة اخترعها الفلاسفة والأدباء وحالمون

آخرون مجانين. لم ينفِها. سيكون مثل هذا التصريح مثيرًا للجدل، لكنه ببساطة عرف أنه لا يوجد مثل هذا الشيء حقيقة، ومن ثم لا يجب التوقف عنده حقًّا. لم تكن معاملته للناس أقل غرابة. لم يعتقد قَط أن الشخص الواقف أمامه الآن قد عاش قبل لقائه ويريد أن يعيش بعده، ومن ثم لديه تأملاته التاريخية وتطلعاته الشخصية. لا، بل اعتقد -على حد قوله- أن أي شخصية يراها قد قفزت أمامه كفقاعة مطر أو فطر في تلك اللحظة التي يراها فيها تحديدًا، ومن ثم يتخلص منها ويستغلها بأكثر الطرق وقاحة وفجاجة، وبمجرد أن تنتهي خدمة هذه الشخصية له يتخلص منها ببساطة وينساها تمامًا. قال ذات مرة ببساطة بطريقته الساخرة: «أنا أسيء لأي شخص، وبعد ذلك لا أشعر أبدًا بالغضب منه». كان هذا صحيحًا فعلًا. لو كان أخيل قد عرج عليه في هذه اللحظة في السقيفة أو حتى بريبوتنسكي لتحدث معه من دون أدنى شعور بالإحراج مما حدث في الليلة الماضية.

عندما التقى ببورنوفولوكوف، وكان قد نسيه منذ فترة طويلة، أمسك به وقال: «سأتشبث به». وفعل حقًّا. بعد أن التقى ببيزيوكينا تمنى أن يهاجمها، وهاجمها فعلًا حيث شغلها بأمرٍ الشيطان وحده يعلم ماهيته، وفكر في فرصة الاستيلاء على الألماس الذي ارتدته، وسريعًا ما فعل ذلك، ثم أخفى الألماس ببراعة، فحتى إذا حدث -لا قدر الله- أن وصل إليه الزوجان بيزيوكين، فسيتبين أن الألماس ليس عند تيرموسيسوف بالطبع، بل عند الأمير بورنوفولوكوف الذي كان يرتديه تقريبًا، حيث خاطه تيرموسيسوف في معطف بورنوفولوكوف. أما فيما يتعلق بالقمص توبيروزوف، فيبدو أن تيرموسيسوف لم يفكر فيه بتاتًا، ولكن مع أول شكاوى بيزيوكينا من هذا العجوز، قطع وعدًا بالتخلص منه، ولكن بعد

ذلك خطرت على باله فكرة أن يضعه تحت بؤرة الضوء ليستغل ذلك في تزكية قدراته على المراقبة، والآن لا توجد قوة على سطح الأرض يمكنها أن تحول بينه وبين مسعاه لتنفيذ هذه الخطة.

لو كان القمص العجوز قد عرف ذلك الدور، وأدركه، لشكَّل بالنسبة له أكبر إهانة ممكنة، لكنه بالطبع ليس لديه أدنى فكرة عما يُعد له، ومن ثم انشغل في الانتقال من قرية إلى أخرى، ومن كنيسة إلى أخرى، وقطع عددًا كبيرًا من الفرستات في الغابات، واستراح في المروج وعلى أطراف حقول الذرة ودعَّم روحه في حضن الطبيعة الأم.

كان أخيل في حالة هلع، ينطلق هنا وهناك، يسأل الجميع:

- آه يا إخواني، أين سيقاضونني الآن على ما فعلته بدانيلكا؟

كانت المحكمة بالنسبة له أكثر الأشياء في العالم إثارة لفزعه.

انتقلت الإشاعات حول مصيره الوشيك من المدينة إلى المقاطعة، ووصلت إلى توبيروزوف بأكثر المبالغات عبثية. في البداية لم يصدقها لكن بعد ذلك، حينما وجد تأكيدات عليها في كل مكان، ولم يكن قد أكمل بعد جولة تعميده للأطفال، أمر بافليوكان أن يعود إلى المدينة.

* * *

# الفصل السابع عشر

وصلت أخبار مِحن الشماس أخيل وتورُّط القمص نفسه في هذا الأمر التافه إلى الأب سافيلي في إيبارشية بعيدة، تبعد عن المدينة مسافة يومين تقريبًا بالعربة.

صارت فترات النهار حارة بصورة لا تُحتمل، وتبقّى نحو خمسين فرستًا للوصول إلى المدينة من القرية التي بات فيها توبيروزوف ليلته. لم يتحرك القمص في الصباح الباكر، ومن ثم لم يكد يقطع نصف الطريق حتى صارت الحرارة لا تُحتمل، ورغت جياده السمراء البائسة وتعرقت وصارت في وضع بائس. قرر توبيروزوف التوقف لتناول الطعام ونيل راحة أخيرة. لم يُرِد الذهاب إلى أي نُزُل، وتذكر مكانًا جيدًا عند حافة الغابة يُدعى «قمة كورول» فقرر التوقف هناك.

من هنا ينكشف منحدر ممهد واسع، وفي نهايته، ولأكثر من عشرين فرستًا، تلمع القباب الذهبية لكنائس المدينة، ومن خلفه غابة موجودة منذ قرون لا يفصلها فاصل عن المستنقعات. يتسم المكان هنا بالهدوء العميق والبرودة.

ما إن خرج توبيروزوف من العربة حيث تعذب بفعل الحرارة، حتى شعر في هذه اللحظة تحديدًا أنه في أفضل حال. بالرغم من الحرارة والوهن غير المحتملين وجد طراوة منعشة في خشب البلوط اليافع ذي

اللون الأزرق القاتم. لم يكن هناك أي غبار على أوراق البلوط اليافعة اللينة، والتي بدت كما لو أنها مغموسة في شمع عسل أخضر. بدا المكان كله كحصيرة حيوية لينة مهدئة للأعصاب، ولاحت ثمار التوت ذات اللون الأحمر الساطع من تحت أوراق السرخس المرسومة والملونة. بدا البندق في الأعلى لامعًا ومذهبًا بفعل الضوء، وامتدت على مبعدة في التربة الخثية[1] ذات اللون البُني القاتم عائلات كاملة من الفطر، وبينها العليق القصير.

انهمك بافليوكان بثيابه الداخلية وصدريته في فك الخيول المتعرقة وإطعامها عند عريش المركبة، بينما تمشى القمص قليلًا في الغابة، ثم أخذ حصيرة من المركبة وافترشها على العشب الأخضر واغتسل بالماء العذب واستلقى عليها فورًا.

بعث هدير الجدول الناعس وبرودة المكان المنعشة شعورًا حيويًا بالروح الروسية في رأس توبيروزوف الظمآن إلى التوهج، حتى إنه لم يلحظ كيف نام، واستغرق فعلًا في النوم رغمًا عنه، فلم يكن يريد النوم بتاتًا، بل أراد النهوض، لكن النوم أسقطه وتملكه، وأراد أن يقول شيئًا لبافليوكان لكنه أسكته وأغلق فمه بيده الناعمة.

كانت أحلام القمص الناعس قوية إلى درجة أن محاولات بافليوكان لهزه من كتفيه، ودعوته إلى الاستيقاظ، وتناول الطعام المكون من الفطر الناضج الذي جمعه له، مضت بلا جدوى. بدا أن توبيروزوف استيقظ

(١) نسبة إلى الخث، وهي نباتات متفحمة توجد بالأراضي الغدقة في المناطق المعتدلة. تتعفن ببطء في الطور الأول لتكون الفحم.

بصعوبة ليقول له: «كُل أنت يا صديقي، فأنا أريد النوم»، وغاص مجددًا في نوم أعمق.

تناول بافليوكان طعامه وحده. جمع الملاعق والخبز في حقيبة منسوجة من اللحاء، ووضع المرجل على العشب اليافع وأوقد النار وملأه بالماء وجثم أسفل العربة، وسرعان ما اتبع ما فعله القمص. بعد فترة قصيرة دقت جياد الأب سافيلي بفكيها على بعضهما، وهدأت تباعًا وأحنت رأسها واستغرقت في النوم.

سادت مملكة النوم على المكان. صمت تام حتى إن أرنبًا قفز من أيكة إلى حافة الغابة، ثم وقف على قدميه الخلفيتين وحرك شاربيه الصغيرين ليستشعر الوضع، لكنه سرعان ما ارتبك وأعاد أذنيه إلى الخلف وتوارى.

أفاق توبيروزوف من نومه على فمه وهو يحاول أن يقول بصعوبة بالغة «مرحبًا» لشخص ما. حاول أن يدرك بصعوبة: «من الذي أحييه؟ من كان هنا معي؟»، وهو يفيق، وبدا له أن شخصًا هادئًا وقف بالقرب منه قد ارتدى ثيابًا طويلة بلون البرقوق الناضج. بدا الأمر واقعيًّا حتى إن سافيلي استند إلى مرفقيه لكنه لم يرَ سوى بافليوكان وقد استغرق في النوم، وجياده السمراء وعربته. هذا كله بسيط وواضح، حتى إن الجواد المسرج قد ملَّ من الهدوء وأخذ يحاول أن يخلع اللجام من حول رأسه. تخلص بالفعل منه ونهض من جلسته وبدأ يستنشق الريح. ظل توبيروزوف في حالة نعاسه، وأخذ الجواد يمضي أبعد فأبعد حتى بدا كنقطة نمل كثيفة على حافة الغابة. ها هو يقضم قمة شجرة بلوط صغيرة، وأخيرًا وطئ على أرض مملوءة بالبرسيم البري وتنشق مجددًا الريح الدافئة. ظل سافيلي

ينظر إلى كل ذلك كما لو أنه لا يدرك وضعه. هذا ليس حلمًا، ولا حتى حلم يقظة. الرطوبة التي نام فيها جعلت كل شيء يبدو ضبابيًّا أمامه وملأت رأسه بالأبخرة. فرك عينيه ونظر إلى فوق؛ ثمة غراب يطير عاليًا. أغراب هو أم حدأة؟ لا، العجوز يتخيل، إنه غراب بلا شك. يبدو أكثر ثباتًا، ودوائر طيرانه أوسع. يطير من هناك كحفنة بازلاء قد أُلقي بها. إنه غراب. إلام يتطلع هنا؟ ماذا يريد؟ ربما سئم من التحليق في السماء ويريد هذه المياه. تذكر توبيروزوف حينها أسطورة تتعلق بهذا النبع، ووفقًا لها ثمة أصل خارق له. تبدو مياه هذا الينبوع الصافية النظيفة كوعاء بلوري محفور في الأرض. يُعزى تشكُّل هذا الوعاء إلى ضربة رعدية سقطت من السماء وتوغلت في أعماق الأرض هنا في مناسبة خاصة جدًّا. يُقال إنه منذ زمن طويل جدًّا بالطبع انهار فارس روسي في المعركة، وحيدًا في مواجهة عدد لا محدود من الكفرة. لم يكن هناك مفر من الهلاك، وابتهل الفارس للمسيح المخلص حتى ينقذه من الأسر المشين، وتقول الأسطورة إنه في هذه اللحظة سقط سهم من السماء الصافية، وارتفع إلى السماء مجددًا ووجَّه ضربته، وسقطت جياد التتر على ركبها، وألقت من فوق ظهورها فرسانها، وعندما نهضوا لم يجدوا الفارس في مكانه، بل وجدوا في مكانه رغوة ماسية ترعد وتتوهج، ونبعًا ذا تيار مياه مرتفع، وإذا بتيار فضي قد انطلق أمامهم بغضب، مخترقًا أحشاء الوادي الأخضر.

يعتبر الجميع هذا الينبوع معجزيًّا، ويعتقدون أن ثمة قوة خارقة في مياهه، وحتى الوحوش والطيور تعرف بأمرها. هذا معروف للجميع، لأن

ثمة وجودًا سريًّا دائمًا لقوة إيمان راتاي[1]. الإيمان هنا يخلق المعجزات، ولذلك يبدو كل شيء هنا قويًّا وصلبًا للغاية، من أعلى شجرة بلوط معمرة وحتى الفطر الذي ينمو عند جذرها. حتى ما يبدو هنا ميتًا تعود إليه الحياة؛ هذا البندق الجاف الصغير، قد أحرقه البرق، ولكن ثمة ما يبدو كشمع عسل أخضر فوق جذره، ونبت نبات الدنوس، ومن هنا تنمو حياة جديدة. يقولون إن العاصفة الرعدية هنا لا يمكن تصورها. فكر توبيروزوف: «من المعروف أن المكان هنا يبدو في أثنائها كما لو أنه قد تكهرب». وشعر أن شعره الأشيب يتحرك. ما إن نهض على قدميه حتى رأى على بعد بضع خطوات أمامه سحابة صغيرة، شكلها غريب بعض الشيء، وقد تسللت بهدوء صوب تخوم الغابة التي يتجول فيها الجواد الحر. بدت السحابة وكأنها تتوجه صوب الجواد مباشرة، وبعد أن تجاوزته تدخنت فجأة وانبسطت كدخان أحد المدافع. صهل الجواد بقوة، وهرب مذعورًا، يكاد لا يشعر بالأرض تحت قدميه.

كان هذا أمرًا سيئًا. أسرع توبيروزوف إلى إيقاظ بافليوكان، وساعده على امتطاء الجواد الآخر وأرسله ليلحق بالجواد الخائف الذي لم يعد له أثر في هذه الأثناء. أخرج سافيلي ساعته الفضية ونظر إليها، وإذا بها الرابعة عصرًا، فقال للقارئ: «أسرع وطارده».

جلس العجوز في الظل حاسر الرأس، وتثاءب ثم ارتعش فجأة، فقد سمع من بعيد قعقعة ثقيلة. «ما هذا؟ أيكون الرعد؟».

نهض مجددًا، وابتعد عن الحافة فرأى سحابة كثيفة آتية من ناحية

---

(١) أحد محاربي الدولة الروسية القديمة المشهورين.

الشرق. اجتاحت العاصفة سافيلي وهو وحده تمامًا وسط الغابات والحقول، وقد استعد لمواجهة عصفاتها غير المحتملة.

ضربة أخرى، واهتز الحقل بقوة أكبر وامتلأ ببرودة جديدة.

تصاعدت مجموعة من السحب الصغيرة صوب السحابة القاتمة الكبيرة الآتية من الشرق. بدا الأمر كما لو أن شيئًا كستارة يسحبها ويلتقطها ويمزق كل ما سبق بالنار. كأن ساحرًا يستعد لعرض رهيب، ويتفحص المسرح المظلم أمامه، وفي يده نبراس، قبل أن تُشعَل كل المشاعل وترتفع الستارة. تزحف السحابة السوداء، وكلما اقتربت بدت أكثر قتامة. ألم يجلبها الله؟ هل ستنفجر في مكان ما بعيدًا؟ لا، ثمة وميض خيط ناري على حافتها العلوية، وفجأة أرعدت وانقذفت في جميع أنحاء الكتلة المظلمة. لم تعد هناك شمس، فقد حجبت الغيوم قرصها كاملًا، وومضت خيوط أشعتها الطويلة كالسيوف، وسطعت للحظة ثم توارت. تعالى صفير الزوبعة. رفرفت الغيوم كالرايات، وظهرت بقع بيضاء واسعة في الحقل البني للجاودار اليانع وارتجّت، فبدت في مكان كأنها قد سقطت من السماء، وفي مكان آخر كأنها تفترش المكان، وفي مكان ثالث مضت للقاء بعضها واندمجت معًا ثم تلاشت. على حافة الطريق تهدر الريح في الآذان بصورة غريبة، كما لو أنها ليست ريحًا بل شخص شديد الغضب قد اختبأ هناك عند الجذور. ضجيج في الغابة، وظهر شكل متعرج عندها، واهتزت قمم أشجارها بعنف، ثم ساد الهدوء. خيَّم الهدوء على كل شيء. لا رعد ولا ريح. هدأ كل شيء. إنه الهدوء الذي يسبق العاصفة. كلما تأخر شيء بموازاة نفسه عن الشدائد، ازدادت استفادته في هذه اللحظات الأخيرة من الهدوء. اندفع سرب نحل صوب نوبيروزوف،

كما لو أن النحل لم يكن يطير بل تحمله الريح. من الأيكة التي بدت الآن مظلمة تمامًا قفزت مجموعة من الأرانب المذعورة واستلقت على الأرض عند حدود الغابة. على العشب الذي صار لونه أسود كالأسفلت تدحرجت كرة فضية واندفعت تحت الأرض. إنه قنفذ. بان كل شيء. ها هو الغراب الأخير الذي انطلق مؤخرًا قد شد جناحيه بإحكام وانطلق إلى أسفل ليحط بقوة على قمة شجرة بلوط عالية.

* * *

# الفصل الثامن عشر

لم يكن توبيروزوف إنسانًا جبانًا، لكنه إنسان قلِق، ويغزو القلق مثل هذه الشخصيات في أوقات عمليات التفريغ الكهربائية الضخمة. تملَّك هذا القلق توبيروزوف، وأخذ ينظر حوله ويسأل نفسه في أي مكان سيكون أكثر أمانًا حتى تنتهي العاصفة الرعدية الوشيكة من توجيه ضرباتها.

أول ما فعله هو أن اندفع إلى عربته وجلس فيها وأغلق على نفسه، ولكن ما إن دخل العربة حتى تعالى صرير الغابة، واهتزت العربة كمهد خشبي. كان من الواضح أنه لا أمل يرجى من الاختباء فيها، حيث يمكن أن تنقلب العربة بسهولة وتسحقه.

هب توبيروزوف من جلسته في العربة واندفع راكضًا إلى حقل الجاودار، لكن الريح التي واجهته والتفت حول جانبيه أوقفته وأعادته إلى خارج الحقل، وتعالى في أذنيه صفير وطنين.

اندفع توبيروزوف إلى تجويف النبع، ووجد الجو أكثر اضطرابًا في هذا التجويف البلوري للنبع، حيث اهتاج الماء فيه، وبدا كأن شخصًا قد أُغلق عليه في أحشاء الأرض في قلب هذه الدوائر المتباعدة. فجأة لمع لهب دموي وانسكب في قلب هذه المياه الداكنة كالرصاص. إنها ضربة الرعد، لكن يا لها من ضربة غريبة! سقطت كسهمٍ رسم خطين متعرجين

انعكسا على المياه، وفي اللحظة ذاتها ارتفع إلى السماء. بدا الأمر كما لو أن اللهب قد غطى صفحتَي الأرض والسماء، وتعالت طقطقة الضربة كما لو أن كتلًا حديدية قد سقطت من السقف، وانطلقت سحابة رذاذ من النبع كالنافورة.

غطى توبيروزوف وجهه بيديه وسقط على إحدى ركبتيه واستودع ربه نفسه وحياته، واستمرت في الحقول والغابة واحدة من هذه المصادمات الرعدية التي تُذكِّر الإنسان ببلاغة بتفاهة وضآلة قوته في مواجهة قوة الطبيعة. أبرقت وتعالى زئير البرق في ضربة تلو الأخرى، وفجأة رأى توبيروزوف أمامه جذعًا داكنًا من خشب البلوط، تسبح صوبه كرة مضيئة كالمصباح، ولاحت شرارة فاتنة تومض في منتصف الجذع بضوء خافت، وتحولت إلى كرة ثم انفجرت في الهواء ونتج عنها صوت بااااخ رهيب. توقفت أنفاس العجوز، وبدأت تدور على كل أصابع يديه وقدميه دوائر ساخنة، وشعر جسده بالألم وتراجع ثم تهاوى. تركز وعيه على أمر واحد وحسب؛ لقد انقضى كل شيء؛ إنها النهاية. كانت كلمة «النهاية» هي الكلمة الوحيدة التي ومضت في ذهن القمص. لم يلحظ القمص كم من الوقت قد انقضى وهو لا يشعر بشيء، وهل فقد وعيه لفترة طويلة أم لا. عندما استعاد شتات نفسه سمع كيف تعالى الضجيج في السماء من بعيد وكيف هدأ. انقضت العاصفة الرعدية. رفع سافيلي رأسه ونظر من حوله ورأى على بُعد خطوتين منه شيئًا ضخمًا ومشوهًا على الأرض. كانت كومة كاملة من الفروع وقمة كاملة لشجرة بلوط ضخمة. كانت الشجرة مقطوعة من جذورها، كما لو أنها قطعت بسكين، ومن تحت أغصانها

الممزوجة بسنابل الجاودار تعالت صرخة ثاقبة منفرة؛ كان غرابًا يتمزق حلقه. سقط مع الشجرة وسحقته الأفرع الثقيلة على الأرض، وقد انفتح فكه الأرجواني على آخره، وكان يضرب متشنجًا ويصرخ في يأس.

ابتعد توبيروزوف سريعًا عن هذا المشهد بقفزة قوية كما لو أنه لم يكن في السبعين، بل في السابعة عشرة.

* * *

# الفصل التاسع عشر

كما جاءت العاصفة سريعًا، كذلك انقضت بالسرعة ذاتها، وفي مكان السحابة السوداء برز شريط وردي على الصفحة الزرقاء، وفي مكان شوال الشوفان المبلل عند العربة زقزقت بعض العصافير وهي تلتقط بجرأة الحبوب المبللة من بين الثقوب الموجودة في القماش السميك للشوال. عادت الحيوية للغابة مجددًا وسُمِع صفير هادئ لطيف، وهبط زوج حمام على حدود الغابة، وتعالى صوت رفرفة أجنحته. بسطت حمامة جناحًا على الأرض وأخذت تنقره بمنقارها الأحمر ثم رفعته كشراع لتحجب نفسها عن الحمامة الأخرى. بثَّت الحمامة حزنها للأخرى، وانحنت لها على الأرض وقالت لها بحزن «سأموت». اختُتِمت هذه الانحناءات بتبادل القُبل ورفرفت الأجنحة على شجيرة. بدأت الحياة مجددًا. سُمِعت قعقعة من بعيد. إنه بافليوكان. أتى على ظهر جواد، جارًّا من خلفه الجواد الآخر. صاح بمرح وهو يُعدِّل وضع العربة:

– حسنًا يا أبي، جيد أنك بخير، كنت في عجلة من أمري حتى لا أتركك وحدك، لكن ما إن تفجرت هذه العاصفة الرهيبة حتى جنَّ الجواد. هل تصدعت شجرة البلوط هذه؟

– نعم، تصدعت. هيا نربط الجوادين بالعربة وننصرف.

- يا إلهي! يا لها من قوة جبارة!

- لننصرف يا صديقي.

- الجو رائع الآن. سيكون الركوب فاتنًا.

- فاتنًا حقًّا! هيا أسرع.

وهرع توبيروزوف سريعًا لمساعدة بافليوكان.

تم تجهيز الجوادين في دقائق، وسرعان ما عادت عربة القمص لتقعقع على الطريق، والطين يتناثر من البرك الموحلة في طريق البلدة بسبب عجلاتها.

كان الهواء منعشًا للغاية والطقس دافئًا والسماء منيرة، وفاح الهواء برائحة البندق التي جلبتها الحقول. جلس توبيروزوف في العربة وشعر أنه بخير بدرجة لم يشعر بها منذ زمن طويل. تنهَّد بعمق وسُر بأنه قادر على التنفس بعمق هكذا؛ كالنسر الذي تجددت أجنحته.

عند بوابات المدينة سمع رنين الأجراس التي تعلن موعد صلاة المساء (صلاة عشية).

* * *

# الفصل العشرون

وصلت عربة تويبروزوف إلى بوابة منزله.

صاحت ناتاليا نيقولايفنا، مندفعة صوب زوجها:

- يا إلهي! كم عانيت في غيابك يا أبي سافيلي! حلَّت هذه العاصفة الرعدية وكنتَ وحدك يا عزيزي!

- آه يا عزيزتي. فصلت بيني وبين الموت خطوة واحدة.

حكى القمص لزوجته ما حدث معه عند ينبوع جريموتش، وأضاف أنه من الآن فصاعدًا سيحيا حياة جديدة؛ ليست حياته الخاصة، بل حياة شخص آخر، وسيتخذ درسًا وتقريعًا لنفسه من حقيقة أنه لم يفكر قَط في شيخوخته في مدى ضآلة العمر وقصره.

لم تفعل ناتاليا نيقولايفنا شيئًا سوى أن طرفت بعينيها، وبعد أن تنهدت قالت:

- ألا تريد أن تأكل الآن؟

لكن عندما رأت أن زوجها هز رأسه بالنفي سألته عما إذا كان عطشان. كررت مجددًا:

- عطشان؟

- نعم، عطشان.

- أتشرب شايًا؟

ابتسم القمص وقبَّل جبهة زوجته وقال:

- في الحقيقة لا أريد.

- وماذا في ذلك؟ مبارك الرب إلهك، وليكن كل ما تُقبِل عليه خيرًا.

- سوف أغتسل، ولتحكي لي يا صديقتي عما يفعلونه هنا مع الشماس.

اقترب القمص من إناء الاغتسال النحاسي اللامع وبدأ يغتسل، وأخبرته ناتاليا نيقولايفنا بكل ما عرفته عن أخيل، وخلصت إلى أن كل ذلك يحدث معه بغضةً في زوجها وحسب.

صمت القمص، وبعد أن اغتسل وهيأ نفسه، تناول عصاه وقبعته وتوجه إلى الكنيسة حيث موعد صلاة عشية.

بمرور خمس دقائق كان واقفًا عند الهيكل، ووضع ورقة على لوح مائل وكتب عليها شيئًا. ماذا كتب؟ يمكننا قراءة ما كتب من أسفل يده.

هذه الورقة موجهة من سافيلي إلى قائد الشرطة بوروخونتسيف: «بالوضع في الاعتبار أن غدًا سوف تُقام الصلاة بمناسبة ذكرى عيد كاتدرائيتنا، أعتبر أن من واجبي أن أبلغ سيادتكم بهذا، طالبًا منكم أن تُبلغوا مقدمًا كل موظفي المدينة به ليشاركوا في الصلاة. أكتب لكم هذا وأطلب منكم أن توصوا هؤلاء الموظفين الذين يميلون أكثر إلى إهمال هذا الواجب، حيث إني قررت أن أُبلغ سابقًا السلطة بصرامة بالمثال السيئ لمثل هؤلاء الموظفين. في حالة قبولكم الكريم أطلب منكم بكل تواضع التوقيع على هذا الإخطار».

طلب القمص أن يُحضروا له ظرفًا بريديًا كنسيًا، ورقَّم الورقة وأرسلها على الفور إلى وجهتها مع القندلفت.

# الفصل الواحد والعشرون

تُذكِّرنا الليلة التي تلت هذا المساء في منزل سافيلي بالوقت الذي رأينا فيه العجوز يقرأ مجلته. كان وحيدًا في ردهته، تارة يذرع الردهة وتارة يجلس، ويكتب ويفكر، لكن كتابه لم يكن أمامه. وضع ورقة مطوية صغيرة على الطاولة التي اقترب منها، ودوَّن فيها بصورة واضحة هذه الملاحظات الصغيرة الآتية:

«اللَّهُمَّ، أَعْطِ أَحْكَامَكَ لِلْمَلِكِ، وَبِرَّكَ لابْنِ الْمَلِكِ[1]».

تعرضت لهجوم رعدي بالأمس. غراب: كيف حاول الاختباء من العاصفة الرعدية في أضخم شجر البلوط، وأهلكته الشجرة التي انتظر منها أن تحميه!

كم هو مفيد لي هذا الغراب! هل ثمة خلاص في الطمأنينة وهلاك في الخوف؟

فلسفتنا التي لا حدود لها هي استعباد العقل. العلم يرفض إمكانية إدراك ما هو مُدرَك فعلًا.

عدم كفاية معلوماتنا وعدم دقتها عن النفس. سوء فهم الطبيعة البشرية ولا مبالاة جامدة تجاه الخير والشر وتمييع للحكم على الأفعال: تبرير ما لا يجب تبريره وإنكار ما هو جدير بالقبول. قتل موسى المصري الذي ضرب

(١) مزمور ٧٢: ١.

اليهودي[١]. ألا يخضع هذا الفعل للإدانة من وجهة النظر الزائفة التي لليبراليين من مزيفي حماسة الشعور الوطني؟ ألا يستحق يهوذا الخائن من وجهة نظر «المسكينين بعماء في كنف القانون» مكافأة على «حفاظه على القانون» وخيانة معلمه الملاحَق من قِبل المسؤولين؟ إينوكينتي خيرسونسكي وتفسيره[٢]. أيامنا هي الأخرى أيام شريرة. ثمة لا مبالاة بمكائد أعداء الدولة السريين. لا مبالاة عظيمة بمصالح الوطن، وكمثال أخير على ذلك إهمال الصلاة في أيام الاحتفالات الوطنية، حيث صار الأمر مجرد إجراء شكلي.

تفسير آية: «اللَّهُمَّ، أَعْطِ أَحْكَامَكَ لِلْمَلِكِ، وَبِرَّكَ لابْنِ الْمَلِكِ»، يتمثل في قول بولس الرسول: «لِكَيْ نَقْضِيَ حَيَاةً مُطْمَئِنَّةً هَادِئَةً فِي كُلِّ تَقْوَى وَوَقَارٍ[٣]». ما أهمية مثل هذه الحياة؟ مثال: أحيط رحبعام[٤] بعد موت سليمان بأصدقاء ومستشارين أشاروا عليه بمكر أن إراحة الشعب سوف تذل كرامته الملكية، وأخذ بنصيحتهم؛ الأمر الذي جلب البلاء لإسرائيل: «وَالآنَ أَبِي حَمَّلَكُمْ نِيرًا ثَقِيلًا وَأَنَا أَزِيدُ عَلَى نِيرِكُمْ[٥]». انقسمت المملكة بسبب هذه البلية.

يتضح من هنا أن علينا أن نتمنى ونصلي من أجل أن يكون قلب الملك في يد الله، لا في يد بشر.

---

(١) راجع سفر الخروج ٢: ١١-١٢.

(٢) رئيس أساقفة خيرسون، ومن أهم رجال الكنيسة الروسية في عصره. يشير توبيروزوف هنا إلى قوله عن يهوذا إنه كان رجلًا صالحًا وفقًا لقوانين الديانة اليهودية.

(٣) تيموثاوس الأولى ٢: ٢.

(٤) ابن سليمان الملك وحفيد داوود النبي.

(٥) سفر الملوك الأول ١٢: ١١.

لكننا نهمل هذا الأمر بإجرام حتى إذا حدث أن رأيت الكنيسة في هذا اليوم ممتلئة، أجد نفسي أتساءل كيف حدث ذلك. أتفحص حينها كل التخمينات وأرى أنه من المستحيل أن يكون هناك تفسير لذلك غير الخوف من تهديدي؛ الأمر الذي يدفعني إلى استنتاج أن كل هؤلاء المصلين هم عبيد ماكرون وكسالى، وصلاتهم ليست بصلاة، بل تجارة. تجارة في الهيكل المقدس، إن يراها سيدنا فلن يكتفي بالغضب بروحه الإلهية وحسب، بل سيمسك سوطه ويطردهم من الهيكل المقدس.

احتذاء بهذا النموذج الإلهي عليَّ أن أنكر وأدين هذه التجارة التي أراها في الهيكل بضميري. تنفر الكنيسة من صلاة المرتزقة هذه. ربما يجدر بي أن أتناول سوطًا وأطرد أولئك الذين يبيعون في الهيكل المقدس، حتى لا يتنجس القلب المخلص بالخداع. ربما يجدر أن أوجِّه لهم كلمتي بدلًا من السوط، ولتحتفل الكنيسة بصورة أفضل، ولن يربكني ذلك. سأحمل فوق رأسي جسد ربنا ودمه[1] إلى الصحراء، وهناك سأترنم أمام الحجارة بثياب رثة: «اللَّهُمَّ، أَعْطِ أَحْكَامَكَ لِلْمَلِكِ، وَبِرَّكَ لابْنِ الْمَلِكِ»، ولتحفظ روسيا ولتباركها إلى أبد الآبدين.

صلاة أخيرة: لا تجعلها أيها الخالق والسيد عرضة لاستهزاء الشعوب الأجنبية من أجل مكر عبيد أشرار وغير أمناء.

* * *

---

(١) حركة طقسية يرفع فيها الكاهن الخبز والخمر اللذين يمثلان جسد المسيح ودمه.

# الفصل الثاني والعشرون

شكَّلت هذه الملاحظات مخطط العظة التي أراد سافيلي أن يلقيها في اليوم التالي، وألقاها فعلًا في حضور الموظفين الموجودين في الكنيسة، وبنهايتها لم تنتهِ العظة وحسب، بل انتهى القداس كله.

وجدت إنتليجينتسيا مدينة ستارجورود أنها لم تكن عظة بل ثورة، وأنه إذا تحدث القمص بهذه اللهجة فسوف يشعر الموظفون قريبًا بصعوبة أن يظهروا في الشارع. حتى أفضل أصدقاء سافيلي ورفاقه أدانوه بصرامة على إثارته المتهورة لعواطف الغوغاء. بخصوص هذه الإثارة اتحد أصدقاؤه وأعداؤه، وأعلنوا بصوت جوقة واحدة: لا، هذا مستحيل الآن. كان الاستثناء الوحيد لهذه الجوقة هما زائرا المدينة: بورنوفولوكوف وتيرموسيسوف. بالرغم من أنهما سمعا العظة فإنهما لم يقولا شيئًا ولا عبسا.

على النقيض؛ في أثناء عودة تيرموسيسوف من صلاة القداس، عرج بذراعين مطويتين على بورنوفولوكوف وقال له فجأة وقد بدت عليه أمارات السعادة:

- «الآنَ تُطْلِقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلاَمٍ...[1]».

---

(١) لوقا ٢: ٢٩. قول منسوب لشيخ يُدعى سمعان ظل في انتظار رؤية مخلص اليهود «المسيا» وعندما رأى الطفل يسوع في الهيكل عرف أنه هو المسيا المنتظر، فقال هذه العبارة بحسب القصة الإنجيلية.

- ماذا يعني هذا؟

- يعني هذا أني سوف أتركك. عِش وكن سعيدًا، ولكن عليك في الإجازة أن تكتب خطابًا آخر إلى السلطة مفاده أن الكاهن الذي كتبت عنه قد نسي اليوم كل الاحترام في يوم عيد رسمي، وقال أفظع الكلمات، وسيبلغكم بها شفهيًّا السيد تيرموسيسوف الذي سأرسله إليكم.

- فليأخذك شيطان! اكتب ما تريد وسأوقِّعه.

كان الصديقان على أهبة الاستعداد للانفصال، لكن انفصالهما تأخر لبرهة بالظهور المفاجئ للتاجر دانيلكا الذي بدا شاحبًا ومذعورًا، وقد هرع مبلَّلًا على آخره، وممزقًا أمام عينَي بورنوفولوكوف، وارتمى عند قدميه قائلًا:

- أرسلني يا سيد إلى أي مكان تجود به عليَّ، فقد صار من المستحيل أن أعيش هنا. الناس اجتمعوا الآن عند الضفة وأمارات الغضب على وجوههم تجاهي.

أوضح دانيلكا أنهم هددوه بالقتل لأنه قدَّم شكوى ضد القمص، وليدلل على صدق حديثه أشار إلى ثيابه المبللة والممزقة قائلًا إن الناس قد رموه من فوق الجسر إلى مياه النهر.

صاح تيرموسيسوف بسرور: «ممتاز! انتفاضة!». وارتدى قبعته وقال لرئيسه: «انظر كيف تجري الأمور!».

رحل تيرموسيسوف، ورحل بعده بورنوفولوكوف إلى الاتجاه المقابل ليكتشف القلاقل الأخرى.

# الفصل الثالث والعشرون

نُسيت عظة توبيروزوف في ستارجورود، ولكن قبالة مساء اليوم الثالث وصل ضيفان رسميان في عربة بريد؛ واحد طويل كالوتر، والآخر سمين ومربع كفطيرة فلاحية. الأول موظف بالمجلس الإكليريكي ذو أنف بارز.

لقد كانا سفيرين جاءا يطلبان نفس سافيلي. طولب القمص بأن يذهب تحت إشرافهما إلى عاصمة المقاطعة. بمرور نصف ساعة عرفت المدينة كلها الخبر، واحتشد الناس عند منزل توبيروزوف، وبمرور ساعة انفتح باب المنزل، وخرج منه سافيلي بعد أن استعد للطريق. ودَّعت ناتاليا نيقولايفنا زوجها، وسارت خلفه وانحنت برأسها الذي يبدو كرأس حمامة حتى مستوى مرفقه.

استطاع كل منهما أن يهدئ الآخر، ولم تَسِل من أحدهما دمعة واحدة.

خلع توبيروزوف قبعته وانحنى إلى أدنى مستوى الخصر في كل الاتجاهات.

هدأت الجلبة، وسالت الدموع من عيون كثير من الحاضرين، وبدأوا جميعًا يرشمون علامات الصليب.

بأمر دقيق من قائد الشرطة خرجت من إحدى الزوايا عربة بريد كانت متوارية عن الأنظار.

رفع القمص قدمه إلى درجات العربة وتعلق بها بيده ليصعد، وفي هذه اللحظة رفعه الرجل المربع من مرفق، والموظف الرسمي من مرفق آخر ليستطيع الصعود.

ارتجف العجوز اشمئزازًا وبدا رأسه على عنقه كدمية تم توصيلها بنابض بأسلاك.

اندفعت ناتاليا نيقولايفنا صوب زوجها، وأمسكت بيده وهمست:

- افعل شيئًا واحدًا وحسب؛ أنقذ حياتك.

- لا تنزعجي. لقد انتهت حياة، والآن تبدأ حياة جديدة.

* * *

# الجزء الرابع

## الفصل الأول

«لقد انتهت حياة، والآن تبدأ حياة جديدة». هذا ما قاله توبيروزوف في اللحظة الأخيرة قبل رحيله للاستجواب. بعد ذلك مباشرة صعدت عربة الترويكا التي أقلته إلى الجبل، وقد بدت ككلب صيد، وتوارت عن الأنظار.

بدأ الجمع الذي احتشد لوداع القمص في الانصراف. حلَّ الليل، وأُغلِقت كل البوابات وراقب القمر من عليائه ناتاليا نيقولايفنا التي بقيت وحيدة في ساحة منزل القمص.

لم تُسرع إلى فراشها، بل جلست باكية في الشرفة الخارجية التي فارقها زوجها لتوِّه. جلست تبكي وتضرب رأسها الصغير بالدرابزين، ولا صديق معها ولا مُعزٍّ. لا، الأمر ليس كذلك، فلديها صديق، وهو صديق قوي.

أمام عينيها الباكيتين تقدم الشماس أخيل إلى البوابة المفتوحة على مصراعيها برأسه المجعد الحاسر. أتاها أخيل وقد ارتدى قفطانًا قصيرًا وسروالًا واسعًا، وقد حمل بعض الأشولة، جارًّا من خلفه زوجًا من الخيول، وعلى ظهر كل منهما حمولة كبيرة وثقيلة. نظرت ناتاليا

نيقولايفنا في صمت إلى أخيل وهو يقود الجوادين إلى ساحة المنزل، وقد ألقى حمولته على الأرض وعاد إلى البوابة وأغلقها بإحكام كما لو أنه مالك المكان، ووضع المفتاح في جيب سرواله الواسع.

صاحت ناتاليا نيقولايفنا وقد خمَّنت نيات أخيل:

- أيها الشماس، هل أتيت من أجلي؟

- نعم يا سيدتي الحزينة. جئت إلى هنا من أجل حمايتكِ.

انحنيا أمام بعضهما بالتحية وتبادلا القبلات[1] ومضت ناتاليا نيقولايفنا لتكمل ما تبقى لها من ليلتها في غرفة نومها، أما أخيل، وبعد أن وضع جواديه في الإسطبل، بسط اللباد في الشرفة الخارجية واستلقى على ظهره محدقًا في السماء الممتلئة بالنجوم.

لم ينم طوال الليل، وقد استغرق في التفكير: كيف يمكنه الآن أن يساعد وزير العدل الخاص به؟ الأمر لا يشبه بتاتًا ما يتعلق بضرب برنابا. الأمر هنا يحتاج إلى العقل. كيف يمكن أن يتدبر الأمر بالعقل وحده من دون استخدام القوة؟ لو عاش فقط -كما في القصص الخيالية- في زمن يوجد فيه بساط طائر أو حذاء سباعي[2] أو حتى طاقية الإخفاء! لو عاش في هذا الزمن لعرف ماذا عليه أن يفعل بذكاء شديد، لكن الشماس لم يعرف ماذا عليه أن يفعل، وكان من الضروري أن يفعل شيئًا.

بعد أن وصل أخيل بتفكيره إلى البساط الطائر وطاقية الإخفاء، وهو غير معتاد على أي حيل عقلية، تحرر من عبثه غير المحتمل، وتنهَّد وطار

(١) التحية الرسمية في هذا الوقت أن يُقبِّل يدها وتُقبِّل جبهته.

(٢) حذاء في الفلكلور الأوروبي يسمح لمن يرتديه بأن يقطع سبعة فراسخ بخطوة واحدة.

فوق بساطه السحري وسار محجوبًا عن العيون بفعل طاقية الإخفاء، وظهر وقد ارتدى قبعة، وحذاء واحدة من الشخصيات المهمة التي لا يمكن أن تسير بحذاء آخر، وقد صدم بهذا الحذاء ضلوع الحارسين الناعسين وقال لهما: «لا تسيئا إلى الكاهن سافيلي، وإلا أصابكما ما يحزنكما ولن يكون هناك تراجع».

هكذا عندما سمع الجميع هذا الصوت غير المرئي أصابهم القلق على أسِرتهم الوثيرة وركضوا وصاحوا: «آه! بحق الله توسطوا سريعًا من أجل الأب سافيلي». لكن كل ذلك لا يمكن أن يحدث في زماننا إلا بارتداء طاقية الإخفاء والحذاء السحري، وحسنًا أن تَذكَّرهما أخيل في الوقت المناسب وفكر فيهما. بفضل ذلك وحسب استطاع الشماس بغفارته القطنية الصفراء أن يدلف إلى هذه الردهة ذات الضوء الساطع الذي يعميه، حتى إنه لم يُسر بأنه ذهب إليها. ربما تكفي هذه الأماكن التي زارها، لكن الحذاء السحري أسرع وجرَّه إلى مكان لا يستطيع حتى أن يكتشف ما هو من ضوئه الساطع، ونسي أخيل الهدف الذي يسعى إليه، وواصل اندفاعه ولم يعد يفكر إلا في الطريقة التي يمكنه بها أن يعود أدراجه، والحذاء السحري لا يزال يحمله أعلى فأعلى، وقد نسي أن يسأل أولًا كيف يمكنه أن يوقف مثل هذا الحذاء.

صاح الشماس، وقد توارى خلف بقعة صغيرة غامضة تومض أمامه: «سوف أشتعل، وحق الله سوف أشتعل». وتعجب عندما سمع من خلف هذه البقعة صوت نيقولاي أفاناسيفيتش الهادئ:

– كفاك أيها الشماس أخيل. نم من دون أن تصيح بأنك ستشتعل. هل يجب علينا جميعًا أن نشتعل خزيًا؟!

قال له القزم ذلك وقد حجب بجسده الشمس عن وجه الشماس الصغير. هب أخيل من نومته وهرع إلى حوض الاغتسال وشرب مقدار مغرفتين من الماء البارد واحدة تلو الأخرى. قال مبلِّلًا خصلات شعره بالماء:

- ماذا كنت تقول يا نيقولاي؟ أي خزي تتحدث عنه؟

- أين قُمصنا؟ ها؟

- لقد أخذوا قُمصنا يا عزيزي نيقولاي بالأمس. ضاع منا.

- ما جدوى «ضاع منا»؟ علينا الآن أن ننقذه.

- لقد استغرقت طوال الليل في التفكير فيه يا عزيزي، لكني لم أستطع التوصل إلى شيء.

- هذا ما يحدث؛ يلقي الجميع حجرًا في الماء، لكن أحدًا لا يجذبه.

صر نيقولاي أفاناسيفيتش بحذائه وعرج على غرفة زوجة القمص، وبعد ذلك بدقيقة واحدة اصطحب معه الشماس ومضيا إلى قائد الشرطة، ومن هناك إلى القاضي، واستشار القزم كليهما، ولم يقل له أي منهما شيئًا جيدًا. قالا إنهما يشعران بالأسف على توبيروزوف، وبالرغم من فعلته السيئة وقوله لهذه الكلمات التحريضية في عظته، فإنهما وصفا الطريقة التي عومل بها بالقسوة الشديدة.

«ما العمل الآن؟ ماذا نفعل؟ هل هناك أي إجراء يمكننا به أن ندافع عن توبيروزوف؟». لم يجيبا عن هذه الأسئلة بكلمة واحدة.

لم يفعل القزم شيئًا وهو يستمع إلى هذه الخطب الطويلة، قليلة المضمون في الآن ذاته، سوى أن تنهد وتردد فقط وهو ينظر إلى أخيل الذي

ظلت عيناه تطرفان؛ مرة هذه ومرة الأخرى، واختصر الأمر برمته مجددًا في تفكيره في أن الخلاص يكمن في البساط الطائر أو الحذاء السحري أو طاقية الإخفاء، ولكن كيف يصل إليهم؟ ليست هناك أي طريقة.

قال القاضي فجأة:

- الأمر الوحيد الذي بإمكاني فعله هو أن أكتب خطابًا لمدَّعي المقاطعة العام. هو رفيقي ومن المؤكد أنه لن يرفض مساعدة القمص والتوسط من أجله.

راقت الفكرة لقائد الشرطة، وبالرغم من أنها لم تَرُق لنيقولاي أفاناسيفيتش، فقد وجد أنه من غير الملائم أن يعارضها.

انحصر التفكير في أمر واحد: من منهما يرسل الخطاب؟ سوف يُرسل البريد في غضون يومين، ورأى كلاهما أن من شأن البريد أن يكون فعالًا للغاية، ونظرًا لأن زوجة مدير مكتب البريد صديقة لتيرموسيسوف، وبحسب شكوك أخيل هي التي أبلغت عن توبيروزوف، يمكن أن تكتشف أمر الخطاب إذن.

عندما سمع الشماس هذه المعضلة أخذ على عاتقه مهمة حسم الأمر كله، وقال إن عليهما أن يجهزا الرسالة وهو سيضمن وصولها إلى العنوان المنشود غدًا، أما عن الطريقة التي سيحقق بها ذلك، فقد أبقاها سرًّا، وطلب منهم ألَّا يحاولوا استدراجه للكشف عن سره هذا.

لم يرفضوا اقتراحه وتم الأمر. قبل المساء سلم الموظف رسالة مجهولة سرًّا لأخيل، وبعد الشفق بساعة وصل إلى منزل الأب زكريا بهدوء فارس أسود ضخم على جواده، ودق دقًّا خفيفًا على النافذة ونادى على الأب الوديع باسمه.

فتح زكريا النافذة، عندما رأى الفارس سأله:

- أهذا أنت؟ كم أخفتني!

- هشش! (أجابه الفارس مهدئًا من جواده الذي نفد صبره)

نظر زكريا يمينًا ويسارًا بامتداد الجسر الفارغ وهمس:

- إلى أين أنت ذاهب وماذا تريد؟

لا يمكنني أن أوضح لك الأمر لأني وعدت بالحفاظ على السر، لكني أطلب فقط ألَّا تبحث عني غدًا ولا تسأل عن سبب ذهابي. صحيح أني وعدت بحفظ الأمر سرًّا لكني سأقول لك الأمر باستخدام الرمز:

القوزاقي في طريقه إلى الشمال

القوزاقي لا ينشد الراحة[١]

يشكو هيتمان الشرير

للقيصر بطرس

أفهمت؟

- لا، لم أفهم شيئًا.

- هكذا يكون الأمر باستخدام الرمز.

قال الفارس هذا وضرب بقبضته على صدره وأضاف:

- ولكن اعلم يا أبي زكريا أن القوزاقي ليس هو الماضي في طريقه، بل أخيل، وأن قلبي لا يمكنه تحمل إهانته لكن عقلي لا يعرف كيف يقدم المساعدة.

---

(١) من قصيدة لبوشكين.

قال الشماس هذا، وترك زمام الجواد وضغط بركبتيه عليه ولم يَعْدُ، بل بدا وكأنه طار، وعلى خلفية السماء الزرقاء الداكنة اهتز كل من عقصة شعره وأكمامه وغفارته وذيل الجواد وعُرفه.

* * *

# الفصل الثاني

لم يكن عبثًا أن اعتبر نيقولاي أفاناسيفيتش أنه لا جدوى من هذا الخطاب الذي أسرع الشماس إلى توصيله. قضى أخيل أسبوعًا كاملًا في سفره، وعاد إلى المنزل برأس محني فوق جواد محني الرأس، وقال إن الرسالة لم تسدِ نفعًا. سألوا أخيل:

- لماذا؟

- الأمر بسيط جدًّا. الأب سافيلي قال لي بنفسه: «كُف عن هذا اللغط يا صديقي، فنحن الإكليروس لا ننشد من يدافع عنا. فلتوصِّل للجميع رجائي ألَّا يتوسط أحد من أجلي».

ولم يُرِد الشماس أن يتحدث أكثر من ذلك عن الأمر. قال:

- إذا لم يكن بيننا شخص واحد ذكي يعرف كيف يحميه فما الجدوى مما نفعله إذن؟ علينا أن ننفذ تعليماته ولا نتدخل.

تملكت أخيل رغبة قوية في أن يحكي لهم عن الحالة التي وجد فيها توبيروزوف، وماذا حدث معه في أثناء هذا الأسبوع، وهذا ما رواه:

«لا يشعر الأسقف نحوه بالحنق ولا بالغضب، وقد تركهم يأخذونه إلى هذا العذاب لسبب واحد فقط؛ عصيان موظفي السلطة المدنية. هذا وحده ما جعلهم يستدعون الأب سافيلي. كان بوسع الأب سافيلي أن ينفي

عنه هذه التهمة تمامًا ويعود لأن الأسقف يسانده سرًّا، حتى إنه وجَّهه أن يذهب في اليوم التالي إلى السيد المحافظ ويعتذر، ولكن بسبب شخصية الأب سافيلي القوية أجاب بعناد «لا أعرف ذنبًا أعتذر عنه، ومن ثم لا يمكنني أن أُقدِّم أي اعتذار». أزعجت هذه الكلمات الأسقف بالطبع، لكن انزعاجه منها لم يكن كبيرًا لأن الأسقف ألغى قرار المجلس الإكليريكي بخصوص تعيين محقق في أمر العظة التي ألقاها الأب سافيلي، كما طمأن الجميع ضمنيًّا بأنه قد عيَّنه مساعدًا له في منزله».

سأل زكريا:

– أهو يشغل الآن هذه الوظيفة؟

– نعم يا سيدي. إنه يتولى الآن الصلوات اليومية[١]، وهو لا يُغيِّر عادته في أن يطرح على الأسقف سؤالًا مهذبًا: «ما الخطأ الذي ارتكبته؟»، ويجيبه الأسقف بصورة أكثر تهذيبًا، كما لو أنه لا يفهم السؤال: «بارتدائك هذا الثوب تستحق ما هو أسوأ».

صاح زكريا «آاخ!»، وهز رأسه في يأس وقد سد أذنيه بيديه.

– استأجروا من الحارس الرقيب في منطقة الدير غرفة صغيرة صفراء مقابل عملتين فضيتين ونصف شهريًّا، وهو يذهب إلى النهر بالإبريق ليجلب المياه، لكنه صار حادًّا للغاية، سواء ظهر ذلك في ملامح وجهه أو في سلوكياته وأمر أن تُسرع إليه ناتاليا نيقولايفنا بأقصى سرعة ممكنة.

أجابت زوجة القمص باكية:

– سوف أذهب إليه غدًا.

---

(١) أربع صلوات طقسية تؤدى يوميًّا.

- هذه هي الأخبار كلها. يقول هذا المدعي العام الذي كتبوا إليه خطابًا: «قُل لهم إن هذا ليس من شأني. لديكم الرئيس المباشر». ولم يسلمني رده في خطاب وانحنى بالتحية. لن تنالوا شيئًا منه سوى انحناءته. التقيت في المدينة أيضًا بالسيد تيرموسيسوف. رأيته يسرع إلى مكان ما وقال: «آه! انتظر هنا أيها الشماس عند البوابة من فضلك. سأحضر لك شيئًا بسيطًا. كلَّفتني زوجة مدير مكتب البريد وبنتيها قبل رحيلي أن أحضر لهن ألبومًا حتى يكتبن القصائد، وقد أحضرته ولا أجد من يمكنه توصيله إليهن. اصنع معروفًا وأعطه لهن عندما تعود». قلت في نفسي: «عفريت يأخذك». وقلت له لأتخلص منه: «هاته». وأخذته فعلًا.

أخرج الشماس من جيب قفطانه ألبومًا صغيرًا من ورق ملون وقرأ:

في الأوراق السبع الأخيرة

نكتب لكم أربعة سطور

دلالة احترامنا

آخ! عسى ألَّا تمزقونها.

- هذه دلالة احترامه لكم جميعًا.

ألقى أخيل ألبوم تيرموسيسوف على الطاولة ومضى في طريقه لينام في الإسطبل.

في الصباح الباكر أيقظه القزم وجلس بجانبه على كومة القش وسأله:

- حسنًا يا سيدي. ماذا سنفعل الآن؟

- لا أعرف يا نيقولاي. وحق الله لا أعرف.

- يبدو أننا متعادلان إذن، أليس كذلك؟

- يبدو هذا يا عزيزي نيقولاي. إلى أين أنت ذاهب؟

- أتسألني إلى أين أنا ذاهب يا سيدي؟

- نعم، إلى أين أنت ذاهب؟ الذئاب في كل مكان.

- أنا أرنب عجوز يا سيد، فما الذي يجعلني أخشى الذئاب؟ فلتأكلني الذئاب.

نهض القزم ومد يده لأخيل ليصافحه، لكن عندما أراد الأخير أن يمسك بها سحبها الأول بنفاد صبر وقال بعد أن احمر وجهه:

- هذا سيئ يا سيد. أنت لا تزال ماردًا. اتركني. الأرنب العجوز لا يخشى الذئاب. دعهم يلتهمونني.

قال نيقولاي أفاناسيفيتش ذلك، وصعد متأوهًا إلى عربته الكبيرة المغلقة ورحل.

خرج أخيل إثره حتى البوابة لكن وجد العربة قد توارت عن الأنظار بالفعل.

في هذا اليوم أرسل الشماس ناتاليا نيقولايفنا إلى زوجها وبقي وحده في المنزل الموصوم.

* * *

# الفصل الثالث

استُبدلت بسافيلي في أذهان مثقفي المدينة قصيدة تيرموسيسوف بنجاح. المقطع الأخير من القصيدة، والوضع الفاضح الذي وجدت فيه زوجة مدير مكتب البريد الأنيقة نفسها هي وبنتيها، أبعدا القمص العجوز عن صدارة المشهد تمامًا. شعر الجميع بالرضا، وكادوا يموتون من فرط الضحك. قالوا عن تيرموسيسوف إنه «محتال حقيقي»، وكانوا يذكرون القمص أحيانًا باعتباره «مهووسًا مملًّا».

مرت الأيام، يومًا تلو الآخر، وانقضى شهر وحل آخر. امتلأت المدينة بأخبار لا علاقة لها بقصتنا؛ أخبار عن تلقي ضابط الشرطة شكوى من إحدى الفتيات ضد رئيس فريق المعاقين الكابتن بوفيردوفنيا، وأخبار أخرى عن أخيل الجالس في شرفته في المحطة وقد عرف من المارة أن الموظف الأمير بورنوفولوكوف مات ميتة مفاجئة سريعة، وتوبيروزوف لا يزال في منفاه، وقد تمسك أصدقاؤه بقوة بحقيقة أنه «ليس في يدهم شيء ليفعلوه». بدا أعداء القمص أفضل قليلًا من أصدقائه؛ على الأقل لم ينسه بعضهم. على سبيل المثال دافعت زوجة مدير مكتب البريد الرقيقة عن إنقاذه، ولم تستطع أن تنسى الإساءة الكبيرة التي جلبها تيرموسيسوف

إليها، والأكثر من ذلك أنها لم تستطع أن تصفح عن شر المجتمع تجاهها، وفكرت في أن تكشف لهذا المجتمع أنها وحدها أرق الجميع وأذكاهم وأشرفهم وأكثرهم اتسامًا ببعد النظر.

واتتها الفرصة لتدلل على ذلك، وقد استغلتها مجددًا بصورة لا تخلو من الدقة والخبث في الآن ذاته. لقد فكَّرت في أن تعمي المجتمع بألق لا يُطاق، وترفع سمعتها في عينيه ارتفاعًا غير مسبوق.

قضت الصيف في ضيعة فخمة لإحدى سيدات بطرسبرج على بُعد ستة فرستات؛ السيدة موردوكوناكا. كان الزوج العجوز لهذه السيدة الشابة والجميلة إبان عمله كملتزم[1] أبًا روحيًّا لإحدى بنات زوجة مدير مكتب البريد. بدا هذا الأمر ذريعة كافية لدعوة الزوجة الشابة موردوكوناكا إلى حضور عيد شفيع ابنة زوجها الروحية، وأن تطلب منها أمام الجميع بصورة مفاجئة، بوصفها فاعلة خير ومحسنة إلى الكنيسة، أن تتدخل من أجل إنقاذ توبيروزوف المضطهد.

لم تكن خطة زوجة مدير مكتب البريد سيئة، فقد استغلت المحسنة البطرسبرجية الشابة والثرية ثراء فاحشًا علاقاتها في العاصمة، والمكانة الكبيرة التي تحظى بها لدى السلطات هناك. على أي حال، إذا شاءت يمكنها أن تقدم خدمة للقمص المعاقَب أكثر مما يمكن لأي شخص آخر أن يفعل. لكن هل تريد أن تفعل ذلك؟ من أجل هذا تحديدًا ستطلب منها زوجة مدير مكتب البريد طلبها هذا أمام الجميع.

---

(١) الملتزم هو الشخص الذي يُسدِّد للحكومة الديون التي يدين بها الأفراد والفلاحون إليها، ويتولى هو تحصيلها بنفسه.

ملَّت هذه السيدة من وحدتها ولم ترفض أن تُشرِّف زوجة مدير مكتب البريد بحضور الحفل. ابتهجت زوجة مدير مكتب البريد الخبيثة، ولم يساورها أي شك في أنها ستثير إعجاب الحاضرين بمبادرتها المفاجئة من أجل العجوز توبيروزوف، وهي المبادرة التي سينضم إليها الجميع رغمًا عن إرادتهم ليشاركوا في الجوقة ويلعبوا دورًا ثانويًّا.

أخفت زوجة مدير مكتب البريد هذه الفكرة حتى حلَّ أخيرًا اليوم الموعود لتحققها.

* * *

# الفصل الرابع

بدأ الاحتفال بعيد الشفيع في منزل زوجة مدير مكتب البريد، وكالعادة المحلية جهزوا وجبة خفيفة في الصباح. أبدت سيدة المنزل لطفًا وسرورًا في لقائها بالضيوف، وقد رأت أن أحدًا فيهم لا يفكر في أي شيء جدي، وأن كل اهتمامهم بالعجوز المنفي قد تلاشى ونسوه تمامًا.

وصل الضيوف وبدوا مرحين ومسرورين. أول من وصل هو قائد المقاطعة المقعد بوفيردوفنيا، وهو ضابط ذو عينين جاحظتين، أحمر الوجه، من كتبة المؤن. جلب لصاحبة العيد قصيدة نظمها بنفسه، وجاءت السيدات من بعده ثم السادة وأخيرًا الشماس أخيل.

كان أخيل هو الآخر مسرورًا. قدَّم لصاحبة العيد قربانة أخرجها من جيب غفارته قائلًا: «قربانًا مقدسًا باسم والدة الإله».

بعد ذلك ظهر على عتبة المنزل الأب الوديع زكريا وانحنى بالتحية قائلًا:

– فليباركك الرب. أهنئك بذكرى ملاكك الحارس.

قدَّم لصاحبة العيد أيضًا قربانًا مثل الذي قدَّمه أخيل وقال لها: «فلتقبلي قربانًا مقدسًا باسم والدة الإله». وانحنى الكاهن الهادئ للجميع وعدَّل وضع غفارته ليجلس وقال:

- طال القداس اليوم، كان الجو شديد الحرارة في الساحة.

- نعم، طال جدًّا.

- نعم يا سيدي، صلينا ومجَّدنا الخالق.

ثنى زكريا كُم غفارته حتى المرفق وبدأ يشرب شايه.

في هذه اللحظة ظهر الطبيب وابتسم وفرك شفتيه وسأل عن عدد قربانات السيدة العذراء في القداس اليوم. أجابه زكريا:

- قربانة واحدة. واحدة فقط. خصصنا قربانة واحدة لوالدة الإله تكريمًا لها. نعم، واحدة فقط. خصصنا قربانة أخرى تكريمًا للشهداء وثالثة للرسل ورابعة للأنبياء و...

- واحدة فقط لوالدة الإله؟

- نعم يا سيدي. واحدة فقط.

- لكن الأب الشماس يقول إنهما اثنتان.

أجاب الأب زكريا الطبيب بابتسامة دمثة:

- يكذب يا سيدي. يكذب.

أراد أخيل أن يلزم الصمت، لكن عندما رأى الطبيب وقد أمسكه من يده، سارع بالفرار منه وصاح:

- لم أقل ذلك قَط.

- ألم تقل ذلك؟ أي قربانة أتيت بها إذن؟

- قربانة المرنمين. (هكذا أجاب الشماس وانحنى تحت الطاولة وقال) أظن أني رأيت أنبوبًا هنا.

قال الأب زكريا بصوت منخفض للطبيب المبتسم:

- يحدث هذا معه. يكون معنا أحيانًا وينسج شيئًا، لكنه يفعل كل ذلك من دون غرض معين. نعم يا سيدي، إنه لا يهدف إلى شيء.

كان من المفترض أن تنتهي هذه الفترة الصباحية من الاحتفال بعيد الشفيع بشرب الشاي وحسب. قالت زوجة مدير مكتب البريد ببساطة متقنة إن الطعام يتم إعداده للمساء، وإنها لم تُعد شيئًا لفترة النهار، لكنها ستحاول أن يشعر الجميع بالشبع والرضا والسرور في المساء.

أخيرًا حان وقت هذا المساء المجيد!

* * *

# الفصل الخامس

التقت أسرة زوجة مدير مكتب البريد بالضيفة البطرسبرجية المرموقة.

أسعدت السيدة موردوكوناكا الضخمة والبيضاء والمهيبة الحاضرين، وفي حضورها بدا كل شيء آخر باهتًا وشاحبًا؛ حتى دانكا بيزيوكينا ذاتها تلاشت تمامًا في حضورها. لم تتملقها سيدة المنزل بالكلمات، وأحاطت الضيفة بكل الشخصيات المثيرة للاهتمام، وأمرت الكابتن بوفيردوفنيا وبرنابا بريبوتنسكي أن يشغلا الضيفة أقصى فترة ممكنة، وأزيلت من المشهد تلك الشخصيات غير المريحة في المحادثة، وهي: القائد الذي اعتاد استخدام المثل الشعبي: «لا تبصق في الفم»، والرائد القوقازي العجوز الذي صاروا يقولون عنه في المدينة حكمة شهيرة: «غبي كالرائد القوقازي»، ومعه أيضًا الشماس أخيل. تم إخفاء الثلاثة بمهارة في حجرة صغيرة منعشة حيث تم تجهيز الخمر والمقبلات لهم. جلس المنفيون الثلاثة في تمام الراحة في ضوء شمعة واحدة، ولم يشعروا بأدنى ضيق من إبعادهم عن صدارة المشهد. على النقيض؛ لقد شعروا بالراحة التامة في مكانهم هذا، ففي غياب شخصيات ذات رتب رسمية، وفي وجود هذه المقبلات، أجروا أكثر الحوارات حيوية، بل وتفلسفوا أيضًا. قال الرائد: «ما سبب الوقاحة؟»، وعزا أصلها إلى الفساد، وأورد براهين عديدة على

رأيه، لكن أخيل عارضه لأسباب كثيرة وقال إن الوقاحة لا تنشأ إلا لسببين: الغضب والأكثر منه الخمر.

استغرق الرائد في التفكير ووافقه على أن ثمة وقاحة تنشأ فعلًا بفعل الخمر. أوضح الشماس بعد أن شرب كأسًا كبيرة بدأت تؤتي مفعولها:

- أقول لكما إن هذا صحيح، وسأحدثكما في هذا الصدد عن نفسي. أكون في حالة رائعة عندما أثمل، لأني لا أخفي في نفسي أي شرور أو أفكار خبيثة أبدًا. من ناحية أخرى يا أخوَي أعشق التبجح ثملًا. أعشقه فعلًا! لا أفعل ذلك عن قصد بالطبع بل يأتي الأمر هكذا بصورة طبيعية. أبدأ في الأمر وبعد ذلك لا أعرف كيف أتاني هذا الهراء!

قهقه القائد والرائد وواصل الشماس:

- أقول لكما الحقيقة فعلًا. مثلًا أبدأ فجأة في أن أحكي عن أبناء الإيبارشية الذين ذهبوا إلى الأسقف يطلبون منه أن يُسيِّمني قسًّا، وهو أمر أنا نفسي لا أريده، وفي مرة أخرى أؤكد أن التجار المحليين يطالبون بترقيتي إلى درجة رئيس شمامسة و... (وأحاط الشماس الغرفة الصغيرة بنظره ثم همس) كما أني قلت ذات مرة إني خطبت في شبابي سرًّا ابنة سكرتير المجلس الإكليريكي. أقول لكما إني بالكاد أفلت منهم بعدما قلت ذلك. كم تفوهوا بالوقاحات عني حينها!

قال الرائد:

- لكن إذا وصل الأمر إلى السكرتير فستواجه مشكلة فعلًا.

- وأي مشكلة يا سيدي! أي مشكلة! (أكد الشماس حديثه وشرب كأسًا أخرى ثم واصل وقد أخفض صوته أكثر) ما دمنا تحدثنا عن هذا

الأمر فسأخبركما بشيء آخر. لقد مررت بهذا الهراء فعلًا ذات مرة وكدت أُعرِّض نفسي للتعذيب علنًا. ألم تسمعا عن ذلك؟

- لا، لم نسمع.

- كيف ذلك! لقد كان أمرًا مريعًا وقد تعلق بالقانون الأول.

- يا إلهي!

- نعم يا سيدي. لقد كاد الأمر يؤدي إلى تعليق رأسي في ميدان عام، وكان من الممكن بعد مرور سبعة آلاف وثلاثمائة عام، أن يتذكرني الشماس في أحد الأعياد الأرثوذكسية إلى جانب جريجوري أوتريبيف[1] ومازيبا[2] ويلعنني!

صاح الرائد وقد استدار بقوة في مكانه:

- غير ممكن!

- لماذا غير ممكن؟ كان من الممكن أن يتم الأمر ببساطة تامة لولا أن أنقذني أحد الصالحين.

- احكِ لنا أيها الأب الشماس.

- سأشرب بعض الفودكا وأحكي.

شرب أخيل كأسًا أخرى وشرع في مواصلة حديثه عن جريمته من بدايتها.

---

(١) راهب روسي عمل سكرتيرًا للبطريرك، وحاول الهرب من الدير ويقول البعض إنه هو من تظاهر بعد ذلك بأنه القيصر ديمتري تساريفيتش.

(٢) إيفان مازيبا: شخصية عسكرية وسياسية شهيرة في التاريخ الروسي.

# الفصل السادس

بدأ الشماس:

«بدأ هذا الطيش بحقيقة سفري إلى عاصمة المقاطعة قبل عيد القيامة. جهزنا جوادينا؛ أنا والقارئ الكنسي سيرجي. أخذ سيرجي بلاحق الأطفال بجواده، وكذلك فعلت، والشيطان وحده يعرف لماذا قد أفعل ذلك! ربما لرؤية بعض الأصدقاء وحسب! وصلنا إذن قبالة المدينة، وهناك كانوا قد هدموا الجسر ولا بد من ركوب العبَّارة لعبور النهر. وجدنا عددًا ضخمًا من الناس في انتظار العبَّارة ورأينا جنديًّا في كوخ الحمَّال يمزق نفسه بالفودكا. في أثناء انتظارنا في الطابور فكرنا في أن ندخل إلى الكوخ قليلًا، وبسبب البرودة الشديدة شربنا كأسين. امتلأ الكوخ بجمع من كل نوع: رهبان مبتدئون وحوذية وجنود ورئيس ديوان، وكان الأخير هو أكثر الحضور إضرارًا، كما وجدنا إخوتنا أيضًا من الإكليروس. وجدنا هناك أيضًا معارف جيدين من الجوار، وشربنا في نخبهم زجاجتين أخريين من فئة ربع اللتر. بعد ذلك بدأ رئيس الديوان، وكان وغدًا طليق اللسان، في إلقاء خطبة علينا. قلت له: «اذهب يا أخي! عد من حيث أتيت. لستَ من أقاربنا». قال لي: «أنا ضابط ولديَّ مكانتي». قلت له: «وأنا أيضًا يا أخي ضابط». «أتقول إنك ضابط؟ إنه كاهن وأنت مساعده». قلت له: «إنني أمام عرش الله أدنى من الكاهن، ولكن في السياسة كلانا متساويان». اندلع

الجدال. زادت حميتي هذه الكؤوس التي شربتها وإذا بي أقول ما أقول. قلت له: «إنك لا تستطيع أن تفهم الكتب المقدسة. ليس لديك مخ لتفكر به». أخبرني: «هل بمكنك أن تعرف ما إذا كان كاهن واحد قد وصل إلى العرش؟». قال لي: «لا، لم يصل أي منهم». «لم يصل كاهن، ولكن وصل شماس، ووضعوا تاجًا على رأسه». «من هو؟ متى حدث ذلك؟». «يوجد يا أخي، أما عن سؤالك بخصوص متى حدث ذلك فأنا لست عالمًا في الحساب، ولا يمكنني أن أحسب بدقة متى حدث ذلك، ولكن بإمكانك أن تقرأ الكتب لتعرف من كان جريجوري أوتريبيف قبل ارتقائه العرش بدلًا من ديمتري، وحينها ستعرف قيمة الشماس». «حسنًا. هو أوتريبيف إذن! لكنك بعيد كل البعد عن أوتريبيف». وإذا بي وأنا في سُكْري أقول له هراء: «ولماذا تقول إني بعيد عنه كل البعد بينما يمكن أن أكون قريبًا منه كل القرب؟». قلت له أيضًا إن المذكور كان شبيهًا بديمتري، أما أنا فلا يمكنني أن أشبه أحدًا سوى فرانس فينيتسيان أو السلطان محمود. ما إن قلت ذلك يا أخوَي حتى صاح رئيس الديوان وأثار ضجيجًا وطلب شهودًا وأوراقًا. أمسكوا بي وقيَّدوني وحبسوني في إحدى العربات وانطلقوا بي. فليهب الله العقيد ألبرت كازيميروفيتش الصحة الأبدية دائمًا ويجعل مصيره في ملكوت السماوات، وقد كان في هذا الوقت يعمل في الشرطة السرية. استدعاني في الصباح ونادى زوجته وقال: «انظري يا عزيزتي إلى هذا النصاب». سخر مني. سخر مني وأطلقني. قال لي: «اذهب أيها الأب محمود[1]، ولا تشرب الفودكا بعد ذلك إلا بحساب»».

(١) سخرية منه بدلاً من أن يقول: الأب الشماس.

وكرر الشماس مجددًا: «فليهبه الله عمرًا مديدًا». ورفع كأسه مضيفًا: «سأشرب في نخبه». قال الرائد:

- لقد نجوت من مصيبة كبيرة.

- كبيرة حقًّا. لذلك أقول: البولندي إنسان صالح. البولندي لا يحب السلطة، وإذا كان هناك أي شيء ضد السلطة يتسامح معه.

قرابة نصف الليل قوطع حديث هؤلاء الثلاثة المنعزلين وحان وقت انضمامهم مجددًا إلى الجمع الحاضر. دعوهم إلى الطاولة.

عندما دخل الشماس الذي شرب قليلًا وبدا مرحًا إلى الردهة حيث أُعِدت الطاولة بالفعل لتناول العشاء، وكانوا يحركون المقاعد حولها، أخذ الكابتن بوفيردوفنيا أخيل من مرفقه، وقاده إلى الطاولة التي كانوا يشربون الفودكا عندها وقال له:

- تعالَ أيها الشماس وراقب السيدات جيدًا.

- لماذا؟

- حتى تلفت انتباههن.

- أتريدني أن أفكر في سيداتك! الأفضل لي أنا الأرمل أن أشرب كأسَي فودكا بلا خطية عن أن أراقبهن.

قال أخيل ذلك وشرب كثيرًا، وشربوا جميعًا قبل العشاء كؤوسًا مملوءة على آخرها. مثَّل الأب زكريا الاستثناء الوحيد لأنه يزعم أن رأسه يدور إذا شرب أي قدر من الخمر. ظلوا يتوسلون إليه أن يشرب لكنه أجابهم:

- لا، لا. دعوني. أنا لا أشرب الخمر أبدًا.

حاولوا حثه على الشرب قائلين:

- الجميع يشربون اليوم.

- حقًّا. حقًّا الجميع يشربون اليوم لكني لا أستطيع.

أيّد الشماس أخيل المتلذذين بالشراب قائلًا:

- حتى الدجاجة تشرب اليوم.

- دع الدجاجة لشأنها. من الحماقة يا أخي أن تعتبرني دجاجة.

قال أخيل بتأنيب:

- أنت أسوأ من الدجاجة أيها الأب.

- لا أستطيع تحمل هذا. أنا أسوأ من الدجاجة؟ لا أستطيع تحمل هذا.

- إذا كنت لا تستطيع حقًّا تناول أي نبيذ، فعلى الأقل اشرب بعض الشيري بدافع الكياسة.

عندما رأى زكريا أنهم لن يتركوه لحاله، تنهد وتناول الكأس من الشماس وقال:

- حسنًا، من الممكن أن أشرب بعض الشيري. اسمحوا لي أن أشرب بعضًا منه.

* * *



# الفصل السابع

وصل الحفل إلى مرحلة جديدة من مراحل تطوره.

ما إن جلس الجميع إلى الطاولة حتى نهض الكابتن بوفيردوفنيا فجأة والتفت إلى المسنة البطرسبرجية قائلًا:

أحييكِ أيتها القادمة

من عالم آخر

أرسلكِ الرب إلينا

قيثارتي تتغنى بكِ

حلِّقي إلينا من الأثير الأزرق العالي

البهجة اللطيفة في انتظاركِ هنا

وأقبلي على وليمتنا

ولتتركي عالمكِ السامي لبرهة

استمعت المرأة الأرستقراطية المتحدرة من أسرة ملتزمة إلى هذه القصيدة، واحمر وجهها قليلًا وأخذت من يد بوفيردوفنيا الورقة التي خطَّت عليها يد كاتب أُمِّي هذه القصيدة بآلاف الخربشات.

ابنهجت سيدة المنزل، بينما كان لكل ضيف من ضيوفها رأيه الخاص في مدى براعة قصيدة بوفيردوفنيا من حيث مزاياها أو عيوبها النسبية. اختلفت الآراء. وجد بوروخونتسيف أن إلقاء قصيدة من قِبل الكابتن بوفيردوفنيا هو أمر رائع ولطيف في كل الأحوال. على النقيض منه وجد بريبوتنسكي الأمر غبيًّا، بينما اعتقد الشماس أن الأمر ببساطة ينطوي على قدر كبير من الخبث، وهمس في أذن الكابتن بوفيردوفنيا:

- يبدو أنك وغد كبير يا أخي فيما يتعلق بالسيدات.

لكن بغض النظر عن كل شيء، بعد هذه القصيدة تملك كل الجالسين إلى الطاولة سرور حقيقي؛ الأمر الذي ضايق زوجة مدير مكتب البريد. لم يتوقف الحديث للحظة واحدة بحيث تُتاح فرصة لسيدة المنزل لتتحدث فيها عن القمص المنفي. في هذه الأثناء كان من الواضح أن الضيوف لم يشعروا بالملل، وعندما سألت زوجة مدير مكتب البريد في نهاية العشاء الضيفة عما إذا كانت تشعر بالملل، أجابتها الضيفة بسرور صادق أنها لا تعرف كيف تشكرها على هذه المتعة التي يجلبها لها ضيوفها، وأضافت أيضًا أنه إذا كان هناك شيء تشعر بالأسف بسببه فهو أمر واحد؛ ألا وهو أنها تأخرت في تعرفها على الشماس وكابتن بوفيردوفنيا. لم تبالغ السيدة موردوكوناكا في قولها هذا فقد أثارت عفوية أخيل والكابتن اهتمامها بشدة. بعد أن سمع بوفيردوفنيا هذا التعليق، انحنى فورًا ردًّا على ذلك. لم يُبد الشماس لا مبالاة بهذا المديح، بل صدم بريبوتنسكي بمرفقه في جانبه وقال له:

- أترى أيها الأحمق كيف يحترموننا ولا يبالون بك؟

أجابه برنابا باسنياء هامسًا:

- أنت الأحمق.

فكر بوفيردوفنيا في هذه اللحظة، وأمسك أخيل بقوة من يده ووقف وأوقفه معه، وتحدث بالنيابة عنهما قائلًا:

سوف نُكرِّم ذكراكِ
ونحفظها لأعوام مديدة سعيدة
اسمحي لنا يا روح بهية أن نصلي من أجلكِ
وسوف تُستجاب هذه الصلاة

ثم جلسا وسط موجة من التصفيق.

قرَّع الشماس أخيل برنابا، أما بوفيردوفنيا فهبَّ في هذه اللحظات مجددًا وتوجه بحديثه إلى سيدة المنزل قائلًا:

زوجة أنتِ
مُثلى في عين كل الأزواج
أوررا[1]

امتدحت سيدة المنزل بوفيردوفنيا قائلة:

- ما هذا يا كابتن! هذه هي حقًّا روح المجتمع.

وواصل الشماس إزعاج برنابا قائلًا:

- وأنت لا شيء.

تعالت الصيحات من الحضور:

(١) هتاف روسي يعبر عن الفرحة والبهجة.

- فليُلقِ الجميع ما لديهم. فليبدأ قائد الشرطة.

- فلينشد الجميع قصائدهم.

- الجميع! الجميع! فليبدأ قائد الشرطة.

أجاب قائد الشرطة:

- وماذا في ذلك! سأبدأ. من يمكنه أن يقرأ فليفعل من دون مراسم.

- ابدأ يا نقيب سلاح الفرسان. بحق الله فلتبدأ.

نهض نقيب سلاح الفرسان بوروخونتسيف ورفع كأسه حتى مستوى وجهه، وبعد أن نظر إلى النار عبر الخمر في الكأس بدأ:

عندما تنازل المستبد عن سلطته

آملًا أن يهدهد روسيا كما يهدهد ضحاياه

ليعود ويخرِّبها مرة أخرى

دوى صوت الحرية فجأة

ونهضت روسيا من بين أغلالها

استجابة للنداء الأخوي الصاخب

مستعد لأن أقبل في نفسي

استدعاء خطايا اليهود

ورِدة الكنيسة اليونياتية[1]

وكل خطايا السارماتيين[2]

---

(١) الكنيسة الموحدة (يونياتية) هي كنيسة نشأت في الحلف البولندي الليتواني المعادي لروسيا، والتي حاولت التوافق مع الكاثوليكية الرومانية.

(٢) شعب قديم يتكون من قبائل بدوية إيرانية سكنوا قطاع السهوب في أوراسيا (من نهر الدانوب إلى بحر آرال).

من أجل أن يستعيد الشعب الروسي

حريته المنشودة

أوررا!

توجه أخيل إلى بريبوتنسكي مجددًا:

- الجميع يتلون قصائدهم أما أنت فنكرة. افعل ما يحلو لك يا أخي، حتى لو شربت، لكنك لن تستطيع أن تتلو شيئًا. لستَ إنسانًا. لستَ أكثر من زق (وعاء جلدي -المترجم) خمر.

- لماذا تزعجني بزقك هذا؟ أنت الزق لا أنا.

- مـــــاذا؟ (صاح أخيل مستاءً) أتجرؤ على أن تقول لي إني زق؟

- نعم، أنت زق بالتأكيد.

- مـــــاذا؟

- أنت نفسك لا يمكنك أن تتلو شيئًا.

- أتقول إني لا أستطيع أن أتلو قصيدة؟ يا لك من مغفل! إذا شئتُ فسأفعل ذلك، وسيتعين عليك حينها أن تقفز على قدميك لتستمع إليَّ كورقة شجرة صغيرة أمام العشب الواسع.

- حاول لو تجرؤ! حاول!

- سوف أتلو قصيدة، وبالمناسبة يمكنك الآن أن ترى فكي الأعلى وهو يستعد للقراءة.

قال أخيل ذلك ونهض وتفحص الحضور جميعهم بعينين مفتوحتين على آخرهما، ثم ركَّزهما على مملحة في وسط الطاولة وبدأ بصوت جهير ناعم منخفض وواضح:

«حياة هـانئة سعيدة، وصحة وخلاصـاً، ونصرًا كريمـاً على العدو، وفوزًا»... إلخ.

أخذ صوت أخيل يرتفع أكثر فأكثر، وحمرة قاتمة تغزو جبهته وعظمتَي وجنتَيه وصدغَيه والفك العلوي كله لوجهه العريض أكثر فأكثر، وجحظت عيناه، وظهرت بقع بيضاء على وجنتَيه بالقرب من زاويتَي فمه، وبدا فمه مفتوحًا كبوق نحاسي تطايرت منه الأمنيات بأعوام مديدة بصحبة رنين وطقطقة ورعيد، حتى أجبرت كل الجمادات الموجودة في المنزل كله على الارتعاش، أما الأحياء فنهضوا من أماكنهم من دون أن يُنحُّوا عيونهم المذهولة من على فم أخيل المفتوح عندما أصدر صوته الأخير الذي يوازي جوقة كاملة: «أعوامًا مديــــــدة، مديــــــدة».

برنابا وحده هو من أراد في هذا الوقت أن يستمر فيما يشغله ويواصل تناول الطعام، لكن أخيل أنهضه بالقوة، وأمسكه من يده وأنشد: «أعوامًا مديدة، مديدة، مديــــــدة».

أرسل العمدة ملاحظة لأخيل في ورقة زرقاء عبر أحد الجالسين بينهما. سأل أخيل:

– ما هذا؟

أجابه العمدة:

– فلتتمنَّ أعوامًا مديدة للحاضرين كلهم، وكذلك لمضيفتنا.

وضع الشماس الملاحظة في جيبه وانطلق:

– أعوامًا مديدة للحــــاضرين كلهم، ولمضيــــفتنا.

فعل أخيل ذلك متجاوزًا نفسه. ولذلك عندما انتهى من إنشاد «أعوامًا

مديدة» لم يغامر أحد بالغناء مجددًا سوى الأب زكريا الذي اعتاد على صوته وكذلك العمدة. أما بقية الضيوف فجلسوا جميعًا في أماكنهم واستلقوا على مقاعدهم، وقد أمسكوا بالطاولة بأيديهم أو أمسكوا بأيدي بعضهم.

شعر الشماس بالعزاء. قالت له السيدة البطرسبرجية أولًا، وهي تحاول التعافي من خوفها:

- لديك صوت جهير نادر الوجود.

- عذرًا، فعلت ذلك لأثبت أني لست جبانًا وأني أعرف كيف أتلو أبياتي.

قال زكريا:

- ماذا؟ ماذا؟ ومن هنا الجبان؟

- نعم، أنت أولًا أيها الأب زكريا، فأنت لا تجيد حتى التحدث مع الكبار جيدًا، وتتلعثم.

- هذا صحيح، فأنا في مثل هذه الحالات أتلعثم عند التحدث مع الكبار، ولكن أنت؟ أنت؟ ألا تخشى الكبار؟

- أنا؟ الأمر سيان بالنسبة لي. سيان لي أن أتعامل مع الأسقف ذاته أو مع إنسان بسيط. يقول لي الأسقف كذا وكذا يا أخي، وأقول له كذا وكذا نيافتكم. هكذا يجري الأمر.

رغب الطبيب الذي يلاحق الشماس في الاستعلام عن ذلك فقال:

- أهذا صحيح أيها الأب زكريا؟

أجاب بينيفاكتوف بهدوء، من دون أن يرفع عينيه الطيبتين عن الشماس:

- يكذب.

- وهل يتداعى على الأرض ساجدًا له؟

- يتداعى.

رفع الشماس صدره بإباء قائلًا:

- أبدًا! لم أفعل ذلك قَط. يستحيل أن أفعل ذلك. إذا أوليت كامل انتباهي للجميع فلن أسعد أبدًا. أنا لا أشغل بالي الآن بالأسقف بالرغم من أهمية رتبته الدينية، بل أولي انتباهي الآن إلى شخص أهم منه مائة مرة.

سأله الطبيب:

- أتقصدني أنا؟

- وما علاقتك بكل ذلك؟ بالطبع لا أتحدث عنك.

- من تقصد إذن؟

- ألم تقرأ صحفًا جديدة منذ فترة طويلة؟

سألته الضيفة كطفلة مبتهجة:

- وماذا كتبوا فيها؟

- كتبوا أنه بأمر من الأب رئيس الكهنة[1] باجانوف نفسه أُرسِل قائد الحاشية ليجوب روسيا كلها من أجل أن يختار أفضل أصوات الجهير للجوقة الملكية. لديه رتبة جنرال، كما أنه يحوز وسام شرف، كما أنه مدني، والأسقف بالنسبة له كأي شخص آخر، فبالنسبة للعاهل الملكي الحوذي والعقيد سواء. حسنًا يا سيدتي، بأمر من قائد الحاشية توجب عليه أن يذهب سرًّا كأي شخص عادي حتى لا يحتشد حوله أصحاب أصوات

(١) رتبة كهنوتية شغلها في هذا الوقت فاسيلي باجانوف، وهو كاهن الأسرة الملكية.

الجهير، بل يستمع هو إليهم بحسب رغبته.

وجد الشماس صعوبة في الاستمرار، ولكن الطبيب أرشده:

- حسنًا، وماذا بعد؟

- أقول لكم ماذا بعد. قائد الحاشية هذا في مدينتنا للأسبوع الخامس على التوالي، أتصدق ذلك؟! أرى كيف يأتي في يوم الأحد، مرتديًا قفطانًا أزرق، ويقف بين العامة ويستمع إليَّ بانتباه. ماذا سيفعل أي شخص آخر في مكاني؟ بالطبع كان سينهار كشيطان صغير على ركبتيه أمام المبعوث الملكي ويدعوه إلى منزله، ويسقيه الفودكا، ويتلوها بالشاي، أليس كذلك؟ أما أنا فلم أفعل ذلك. بالرغم من أنه مبعوث القيصر وأنا يا أخي مجرد... لا، لن أسمح لأحد بالعبث معي، وليسلك كل شخص معي وفقًا للقانون. إذا لم ترغب في أن تسلك معي وفقًا للقانون، فلتمضِ من طريق وأنا من طريق آخر.

سأل الطبيب الأب زكريا:

- هل يكذب في كل ذلك؟

أجابه الأب زكريا بهدوئه المعتاد:

- يكذب يا سيدي. لقد شرب، ومن الآن وحتى الغد لن تسمع منه كلمة واحدة حقيقية. سيستغرق مختالًا في كل أنواع التخيلات.

- لا، إنني أتكلم بالصدق.

قاطعه الأب زكريا:

- كفى. كفاك يا أخي. لن يستاء أحد هنا عندما يعرف أنك انخرطت في كل هذه التخيلات بسبب الخمر.

استاء أخيل. بدا له أن أحدًا لن يصدق بعد ذلك أنه ليس جبانًا، وهو لا يستطيع تحمل هذه الفكرة، وأقسم على شجاعته وطالب بتحدٍّ جديد وفوري أكثر ضراوة.

- سأثبت للجميع أنني أشجع الناس هنا. سأثبت لكم ذلك.

قال الرائد:

- لا تتباهَ بذلك يا أبي الشماس. لا تنسَ أنك قلت بنفسك إنك تتسم بضعف. خفف من غلوائك.

- لدي ضعفاتي حقًّا لكني سأتباهى بالرغم من ذلك. أنا أشجع الجميع هنا.

- لا تتباهَ. أحيانًا يجبن الشجاع وفي أحيان أخرى يفعل الجبان شيئًا غير متوقع. نعم يا سيدي. نعم يا سيدي. توجد مثل هذه الأمثلة.

- لا تهمني أمثلتك.

- ألا تهمك يا سيدي؟ حسنًا، سأقدِّم الآن أفضل أمثلتي.

- تفضل.

* * *

# الفصل الثامن

بدأ الرائد حديثه:

«كان لدينا في القوقاز، فقد انتقلت من هناك كما تعرفون، عقيد رائع يعرف عمله جيدًا. نال سيفًا ذهبيًا على شجاعته. شاركنا في الحملة الهنغارية في ١٨٤٨ [1]. توجب علينا حينها أن نرسل الصيادين ليلاً، وبدأت حفلة السُّكْر. قال العقيد: «كم من الصيادين؟». أجابه الضابط المعاون: «١١٠ صيادين». أجابه العقيد بينما يلعب الورق: «أووووه! عدد كبير. هل بينهم جبناء؟». أجابه المعاون: «لا». «وإذا وجدنا بينهم جبانًا؟». «آمل ألّا يحدث ذلك يا سيدي العقيد». «اجمعهم إذن». جمعوهم. قال العقيد: «لنجرب! من الأشجع بينهم؟ من الأكبر؟». برز منهم هذا المدعو سيرجيف أو إيفانوف، لا أتذكر تحديدًا. «استدعِه إلى هنا. أنت الأكبر؟». «نعم سيادتكم. أنا». «ألستَ جبانًا؟». «أبدًا سيادتكم». «ألست جبانًا حقًّا؟». «بلى». «ما دمت لست جبانًا، فلتجرني من شاربي». ظل الجندي واقفًا في مكانه مترددًا. دعوا جنديًّا ثانيًا وثالثًا وخامسًا وعاشرًا، وبدا الجميع جبناء في هذه المرة».

صاح أخيل بمرح:

---

(١) يشير إلى مشاركة الجيش الروسي في إخضاع الثورة الهنغارية في ١٨٤٨.

- آه من هذا الماكر! داهية. يقول «فلتجرني من شاربي»! هاهاها. ممتاز! يا كابتن، فلتدعُ صديقك المعلم برنابا ليحاول لمسك إذن.

أجاب الكابتن:

- على الرحب والسعة.

رفض بريبوتنسكي، لكنه انزعج من السخرية الخبيثة من جبنه، فوافق.

وضع أخيل مقعدًا في منتصف الغرفة، وجلس عليه كابتن بوفيردوفنيا وانحنى على جانبيه كما يفعل الفارس على جواده.

أحاط به قائد الشرطة وزكريا والرائد.

استقر أخيل بالقرب من كتف برنابا وراقب كل حركة من حركاته.

انتفخ المعلم ونغضن وارتجف، ثم خفض عينيه بخجل ثم فتحهما على آخرهما فجأة، ومن دون أن يتزحزح من مكانه بدا كما لو أنه يتحرك بكل كيانه كما لو أنهم يمرون من فوقه بزلاجاتهم.

حاول أخيل أن يشجعه بطيبته بقدر ما يستطيع قائلًا:

- ماذا تخاف أيها الأحمق؟ لا تخشَ شيئًا. لن يعضك. هيا، لا تتراجع.

قال الشماس ذلك ولعق أطراف أصابعه وعدَّل خصلة الشعر الساقطة فوق عينَي برنابا وأضاف:

- هيا، أمسكه فورًا من شاربه.

لمسه برنابا فعلًا، لكن ركبتيه ارتجفتا وتراجع.

قال له أخيل:

- أنت جبان إذن!

- وأنت أحمق. هل يمكنك أن تعرف ما الذي أخاف منه؟

جلس برنابا وصار في حالة أسوأ، بينما جلس بوفيردوفنيا كإله، شاعرًا بأنه قد صار مركز الحضور، وهو يعد لهم مفاجأة جديدة.

همس أخيل في أذن المعلم:

- أنت جبان يا أخي. جبان. جبان تافه، بل إنك أتفه الجبناء.

قال الرائد:

- هذا ليس جيدًا. الضيوف ينتظرون.

فكر بريبوتنسكي لبرهة ثم أشار بإصبعه إلى قائد الشرطة قائلًا:

- عفوًا، لكني أُفضِّل سحب فوين فاسيلبفيتش.

- لا، لن تسحبه بل ستسحبني أنا.

شدَّد بوفيردوفنيا على رأيه وعادت إليه جديته. صدرت الهمسات من كل اتجاه: «جبان. جبان». وسمعها برنابا، وتصبب عرق بارد على وجهه وسرى الخدر في جسده. اكتنفه شعور بالخجل مَرضي ومزعج ولا يقاوم، حتى إنه شعر بالهلع من جراء هذا الخجل.

أول من لاحظ ذلك هو أخيل الذي جلس بالقرب منه وانشغل بمراقبته. حينما رأى البريق الحاد في عين المعلم أومأ لقائد الشرطة أن يبتعد أكثر، بينما أخذ زكريا ببساطة من يده وتنحى به عدة خطوات للخلف وقال:

- لا تقف بالقرب منه يا أبي. انظر، إنه يحلم.

بدأ برنابا يتحرك. ها هو يخطو خطوة، وتحركت يد الجبان المرتعشة، وظلت ترتفع في هدوء وبطء، ولكن لا في اتجاه شارب الكابتن، بل إلى وجه قائد الشرطة مباشرة وبصرامة.

أجبر هذا السعي المتواصل ليد برنابا كي تصل إلى وجه قائد الشرطة الجميع على الابتسام. صاح أخيل:

- الشيطان وحده يا إخوتي يعرف ماذا يعتمل فيه. (وتوجه صوب قائد الشرطة وهدده مجددًا قائلًا) تراجع فأمامك كما ترى إنسان مهتاج.

لكن في هذه البرهة القصيرة لمس بريبوتنسكي شارب بوفيردوفنيا بعينين مغمضتين. زأر الكابتن في وجهه زئيرًا رهيبًا، وفجأة نبح كالكلب. لم يحتمل برنابا ذلك، وصاح بعنف، وانقض كالنمر على قائد الشرطة وبدأ يضرب كل من تطوله يداه وهو في حالة أشبه بفقدان الوعي.

كانت مفاجأة لم ينتظرها أحد ومن ثم تركت تأثيرًا هائلًا. المصباح المقلوب والكيروسين المشتعل والضيوف الهاربون وهلع قائد الشرطة وصيحات برنابا الذي اندفع صوب أحد الأركان هربًا من الشبح الذي يطارده... كل هذا جعل استمرار الوليمة أمرًا مستحيلًا.

غادرت الضيفة البطرسبرجية، وهرع بريبوتنسكي الذي كان يعرف جيدًا كل ممرات ومخارج منزل مدير مكتب البريد، مستغلًّا لحظة الوداع، إلى المكتب عبر الممر واختبأ هناك خلف خزانة الثياب.

* * *

# الفصل التاسع

بينما تذرع زوجة مدير مكتب البريد غرفتها بنفاد صبر في قميصها التحتاني أخذت تفكر في من يمكن أن يكون المذنب الأول في هذا الحدث المريع. من بدأ هذه المزحة؟ قالت في نفسها: «لا، إنها ليست أكثر من مزحة، ولكن من دعا بريبوتنسكي؟ ليس ذلك وحسب، بل من عرَّفني عليه؟ من فعل ذلك إذا لم يكن زوجي؟ يأتيني من مكان ما قائلًا: أقدِّم لكِ برنابا فاسيليفيتش! حسنًا، انتظرني وسأعطيك هذا البرنابا فاسيليفيتش! ولكن أين هو زوجي؟ (سألت نفسها هذا السؤال وهي تنظر حولها) أهو نائم حقًّا؟ أيمكنه فعلًا أن ينام بعد ما حدث؟ لا أستطيع ذلك». حسمت زوجة مدير مكتب البريد أمرها وخطت سريعًا بنفاد صبر إلى الردهة التي ينام فيها زوجها مدير مكتب البريد عادة، مطرودًا من حجرة النوم الزوجية بسبب بعض الخلافات المنزلية. لكنها اندهشت بشدة حينما لم تجد زوجها هناك. «آه! يختبئ مني! لا بد أنه يشخر الآن على الأريكة في مكتبه. حسنًا، سيتوقف شخيرك الآن». وتوجهت زوجة مدير مكتب البريد إلى المكتب.

لم تخطئ زوجة مدير مكتب البريد في تخمينها تقريبًا. وجدت زوجها نائمًا فعلًا في مكتبه، لكن خطأها الصغير تلخص في أمر واحد؛ كان النائم على الأريكة هو بريبوتنسكي، فبعد ما حدث خاف أن يعود إلى منزله، مفزوعًا من أن يكمن له أخيل في زاوية ما، وقد أقنع مدير مكتب البريد أن يسمح له بقضاء ليلته هنا حفاظًا على أمنه. وافق مدير مكتب البريد عن طيب خاطر، خاصة عندما رأى زوجته في أشد حالات الهياج، بل إنه وجد في الأمر فائدة له؛ أن يكون إلى جانبه في هذا الوقت إنسان غريب. لذلك لم يكتفِ بقبول طلب برنابا ليبيت ليلته عنده، بل عرض عليه أيضًا كسيد كريم أن ينام على الأريكة الموجودة في مكتبه، بينما استلقى هو على الطاولة الكبيرة، وغطى وجهه بقطعة من غطائها.

كان الباب الذي يفصل بين غرفة النوم وغرفة المكتب التي نام فيها مدير مكتب البريد وبريبوتنسكي مغلقًا. زاد ذلك من حنق السيدة المهتاجة لأنه وفقًا لقواعد المنزل لا ينبغي أبدًا إغلاق أي بابٍ من أبوابه في وجه سيدة المنزل المسيطرة، وقد اعتبرت زوجة مدير مكتب البريد نفسها سيدة المكتب كما هي سيدة غرفة النوم، وفجأة تجد نفسها في مواجهة هذه الوقاحة التي لم يُسمع بها من قبل!

فارت زوجة مدير مكتب البريد غضبًا. تفحصت الباب مرة أخرى لكنه لم ينفتح. المملاق يصر لكن يظل في مفصلته. في غضون ذلك تسمع نَفَسين... نعم اثنين. يمكن للمرء أن يتصور حجم الهلع الذي شعرت به الزوجة من جراء هذا الاكتشاف المفاجئ.

بعد أن أسيء إلى حقوقها كزوجة هرعت عائدة إلى الممر، وركضت صوب المطبخ واندفعت إلى الطاولة. ظلت تتحسس بيديها طويلًا في الظلام الصندوق الكبير الذي اندفعت إليه أعداد كبيرة من الصراصير، وأخيرًا وجدت ما هي في حاجة إليه تحديدًا؛ وجدت السكين.

الاهتمام الكبير الذي أثاره هذا السطر الأخير يجبرنا على التوقف عنده لنسمح للقارئ بالاستعداد لمشاهدة حدث مروع.

* * *

# الفصل العاشر

شمَّرت السيدة المرتجفة والمسلحة بسكين مطبخ كبير كُم سترتها الأيمن، وتوجهت مباشرة إلى باب المكتب، ووضعت أذنها على الباب مجددًا. لم يعد هناك مجال للشك في أن اثنين منحوسين ينعمان بنوم هادئ، بل إن بإمكان المرء أن يسمع كيف يطن أحدهما طنينًا أقوى، بينما يطلق الآخر الألطف أنفاسًا طويلة «بخي».

وضعت زوجة مدير مكتب البريد السكين في ثنية الباب، ورفعت الخطاف وفتحت الباب بهدوء من دون أي صرير.

كان موعد الفجر لا يزال بعيدًا، ولم يكن بالإمكان رؤية أي شيء في الغرفة سوى النوافذ ذات اللون الرمادي، لكن العين المدربة لزوجة مدير مكتب البريد استطاعت تمييز مكان الطاولة والعلامات البريدية وطاولة أخرى طويلة في الزاوية وأريكة.

توجهت زوجة مدير مكتب البريد إلى الأريكة مباشرة، مستندة بيدها اليمنى إلى الحائط، متلمسة بيديها المكان في الظلام، ووجدت مصدر الشخير من دون صعوبة كبيرة، حيث استلقى مُصدِره على الحافة، وقد رفع رأسه قليلًا ونغمات الشخير تصدر من أنفه. لم يسمع النائم شيئًا،

وعند اقتراب زوجة مدير مكتب البريد بدا وكأن شخيره قد اكتسب متعة خاصة، كما لو أنه شعر أن كل هذا قد حانت نهايته، ولن يعود يحظى بهذه المتعة بعد اليوم.

وهذا ما حدث.

قبل أن يستمتع النائم بمتعته الأخيرة أمسكته يد زوجة مدير مكتب البريد اليسرى بقوة من شعره، وصفعته باليمنى صفعة قوية بعد أن ألقت السكين بعيدًا.

«ممم لماذا الـ... لماذا؟!». تمتم مُصدِر الشخير الذي استيقظ لتوِّه، ولكن بدلًا من أن ينال ردًّا على سؤاله نال صفعة ثانية وثالثة فخامسة وعاشرة، وكل صفعة أقوى من الأخرى وأعلى صوتًا.

صاح: «أي أي أي أي!»، وهو يحاول تفادي الضربات التي تنهال عليه في الظلام، وفجأة استُبدلت بالصفعات ضربات يائسة بلا صوت على الأرداف. في هذه اللحظة صاح فجأة مدير مكتب البريد الذي استيقظ على طاولته منزعجًا ومذعورًا: «يا عزيزتي، ماذا تفعلين يا عزيزتي! هذا ليس أنا، بل برنابا فاسيليفيتش».

شُدِهت زوجة مدير مكتب البريد وأفلتت من يدها شعر برنابا وصاحت: «ماذا تفعل أيها اللص هنا؟»، واندفعت صوب زوجها.

«هذا أنا! هذا أنا!». سمع برنابا صوت مدير مكتب البريد ولم يستطع أن يفكر في أي شيء في هذه اللحظة سوى ضرورة الركض، ومن ثم هبَّ من على الأريكة ووجد طريقه صوب الباب، وهرع إلى الشارع بثيابه الداخلية.

لقد تعرض إلى ضرب قاسٍ، وعندما مسح وجهه بكمه لاحظ أن دماء تسيل من أنفه.

في هذا الوقت انفتح الباب، وناداه مدير مكتب البريد بهدوء. أجابه بريبوتنسكي بصوت عالٍ:

- أنا هنا.

- تفضل ثيابك.

وأُغلِق الباب مجددًا وسقطت الثياب على الأرض. جمعها المعلم. بمرور دقيقة نفض حذاءه على السور.

جلس برنابا على الأرض وارتدى حذاءه ثم ارتدى ثيابه بطريقة ما وتوجه إلى المنزل.

بدأ ضوء الفجر يضيء فناء المنزل، وعندما قرع بريبوتنسكي حلقة بوابة المنزل صار الفناء واضحًا تمامًا في هذا الضوء. صاحت الخابزة عندما التقت بابنها العائد في وقت متأخر:

- يا إلهي! من شوَّهك هكذا يا عزيزي برنابا؟

- لا أحد. لا أحد شوَّهني. نامي. لقد اصطدمت بشيء ما في الظلام.

- اصطدمت؟

- نعم نعم، اصطدمت بشيء ما في الظلام. هذا كل ما في الأمر.

انفجرت الأم الخابزة في البكاء.

- لماذا تضجين؟ لا علاقة لكِ بما حدث لي.

- هم! هم الذين يعذبونك (قالت العجوز شاهقة) لن يعود بإمكانك أن تعيش هنا أكثر من ذلك يا برنابا.

صاح بريبوتنسكي مستاءً:

- من هم؟

أشارت العجوز بيدها صوب الأرفف الفارغة التي كان الهيكل العظمي معلقًا عليها حتى وقت قريب، وهمست: «الموتى»، وركضت وهي ترشم نفسها بالصليب إلى غرفتها الصغيرة.

بعد يوم واحد فقط هرب بريبوتنسكي من المدينة ومعه أمر إجازته ومبلغ تافه من المال في جيبه، وقد ظل سبب هروبه المفاجئ سرًّا أبديًا مستغلقًا على أذهان الجميع.

* * *

# الفصل الحادي عشر

عادت السيدة موردوكوناكا إلى منزلها في الوقت ذاته تقريبًا الذي جرَّ فيه برنابا نفسه بعد أن تشوه إلى منزله.

تركت القيادة السريعة على طريق منتظم وجيد تأثيرًا منعشًا في السيدة البطرسبرجية، وهو التأثير الذي يشعر الإنسان بالحاجة إليه بعد قضاء وقت طويل في ضجيج وحوار، تطلب الأمر منه أن يشارك فيهما. لم تهزأ موردوكوناكا مما رأته. لقد زارت ببساطة هذه العوالم الدنيا وتركتها بالشعور ذاته الذي راودها حينما انصرفت بعد حفل عِماد طفل خادمتها التي توسلت إليها أن تقبل أن تصير عرابة لطفلها.

وصلت إلى منزلها في هذه الحالة المعنوية الدافئة، ومرت بمجموعة من الغرف الفارغة الثرية، وخلعت ثيابها ثم استلقت على فراشها، وشعرت بالبرودة، فمدت يدها إلى الدثار الموجود على مقعد بجوار الفراش.

اندهشت حينما بسطت هذا الدثار ولاحظت قطعة ورقة مثبتة بدبوس في منتصفه. اتضح أنها بطاقة بريدية رقيقة مطوية إلى أربعة.

نظرت الجميلة الناعسة بانتباه إلى هذا الملحق (بالفرنسية -المترجم) بدثارها، ورأت في منتصف الورقة ذات النقوش المرسومة على حوافها بحروف روسية فخمة: «كلمة صادقة».

قالت في نفسها: «ماذا يعني ذلك؟»، وسحبت الدبوس وفضت الورقة وقرأت الآتي:

«سيدتي الكريمة، فلتعذريني على صراحتي معكِ، لكن الرجل العسكري صريح دائمًا. روحي مبتهجة وأحمد الله على قضائكِ الليلة مع أطفالكِ المحبوبين. عسى أن يوفقهم الله في تحقيق هذا الهدف الذي سعت إليه والدتهم! أطلب منكِ بكل خضوع أن تكتبي لي ردًّا فيه رأيكِ فيما يكتبه بوفيردوفنيا، ولتتعطفي بكتابة ردكِ إليَّ بخطكِ السمائي الذي سأقدره أقصى تقدير:

لستِ من أرضنا

أنتِ معبود روحي

أكشف لكِ مكنونها

عالم فاتن يتوارى فيكِ

الكابتن بوفيردوفنيا»

انخرطت موردوكوناكا في نوبة ضحك، وأعادت قراءة خطاب الكابتن العاشق، وأطفأت شمعة البارفاين بطفاية الشمع الفضية، وغطت في نوم حلو بعد أن قالت في نفسها: «يا إلهي! هذه هي روسيا الحقيقية» (بالفرنسية -المترجم).

* * *

# الفصل الثاني عشر

في اليوم ذاته الذي قضوا فيه وقتًا ممتعًا في ستارجورود جرى مشهد من نوع آخر بعيدًا في الحجرة الصفراء الصغيرة للقمص المنفي. لقد ماتت هناك ناتاليا نيقولايفنا.

نظرًا لدقتها واقتصادها تدبرت زوجة القمص شؤونها طوال فترة إقامتها مع زوجها في منفاه من دون خدم، وحملت على عاتقها مسؤولية أعمال لم تعتد عليها سابقًا ولا تقوى عليها.

عندما وصلت إلى آخر ورقة نقدية من فئة ٢٥ روبلًا في علبتها، خافت أنه لن يتبقى لهما سريعًا أي مال، وقررت أن تطلب من الحارس الرقيب المسؤول ألَّا يقيم معهما في الشقة حتى يصلهما أمر العفو. وافق الشرطي، وأخفت ناتاليا نيقولايفنا بحرص عن زوجها كل ما ستفعله لاحقًا، فقد بحثت بكل السبل عن الوسائل التي تمكنها من خدمة الشرطي؛ حفرت مع خادمته من أجل البطاطس، وقطعت الملفوف، وذهبت بنفسها إلى النهر لتغسل الثياب الداخلية.

لم يحتمل عمرها وحالتها السيئة كل ذلك، ومن ثم مرضت ولازمت الفراش.

أدان القمص قلقها وعنايتها به بهذه الطريقة. قال لها:

- أتعتقدين أنكِ هكذا تساعدينني؟ بهذه الطريقة تفاقمين آلامي.

همست ناتاليا نيقولايفنا:

- سامحني.

- أسامحكِ على ماذا؟ فلتسامحيني أنتِ. (أجاب القمص بحمية وقد تناول يد زوجته وقبَّلها) لقد عذَّبتكِ معي بشخصيتي غير المذعنة، ولكن إذا شئتِ فلتقولي كلمة واحدة فقط، وسأذهب فورًا وأعلن خضوعي من أجلكِ.

- ماذا تقول؟ لن أقول أبدًا هذه الكلمة. هل أنا التي ستعلمك؟ أنت تعرف جيدًا ماذا تفعل.

- صدقيني يا رفيقتي سأتحمل كل شيء.

- فليعينك الله ولا تشغل بالك بي.

قبَّل القمص يد زوجته مجددًا وذهب إلى الدير بينما انكمشت ناتاليا نيقولايفنا على نفسها ونامت، وحلمت بالشماس أخيل يأتيها قائلًا: «لماذا لا تصلين من أجل أن تخف معاناة الأب سافيلي؟». وهي تجيبه قائلة: «علِّمني هذه الصلاة». «فلتقولي الآتي: يا رب، فلتحفظ كل طرقه». وهي تكرر من خلفه بتقوى: «يا رب، فلتحفظ كل طرقه». ثم شعرت فجأة كما لو أن الشماس قد أخذها إلى هيكل شديد الاتساع مليء بأعمدة لا نهاية لها وفيه عرش يصل إلى السماء، وضوء ساطع يملأ الهيكل كله، وصار المكان من الخلف من حيثما أتت صغيرًا جدًّا إلى درجة مضحكة لولا قلقها من فكرة أنها امرأة قد أتى بها الشماس إلى الهيكل[1]. تقول لأخيل:

---

(١) الإشارة إلى منع دخول النساء الهيكل ولذلك شعرتْ بالقلق.

«هل أنت في تمام عقلك أيها الشماس؟ سيجردونك من شموسيتك لأنك أتيت إلى الهيكل بامرأة». يجيبها قائلًا: «لستِ امرأة، بل قوة». وبعد ذلك لم تعد ترى أخيل ولا عرشًا ولا ضوءًا. لا تنام ناتاليا نيقولايفنا وتتعجب لماذا يبدو كل شيء حولها بهذا الصغر. هذا السماور لا يبدو كسماور بل كدمية، وإبريق الشاي فوقه يبدو كقوقعة ناتئة لا أكثر.

في هذا الوقت عاد توبيروزوف من الدير وقال لها كلمة طيبة لكن ناتاليا نيقولايفنا لوَّحت له بيدها وقالت:

- هدوءًا. سأموت سريعًا.

تعجب القمص.

- ماذا تقولين يا ناتاشا! (تدليل ناتاليا -المترجم) فليحفظكِ الرب.

- لا، سأموت يا رفيقي. سأموت. أنا بالفعل نصف ميتة الآن.

- من قال لكِ هذا؟

- من قال لي؟! إنني أرى بالفعل نصف كل شيء.

جاء الطبيب وقاس النبض ونظر إلى لسانها وقال: «لا شيء، مجرد برد وبعض الإرهاق».

أراد توبيروزوف أن يقول إنها سوف ترى سريعًا كل شيء كاملًا وستخجل مما قالته. أجابته ناتاليا نيقولايفنا:

- حسنًا أنك لم تخبره.

- أما زلتِ لا ترين من الأشياء سوى نصفها؟

- نعم نصفها فقط. أهذا الذي أراه في السماء قمر؟

- ينظر القمر من النافذة إلينا معًا. إنه يراقب العجائز.

- أرى عين سمكة.

- يبدو لكِ هذا وحسب يا ناتاشا.

- لا يا أبي سافيلي. الأمر هكذا فعلًا.

أراد توبيروزوف أن يثني زوجته، فأراها الورقة من فئة خمسة وعشرين روبلًا التي أخرجها من الصندوق وسألها:

- حسنًا، قولي لي ما هذه؟

أجابت ناتاليا نيقولايفنا بلطف:

- ورقة من فئة خمسة وعشرين روبلًا.

خاف توبيروزوف. لم يعد يفهم الأمر، أما ناتاليا نيقولايفنا فابتسمت، وأمسكته من يده وأغلقت عينيها وهمست:

- أنت تمزح وأنا أمزح. لقد عرفتُ أن هذه هي ورقتنا، ولكن كل شيء صغير، لذا سأغمض عيني الآن وسيعود كل شيء ليبدو لي أكبر فأكبر. سيكبر كل شيء: أنت ونيقولاي أفاناسيفيتش والشماس أخيل والأب زكريا. مجدًا لي! مجدًا! لا توقظني.

وغطت ناتاليا نيقولايفنا في نوم أبدي.

* * *

# الجزء الخامس

## الفصل الأول

لم يكن القزم نيقولاي أفاناسيفيتش الوحيد الذي صعقه الهدوء المريع المرتسم على وجه توبيروزوف ورأسه المهتز، حيث سار ببطء في الوحل العميق للشوارع غير المعبدة خلف نعش زوجته المتوفاة ناتاليا نيقولايفنا. في ظل المصائب الكبيرة والصامتة التي يعايشها شخص ذو طبيعة عميقة، هناك بلا شك قوة لا تُقاوم تثير الخوف والهلع في نفوس الصغار الذين اعتادوا أن يسكبوا أحزانهم في العويل والندب. هذا تحديدًا ما شعر به من يهتمون بأمر العجوز المترمل، والذي حُرِم من صديقته المخلصة. عندما بدأ غطاء نعش ناتاليا نيقولايفنا يصطدم بأرض المقبرة استدار القمص المحروم من ممارسة عمله الكهنوتي لينزل من فوق الكومة العالية، وتراجع كل من حوله ليفسحوا له الطريق، وذرع المقبرة كلها وحيدًا، برأس حاسر.

توقف عند البوابة، وصلى أمام الأيقونة المقدسة في الكنيسة الصغيرة، وبعد أن ارتدى قبعته نظر خلفه مرة أخرى ونعجب؛ رأى القزم نيقولاي أفاناسيفيتش واقفًا أمامه، وقد سار من خلفه على مبعدة خطوتين من قبر زوجته حتى هذه النقطة.

ارتسمت الدهشة على الوجه الجاد للقمص. من الواضح أنه سعد بلقاء «الحكاية الخرافية القديمة» في مثل هذه اللحظة الصعبة من حياته. تنحى جانبًا صوب الحقول السوداء بالخضرة الشتوية المتجمدة والملتوية، وسالت من عينه دمعة ثقيلة؛ دمعة وحيدة وسريعة كقطرة زئبق اختبأت في لحيته الشيباء كما يختبئ طفل يتيم في الغابة.

رأى القزم هذه الدمعة، وبعد أن أدرك مغزاها كاملًا رشم نفسه بعلامة الصليب بهدوء. داوت هذه الدمعة صدر سافيلي الذي ضاق بما فيه من أحزان. هزَّه الحزن بشدة، وقال استجابة لدعوة القزم للجلوس في عربته:

- حسنًا يا نيقولاشا. سأجلس.

تحركت العربة بهما في صمت، وعندما توقفت عند كوخ الحراسة بالقرب من الدير صافح توبيروزوف القزم في صمت، وتركه ومضى لحاله في صمت.

لم يتبعه نيقولاي أفاناسيفيتش لأنه فهم رغبة توبيروزوف في أن يختلي بنفسه. لم يزُر الأرمل إلا مساءً، وبعد أن مكث معه لبرهة طلب شايًا بحجة أنه يشعر بالبرد، لكن الهدف الرئيس من طلبه هذا هو محاولة إلهاء سافيلي عن حزنه والتحدث معه عن سبب مجيئه إليه. بدت هذه الخطة لنيقولاي أفاناسيفيتش مثالية، وعندما أحضر توبيروزوف له السماور الفائر في الغرفة جلب القزم أكواب الشاي وبدأ يُعدها وانخرط معه في حديث هادئ عما حدث في المدينة، وروى له القصة بكل تفاصيلها، وما حدث يومًا بعد يوم حتى هذه الساعة التي يجلس فيها الآن في هذا الكوخ. ركزت القصة بالطبع في الأساس على تفجع المدينة بالمصائب التي حلَّت على

قُمُّصها وحزن أهلها على غيابه وخوفهم من أن يخسروه إلى الأبد.

في الجزء الأخير من هذه القصة المتعلق بعلاقة أبناء الإيبارشية به بدت على القمص أمارات الانتباه، بالرغم من أنه استمع في البداية إلى حديث نيقولاي أفاناسيفيتش في مظهر جاد يبدو قريبًا من الهدوء اللا مبالي، وعندما نظر القزم من حوله وخفض صوته وحكى كيف كتبوا ووقَّعوا طلبًا مدنيًّا، وكيف أخذه نيقولاي أفاناسيفيتش بنفسه من يد أخيل وأخفاه في صدره، ارتعشت الشفة السفلى للعجوز فجأة وقال:

- أناس صالحون. شكرًا.

- شعبنا طيب يا أبانا، بل طيب جدًّا لكن كل ما في الأمر أنه لا يعرف إلى الآن ماذا عليه أن يفعل.

- ظلمة... «عَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ[1]».

قالها القمص وتنهد بعمق وطلب أن يرى الورقة موضوع الحديث. سأله القزم بابتسامة ماكرة:

- ما حاجتك إليها يا أبي القمص؟ سوف تُسلَّم غدًا لمن وُقِّعت من أجله.

- أعطني إياها. أريد أن أراها.

بدأ القزم يفك أزرار ثوبه حتى يصل إلى الورقة الموجودة في جيبه الداخلي، لكنه تذكر فجأة شيئًا ما وتوقف. قال سافيلي:

- أعطني إياها، أعطني إياها.

---

(١) تكوين ١: ٢.

- لكنك لن... لن تمزقها يا أبي، أليس كذلك؟

- نعم.

قالها توبيروزوف بحزم، وعندما وجد القزم الورقة التي تتضمن توقيعات واضحة وأخرى غير واضحة وقدَّمها إليه همس بوقار:

- لا تُمزِّق هذه الورقة الثمينة. لا، لا. مستعد أن أذهب من أجلها إلى الظلمة أو أُعلَّق على الصليب أو أوضع معها في نعش.

الأمر الذي أصاب القزم بالرعشة هو أن القمص بدأ يطوي الورقة ووضعها في جيب صدره تحت ثوبه الداخلي.

- عفوًا يا أبي ولكن يجب أن تعطيني هذه الورقة.

- لا، لا يجب.

هز توبيروزوف رأسه، ملوحًا بإصبعه بالنفي، وأكد قائلًا:

- لا يا نيقولاي. لا يجب. لا يجب.

قال ذلك وأغلق بإحكام أزرار ثوبه وشد حزام غفارته وأغلق ياقته.

لم تكن هناك أي إمكانية في هذا الوقت لأخذ هذه الورقة منه، بل يمكن للمرء أن يضمن أن الأمر سيكلفه حياته قبل أن ينال مثل هذه الورقة المليئة بالخربشات.

أدرك القزم ذلك وعزف بنجاح على النغمات الخاصة المؤثرة على سافيلي. تحدث نيقولاي أفاناسيفيتش عن مدى عظمة وروعة طلب التوسط هذا، ثم تحدث عن كم يجب أن يكون مثل هذا التوسط مقدسًا ومصونًا للجميع.

- سوف يبكون حزنًا يا أبي القمص من عدم رؤيتهم لك.

تنهد القمص قائلًا:

- الأمر سيان بالنسبة لي. لن أعيش طويلًا. صارت أيامي معدودة بالفعل.

- لكن ماذا عني أيها الأب القمص؟ لقد ائتمنوني عليها، فكيف أظهر لهم الآن؟

تحرك توبيروزوف من مكانه، ودار حول حجرته الصغيرة بضع مرات، وتوقف في الزاوية أمام الأيقونة، ثم أخرج الورقة من جيب صدره وقبَّلها عدة مرات وأعادها إلى القزم قائلًا:

- أنت محق يا صديقي العزيز. افعل ما أمروك بفعله.

* * *

# الفصل الثاني

واجه نيقولاي أفاناسيفيتش الكثير من المتاعب في المهمة الموكلة إليه، لكنه سلك باجتهاد ومثابرة. لم تكتنف هذا الرسول الصغير تجاه العالم الكبير برودة أو حماسة زائدة، لكنه اجتهد كالقراد في كل ما من شأنه أن يساعده في تحقيق النجاح، ولم يتباطأ. اعتاد زيارة سافيلي كل مساء لكنه لم يحكِ له شيئًا عن مشاغله اليومية، وبالطبع لم يسأله سافيلي عنها. في هذه الأثناء تقدم الأمر، حتى إنه في اليوم التاسع لوفاة ناتاليا نيقولايفنا، عندما عاد القمص من المقبرة وجد القزم يقول له:

– حسنًا يا أبي القمص، دعنا نعود إلى المنزل الآن. لقد أطلقوك.

أجابه توبيروزوف بلا مبالاة:

– ليفعل بي السيد الرب ما يشاء.

– لكنهم يطلبون منك أمرًا واحدًا؛ أن تقدم لهم إقرارًا إلزاميًّا بأنك لن تفعل ذلك ثانية في المستقبل.

– حسنًا. لن أفعل ذلك. لن أفعل ذلك تحديدًا لأني ضعيف ولم أعد صالحًا لشيء.

– هل ستقدم لهم إقرارًا بذلك؟

– نعم. موافق.

- قبل ذلك يطلبون منك أيضًا أن تعلن توبتك وتطلب المغفرة.

- علام؟

- على الوقاحة. أقصد هم الذين يقولون هذا؛ «على الوقاحة».

- على الوقاحة؟ لم أكن وقحًا قَط في حق الآخرين، وأضبط نفسي بقدر ما أستطيع، ومن ثم لا يمكنني إعلان توبتي على شيء لم أفعله. لا أستطيع فعل ذلك.

- هم الذين يقولون ذلك وهذه تسميتهم للأمر.

- قُل لهم إنني لا أعتبر نفسي وقحًا.

توقف توبيروزوف ووجَّه سبابة يده اليمنى صوب الأعلى وصاح:

- لم يوصم نبي بالوقاحة لغيرته على السيد الرب. قُل لهم إن كاهنك قد أمرك بأن تقول لهم إنه غيور، وسيظل حتى موته غيورًا كما وُلِد، ولا تحدثني مرة أخرى عن الصفح.

غادر الشفيع بهذه الإجابة الحاسمة واستقل عربته مرة أخرى وسار مجددًا وتوسل، بل وهدَّد بالدينونة البشرية تارة وبالإلهية تارة أخرى ولكن عبثًا تفوَّه لسانه الضعيف بكل ذلك.

مرض القزم ولازم فراشه. عدم نجاحه في هذا الأمر الذي تولاه كمحامٍ حقيقي كسر قوته وقدرته على الاحتمال.

تغير دور العجوزين، فكما اعتاد نيقولاي أفاناسيفيتش سابقًا على زيارة توبيروزوف يوميًا، صار سافيلي الآن بعد أن يجهز الحطب ويصلي صلاة عشية في الدير، يمضي إلى منزل بلودوماسوف الكبير حيث يستلقي القزم المريض في مكان هادئ ومنعزل.

شعر سافيلي بالأسف الشديد على نيقولاي أفاناسيفيتش، وحزن عليه وقال متنهدًا:

- وكأن هذا هو الأمر الوحيد الذي كان ينقصني أيضًا! أن تمرض من حزنك عليَّ!

- أبي القمص، ما جدوى الحديث هنا عن أرنب عجوز؟ أنا لست صالحًا لشيء. فكِّر في نفسك وفيهم، وفكِّر في كهنوتك. لو تسمح لي: يطلبون منك الخضوع، فلتُرضهم وتطلب منهم المغفرة.

- لا أستطيع يا نيقولاي، لا أستطيع.

- يطلبون ذلك بقوة يا أبي القمص. كبرياء المنصب هي ما تجعلهم غير قادرين على التحدث في الأمر مجددًا، لكنهم يشعرون بالأسف والضيق الشديد، والمدينة كلها قد نهضت من أجلك. ليس من الجيد لهم أيضًا أن يرفضوا طلب الجميع. لا تفعل ذلك. فلترضهم ولا ترفض التساهل.

- لا أستطيع يا نيقولاي. لا أستطيع. طلب المغفرة ليس أمرًا بسيطًا.

- تواضع.

- أنا متواضع أمام السلطات، ولكن هناك سلطة أعلى من السلطة الأرضية ولا بد أن تتسلط عليَّ بالطبع. أنا إنسان خاضع للقانون. أوصانا يشوع بن سيراخ[1] بضرورة أن يحفظ المرء شرفه، كما احتج معلمنا بولس الرسول على انتهاك حقوق مواطنته، ومن ثم ليس لدي الحق في إذلال نفسي من أجل التقدم بطلب.

---

(١) «وَلَا تَجْعَلْ عَيْبًا فِي كَرَامَتِكَ». يشوع بن سيراخ ٣٣: ٢٤.

يئس القزم. لم يقدِّم له القمص أي أمل في أي تنازل. لا يزال ثابتًا من دون حركة إلى الأمام أو الخلف، ولا إلى اليمين أو اليسار.

لم يوافق نيقولاي أفاناسيفيتش الأب سافيلي على ذلك، إلا أنه لم يُرجع سلوكه هذا إلى الفخر أو الحمية، لكنه رأى فيه عنادًا لا يستحق الثناء، وقرر بإدانته للقمص أن يقول له مرة أخرى:

- من المستحيل يا أبي سافيلي... مستحيل بعد كل هذا يا سيدي ألَّا تشعر بالأسف أمام السلطة. إنهم في حاجة إلى مجازاتك بطريقة ما، فما السبيل إلى الخروج من هذا الموقف؟

- الأمر يعود إليهم.

- لكن هذا يعني بالنسبة إليهم أنك لا تشعر بالندم إطلاقًا.

أجاب القمص متنهدًا:

- لا يا عزيزي، أشعر بالأسف الشديد على أسقفنا الحزين. أشعر بالأسف الشديد عليه.

- جيد، فلتتخلَّ إذن عن عادتك بقدر بسيط، ولتعلن طاعتك.

- لا أستطيع. قانوني لا يسمح لي بذلك.

قرر القزم التخلي عن أي أمل في تحقيق أي شيء، وبدأ يُعد أموره للعودة إلى مدينته. لم يعارضه سافيلي، بل على النقيض؛ نصحه بالرحيل ولم يقسُ عليه بكلمة. حتى الدقائق الأخيرة، بل وحتى في أثناء توديع القزم وهو يفارق المدينة ويتخطى الحاجز، لم يتنازل عن موقفه أدنى تنازل، وانعطف صوب طريقه المألوف للعودة إلى المدينة، وتجول ليجمع بعض الحطب من فناء الدير.

تخطى حزن نيقولاي أفاناسيفيتش كل الحدود. لم يفكر قَط في العودة بهذه الطريقة، وبينما يقود عربته ظلت أفكاره تدور حول الأمر ذاته، وفجأة تملكته فكرة بسيطة وواضحة ورائعة ولامعة من نوعية الأفكار التي يندر أن يصل إليها المرء، ويشعر أنها تأتيه من السماء لا من داخله.

عند الفرست العاشر انعطف القزم صوب المدينة وزار الأسقف رئيس سافيلي وتوسل إليه أن يأمر القمص بالإذعان.

في حقيقة الأمر لفترة طويلة والأسقف يشعر بالضيق بسبب أنه كبَّل العجوز العنيد، وبعد أن نال القزم ما أراده ظهر أمام توبيروزوف فجأة مجددًا وقال:

- حسنًا يا سيدي الأب القمص الفخور. لم ترغب في التنازل، لكنك أوصلت نفسك الآن إلى درجة ضرورة الامتثال للصرامة. لقد أمروني بأن أبلغك بأن أسقفك يأمرك بالاعتذار.

سأل توبيروزوف بجفاف:

- أين يأمرني أن أجثو على ركبتَي؟ هنا أم في ميدان أم في الهيكل؟ الأمر سيان بالنسبة لي. سوف أنفذ ما يأمر به.

أجابه القزم بأن أحدًا لا يطلب إذلاله بأي طريقة، ويكفي أن يكتب طلب المغفرة على ورقة وحسب.

تناول توبيروزوف ورقة على الفور وكتب المطلوب ووصفها بأنها: «أكثر المطالبات بالمغفرة إذعانًا». قال القزم إن كلمة «مطالبة» هنا غير ملائمة تمامًا، لكن سافيلي رفض تعديلها تمامًا وقال:

- آمل حقًّا ألَّا تحاول تعليمي المنطق، فقد درسته بالفعل في المعهد. قلت لي إنهم يطلبون مني ذلك، وها أنا أكتب «مطالبة».

انتهى الأمر بالنسبة للأب سافيلي بهذه الطريقة، وحين سئم عبثهم معه أطلقوا سراحه، ولكن نظرًا لأن التماسه الأكثر إذعانًا كان في الوقت نفسه «طلبًا» من أجل المغفرة، تَوجَّب أن ينال توقيعًا رسميًّا؛ الأمر الذي جعلهم يتركون العجوز العنيد طوال نصف عام ممنوعًا من ممارسة عمله الكهنوتي.

لم يُغضب ذلك سافيلي، وبعد أن شكر كل من ارتأى ضرورة شكره رحل بصحبة القزم إلى المنزل من منفاه الطويل والصعب.

* * *

# الفصل الثالث

لم يتحدثا في الطريق إلا قليلًا، وكان نيقولاي أفاناسيفيتش هو البادئ بالحديث دائمًا. حاول القزم أن يلهي ويخفف عن القمص الجالس في صمت بيدين معقودتين على ركبتيه، وقد ارتدى قفازيه السويديين القديمين، وتحدث عن هذا وذاك، لكن توبيروزوف ظل صامتًا أو تحدث بأقل الكلمات الممكنة. حكى له القزم كيف شعر أبناء الإيبارشية بالاشتياق إليه وبكوا عند رحيله، وكيف أرادت زوجة مدير مكتب البريد أن تضرب زوجها وضربت بدلًا منه بريبوتنسكي، وكيف هرب المعلم من المدينة مطاردًا من قِبل ببزيوكينا، وظل العجوز طوال هذا الوقت صامتًا.

تحدث نيقولاي أفاناسيفيتش عن منزل توبيروزوف، وعن أنه يتساقط ويجب ترميمه.

تنهد القمص وقال:

– من الآن وصاعدًا كل هذا مجرد غبار بالنسبة لي، ويؤسفني أني ارتبطت بذلك يومًا من الأيام.

تحوَّل القزم إلى التحدث عن أخيل ورغبته في أن يجلب العزاء لنفسه، ونظرًا لشعوره بالملل الشديد اصطحب جروًا أعمى إلى منزله ليسلي نفسه به. همس القمص:

- حسنًا له أن فعل ذلك. عسى أن يجد العزاء.

أجابه نيقولاي أفاناسيفيتش متحمسًا:

- نعم يا سيدي، ويمكنني أن أحكي لك يا أبي أيضًا عن القصص الرائعة التي حدثت معه بسبب هذا الكلب، فبسبب شخصيته حدثت أعجب الحكايات. لقد درَّب الكلب على أن يضحك مثل الكلاب السابقة. يقول له «اضحك يا كلب»، وإذا به يكشف عن أسنانه، ثم أخذ يفكر ماذا يجب أن يسمي هذا الكلب.

أجابه القمص على مضض:

- حسنًا، أليس سيان أي اسم سيدعو به كلبًا؟

لاحظ القزم أن القمص لا يبالي بحكايته عن أخيل رفيقه، لكنه واصل حكايته:

- انتظر قليلًا يا سيدي، الأمر ليس سيان بالنسبة لشخصية الأب الشماس، وما يخطر على ذهنه لا بد أن ينفذه. يقول إنه أحضر الكلب إلى المنزل في مناسبة خاصة، ويريد إذن أن يطلق عليه تسمية خاصة غير موجودة الآن.

ابتسم القمص.

- وجدت الأب أخيل بعد ذلك قد جاءني إلى المنزل في بولودوماسوف على صهوة جواده، ووقف أمام نافذة حجرتي أنا وشقيقتي وصاح عاليًا: «نيقولاشا، يا نيقولاشا». قلت في نفسي: «يا إلهي، تُرى ما الأمر؟». نظرت إليه من النافذة وقلت: «عسى ألَّا يكون شيء سيء قد حدث للأب سافيلي يا أبي الشماس». «لا، الأمر ليس كذلك، بل إني في حاجة

إليك في أمر آخر. أحتاج إلى نصحك». قلت له: «لسنا حراسًا قوزافيين حتى نتواصل مع بعضنا بهذه الطريقة؛ واحد على صهوة جواده والآخر من نافذة المبنى»، وسألته إلى أين هو ذاهب ولم يرغب في أن يخبرني. قال: «ليس لدي وقت لذلك، كما أني لست بمفردي». صحت فيه: «ما الأمر؟ تكلم يا سيد بسرعة، فأنا أشعر بالبرودة من الوقوف عند النافذة. أنا إنسان بتضرر سريعًا من البرودة». «منذ صغرك وأنت تعيش في منازل السادة. لا بد إذن أنك تعرف كل أسماء الكلاب». «كيف تمكنني معرفة أسماء كل الكلاب؟ هل هي قليلة حتى أعرفها كلها؟». صاح فيَّ: «أسرع واتلها عليَّ». بدأت أتلو الأسماء عليه، فالأسماء تختلف باختلاف سلالات الكلاب بحيث يليق الاسم على سلالته. مثلًا يدعون الكلاب السلوقية في أغلب الأوقات «ميلورد[1]» أما كلابنا البسيطة، وهي الأجمل، فيدعونها غالبًا «باربوس»، ويطلقون على الكلاب الإنجليزية «فاني[2]»، والكلاب الكورلندية[3] يدعونها «شارلوتكا»، ويطلقون على الفرنسية «جوجو» و«بيجو»، والإسبانية «كارلو» أو «كاتانيا»، وبالنسبة للكلاب الألمانية يسمونها «شبيتس». ولكن هنا قاطعني الأب الشماس قائلًا: «لا، قُل لي اسمًا لم يطلقه أحد من قبل على كلب. لا بد أنك تعرف هذا الاسم». فكرت في الطريقة التي يمكنني بها أن أهدئه.

سأل توبيروزوف باهتمام:

– وكيف استطعت أن تهدِّئه؟

---

(١) تحريف لـ My lord أي يا سيد.

(٢) تحريف لـ Funny.

(٣) كورلاند هي إحدى المقاطعات البلطيقية التي كانت موجودة في الإمبراطورية الروسية.

- في هذا الوقت يا أبي بدأت أشعر بالبرد الشديد من الوقوف عند النافذة، وحتى أتخلص منه بأسرع وقت قلت له: «أعرف يا سيدي اسمًا آخر لكن أخشى أن أخبرك به». صاح: «لا، لا تخشَ شيئًا، لا تخشَ». أحد السادة أطلق على كلبه: «كاكفاس[1]». فجأة شعر الأب أخيل بالإحراج وقال: «ما هذا الهراء؟ هل جننت؟». «لا، لم أجن، بل أعرف أميرًا في موسكو أطلق على كلبه كاكفاس». فجأة استشاط أخيل غضبًا وبدأ يحفز جواده ويرفع قدميه على الحائط وصاح: «كيف تجرؤ على أن تقول لي ذلك أيها العجوز؟ ألا تعرف اسمي المسيحي وألا تعرف أني من الإكليروس؟». هدَّأته يا أبي بصعوبة وشرحت له التسمية.

قال سافيلي مبتسمًا:

- طفل كبير السن.

- نعم يا سيدي. كل شيء مزحة بالنسبة له.

- لا تَدِنْه. يمكننا أن نسلي الطفل بأي طريقة، المهم ألَّا يبكي. من الصعب عليه أن يحمل على كاهله عبئًا ثقيلًا. يبدو الأمر كنائم تتوهج فيه وحده فجأة ألف روح.

- بالضبط يا سيدي. أنا لا أعرف كيف يمكنه أن يموت.

همس القمص:

- أنا أيضًا لا أعرف. إنه بمثابة نفي للموت. لكن كيف الحال مع «كاكفاس»؟

---

(١) تحريف لكلمة معناها الحرفي: مِثلك. المزحة في أن يسأل أحد على اسم الكلب فيجيبه بكلمة تعني: مثلك.

– يمكنني أن أقول إنه يواجه الآن مشكلة، كما أنه يستحيل عليه أن يتدبر أمره من دونها. أي عادات ابتكرتها لنفسك أيها الأب الشماس؟! ما إن يشعر بالملل الشديد حتى يأخذ كلبه كاكفاس على يديه ويذهب به إلى مكتب البريد ويجلسان معًا في الشرفة الخارجية وينتظران. إذا مرت أي شخصية مهمة، سواء كانت رجلًا أو امرأة يقول لكلبه على الفور: «ابتسم أيها الكلب»، ويبتسم الوغد فعلًا، فيسأل المار بفضول: «ماذا تدعو هذا الكلب يا أبي؟»، ويجيبه: «لست أبًا كاهنًا، بل شماس. أما أبي الكاهن فهو شديد المهارة». يسأله المار: «ولكن ما اسم كلبك؟». يجيب: «اسمه كاكفاس». سرعان ما تبدأ مشاحنات مستمرة بسبب ذلك. يقول: «سوف أقول لهم جميعًا في حضورهم مباشرة إنهم كلاب، وحتى القاضي نفسه لن يجعلني عفريتًا أقرع». كل هذا بمثابة انتقام من أجلك أيها الأب سافيلي، لكنه لا يفكر في الاعتبارات التي ينتقم بموجبها. لقد واجه الأب زكريا موقفًا مؤسفًا بسببه. لقد رأوا عنده كلب أخيل وسألوه عن اسمه. أجاب الأب زكريا: «يُدعى كاكفاس الموقر»، وتلقى توبيخًا بالطبع على ذلك.

انخرط سافيلي في الضحك حتى دمعت عيناه وجففهما بمنديله وقال:

– زكريا هذا طيب النية لا يُقدَّر بثمن حقًّا. إنه بمثابة إناء السيد الرب وكتاب الصلاة، ولم أرَ مثله قَط. أرغب بشدة في معانقته.

فجأة ظهرت لعيون المسافرين المدينة العزيزة من خلف الجبل؛ المدينة القديمة المميزة والمليئة بالذكريات لتوبيروزوف؛ الأمر الذي جعله تحت وطأة ضغط الذكريات المفاجئ يتراجع إلى الخلف ويضيق

عينيه كما لو أنه يواجه ضوء الشمس الساطع.

قررا الإبطاء من سرعتهما حتى لا يدخلا المدينة قبل حلول الظلام، وعند الغسق دقَّا الحلقة الحديدية للبوابة المألوفة. سمعا صوتًا يقول: «من هناك؟». كان صوت أخيل. جفف توبيروزوف بإصبعه دمعته ورشم علامة الصليب على نفسه. أعاد صوت أخيل السؤال:

- من هناك؟

أجابه القزم:

- من يمكن أن يكون سواي أنا والأب سافيلي.

صاح الشماس وطار فوق درجات الشرفة الخارجية وفتح البوابة على مصراعيها، وألقى نفسه على عنق القمص وتجمد في هذه الوضعية.

ظلا يعانقان بعضهما طويلًا وينتحبان بشدة في الوقت الذي وقف فيه القزم في هدوء، وفي الآن ذاته يبكي ووجهه داخل قبضته الصغيرة.

أخيرًا، أراد الشماس أن يتحدث بعد أن أنهى بكاءه. كاد أن يسأل على ناتاليا نيقولايفنا لكنه استطاع في اللحظة الأخيرة أن يتراجع بمهارة عن نطق اسمها، مشيرًا للقمص إلى الكلب الصغير الذي يدور بالقرب من قدمه وقال:

- هذا يا أبي كلبي الجديد كاكفاس. إنه أروع الكلاب، ويمكنني متى شئت أن أجعله يضحك. إنه يملأ فراغي.

كرر الأب سافيلي «فراغ» بألم غير محتمل، لكنه تماسك واكتفى بأن ضغط بيده بقوة على يد أخيل.

# الفصل الرابع

عندما دخل الشماس أخيل المنزل الذي ظل فيه لفترة طويلة من الوقت سيده وساكنه الوحيد، قبَّل القمص الجزء الجاف من رأس المارد العفوي المجعد، ومرا معًا على كل الغرف، ورشم القمص علامة الصليب على فراش ناتاليا نيقولايفنا الفارغ واليتيم وقال:

– حسنًا يا صديقي. لا يجب الآن أن نفترق. سنعيش معًا.

– يسعدني ذلك جدًّا. أنا مستعد وسأرتب الأمر بنفسي.

هكذا أجابه أخيل ثم عانقه مجددًا.

عاشا فعلًا معًا. أدى أخيل عمله في الكنيسة والمنزل على السواء، أما توبيروزوف فمكث في المنزل وانهمك في قراءة كتاب جون بنيان[١] والتفكير والصلاة.

لم يخرج من المنزل إلا نادرًا، أو بصورة أدق لم يخرج من المنزل إطلاقًا، واقتصرت إجابته المختصرة عن سؤال من يزورونه: «لماذا لا تخرج؟»، على: «أستعد».

(١) كاتب وواعظ إنجليزي اشتُهر بكتابه «رحلة الحاج».

كان يستعد فعلًا لذلك، وعاش حياة مكثفة ومركزة بروح الثقة بالذات. تولى أخيل عنه كل الهموم والمشاغل، وقد منحه ذلك راحة كبيرة.

لكن لم يُقدَّر لهذه الحالة الهانئة أن تستمر طويلًا. كرَّموا أخيل وقرر الأسقف أن يصطحبه معه إلى بطرسبرج حيث استدعوه لحضور اجتماع المجلس الكنسي، وكان رئيس شمامسة عاصمة المقاطعة مريضًا في هذا الوقت.

كان فراق الشماس لتوبيروزوف مؤثرًا. أخيل الذي لم يكتب قَط أي خطابات، ولم يعرف حتى كيف تُكتب ولا كيف تُرسل، تعهد بأن يكتب لتوبيروزوف، بل وحقق تعهده.

كانت خطاباته أصيلة وغريبة، ولا يمكن أن نعتبرها أقل من مستودع كامل لحياته وطريقة تفكيره. أرسل أولًا خطابًا لتوبيروزوف من عاصمة المقاطعة، ووضع خطابه هذا في ظرف مكتوب عليه: «إلى الأب القمص توبيروزوف، خطاب سري إليك وحدك»، وقال فيه إنه في أثناء إقامته في الدير انتقم له من الرقيب ترواديا حيث ربط قطعة سجق على ظهر قطته وعلق عليها ورقة مكتوبًا عليها: «قطعة سجق لحاملها»، وترك القطة تجوب أنحاء الدير بهذا الحمل.

بمرور شهر كتب أخيل خطابًا من موسكو أعرب فيه عن كم راقت له المدينة، لكنه ذكر أن الناس هناك شديدو المكر، وخاصة المنشدين الذين استدعوه مرتين ليشرب معهم لامبوبو لكنه -على حد تعبيره- «عرف من واقع خبرته ماذا يعني هذا اللامبوبو، وأنه تعجب من وقاحة المنشدين هذه».

بعد ذلك بفترة أرسل خطابًا من بطرسبرج وقال فيه: «صديقي الحبيب وأبي الكاهن سافيلي، ابتهج، أعيش هنا حياة رائعة في فناء الدير لكن أشعر بالهلع لأنه يبدو كمدينة صاخبة. بغض النظر عن هذا الضجيج كل الأمور على ما يرام. أشتاق لك، فلو كنت معي هنا لكان من دواعي سروري أن تتضاعف دهشتنا معًا من كل شيء. أتذكر نصائحك المباركة، وأسلك مع الجميع دائمًا باحترام، ولم أشرب هذا اللامبويو الموسكوفي الذي لمَّحت لك سابقًا عنه. لا أشرب سوى القليل، ولا أفعل ذلك إلا بهدف ألَّا أفقد بعض المعارف الجيدة هنا. لدينا هنا الكثير من الصالحين، ولكن ليس لدينا شمامسة حقيقيون كما يتطلب الأمر فعلًا. لا، جميع المنشدين من طبقة تينور لا يصلحون لشيء من وجهة نظري سوى الإنشاد عند المقابر، وبالرغم من أن بعضهم يسلك بكبرياء شديدة، فإنهم لا يستطيعون التكبر أمامي، وفي أثناء الصلاة يثرثرون جميعًا، بل وكثيرًا ما ينشزون، وهذا هو السبب الذي يجعل الرضا عنهم أمرًا مستحيلًا. بصفتي ضليعًا في الأمر لا أحاكيهم في إنشادهم، بل أرنم بطريقتي الخاصة، وبالرغم من أني زائر فإن بعض التجار دعوني إلى سرادقهم في ساحة جوستيني بالقرب من البوابة لأصلي هناك، وإلى جانب تبرعهم النقدي أعطوني أيضًا مقابل هذه الصلاة ثلاثة أوشحة حريرية، سوف أجلب لك ما تريده منها. عساك بخير. أشعر أنا أيضًا باشتياق شديد، بسبب جهلي بالطبع وكذلك بسبب بعدي. أكثر شيء متوفر هنا هو القهوة. بسبب بُعد المسافة نادرًا ما أزور أحدًا. يتطلب الأمر أن أستقل عملة ذهبية[١] ومن دونها لا يمكنني

---

(١) يخلط أخيل بين كلمتين متشابهتين بالروسية: عملة ذهبية – مكان على سطح العربة التي يجرها الجواد. **Полуимпериал - империал**

أن أذهب إلى أي مكان، لكنك لن تستطيع فهم ذلك بسبب حياتك في المدينة الصغيرة. هنا يجلس المرء في منزله المرتفع، وإذا نزل منه فعليه أن يتحلى بمهارة كبيرة حتى يقفز سريعًا ليتفادى كل شيء من حوله، ولا يسمحون للنساء بذلك بسبب ثيابهن. لاحظت أن الحوذية هنا ساخرون جدًّا، وإذا استأجرهم أحد إخوتنا من الإكليروس ولم يدفع إلا ثمنًا بخسًا، فسرعان ما يصيح فيه الحوذي: «عبثًا يا أبي ركبت معي. بالأمس قذفت كاهنًا في البركة»، لذلك لا أستقل أي مركبات على الإطلاق. التقيت ذات يوم ببرنابا لكني لم أمسه، لأن كلينا كان في عملته الذهبية (راجع الحاشية السابقة -المترجم) في اتجاهين متعاكسين، وكل ما استطعت فعله هو تهديده بالإشارة، إلا أنه صار هنا خامدًا تمامًا. أما بخصوص محنتك، وحقيقة أنك لا تزال محرومًا من المشاركة في الصلاة الليتورجية في الكنيسة، فرجاءً لا تدع هذا الأمر يكدرك. لقد استغرقت في التفكير في الأمر وقتلته بحثًا وتوصلت إلى أن السيد الرب يرى ذلك. أنظر إلى الأمر بهذه الطريقة: بالرغم من أنك لا تستطيع أن تصلي في كنيسة مدينتك الصغيرة، فإن لديك إنسانًا في العاصمة، تصعد صلاتك إلى السماء عبره، من كاتدرائية قازان حيث دُفِن مخلص وطننا الأمير اللامع كوتوزوف[1]، وكذلك من كاتدرائية القديس إسحاق الرخامية كاملًا، من أسفل نقطة فيها وحتى أعلاها، وكل هذا بمثابة رحلة حج إلى العاصمة من أجلك، لأنني أصلي الصلوات القصيرة نيابة عنك[2]، وأعلن منها ما هو ضروري جهرًا، كما أهمس في داخلي باسمك يا عزيزي الأب سافيلي، كما أصلي من

---

(١) ميخائيل إيلاريونوفيتش كوتوزوف: قائد عسكري روسي ودبلوماسي سياسي معروف، اشتهر بالانتصار الحاسم على جيش نابليون العظيم سنة ١٨١٢.

(٢) مجموعة من الصلوات يتلوها الشماس أو الكاهن في أثناء القداس ولا ترد عليه جوقة المرنمين.

أجلك صلوات لا نهائية، بل أكثر الصلوات حمية، وأشكو إلى الرب من الإساءة التي تعرضت لها عبثًا أمام الجميع من السلطات. أرجوك لا تفكر أو تقول لنفسك «أيامي معدودة»، لأن هذا الأمر سوف يبعث فيَّ أنا والأب زكريا حزنًا شديدًا، وأقول لك بصدق إنني لن أنجو حينها من هذا الأمر».

وقَّع بهذه الطريقة: «الشماس أخيل ديسنيتسين المُعيَّن في العاصمة مؤقتًا بدلًا من رئيس الشمامسة نيابة عن كنيسة إيبارشيته في مدينة ستارجورود».

وصل خطاب آخر من أخيل كتب فيه: «أتيحت لي فرصة سعيدة أن التقيت ببريبوتنسكي وفكرت في العراك معه بسبب ما فعله في الماضي، لكن اتضح أن برنابا سلك طريقًا مختلفًا تمامًا، حتى إني زرته في مكتب التحرير لأنه قد صار بالفعل محررًا، ورأيت في مكتبه مثقفين كثيرين وتصالحت معه. كان سبب هذه المصالحة هو أن برنابا قد صار إنسانًا تعيسًا للغاية لأنه تزوج مؤخرًا سيدة محلية شابة أكثر صرامة من أي سيدة أخرى، تفعل كل شيء يمكنه أن يفسد زواجهما، وقد بدأ يشرب كثيرًا ولم يعد هو برنابا الذي نعرفه. لقد صارحني بأنه لولا خوفه من زوجته لما تردد في الكتابة دفاعًا عن الله في الجريدة، وهو يسب الآن السيدة بيزيوكينا، وخاصة تيرموسيسوف الذي رتَّب أموره بشكل رائع وصار يتقاضى راتبًا ضخمًا لقاء خدمته السرية المتمثلة في مراقبة الشرفاء، ولكن الشيطان قد شوَّش حياته بالجشع فقد زوَّر أوراقًا مالية وهو الآن في السجن». علاوة على كل ذلك تباهى أخيل بحضوره عرضًا مسرحيًا. كتب: «حدث ذات مرة أن ذهبت مع بقية المنشدين في ثياب مدنية لحضور أسمى عرض أوبرالي: «من أجل القيصر»، وبكيت من فرط البهجة بعد مرور ليلة كاملة

بسبب روعة أصوات المغنين، وفي مرة أخرى ذهبت بثياب مدنية أيضًا لأنظر كيف التقى الملك نفسه بأخيل[1]، لكنني لم أجد أي شبه بيني وبين الممثل الذي أدى دور أخيل. هبَّ الممثل متسلحًا بدروعه كما لو أن شيئًا لدغه في كعبه. أعطني هذه العدة وسألعب الدور أفضل منه كثيرًا. مضى بقية العرض على الطريقة الوثنية بانفتاح إلى أقصى الحدود، ولا يمكن للشخص الأرمل أو الوحيد أن يراقب مثل هذا العرض بهدوء».

أخيرًا وصل الخطاب الثالث والأخير الذي أعلن فيه أخيل أنه سيعود سريعًا إلى منزله، وبعد ذلك، في إحدى الأمسيات الرمادية القاتمة، ظهر فجأة أمام توبيروزوف كرسول مبهج.

بعد أن هنأ الأب سافيلي الشماس على عودته اندفع بنفسه وأغلق المصاريع حتى يخفي عودة أخيل المبهجة عن عيون الفضوليين.

دار بينهما حديث طويل. شرب أخيل في أثناء هذا الحديث مقدار سماور كامل، أما الأب توبيروزوف فظل يسكب له كوبًا تلو كوب من الشاي قائلًا: «اشرب يا عزيزي، اشرب المزيد»، وعندما شرب أخيل قال له سافيلي: «الآن يا أخي احكِ لي المزيد: ماذا رأيت هناك أيضًا وماذا عرفت؟».

حكى أخيل، والله وحده يعلم ما حكاه! خرج كل شيء منه سريعًا ومتنوعًا ومربكًا وهائلًا، لكن الأمر الذي أدهش الأب سافيلي أكثر من أي شيء آخر هو أن أخيل أضاف إلى حديثه أغرب الكلمات بلا حساب، سواء فعل ذلك بشكل ملائم أم غير ملائم، وهي كلمات لم يستخدمها

---

(١) الإشارة هنا إلى أوبريت جاك أوفنباخ «هيلين الجميلة»، حيث يتم الاستهزاء بأبطال حرب طروادة ومنهم أخيل.

قَط قبل ذهابه إلى بطرسبرج، ولكن من المحتمل أنه لم يكن يعرفها من الأساس.

مثلًا لم يتحدث قَط بهذه الطريقة، سواء في القرية أو في المدينة: «تصور يا عزيزي الأب سافيلي أي تركيبة قد...»، مُشددًا على حرف «الياء» في كلمة «تركيبة»[1].

بالرغم من أن الأب توبيروزوف استمع إلى حكايات أخيل بتأثر، فإن تكرار مثل هذه الكلمات جعله يتجهم، ولم يحتمل وقال له:

– ماذا بك؟ ما الذي علَّمك استخدام مثل هذه الكلمات الفارغة الطنانة؟

لكن أخيل الذي انخرط انخراطًا كاملًا في حكاياته كشف بنفاد صبر أمام الأب سافيلي مستودعه من الكلمات التي اقترضها من العاصمة، ولم يمتنع عن ذكر كلمة واحدة منها.

– لا تخَف يا عزيزي الأب سافيلي. مثل هذه الكلمات غير ممنوعة الآن.

– كيف يا أخي؟ لها وقع سيئ.

– أووووه! كل هذا بسبب عدم الاعتياد عليها وحسب. قُل ما تريده ولكن كل هذا مجرد سفاسف.

– مرة ثانية؟!

– ماذا؟

---

(١) في الأصل الروسي يستبدل أخيل بأحد حروف الكلمة حرفًا آخر، ويبدو أن مثل هذه الاختلافات شاعت في هذا الوقت نتيجة اختلاف اللهجات بين العاصمة والمدن الإقليمية الصغيرة.

- أتستخدم مجددًا كلمة قذرة أخرى؟

- أتقصد: سفاسف؟

- تفوو! دناءة.

- ماذا في هذه الكلمة؟ كل المثقفين يستخدمونها.

- حسنًا، كتبهم بين أيديهم. دعهم يجلسون مع كلمتهم «سفاسف» هذه ولكن ما الذي يجعلنا نستعيرها منهم ولدينا ما يكفينا بالفعل من الهراء الروسي؟

- أنت محق تمامًا.

وافقه أخيل، وبعد أن فكر لبرهة أضاف أن كلمة «هراء» تروق له فعلًا أكثر بدرجة كبيرة من «سفاسف». أضاف محاولًا تبرير موقفه:

- معذرة، فلتنقع كلمة «هراء» هذه جيدًا ولن تجد شيئًا ينتج عنها سوى الضحك! إنهم هناك يسفسفون. مثلًا: يقولون إن الله غير موجود أو مثل هذه التفاهات، وهو أمر يبعث الهلع في النفس أكثر مما تثيره المشاحنات.

همس توبيروزوف بوداعة:

- لا بد لذلك أن يثير الذعر دائمًا.

- لكن يا أبي سافيلي لا يمكن أن يستمر الأمر بهذه الصرامة هكذا، إذا أثبتوه فلن نجد مكانًا نتوارى فيه.

- ماذا يثبتون؟ ماذا تقول؟ ماذا أثبتوا لك؟ هل أثبتوا لك أن الله غير موجود؟

- أثبتوا ذلك فعلًا يا أبي.

- أنت تكذب يا أخيل. أنت فلاح ومسيحي طيب. ارشم علامة الصليب. هل تدرك ماذا قلت؟

- وما العمل؟ لست سعيدًا بهذا يا عزيزي، ولكن ليس بوسع المرء المقاومة.

- وما أمر المقاومة هنا؟ ما الحقيقة التي اكتشفتها؟

- ما الذي يزعجك؟ يمكنك أن تستمر في قراءة جون بنيان وتؤمن ببساطتك تمامًا كما كنت من قبل.

- دع بنيان لحاله ولا تشغل بالك ببساطتي، ولنحكم على ما تقوله بنفسك.

أجابه أخيل متنهدًا:

- وما العمل؟ المقاومة؟

نهض توبيروزوف مرتبكًا وطلب من أخيل أن يكشف له فورًا حقيقة واحدة يمكن أن تثير شكوك الإنسان حيال وجود الله.

- لكلٍّ قدرته على الاحتمال، وكما يمكن أن يظهر البرغوث من النشارة، يمكن أن يظهر العالم من تلقاء نفسه.

بعد أن تلقى توبيروزوف هذا الاعتراف المخلص والساذج لم يعرف كيف عليه أن يجيب، ولكن أخيل واصل التحدث في هذا الاتجاه، معربًا أكثر عن التنوير البطرسبرجي. قال:

- إذا ابتعدنا الآن حقًّا عن هذا البرغوث التافه، ومضينا في طريقنا إلى ما هو أبعد من ذلك، فلن نرى شيئًا هنا، لأنه ليست لدينا أي كتب حقيقية

ولا كرات أرضية للتعليم ولا أنابيب اختبار ولا أي شيء. غمامة من الجهل إلى حد أن بوسعي أن أقول لك إنه لا توجد حتى لدينا هنا شجاعة حقيقية لنجري مناقشة. لقد جلست مع المثقفين هناك لمدة نصف ساعة ورأيت أن الدين بالطريقة التي هو عليها الآن غير موجود حقيقة، والبرغوث هنا يحاول أن يقاوم، ولكن العلم لا يدع له مجالًا.

نظر توبيروزوف إليه، وسأله وهو يطرف بعينيه:

- من الذي كنت تخدمه إذن حتى الآن؟

لم يرتبك الشماس بتاتًا، وبعد أن أشار بيده إلى معدته أجابه:

- شيطان الشره. يرى العلم أن الإنسان يكدح من أجل الطعام، ويريد أن يشعر بالامتلاء دائمًا وألّا يشعر بالجوع أبدًا. لو لم نأكل لما فعلنا أي شيء. يُسمى هذا «الصراع من أجل الوجود». في غياب مثل هذا الصراع لم يكن بإمكان شيء أن يوجد.

- ولكن الله لا يحتاج إلى شيء من ذلك، فهو خالق العالم.

- هذا صحيح. الله هو خالق العالم.

- كيف تنكره إذن؟

- أنا لا أنكر وجوده، ولكن كل ما أقوله هو أن الكون يمكن أن يظهر من تلقاء نفسه، كما يمكن للبرغوث أن يظهر هكذا من قلب نشارة الخشب. الله لديهم هو «الأكسجين»، وأنا الإنسان الذي مآله إلى الرماد أعرف أنه أكسجين. كما ترى: إذا تحدثت مجددًا عن الأمر من جوانب مختلفة فلن أفهم شيئًا.

- من أين أتى هذا الأكسجين؟
- وحق الله لا أعرف. الأفضل أن نتوقف هنا يا أبي سافيلي.
- لا، يستحيل أن أترك فيك هذه الأفكار. قل لي من أين أتى الأكسجين؟
- وحق الله لا أعرف يا أبي سافيلي. كفى أرجوك يا عزيزي.
- أيمكن أن يكون الأكسجين أزليًّا؟
- اللعنة! لا أعرف.
- أيمكن أن يكون أبديًّا؟
- أبي سافيلي! اللعنة على الأكسجين! ليكن ما يكون، حتى لو كان أزليًّا أبديًّا، ما شأننا بذلك؟
- وهل بمكنك أن تفهم كيف يمكن أن يكون أزليًّا وأبديًّا؟
أجاب أخيل بأنه لا يمكنه فهم ذلك، ثم واصل بصوت مرتفع:
- الله واحد، مثلث الأقانيم. وهو أزلي، لا بداية له ولا نهاية، كان دائمًا وهو موجود، وسيظل إلى الأبد.
قال توبيروزوف بابتسامة: «آمين»، ونهض من مقعده بالابتسامة ذاتها وأمسك بيد أخيل بطريقة ودية وقال:
- تعالَ، سأريك شيئًا.
أجابه الشماس:
- تفضل.
خرجا من الغرفة يدًا بيد وعبرا الفناء ووصلا إلى منتصف البستان المغطى بالثلج اللامع. أشار العجوز للشماس إلى صليب الكاتدرائية

ووقفا هناك طويلًا في اتجاه الهيكل[١]، وحرَّك إصبعه في صمت صوب الأرض وقال بصرامة:

- عجِّل وصلِّ.

جثا أخيل على ركبتيه.

- اتلُ الصلاة الآتية: «يا إلهي، طهِّرني أنا الخاطئ واعفُ عني».

قالها سافيلي ثم سجد بنفسه أول سجدة.

تنهد أخيل وفعل الأمر ذاته. في ظل صمت منتصف الليل المهيب، وفي ضوء القمر الأبيض في البستان الفارغ بدأ كلاهما، واحدًا تلو الآخر، يكرر سجوده بجبهة حارة على الثلج البارد، وندت عنهما تنهدات عميقة ممزوجة بحلاوة الصلاة. «يا إلهي، طهِّرني أنا الخاطئ واعفُ عني»، كررها القمص بنبرة مختلفة. «يا إلهي، لا تحاكم عبدك». هكذا صلى الواعظ والتائب معًا.

سرت تنهدات أخيل طويلًا في مدينة ستارجورود. هو المعزي وصانع البهجة الذي يسمع الجميع هنا كنتاتاته[٢] وصيحاته المرحة ببهجة، وبعد أن أخطأ صار الآن بمثابة كتاب صلوات يتوسل عن نفسه وعن العالم كله أن يحجب الرب غضبه المقدس الذي تحرك نحونا نحن البشر.

كم بدا الاختلاف بين أخيل الموجود الآن وأخيل القديم الذي اعتاد أن يصفر ويسبح في وقت مبكر في النهر على فحله الأحمر!

---

(١) في الكنائس الأرثوذكسية تُقام الهياكل في جهة الشرق، وبالتالي يصلي المؤمنون في اتجاه الشرق.

(٢) قصص ترنمها جوقات دينية من دون موسيقى.

اعتاد أخيل الأول أن يظهر منتعشًا في الصباح بعد ليلة ممطرة، بينما أخيل الثاني يتوهج في الغروب بعد زوبعة نهارية.

طوال الفترة التي استغرق فيها أخيل في الصلاة جلس توبيروزوف العجوز بغفارته الرمادية يهز رأسه في الرواق المؤدي إلى المغطس يعد سجداته. بعد أن أحصاها ووصل إلى العدد الضروري منها نهض وأخذ الشماس من يده، وعادا بسلام إلى المنزل، ولكن قبل أن يستلقي الشماس على الفراش اقترب من سافيلي وقال له:

– أتعرف يا أبي، بينما أصلي...

– ماذا؟

– بدا لي أن الأرض ترتجف.

– مبارك الرب الذي مَنَّ عليك بمثل هذه الصلاة! استلقِ الآن بسلام ونم.

قال القمص له ذلك وناما في سلام.

لكن بعد أن استيقظ أخيل في صباح اليوم التالي شعر بالاضطراب، كما لو أنه طرح شيئًا ما من دون قصد ووجد شيئًا آخر بدلًا منه؛ وجد شيئًا يصعب حمله ولكن يستحيل عليه أن يتركه، بل ولا رغبة لديه في تركه.

كانت أمواج مباركة من الإيمان في نفسه المضطربة والمرتجفة.

توجَّب على نفسه أن تعتل وتموت حتى تُبعث ثانية، وقد تم هذا العمل المقدس فعلًا.

أخيل الأهوج قد صار حكيمًا، ينشد الصمت، وبعد أن استرد قوته بعد بضعة أيام قال لسافيلي:

- علِّمني أيها العجوز العظيم كيف يمكنني أن أصلح نفسي إذا قضت إرادة الله بأن أقضي فترة من الوقت وحدي. كنت فخورًا بقوتي، لكني تعقلت، ولن أعلق عليها أي آمال مجددًا.

- كنتَ جبارًا وقويًا حقًا، ولكن تأتي ساعة تَمُدُّ يَدَيْكَ وَآخَرُ يُمَنْطِقُكَ، وَيَحْمِلُكَ حَيْثُ لَا تَشَاءُ[1].

- لا يمكنني الثقة بعقلي أكثر من ثقتي بقوتي لأنني كما تعرف مرتبك الفكر دائمًا.

- استرشِد بقلبك، فهو يرشدك إلى الطريق الصحيح.

- وماذا أقول إذا تطلب الأمر مني أن أقول شيئًا؟ قلبي لا يمكنه أن يقول شيئًا.

- استمِع إليه وإلى ما يعتمل فيه وتخلَّص من البراغيث الخبيثة التي تقفز عليك من الأرض العشبية.

وضع أخيل يده على قلبه وانصرف قائلًا في نفسه: «لا أعرف كيف سيكون كل ذلك»، ونذير سابق بتعذر تفسيره يخبره بوضوح أنه سيكون قريبًا جدًّا وحده، وستفارقه قوته كلها، وشخص آخر سيمنطقه.

* * *

---

(١) عبارة مستمدة من يوحنا ٢١: ١٨.

# الفصل الخامس

مخاوف وهواجس أخيل القاتمة لم تخدعه. لم يعد العجوز المريض الذي أوهنته الأحداث يحيا في هذا العالم. لقد أصيب بالبرد، وانشغل بحساب سجدات الليل التي يؤديها الشماس بأمره، واعتلَّت صحته. صحيح أن مرضه لم يكن خطيرًا، لكنه كان كافيًا لأن يجعله على حافة الموت.

عندما شعر القمص بالموت يعانقه لم يعد يشكو إلا من أمر واحد؛ وهو أن فترة حظره عن الخدمة الكنسية لم تنقضِ بعد. فهم أخيل الأمر وأدرك ما هو منبع حزنه الرئيس هنا.

لم يود توبيروزوف أن يموت وهو لا يزال تحت كنف هذا الحرمان. أراد أن يواجه السلطة الأرضية المأذون لها من قِبل السلطة السمائية. أملى أخيل خطابًا أخبر فيه المسؤول بحالته المرضية وطلب منه بتوسل أن يتنازل ويختصر مدة حرمانه. أُرسِل الخطاب ولم يصل أي رد.

صمت الأب توبيروزوف لكن أخيل استمع إلى صوت قلبه وترك القارئ بافليوكان مع الأب توبيروزوف ليرعاه، وأخذ معه الخطاب ورحل إلى عاصمة المقاطعة من دون أي إذن.

لم يطنب في تفسيراته، بل كشف كل ما لديه لمن يجب أن يعرف وطلب الإذن بعودة الأب توبيروزوف إلى الخدمة فورًا، لكن جهوده لم تُكلَّل بالنجاح، وبدا للمسؤول أنه يمتلك تمامًا ما نحب في كثير من

الأحيان أن ننكره؛ لقد بدا له أنه يمتلك الشخصية القوية، ومن ثم قرَّر أن كل ما قُضي به على توبيروزوف لا بد أن يتم كما هو الأمر مع كل شيء قدَّرته الإرادة الإلهية.

شعر أخيل مجددًا بنوبة غضب، لكنه كبح جماحها، وكما ذهب سريعًا إلى العاصمة عاد إلى المنزل سريعًا ولم يقل كلمة لتوبيروزوف، ولكن العجوز فهم سبب رحيله، وقرأ في عينيه الرد الذي ناله هناك.

قال سافيلي بعد أن ضغط بيده الباردة على يد الشماس:

- لا تحزن يا صديقي.

- لن أحزن بالطبع. وهل قليلة هي خدمتك للرب طوال حياتك؟

- أشكرك. لقد فتح ذهني ومداركي وتمَّم فيَّ عمله.

قال العجوز ذلك وتنهد وأغلق عينيه.

انحنى أخيل أمام المحتضر، ولاحظ في جفونه السوداء دمعة عجوز.

قال بود لتوبيروزوف:

- هذا ليس جيدًا يا أبي.

سأله العجوز بنبرة بليدة:

- مــاذا؟

- لماذا لا يشعر الناس بالرضا؟

همس المريض بضعف وقد ربت على يد أخيل:

- أنت لم تفهمني يا صديقي.

بدلًا من أخيل ذهب القزم نيقولاي أفاناسيفيتش هذه المرة إلى عاصمة المقاطعة، وقد قرر في قرارة نفسه أن يحسم الأمر. قال في نفسه:

«سأصل إلى هناك ولن أرحل إلا عندما ينفذون طلبي. نعم، أنا في السبعين ويستحيل عليهم أن يحبسوني. أنا عاجز ومشوه».

ودَّعه الشماس وبقي مع المريض ليرعاه.

كان على استعداد أن يمنح كل قوته وقدرته وكل ما يعتبره ثمينًا وجميلًا من أجل التخفيف من حزن توبيروزوف، ولكن الأمر برمته كان خارج نطاق سلطانه، وكان الوقت قد تأخر بالفعل. ملاك الموت واقف عند رأسه يستعد للقبض على روحه.

بمرور بضعة أيام شاهد الأب زكريا يبكي في غرفة المريض ويميل صوب رأسه ليتلقى منه اعترافه الأخير قبل موته. ماذا يعني ذلك؟ ما هي الخطية التي حملها العجوز سافيلي في داخله وجعلت الأب بينيفاكتوف يضطرب بهذه الصورة؟ بدا الأمر كما لو أنه نسي أن ما يحدث هو أمر سري، وأن الاعتراف لا يجب أن يشهده أحد، وطلب بصوت عالٍ أن يغفر الأب سافيلي شيئًا ما لشخص ما. ما الذي يمكنه أن يُقسِّي قلب الأب سافيلي هكذا قبل الموت؟

شدَّد زكريا بوداعة ولكن بصلابة في الآن ذاته قائلًا:

- كن مسالمًا. كن مسالمًا. إذا لم تغفر لا يمكنني أن أحِلَّك.

ارتعش أخيل المسكين وبقلب مضطرب حرص على أن يلتقط كل كلمة. صاح زكريا بصوت عالٍ: «فلتحيا بالله ما دام لا يزال نَفَس فيك»، ثم توقف قبل أن ينهي حديثه.

وقف المحتضر مرتعشًا ثم تهاوى ثانية، ثم عدَّل يده ليمسك صليبه، وبارك، وقال بجهد كبير:

- بوصفي مسيحيًا، أسامحهم على كل الإهانة التي ألحقوها بي، لكنهم يدمرون عمل الله الحي هنا بالرغم من رسالة إنسان يحتضر.

اكتسبت هذه اللحظات المهيبة مزيدًا من الصرامة، وقرقر شيء ما في حلق سافيلي، وواصل حديثه كما لو أنه في حالة هذيان:

- سأحمل حزني هذا أمام العرش الإلهي؛ أمام ملك الملوك. سأستلقي وأشهد على ذلك.

صاح فيه زكريا مشيحًا بذراعه:

- كن مسالمًا. اغفر. اغفر للجميع.

عبس سافيلي وتنهد وهمس: «خير لي أني تذللت لكي أتعلم فرائضك[1]»، ثم قال فجأة بصوت صلب: «لأجل من يحبون اسمك فلتُنِر الجاهل وتصفح عن الأعمى والمنحل قساوة قلبه».

نظر زكريا إلى السماء بابتسامة توحي بمعايشة نعيم روحي ورشم علامة الصليب على رأس سافيلي.

ظل وجهه ثابتًا، وعيناه مثبتتين في السماء حتى انتهى توبيروزوف.

اندفع أخيل إليه مرتجفًا، وسقط على صدره وأخذ يبكي.

رفع المحتضر يده إلى رأس أخيل بآخر ما لديه من قوة، واختلطت هذه القرقرة في حلقه بدمدمات زكريا الذي كان يصلي من أجله باكيًا.

انتهت حياة القمص توبيروزوف.

---

(١) مزمور ١١٩ : ٧١

# الفصل السادس

ترك موت سافيلي أثرًا مريعًا على أخيل. انتحب وبكى لا كرجل، بل كامرأة في حالة عصبية تبكي خسارة بدت لها غير ممكنة. بالرغم من ذلك شكَّل موت القمص توبيروزوف حدثًا كبيرًا للشعب كله، فلم يكن هناك بيت واحد إلا وصلى أصحابه من أجل المتوفى.

في منزل الراحل كان حشد من الناس يُستبدل بحشد آخر؛ حشد يمضي ويقدم الانحناءة الأخيرة أمام النعش الكريم، وآخر ينظر كيف يستلقي الكاهن في نعشه. في الليل، بعد موت الأب سافيلي، جلب القزم نيقولاي أفاناسيفيتش أمرًا بحل الراحل من عقوبته، وكانوا قد وضعوا سافيلي في نعشه بكامل ثيابه، وبدا ضخمًا، وطويلًا بقالوسته. توالت الصلوات الجنائزية عليه في المنزل بلا انقطاع، وأي كاهن تأخذه الحمية ويصلي على المتوفى صلاة جنائزية من دون أن يرتدي بطرشيله[1] المعلق على المنجلية، يطلب منه أخيل على الفور أن يمنحه بركته ويقدم له البطرشيل، ويشارك بحمية في الصلاة معه.

في اليوم الثاني صار المنزل جاهزًا، ووفقًا للعادة المحلية القديمة التي حُفِظت عندنا في أماكن عديدة عند وضع الكاهن المتوفى في النعش، بدأت طقوس احتفالية مهيبة ورهيبة. اجتمع الإكليروس بالشموع بثيابهم الكهنوتية الجنائزية وحملوا على أيديهم سافيلي المتوفى، وطافوا به ثلاث

---

(١) دثار طويل يرتديه الكهنة.

مرات حول النعش الضخم، وقد ثبَّت أخيل في يد المتوفى المبخرة، وبدا الأمر كما لو أن حضور المتوفى يكتنف أنحاء منزله البارد. ثم وضعوا القمص المتوفى في نعشه وانصرف الجميع عدا أخيل. ظل هناك وحده طوال الليل مع صديقه المتوفى، وحدث شيء لم يلحظه أخيل لكن آخرين لاحظوه.

* * *

# الفصل السابع

لم ينم الشماس منذ أن توفي سافيلي، وقد أدت ثلاث ليالٍ أرِقة بالإضافة إلى الانتباه المتوتر والمستمر تجاه الراحل إلى إثارة أعصاب أخيل إلى أقصى حد.

أُخمِدت الغرائز والعواطف المعتادة في الشماس، وبدلًا منها اكتنفته حالات مزاجية حادة غير معتادة بالنسبة له.

استُبدل بخفته المعتادة وتشتته حضور دائم لأفكار ثقيلة واستغراق عميق في ذاته. من حيث المظهر لم يشحب وجه أخيل ولا انطفأت عيناه، بل على النقيض؛ استنارت بشرته القاتمة واكتسبت مسحة وردية غير لامعة. صار كل شيء يبدو له واضحًا بحدة، وسمع كل صوت بوضوح شديد أيضًا كما لو أنه يُدوِّي في داخله، وفهم أمورًا كثيرة لم يفكر فيها من قبل.

الآن فهم كل ما أراده الراحل سافيلي واهتم به، وصار يطلق عليه: «الشهيد».

طوال الليالي الثلاث التي قضاها الشماس مع الراحل بمفرده لم يجد أي صعوبة في التحدث مع المتوفى وانتظار إجابته أن تصدر من تحت القماش المطرز الذي غطى وجهه.

«أبي العزيز»، ينطقها الشماس بهدوء ويقطع بها قراءته للإنجيل، ويقترب في سكون الليل من الراحل المستلقي أمامه. «أستنهض؟ ها؟

فلتنهض أمامي. لا يمكنك أن تستلقي كالعشب هكذا».

بمرور بضع دقائق يجلس أخيل أو يقف صامتًا ثم يعاود قراءته الرتيبة مجددًا.

في الليلة الثالثة والأخيرة غفا أخيل لفترة قصيرة واستيقظ قبل منتصف الليل بساعة، وأعد القراءات الإنجيلية التي سيقرأها، وأغلق الباب من خلفه.

ارتدى الرداء الطقسي ووقف عند المنجلية ومال إلى كتف المتوفى وقال: «اسمع يا أبي العزيز ما سأختتم به قراءتي لك الآن»، وبدأ الشماس يقرأ من إنجيل يوحنا. قرأ أربعة إصحاحات، وعندما وصل إلى الإصحاح الخامس توقف عند آية وتنهد ثم كرر مرتين الوعد العظيم: «تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الآنَ، حِينَ يَسْمَعُ الأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللهِ، وَالسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ[1]».

كرر أخيل تلاوة الآية مرتين جهرًا، ثم أخذ يكررها في عقله مرة تلو الأخرى من دون أن ينتقل إلى الآية التالية.

القراءة على الموتى ليست عملًا حكيمًا. عدد قليل من الناس يفعل ذلك من دون أدنى شعور بالارتباك، ولكن في هذا الوضع، كما هي الحال في كل الأمور، حتى يجري الأمر بصورة جيدة لا بد من مراعاة بعض الإجراءات العملية. واحد من هذه الإجراءات يتمثل في ألَّا ينظر القارئ في أثناء قراءته إلى وجه الميت. تؤكد الأسطورة أن مثل هذا الفعل يزعج الراحل، ويؤكد القراء الذين أهملوا هذا الإجراء سابقًا أن الاستياء يظهر في عينَي الراحل حينما يحدث ذلك، ويخون الهدوء المطلوب في مثل

---

(١) يوحنا ٥: ٢٥.

هذه الليلة القارئ، ويبدأ في ملاحظة وميض بسيط بالكاد تمكن ملاحظته حول الكتاب ذاته ثم يبتعد الوميض ويكبر، وحينها يتوجب على المرء إما أن يتمالك نفسه ويقضي على بداية الهلوسة هذه أو ستكبر وتُولِّد في داخله خوفًا لا يُقاوم.

لم يُراعِ أخيل هذه القاعدة بتاتًا، بل على النقيض، لقد شعر بالأسف لأن قماشًا مطرزًا قد غطى وجه المتوفى، ولكن بالرغم من كل ذلك لم يكتنف الشماس مثل هذا الخوف، بل ظل يكرر الآية ذاتها مرة تلو الأخرى: «حِينَ يَسْمَعُ الأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللهِ، وَالسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ...».

في استغراقه هذا لم يلحظ الشماس كيف انقضت الليلة، وكيف أضاء السماء خط الفجر الكهرماني الشاحب؛ الفجر الأخير الذي اكتنف آخر البقايا المدمرة لما كانت يومًا ما أرضًا للأب سافيلي يسمع صوتها ويشعر بها.

عندما رأى الشماس هذا الفجر تنهد وابتعد عن المنجلية واقترب من النعش، واتكأ على جانبَي النعش بحيث صار صدر سافيلي أسفل صدره، وتحدث وهو يرفع بحذر القماشة بإصبعيه من فوق وجه الراحل قائلًا:

- أبي، أبي، أين روحك الآن؟ أين كلمتك النارية؟ أتتركني روحك وحدي أنا الغبي؟!

وسقط أخيل على صدر المتوفى، وارتجف فجأة واندفع بعيدًا، فقد بدا له أن شيئًا يمر عبره. نظر حوله وإذا كل شيء هادئ. كل ما في الأمر أن أجفان عينيه الثقيلتين ملتصقة، ورأسه ثقيل بسبب النعاس.

هز الشماس نفسه وانحنى صوب الأرض وخاف من هذا الصوت؛

بدا له كما لو أن شيئًا يدق. كما لو أن سافيلي جالس والقماشة تغطي وجهه، وبين يديه الميتتين الإنجيل الذي كان يقرأ فيه.

لم يجبن أخيل لكنه اضطرب، وابتعد بهدوء عن النعش ونهض على ركبتيه. ما إن نهض أخيل حتى عاد المتوفى ليستلقي في نعشه ببطء كما كان من دون أن يستخدم يديه اللتين أمسكتا بالصليب والإنجيل.

صاح أخيل، وهمس ملوحًا بذراعه.

- سلام، سلام لك، لقد كدَّرتك.

قال ذلك وتناول الإنجيل مجددًا وأراد أن يواصل القراءة، ولكن لدهشته وجد الإنجيل مغلقًا، ولم يعرف الموضوع الذي توقف عند قراءته.

فتح أخيل الكتاب على أي صفحة عشوائيًّا وقرأ: «كانَ فِي الْعَالَمِ، وَكُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ[1]». فكَّر برأس ثقيل من دون أن يفكر في قراءة موضع آخر من الكتاب: «عمَّ أبحث؟». لقد توقفت عند: «سَيَنْظُرُونَ إِلَى الَّذِي طَعَنُوهُ[2]».

لكن في اللحظة التي أراد فيها أخيل أن يقلب صفحة أخرى لاحظ أنه يشعر بألم شديد بسبب أن أحدهم يمسك يده بقوة.

«هذا ما ينقصني! ماذا أخرجت من النعش؟ ماذا أتصور؟ أي يوم هذا؟». ظل أخيل يفكر هكذا من دون أن يصل إلى شيء، فقد شُدِه تمامًا.

---

(١) يوحنا ١ : ١٠.

(٢) يوحنا ١٩ : ٣٧، وهو موضع يذكر نبوة من العهد القديم عن مقتل المسيا المنتظر الذي هو المسيح في اعتقاد المسيحيين.

في هيكل يملأه ضوء ساطع، خلف المذبح، وفي رداء كهنوتي احتفالي لامع وبقالوسة أرجوانية عالية يقف سافيلي، وبصوت قوي طنان يطلق كل كلمه من فيه كمن يقذف كرة: «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ[1]». «يا إلهي! ما هذا؟ يبدو لي كأنه الأب سافيلي المتوفى! لقد حلمت بالعيد! لقد فوَّت صلاة منتصف الليل!».

ارتجف أخيل وفتح عينيه وأدرك أنه نام فعلًا، وأن نور الصباح قد ملأ الفناء، واللهب الجميل للشموع الجنائزية يتلاشى في ضوء الشمس المشرقة، كما لاحظ أن الغرفة خانقة من السعوط، والهواء يحمل رنينًا حزينًا وثمة قرع قوي على باب الغرفة.

مرر أخيل بسرعة يده الجافة على وجهه وفتح الباب. سأله بينيفاكتوف بهدوء وهو يدخل:

- هل نمت؟

أجابه الشماس مفسحًا الطريق للإكليروس الذين يدخلون خلف الأب زكريا:

- غفوت قليلًا.

همس بينيفاكتوف للشماس:

- أنا... أنا لم أنم. استغرقت الليل بطوله في إعداد عظة الجنازة.

- وهل أعددتها فعلًا؟

- لا. لم أستطع.

- حسنًا، هكذا هي الحال عادة.

---

(١) يوحنا ١: ١

- هل تعلم؟ ربما يمكنك أن تقول كلمة.

- كفاك يا أبي زكريا. وهل أنا عالم لألقي كلمة؟

- أنت واحد من الإكليروس، ولك الحق في إلقاء كلمة.

- وهل من الصائب أن أفعل ذلك يا أبي زكريا وأنا لم أوهب موهبة الوعظ ولا الفهم؟

هنا تدخَّل القزم وهمس:

- فلتُصلِّ بقوة من أجل أن توهب هذه الموهبة وسيمنحك الرب إياها.

- أصلي من أجلها؟ لا يا صديقي نيقولاشا. فلتُصلِّ أنت من أجلي حتى لا يغرقني حزني، بل إني بدأت أرى رؤى في يقظتي.

- حسنًا، سأصلي من أجلك.

* * *

# الفصل الثامن

ها هي مدينة ستارجورود ترافق جسد توبيروزوف إلى الكنيسة. ترك القداس وصلاة الجنازة أثرًا مريعًا في الناس بسبب أخيل، فكلما حاول الشماس أن يقول شيئًا يختنق صوته ويتوقف وتنهمر دموعه، بينما تكشف تنهداته التي تتردد وسط الحشد عن أعمق صنوف الحزن.

لم يغالب أخيل حزنه إلا في أثناء عظة الجنازة التي ألقاها أحد الكهنة، وفي أثناء الكلمة بكى أخيل في منديله، ولكن عندما خرج من الكنيسة ورأى المكان الذي اعتاد على مدار سنوات طويلة أن يمشي فيه مع توبيروزوف الذي يحملون نعشه الآن، شعر بضرورة ألَّا يبكي وحسب، بل أن يصيح ويصرخ أيضًا. أراد أن يعطي متنفسًا لهذه الصيحات المعذبة في روحه فأنشد ترنيمة: «أشفق علينا أيها الخالد المقدس»، لكنه أنشدها بقوة جعلت العجوز العمياء التي عمرها مائة عام، والتي اقتادها أحفادها عند اقتراب الموكب الحزين إلى البوابة لتنحني أمام النعش، تشيح بيدها وتسقط على ركبتيها وتصيح: «آاه! أتسمعون هذا؟ السيد الرب يسمع كيف يصرخ أخيل تحت السماء».

هنا موضع الراحة؛ المقبرة، محاطة بمصرف مائي ومزروع حولها الصفصاف. هنا المقبرة التي أحب توبيروزوف كثيرًا أن يتجول عندها في الأمسيات، وهو أمر أولاه اهتمامًا كبيرًا. جلبوا التابوت إلى أسفل درابزين البوابة القاتمة. أنشدوا الترنيمة الجنائزية الأخيرة ثم امتدت الأقمشة البيضاء فوق هاوية القبر المظلمة، وبمرور لحظات سُمعت «آمين» الأخيرة وهبط النعش إلى القبر.

لكن قبل أن يتم ذلك توجب حدوث شيء لم يتوقعه أحد. شعر أخيل الذي فاجأ أهل ستارجورود جميعًا قبل ذلك مرات عديدة بالحاجة إلى مفاجأتهم مرة أخرى، وفعل ذلك حقًّا هذه المرة ولكن بطريقة مختلفة. مدَّ يده وقد لاح عليه الشحوب والموت إلى أحد حفاري القبور ممن أمسكوا بالقماش الأبيض، وتوجه باستعطاف إلى عيون الإكليروس صائحًا:

– أيها الآباء، أتوسل إليكم أن تنتظروا قليلًا. لدي كلمة بسيطة أود أن أقولها.

أوقف الأب زكريا المختنق بالعبرات الحفارين سريعًا، ومد كلتا يديه إلى الشماس وباركه.

مسح أخيل دموعه المنهمرة بمنديل مغطى ببقع حمراء وتمتم ناشجًا بشفتين مرتعشتين: «كَانَ فِي الْعَالَمِ، وَكُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ[1]»، وفجأة، ومن دون أن يجد كلمات أكثر ملاءمة احمر وجه الشماس، وبدا كما لو أنه يحاول أن يلتقط بعينيه الكلمات المنقوشة في الهواء، وصاح مهددًا: «فَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ، الَّذِي طَعَنُوهُ، وَيَنُوحُونَ عَلَيْهِ كَنَائِحٍ عَلَى وَحِيدٍ

---

(١) يوحنا ١: ١٠.

لَهُ[1]». قال ذلك وألقى حفنة تراب على النعش، وخلع رداءه الطقسي سريعًا وابتعد عن المقبرة.

همس القزم دامعًا: «لقد تحدث السيد الأب الشماس حديثًا رائعًا».

أجابه زكريا بينما يخلع ثيابه الكهنوتية:

- إنها روح سافيلي قد حلَّت فيه.

* * *

(١) زكريا ١٢: ١٠

# الفصل التاسع

بعد دفن توبيروزوف تبقى لأخيل شيئان، أولًا: أن يلتقي بمن يمنطقه، وثانيًا: أن يموت، حيث إنه وفقًا لكلمات سافيلي يحيا كما لو أنه إنكار للموت. سارع فورًا إلى تقريب الأول والثاني إليه. بعد أن تحرر من ضجة غداء الجنازة استلقى في حجرة تخزين الأطعمة الصغيرة ولم ينهض.

مر يوم والثاني فالثالث، وأخيل لا يزال مستلقيًا ولم يتحرك من مكانه. بدا منزل الأب توبيروزوف ميتًا. تشرق الشمس الساطعة وتنير فناءه فيبدو ميتًا، وتمر الغيوم غيمة تلو الأخرى، منعكسة على زجاج نوافذه كظلال قاتمة ويظل المنزل هامدًا كما هو.

لاحظ الجيران هذا الصمت، وشعروا بالخوف، وبدأوا يعلنون خوفهم هذا، والشماس لا يزال متواريًا عن الأنظار. ساورتهم الشكوك: ماذا حدث له؟

ذهب زكريا لزيارته. ظل العجوز الوديع لفترة طويلة ينتقل من غرفة إلى أخرى صائحًا: «أيها الشماس، أين أنت؟ أتسمعني أيها الشماس؟». لكن الشماس لم يظهر. أخيرًا فتح الأب زكريا بهدوء باب مخزن الأطعمة. جاءه صوت أخيل من مكان ما في الظلام قائلًا:

– لماذا تثير هذه الضجة يا أبي زكريا؟

– أين أنت يا أخي؟

– افتح الباب على آخره. أنا هنا في الزاوية.

نفَّذ بينيفاكتوف طلب أخيل ورآه مستلقيًا على فراش خشبي مستند إلى الحائط. وجد الشماس في قميص داخلي من قماش القنب ذي ياقة مستقيمة مطوية ومربوطة على الطراز الروسي بشريط طويل متعرج، كما وجده في سروال واسع مقلم. سأله الأب بينيفاكتوف وهو يبحث لنفسه عن مكان:

- ماذا تفعل أيها الشماس؟

أجابه أخيل وهو يتحرك على اللوح الخشبي الأقرب إلى الحائط:

- اسمح لي أن أتحرك.

- ماذا تفعل أيها الشماس؟

- أين هو الشماس؟

- من أنت إذن؟

- أنا مجروح.

- ما مصدر جرحك؟

- أتسألني ما مصدر جرحي يا أبي زكريا؟ سؤال مضحك. موت الأب القمص بالطبع.

- ولكن ليس بوسعنا أن نفعل شيئًا. إنه الموت. بالطبع يبدو معاديًا لنا ويُشكِّل حاجزًا أمام الطبيعة برمتها وعائقًا أمام أفكارنا ولكن لا مفر منه. لا مفر منه.

- أنا مجروح إذن من هذا الحاجز.

- لكن أنت هكذا... أنت تخطئ لأن هذه هي إرادة الله.

- أنا مجروح بسبب هذه الإرادة إذن.

- ماذا بك تكرر طوال الوقت: مجروح، مجروح؟ هذا ليس جيدًا يا أخي.

- وهل هناك أي شيء جيد قد تبقى لنا؟ لا شيء.

- إذا كنت ترى أن الخير قليل فافهم جيدًا أن هذا هو قانون الطبيعة يا أخي، ولا يمكنك الالتفاف حوله.

- أي قانون طبيعة تتحدث عنه هنا يا أبي زكريا؟ ماذا أفعل إن جرحني هذا القانون؟

- وماذا سوف تفعل الآن؟

- ششش! آه يا إلهي! من فضلك لا تزعجني الآن يا أبي زكريا بقوانينك، لن أفعل شيئًا.

- أستظل مستلقيًا هكذا طوال الوقت؟

صمت الشماس، ثم تنهد وقال بهدوء:

- لا أزال مجروحًا بشدة وأنت تتحدث معي. ما الأمر الذي تريد أن تتحدث معي عنه الآن؟

- فلتتعافَ سريعًا. هذا كل ما أريد أن أحدثك عنه، فبالرغم من الحزن سيدفعنا ضعفنا إلى مواصلة الحياة وسنأكل ونشرب.

- ماذا تقول؟ أتقول إننا سنأكل ونشرب ونواصل حياتنا؟ فهمت السبب.

- ماذا تقصد؟ أي سبب؟

- تقصد أن تقول إن شيئًا قد حدث سننساه تدريجيًا، أليس كذلك؟

- وماذا بوسعنا أن نفعل خلاف ذلك؟

- من واقع شخصيتي لا أوافق على نسيان ذلك أبدًا.

- سيأتي وقت وستنسى لا محالة.

- أبي زكريا، من فضلك لا تحدثني في هذا الأمر لأنك تعرف كم أشعر بحزن قاسٍ.

- إليك المزيد إذن يا أخي. كف عن هذه الوقاحة.

- أكف عن هذه الوقاحة؟ ومن الذي سيمنعني؟

- يمكنني أن أفعل ذلك.

- كفى يا أبي زكريا.

- ماذا بك؟ سأفعل ذلك بالطبع.

- كفى من فضلك.

- لماذا أكتفي؟

- كفى لأنك تتحدث بالكذب. لا يمكنك منعي من فعل أي شيء.

أجابه زكريا مستاء:

- أنت مغرور أيها الشماس.

- أنا لست وقحًا على الإطلاق لأنني أحبك، ولكن كيف يمكنك حملي على شيء بينما تتسم شخصيتك بهذا القدر من الضعف، حتى إن القارئ سيرجي ذاته يتواقح معك؟

- يتواقح؟ الجميع يتواقحون معي، وأنت لست أكثر من غبي.

- أبعدني الآن عن هذا الأمر حتى لا أفكر فيه.

- لا أريد أن أبعدك عن شيء. نعم، لا أريد. جئت لزيارتك واتضح أنك مجروح. وداعًا.

- يا أبي زكريا أنا لا أقصد ذلك.

- لا لا. لقد أحزنتني.

- ليكن الرب معك.

- أنت نذل! نذل حقًّا.

وغادر زكريا بعد أن ترك الشماس آملًا أن يمل من هذا الاستلقاء ويخرج إلى النور، ولكن مر بعد ذلك أسبوع كامل ولم يظهر أخيل. أكد زكريا: «سوف ينسونه. سوف ينسونه جميعًا سريعًا». شغلته هذه الفكرة باستمرار، وظل يفكر في كيفية مساعدته كي يتخطى هذا الحزن.

كان من الضروري أن يحدث أمر خاص حتى يخرج أخيل من محبسه.

استيقظ أخيل ذات يوم في السادسة صباحًا تقريبًا ونظر كيف اخترقت أشعة الشمس المشرقة الغرفة الصغيرة من النافذة الضيقة، وفجأة رأى الأب زكريا يندفع إليه قائلًا إنهم عيَّنوا قمصًا جديدًا محل الأب سافيلي.

شحب أخيل من فرط الحزن. سأله زكريا:

- لماذا لستَ سعيدًا بذلك؟

- وماذا يهمني في ذلك؟

- كيف لا يهمك الأمر؟ لم تسألني من الذي عيَّنوه.

- سيان.

- كاهن أكاديمي.

- أكاديمي؟ ما المبهج في ذلك؟ وحق الله لا شيء يبهج في ذلك.

- كيف ذلك؟ إنه كاهن خريج أكاديمية لاهوتية، وهذا يعني أنه ذكي.

- يقول لي ذكيًّا! حسنًا، فليكن ذكيًّا، هل سيجعلنا ذكاؤه أذكياء؟

- ماذا بك لم تعد تحترم الإكليروس؟

- أليس سيان له إذا احترمته أم لا؟ لا يهمه ذلك في شيء، وربما لدي شيء أهم من ذلك بكثير أفكر فيه.

- اسمح لي أن أسألك ما هو؟

- أفكر في يوم أمس.

- هل ستتواقح مرة أخرى؟

- لست وقحًا معك. أنت تفكر في كيف ستلتقي بالقمص الجديد، وأنا أفكر في كيف لا أنسى القديم. أي وقاحة هنا في الأمر؟

- لا جدوى من الحديث معك.

قرر زكريا أن ينصرف، شاعرًا بالاستياء، أما أخيل فقد نهض واغتسل وهرع إلى قائد الشرطة بطلب أن يساعده في بيع منزله وجواديه الشرقيين الأصيلين في أسرع وقت ممكن. سأله بوروخونتسيف:

- لماذا تريد أن تفعل ذلك؟

- نحِّ فضولك. بعد أن يتم الأمر ستفهم كل شيء.

- أخبرني إلام تهدف؟

- أود ألَّا يُنسى الأب سافيلي سريعًا.

- دع الأب زكريا يذكره كثيرًا في عظاته في الكنيسة.

- وما الذي يمكن للأب زكريا أن يذكره عنه؟ إنه الآن يحب العلم، أما أنا فلا أزال أحب الإنسان كما كنت.

بهذا انتهى الحوار وبيعت ملكية أخيل بحسب رغبته.

تبقت الآن رؤية ماذا سيفعل.

حصل الشماس من كل ما بيع على مائتي روبل. وضع بطاقتيه الصغيرتين في جيب غفارته وأعلن أنه سيذهب إلى عاصمة المقاطعة. احتطب لنفسه بالفعل عصا للطريق وربط عقدة صغيرة واشترى لنفسه من السوق فطيرتين بالبصل ووضعهما في جيبه الذي حوى المال، واستعد تمامًا لبدء رحلته، وفجأة وصل القمص الجديد إروديون جرانسيانسكي. إذا حكمنا وفقًا لمظهره الخارجي يمكن للمرء أن يُقدِّر عمره بين الستة والعشرين والأربعين على السواء. اقترب أخيل من رئيسه الجديد، وبعد أن نال مباركته أراد أن يُقبِّل يده، ولكن عندما سحب رئيسه يده وعرض عليه أن يتبادلا القبلات بطريقة ودية، قبَّله أخيل فعلًا. قال زكريا للشماس وهو يودعه بعد ساعة:

- أرأيت كم هو طيب؟

- ما الذي يجعلك تحكم عليه بالطيبة سريعًا هكذا يا أبي زكريا؟

- كيف ذلك؟ لم يدعك حتى تُقبِّل يده، بل قبَّلك قبلة أخوية. هذه طيبة.

- بالنسبة لي ليس لهذا الأمر أدنى أهمية.

كان الشماس قد بدأ بالفعل يشعر بالغيرة الشديدة لاحتلال القمص الجديد مكان سافيلي، وتذمر منه محاولًا أن يجد فيه كل شيء سيئ حتى لا تمكن مقارنته مجددًا بالراحل توبيروزوف. كلما ازداد أهل ستارجورود حبًّا للقمص الجديد ازدادت كراهية أخيل له.

# الفصل العاشر

في اليوم التالي أقام القمص الجديد القداس وألقى العظة حيث انهال فيها بالمديح على سلفه وتحدث عن ضرورة وأهمية إحياء ذكراه وتكريمه.

استمع أخيل وزكريا إلى هذه العظة من الهيكل، وقد أسندا آذانهما إلى الستارة التي تحجب الهيكل. غضب أخيل من أن القمص الجديد يتحدث بهذه الطريقة، ومن استماع الناس إليه بانتباه لا يقل عن انتباههم لكلمات توبيروزوف، كما غضب أخيرًا من أنه يدافع عن توبيروزوف ويدعو إلى تقديره وتذكر مزاياه. قال الشماس ساخطًا في أثناء انصرافه من الكنيسة مع الأب زكريا: «لماذا يفعل ذلك؟ ما شأنه به؟».

صارت كراهيته قاسية فعلًا للقمص الجديد على نجاحه في العظة، وازداد ضراوة تجاهه كامرأة غيور. لقد شعر بعدم عدالة موقفه لكنه لم يستطع أن يغالب نفسه، وعندما أراد زكريا أن يبعث فيه شعورًا بالخزي من موقفه، وقال له إن جراتسيانسكي نبيل في كل تصرفاته كسر أخيل العصا التي أمسكها في يده بنفاد صبر قائلًا:

– هذا تحديدًا ما يثير اشمئزازي.

– هل من الأفضل لو كانت شخصيته أسوأ إذن؟

– نعم، أفضل... أفضل كثيرًا. ألا تعلم أن من لم يخطئ لا يتوب؟

لم يقل زكريا شيئًا واكتفى بأن أشاح بذراعه.

تدريجيًا انقطع أخيل عن عادته المتمثلة في التمشي في المدينة. حضر الشماس عملية فحص غرفة المقدسات والكتب وأموال الكنيسة، وظل طوال كل ذلك صامتًا يخفي في داخله سخطًا الله وحده أعلم به. لم يجعله حزنه يثير أي اعتراضات، ولكن جراتسيانسكي تحدث عن ضرورة وضع نصب تذكاري صغير على مقبرة توبيروزوف.

حينها هبَّ أخيل.

- لماذا نضع نصبًا تذكاريًا صغيرًا وليس كبيرًا؟ لقد عاش بيننا فترة طويلة وخدمنا أفضل من أي شخص آخر.

نظر جراتسيانسكي إلى أخيل باستياء، وعرض أن يجمعوا مالًا لتشييد نصب سافيلي من دون أن يجيب عن حديث أخيل.

وصل ما جمعوه إلى اثنين وثلاثين روبلًا.

رفض الشماس الاشتراك في الأمر برمته. سأله بينفاكتوف:

- لماذا؟ لماذا لا تريد أن تشترك معنا؟

- لأن الأمر عقيم.

سأله جراتسيانسكي بجفاف:

- ما وجه العقم فيه؟

- كيف يمكن إقامة نصب لمثل هذه الشخصية باثنين وثلاثين روبلًا فقط بالرغم من مشاركة الجميع؟ هذا نصب لا قيمة له. لا يا سيدي، لن أشارك في هذه الإساءة له. لن أشترك معكم.

في المساء، بينما يقوم الأب زكريا بجولته المعتادة عرج على أخيل وقال له:

- اعلم أيها الشماس أنك بذلك تثير الأب القمص ضدك.

- ماذا؟ تحدث بوضوح من فضلك. كيف أثيره ضدي؟

- بعدم الاحترام. بعدم الاحترام وعدم الخضوع. لم توافق على النصب التذكاري وخرجت من دون أن تُقبِّل يده.

- ألم يرفض من قبل أن أقبِّل يده؟

- فعل ذلك في المنزل لا في الكنيسة. الأمر مختلف تمامًا في الكنيسة يا أخي.

- بهذه الطريقة سوف تربكني تمامًا أنت والقمص الجديد. هنا يجب أن أفعل كذا وهناك أفعل كذا! لا يمكنني تذكر كل هذه التعليمات طوال حياتي، وأُفضِّل الالتزام بنظام واحد.

ذهب الشماس إلى القمص الجديد يطلب منه إجازة أسبوعين للذهاب إلى عاصمة المقاطعة، وأجبر نفسه على تقبيل يده وقال:

- اعذرني. أنا في حيرة من أمري.

ها قد صار أخيل على الطريق الذي جهَّز فيه نفسه طوعًا بفارغ الصبر لتحقيق أهداف ذات طبيعة عظيمة. في الفترة التي كان لا يزال فيها مستلقيًا داخل غرفة مخزن الأطعمة الصغيرة فكر أولًا في إقامة نصب تذكاري لتوبيروزوف، ولكن ليس بثلاثين روبلًا، بل بكل ما لديه من مال؛ بالمائتي روبل كاملة التي أخذها لقاء بيع ملكيته التي تحصَّل عليها من عمله طوال حياته. لقد اعتبر أخيل هذا المال كافيًا تمامًا لإقامة نصب تذكاري لأعجوبة الأزمنة والشعوب. لقد أراد أن يشيد نصبًا ضخمًا لدرجة أن رأسه لم يستطع استيعاب هذه الخطة.

# الفصل الحادي عشر

كانت ليلة باردة ومعتمة من ليالي أكتوبر، وسرعان ما لاحت السحب في السماء، وكنست الريح الأغصان العارية لأشجار الصفصاف على جانب الطريق. لم يتوقف أخيل عن السير، وعندما لاح الفجر الخريفي كان قد قطع بالفعل نصف الطريق، ومن ثم وافق على منح نفسه استراحة من عناء الطريق.

انعطف من الطريق صوب كومة كبيرة من القش وجعلها خلفه لتحميه من الريح، واستلقى وغطى رأسه بردائه ونام.

بدا النهار كالليل حيث تبرز الشمس الباردة وتسطع تارة ثم تكتنفها السحب تارة أخرى. الريح تدوي وتزأر ويُسمع فحيح الأفاعي على الأرض. الرداء الذي غطى به الشماس رأسه كان قد تمزق منذ وقت طويل فوق رأسه وغلبته الريح، وأفلتت الشمس من بين الغيوم وأضاءت وجه العملاق. نام الشماس تمامًا. صار النهار دافئًا، وظهر وسط الجذامة[1] التي استلقى عليها أخيل، حيث دفن رأسه في كومة القش، آخر سكان حقل الذرة الميت هذا. انسلت على حذاء أخيل ثنائية ذنب[2] قاسية سوداء، وعلى طول لحيته صعدت بوهن وارتجاف نحلة طنانة. بدأت

(١) بقايا الزرع بعد الحصد.

(٢) حشرة.

الحشرة المسكينة التي وجدت دفئًا ومأوى في لحية الشماس الكثيفة في التسكع عليها وأيقظته. شخر أخيل عاليًا وتمدد ونهض، وألقى حزمته على كتفه وشرب بعض الكفاس في النزل القريب بنصف كوبيك ثم توجه إلى المدينة.

بحلول الغسق كان قد تبقى له خمسة وثلاثون فرستًا. رأى صلبان كنائس المدينة، وجلس عند أحد المصارف على جانب الطريق، وللمرة الأولى منذ بدء تحركه قرر أن يأكل. أخرج الفطيرتين من جيبه ووضعهما على بعض وبدأ يأكل بشهية كبيرة، لكنه لم ينهِهما، ووضع ما تبقى منهما في جيبه ثانية وأكمل طريقه صوب المدينة. بات ليلته عند بعض معارفه من تلاميذ المعهد الديني، وفي صباح اليوم التالي مبكرًا وصل إلى توجانوف وطلب إبلاغه بوصوله وجلس على إحدى الدكك بردهة الانتظار.

مرت ساعة والأخرى ولم ينادوا أخيل. سأل بالفعل أكثر من مرة القوزاقي الذي مر بالقرب منه:

- ما الأمر يا عزيزي؟ متى سوف ينادون عليَّ؟

لكن الخادم القوزاقي لم يجد حتى ضرورة لأن يجيب الشماس الذي يبدو مظهره كالفلاح في هذه الغفارة القطنية المتربة.

نظرًا لأن أخيل لم ينل راحة كافية من سفر الأمس، بدأ يغفو، ولكن نظرًا لأن المكان غير ملائم للنوم فكر في أن يبعد عنه النوم بالطعام، ومثَّلت نصف الفطيرة المتبقية من الأمس أمامه فرصة كاملة لتحقيق ذلك. ما إن أخرج بقايا الفطيرة من جيبه ونظفها من التراب العالق بها حتى شُدِه، وهب

من جلسته كالملدوغ واندفع من دون أي استئذان إلى غرف المنزل الفخم المجهول له. بالصدفة ذهب مباشرة إلى مكتب القائد ووجد نفسه أمامه وجهًا لوجه وصاح:

- يا إلهي! من يؤمن بالله يساعدني، انظروا المصيبة التي حلَّت عليَّ.

صاح فيه توجانوف مندهشًا:

- ماذا بك؟

صاح أخيل مذعورًا:

- بارمن سيميونوفيتش، انظر الشر الذي فعلته.

- ماذا فعلت؟ هل قتلت أحدًا؟

- لا، لقد جئت إليك سيرًا على الأقدام حتى تمنحني نصيحة جيدة لأنني أريد أن أصنع نصبًا تذكاريًّا للقمص بمائتي روبل.

- ماذا تقول؟ هل سرقت هذا المبلغ؟

- لا، بل فعلت ما هو أسوأ.

- فقدته؟

- لا، أكلته.

وفي يأسه عرض أخيل أمام عينَي توجانوف الطبقة السفلية لفطيرة لم يُنهِها، وقد التصقت بها بقايا ورقة مائة روبل.

لمس توجانوف بقايا هذه العملة بأظافره الدقيقة وفصلها عن الفطيرة ورأى تحتها ورقة أخرى ملتصقة بإحكام أكثر.

لم يتمالك نفسه وانفجر ضحكًا. أكد الشماس حديثه وهو يعض ارتباكًا ظفر إصبعه الوسطى:

- نعم. نعم أكلته كما ترى. (وفجأة استدار وقال) أعتذر على إزعاجك يا سيدي. وداعًا.

حاول توجانوف أن يساعده قائلًا:

- كفى يا أخي. كل هذا هراء. سوف يُبدِّلون لي في البنك أوراقك النقدية هذه، وسأعطيك بدلًا منها ولتشيِّد النصب التذكاري للقمص سافيلي. لقد أحببته.

قال ذلك وقدَّم لأخيل ورقتين جديدتين من فئة المائة روبل، ونظف بقايا الطعام من الورقتين القديمتين ليضمهما إلى بقية تحف العائلة.

انفرجت هذه المحنة ولكن حلَّت محنة أخرى؛ كان من الضروري أن يشيد أخيل هذا النصب التذكاري بالطريقة التي يريدها، لكنه لم يستطع تصور أي شكل له. طرح هذه الإشكالية على توجانوف. قال:

- أريد يا بارمن سيميونوفيتش أن يكون النصب الذي سأصنعه بمالي قويًا وكبيرًا بقدر الإمكان.

- اطلب هرمًا من الجرانيت.

أمر توجانوف بأن يجلبوا له أحد المجلدات من خزانة الكتب، وكشف فيه لأخيل رسمة هرم مصري وقال:

- ها هو شكل الهرم.

أعجبت هذه الفكرة أخيل إلى أقصى حد، لكنه تساءل عما إذا كان لديه ما يكفي من المال لتنفيذ الفكرة. أجابه توجانوف قائلًا إنه إذا لم تكفِ المائتا روبل فسيدفع توجانوف المبلغ المتبقي احترامًا للعجوز توبيروزوف المبجل. أضاف أيضًا:

- وأنت ستكون مشرفًا على تشييده. لتشيِّده بحسب رغبتك.

كان أخيل على وشك التحدث مرتبكًا: «حسنًا... هذا...»، ولكن بدلًا من أن يقول المزيد من الكلمات انحنى انحناءة شديدة وأمسك فجأة يد توجانوف وقبَّلها.

تأثر توجانوف، ووصف أخيل بأنه فلاح طيب، وعرض عليه أن يقضي عنده ليلته في الطابق العلوي.

نقل الشماس على الفور إقامته من فناء معارفه من طلبة المعهد الديني إلى منزل قائد الشرطة، وبدأ يثير جلبة بشأن مسألة حجز الحجر المطلوب. قبل كل شيء حاول أن يكون في تمام الحذر. قال لنفسه: «ماذا بك؟ هذا هو في الحقيقة ما سعيت إليه، وسأُنحِّي كل العراقيل خلفي».

ابتهل إلى الله أن ينقذه -ولو مرة واحدة في حياته- من جموحه ويُمكِّنه من إتمام المهمة المكلف بها بجدية تامة.




* * *

# الفصل الثاني عشر

مر الشماس على جميع باعة النُّصب التذكارية المشهورين في المدينة وتوقف عند أسوأهم؛ بائع حجر هرمي روسي يُدعى بوبيجين. أغضب اثنان من باعة النصب التذكارية الألمان أخيل بالتساؤل عما إذا كان ميزان البناء سيسمح ببناء هذا الهرم الكبير الذي طلبه أم لا، وإمكانية قياس المسافة ببساطة هكذا بالخطوات والارتفاع برفع اليد.

فهمه بوبيجين بصورة أسرع، وسرعان ما قاسا بالخطوات واتفقا أيضًا على الكلمة التي ستُكتب عليه وتصافحا وتم حجز الهرم وإعداده. شاهد أخيل كيف حركوا ودحرجوا ونحتوا الأحجار الضخمة، وأبهجته أحجامها الكبيرة. قال:

- الأمر أفضل هكذا من دون ميزان. لنشيده بحسب مزاجنا.

أيّده الحِرفي الروسي بوبيجين في ذلك.

استمع توجانوف إلى تقارير أخيل عن سير العمل ولم يجادله أو يعارضه في أي شيء. كان يُسلي هذا المارد بنصب تذكاري كما يُسلون الطفل بلعبة.

بمرور أسبوع صار الهرم والنقش جاهزين تمامًا، وطلب أخيل من توجانوف أن يأتي ليلقي نظرة على المنتج الساحر لخياله الإبداعي.

كان هرمًا مسطحًا ضخمًا يعلوه صليب وملائكة خشبية صغيرة تغطي أركانه.

نظر توجانوف إلى النصب وقال: «رائع!»، وكان الشماس ببساطة سعيدًا. فكوا الهرم ونقلوه على تسع زلاجات إلى ستارجورود. أقلّت المزلجة العاشرة أخيل نفسه وقد ارتدى معطفًا من صوف الخرفان، ومن حوله أربعة ملائكة خشبية مذهبة ملفوفة بالحصير. ابتهج من عظمة النصب، ولكن شعورًا قلقًا مازج بهجته. لقد خاف أن ينتقد أحد هرمه الذي كان بالنسبة له منتجًا عزيزًا على عقله وذوقه وإخلاصه وحبه الأمين للراحل. أراد أخيل أن يتجنب الانتقادات ومن ثم قرر أن يُكمل هذا النصب الفخم سرًّا بقدر الإمكان، وعند وصوله إلى ستارجورود ليلًا لم يزُر أحد سوى زكريا، وحكى له عن كل المصاعب التي تغلبوا عليها في عملية تجهيز هذا الهرم.

لكن أخيل لم يتمكن من جمع الهرم سرًّا. صباح اليوم التالي صارت أجزاء هرم سافيلي الموضوعة على عربات محل اهتمام الجميع. أبدى السكان المحتشدون اهتمامًا خاصًا بالأيدي المتلألئة والأجنحة الذهبية للملائكة الملفوفة بالحصير، وتجادل البسطاء ولم يستطيعوا حسم ما إذا كانت هذه الملائكة فضية أم ذهبية.

أوضح لهم أخيل قائلًا: «ذهبية وفضية ومرصعة بالألماس في منتصفها». وفي الوقت ذاته دفع المحتشدين حول أجزاء الهرم. انزعج أخيل أيضًا من المواطنين المتحدرين من طبقات عليا. بدا الأمر له وكأنهم جاءوا عمدًا لينتقدوه بنية شريرة مبيتة سلفًا.

«ببساطة لا أعرف ماذا أسمي ذلك. كل شيء... كل شيء سيئ. آه يا إلهي! هل من الممكن إزعاج المرء بهذه الطريقة؟ إذا لم تعجبك فهذا أمر سيئ، ولكن اصبر واصمت وتحلَّ بالاحترام. لقد حاولت وفعلت ما بوسعي. تفو! تفو على هذا الشعب القذر!».

وصل أخيل الذي لم يكن طموحًا وفخورًا وسط حالة غضبه الدائمة إلى مرحلة عدم الاحتمال. لم يتحمل أن يسمع كلمة واحدة عن توبيروزوف. حتى إذا كالوا للراحل كلمات المديح كان ذلك يفضي به إلى حالة من الانفعال الشديد، ووجد أنه أفضل حالًا من دون هذا المديح. قال لبينيفاكتوف:

- أي ثناء هذا؟ تبدو إرادتك يا أبي زكريا رعناء حيث إنك تتذكر عنه تفاهات.

- هل أتكلم عنه بالسوء؟

- لا داعي لأن تتحدث عنه نهائيًّا. الآن ليس الوقت المناسب للجدال عن المؤمنين الأقوياء.

- أي رقيب هذا؟ أيعني ذلك أننا لا يمكننا إسداء المديح له؟

- وما نفع المديح له؟ إنه ليس جوادًا غجريًّا لنمتدحه.

- أنت إنسان أحمق، أحمق تمامًا. كنت في السابق أفضل من ذلك.

عامل أخيل الآخرين بحدة أقوى من حدته مع بينيفاكتوف، وعندما بدأ الجميع يتجنبون أخيل بسبب تهيجه تمسك فجأة بالتفكير في أمر واحد؛ غرور هذا العالم الأرضي والموت. قال:

- كما تريد يا سيد، ولكنه ليس أمرًا تافهًا أن تؤخذ روحك فجأة

وتموت وتذهب إلى مكان الله وحده أعلم به.

عزاه زكريا قائلًا:

- لا يزال الوقت مبكرًا على التفكير في ذلك، فأنت لن تموت سريعًا.

- لماذا تتكهن بذلك يا أبي زكريا؟

- أقول ذلك احتكامًا إلى بنيتك وأذنيك. لديك أذنان قويتان حقًّا.

- حسنًا، وفقًا لبنيتي وشكل أذني ربما سأعمِّر قرنًا، ولكن مثل هذه الأفكار كما تعلم تعتمد على الخيال، ولذلك يفكر فيها الإنسان.

أخيرًا سقط الشماس فريسة لأصعب الوساوس، وبدأوا يلاحظونها فيه وقالوا إنه ينادي الموت لنفسه.

منذ ذلك الوقت صارت الغرفة الصغيرة في منزل القمص الراحل، والتي توارى فيها أخيل المتفلسف لفترة من الوقت، هدفًا لاهتمام وفضول البعض، وبالنسبة لآخرين هدفًا لخوف غامض.

زار القمص جراتسيانسكي الشماس ووبَّخه على منفاه الطوعي، وحاول إقناعه بأن مثل هذه العزلة عن الناس غير حكيمة، لكن أخيل أجابه بهدوء:

- تأخر الوقت على نشدان الحكمة. لقد دُفِن فملًا.

قال الشماس للطبيب بوجوفنيك الذي ظل رفيقه بالرغم من كل شيء وقد جاء ليواسيه ويؤكد له أنه مريض ويحتاج إلى العلاج:

- أنت تقول الحقيقة يا صديقي. أفكاري كلها مشتتة. أفكر ولا أعرف في ماذا، وكل شيء كما ترى يعذِّبني (وعبس أخيل وأنهى حديثه هامسًا) حزن!

- لديك حساسية شديدة.

- ماذا تسميها؟

- حساسية عالية.

- نعم، إنها حساسية. كل شيء يضغطني، كما لو أن وتدًا مغروسًا في صدري، وفي الليل أجلس لفترة طويلة ولا أعرف ما الذي يحزنني وأبكي.

وصلت ابنة توبيروزوف الروحية: السيدة سيربولوفا، لزيارته. سُر أخيل بمجيئها. سألته الضيفة:

- لماذا أنت مريض يا أبي الشماس؟ ماذا حدث لك؟

- صرت مصابًا يا سيدتي بحساسية بالغة. بعد رحيل الأب القمص أشعر طوال الوقت بالحزن وأبكي.

- لديك مشاعر نبيلة يا أبي الشماس.

- أشعر بانقباض في داخلي، ويبدو لي طوال الوقت أنه ليس هناك ما أعيش المزيد من أجله.

- من أين جاءتك فكرة أنه ليس لديك ما تعيش المزيد من أجله؟

- جاءتني ثلاث شقيقات: الكآبة والحزن والملل. انكشف لي كل ذلك. وداعًا سيدتي الكريمة. أُقدِّر جدًّا زيارتك لي.

اصطحبها الشماس إلى الخارج كما أخرج الآخرين جميعًا أيضًا، وعاد ليبقى وحده مع شقيقاته الثلاث وحساسيته الشديدة.

لكن فجأة وقع حدث حرَّك أخيل؛ كان هذا الحدث هو موت القزم نيقولاي أفاناسيفيتش، وقد أوصى قبل موته بأن يدفنه الأب زكريا وأخيل،

وترك لهما لأجل ذلك خمسة روبلات وزوجين من الجوارب وقلنسوتين لبليتين حاكهما بنفسه.

في أثناء عودة الشماس من دفن القزم، لم يفرح وحسب، بل ومزح أيضًا قائلًا:

- كما ترون يا إخوتي كيف بدأ اقتناص جماعتنا فردًا تلو الآخر. مات نيقولاي أفاناسيفيتش وسريعًا ما سيحل دوري ودور الأب زكريا.

لم يخطئ أخيل. بينما ينتظر لقاء الموت، كان الأخير الرحيم الذي لا يُقاوم واقفًا عند كتفيه يظلله بجناحه البارد.

لا بد لسجل قصتنا أن يحفظ بعناية الأعمال الأخيرة للمارد أخيل؛ الأعمال التي يستحقها تمامًا والتي مكّنته من العبور إلى الجانب الآخر من بحر عالمنا بطريقته الخاصة.

* * *

# الفصل الثالث عشر

بحلول الربيع عادت بوادر الحياة إلى ستارجورود. استعد النهر للظهور، واكتسب لونًا أزرق وتضخم، ونمت على ضفتيه الشجيرات وأبحرت فيه الزوارق الواسعة.

كانت حشود الفلاحين تأتي يوميًّا إلى المدينة من القرى التي تتضور جوعًا شتاءً، وكانوا يرتدون الأحذية اللبادية وأغطية الرأس البيضاء. اعتادوا أن يُكوِّموا أنفسهم في القوارب النهرية الصغيرة، وتهافتوا على العمل بجر القوارب بسبب الضرائب ومن أجل لقمة العيش. كانوا يسعدون جدًّا إذا وجدوا في هذه الأراضي البعيدة الخبز الذي لا يجدونه في منازلهم. لكن هذه السعادة لم تُمنح للجميع بالطبع، فقد فاق المعروض من العمالة الطلب عليها بكثير. لم يجد أحد نفسه مضطرًّا إلى رعاية هؤلاء البشر الفائضين عن الحاجة، ووجد الموظفون أمورًا أخرى تتطلب عنايتهم. سمحوا لهم أن يتناولوا الطعام مع الحاضرين الذين دفعوهم بعيدًا عن المراجل حينما اكتظوا حولها. مثل هؤلاء الجياع لا يجب أن يُعطى لهم الطعام حتى الشبع، فهم -كما يُطلق عليهم- نهمون، يفرطون في تناول الطعام، وبطونهم لا تشبع، ويموتون من الشراهة. منذ فترة قريبة سقط

أخوان من هؤلاء النهمين الجياع، جلسا قبالة بعضهما أمام الغلاية يأكلان العصيدة، وماتا فجأة. شرَّح الطبيب الجثتين، وبحث في المعدة عن سُم ولم يجد سوى العصيدة؛ المعدة مليئة بالعصيدة والمريء كذلك وصولًا إلى الحلق والفم. وقع ذنب موت الأخوين على الخادم الذي لم يجد وقتًا كافيًا ليطرد الأخوين النهمين بعيدًا عن الطعام. كان سهوًا عظيمًا لدرجة أنه في اليوم ذاته سقط اثنان من جماعة أخرى وازرق لونهما، لكنهما لم يموتا لسبب واحد؛ ألا وهو أن شخصًا آخر خبيرًا قد رأى من قبل مثل هذا المشهد تدخل في اللحظة الأخيرة. أما بالنسبة للاثنين، فقد جرَّدوهما من ثيابهما ووضعوا نارًا ساخنة أمام بطنيهما. راقب الرفاق البخار يتصاعد من الاثنين العاملين بجر القوارب حتى نجيا ومضيا ليبحثا عن طعام آخر.

كل هذه المشاهد معروفة جيدًا، ولكن علاوة على ذلك ثمة مشاهد أخرى معروفة أيضًا في الليالي المتقدة التي خلت من الخبز بامتداد شوارع المدينة النائية والمعتمة، حيث بدأت الشياطين فجأة في الظهور. ظهر أحد هؤلاء الشياطين فجأة بكامل حلته الجهنمية؛ بقرونه ومخالبه، وسلب امرأتين وحدَّادًا مخمورًا وموظفًا في تمام وعيه مضى للقاء ليلي مع ابنة أحد التجار. أكد المنهوبون أن للشيطان الذي وقعوا بين براثنه مخالب وقرونًا كالخطاطيف الحديدية التي يسحب بها العمال غير المهرة القوارب. لم يعد أحد يسير في شوارع المدينة، وقبل أن ينقضي الفجر شاهد حراس متاجر الملح والسجن شيطانًا لا يزال يجر مخالبه. كان هذا الشيطان وقحًا إلى درجة أنه اقترب من الجنود مسافة تُمكِّنهم من رميه بنيرانهم، وطلب منهم بتذلل كسرة خبز. أُرسلت دوريات ليلية، وواحدة من هذه الدوريات ترأسها قائد الشرطة بنفسه الذي نعرفه منذ فترة طويل:

فوين بوروخونتسيف، التقت بالشيطان، بل وحيَّته، لكنه فقد رباطة جأشه واندفع هاربًا. لم يعد بوروخونتسيف ضابط سلاح الفرسان السابق يعتمد على الوسائل الشرطية، ومن ثم توجه إلى الكابتن بوفيردوفنيا وطلب مساعدة فريق المعاقين الخاص به في القبض الفوري على هذا الشيطان الذي روَّع المدينة. لكن الكابتن وجد أنه من الصعب عليه أن ينخرط في أعمال تتعلق بروح شريرة من دون طلب إذن خاص من رئيسه، وفي هذه الأثناء استمر الشيطان في التجول، وجلب الهلع للمدينة كلها. تدخل القمص جراتسيانسكي في الأمر. توجه إلى الشعب بعظة عن الخرافة وأكد في عظته هذه أنه لا وجود لمثل هذه الشياطين التي تسلب من الناس أوشحتها ومعاطفها، وأن الشيطان الذي يقولون عنه إنه يتجول في المدينة ليلًا ليس شيطانًا بل أحد العاطلين الكسالى وجد أنه بهذه الطريقة يخيف الناس باتخاذ مظهر شيطان ومن ثم تسهل عليه سرقتهم. جُوبِه القمص بسخط شديد. أعلن قائد بيت الصلاة[1] المنشق أن هذه العظة تمثل هرطقة الكنيسة الجديدة، واستطاع من دون بذل أي جهد أن يكسب بضعة خراف من قطيع كاتدرائية ستارجورود ويضمها إلى طائفته. انتقم الشيطان من جراتسيانسكي على نفي وجوده بطرق أخرى أيضًا. في اليوم التالي بعد هذه العظة لوحظت آثار أقدام متسخة على سقف منزله. بالطبع أثارت هذه الآثار ذهول الجميع وخوفهم، فمن الذي بإمكانه أن يسير على السقف بالمعكوس هكذا؟ حُسم الأمر بأن أحدًا لا يستطيع أن يفعل ذلك عدا الشيطان، ووجد القمص نفسه عاجزًا عن إقناع زوجته نفسها بوجهة

---

(١) تسمية تطلق على كنائس بعض الطوائف غير الأرثوذكسية.

نظره. بالرغم من إنذاراته تمتع الشيطان بالاحترام الكامل؛ لم يحاول أحد أن يُغضبه، ومن ثم لم يخرج أحد إلى الشارع بعد الغسق.

لكن الشيطان بالغ في الأمر ومن ثم واجه وقتًا عصيبًا. لم يعد يجد أي فريسة في الشوارع. بعد ذلك بدأت سرقة الصلبان النحاسية والمصابيح في المقبرة التي دُفِن فيها الأب العجوز سافيلي تحت الهرم.

نسبت المدينة التي خاف أهلها من حيل الشيطان المختلفة هذا التدنيس من دون أي تفكير إليه.

مَن لاحظوا هذه السرقات شاهدوا بمرورهم بالمصادفة هناك الأضرار التي ألمَّت بالنصب التذكاري لسافيلي؛ تقلقل الصليب والقبة المذهبة المتوجة للهرم بشدة، لكن كل شيء لا يزال متمسكًا بالمحور بإحكام. من ناحية أخرى تمزق أحد الملائكة الذهبيين وانقسم بلا رحمة بفأس وأُلقي بازدراء وكأنه شيء لا قيمة له.

بعد أن أُخطِر أخيل بالأمر ذهب ليفحصه وقال:

- إذا كان بعلزبول[1] هو المار، فلن يمضي مروره عبثًا إذن.

* * *

(١) أحد أسماء الشيطان المذكورة في الكتاب المقدس، ويبدو أن أصله يعود إلى الإله بعل الذي عبده الفينيقيون في عقرون.

# الفصل الرابع عشر

في الليلة التالية، في الساعة الحادية عشرة، خرج الشماس من المنزل من دون أن يقول كلمة واحدة، وتجول في المقبرة. أمسك في يده عصا طويلة وحبلًا معقودًا.

وصل إلى فناء الكنيسة في بداية الساعة الحادية عشرة من دون أن يلتقي بأحد أو يلاحظ أحدًا. تفحص البوابة، ووجدها مغلقة، تهتز قليلًا بفعل الريح الربيعية المنعشة. من الواضح أن الشيطان لا يدخل عبر هذه البوابة، بل بطريقة مختلفة.

تنحى أخيل جانبًا، وتفحص بعصاه الثلج الهش الذي ملأ المصرف المحيط بالقبر. بعد أن اخترقت العصا طبقة رقيقة اندفعت على الفور لتصل إلى منتصفها تقريبًا. كان عمق المصرف ٢,٥ أرشين[١]، وعلى الجانب الآخر منه كان هناك ركام طيني مغطى بطبقة من الثلج.

غمس أخيل العصا أكثر واستند إليها ليقفز إلى الجانب الآخر من المصرف. أتمَّ أخيل هذه الحركة الهوائية بأمان، لكن العصا التي استند إليها في قفزته العملاقة هذه لم تحتمل ثقل جسده العملاق وانكسرت في اللحظة التي لمست فيها قدما الشماس الأرض. لم يفكر أخيل كثيرًا

---

(١) مقياس طول روسي قديم: ٧١,١٢ سم.

في الأمر وأمل أن يجد عصا أخرى في المقبرة توفر له الراحة ذاتها عند عودته من هذا الجانب إلى الجانب الآخر، وتملّكه فجأة ذلك الشعور الذي يتملك إنسانًا بسهولة ليلًا في مقبرة. ليس الأمر أنه يشعر بالهلع، ولكن شيئًا ما صارمًا يعتلج في نفسه، وتصير الحواس الخمس في تمام يقظتها بدرجة حادة وقدرة على النفاذ. أخذ أخيل نفسًا عميقًا، وخلع من على رأسه قبعته المصنوعة من قماش أسود وسوّى خصلات شعره الأشيب، وراقب بسرور كيف يغمر القمر بلونه الفضي حقل الذرة الإلهي. اكتنفه الحزن والحيوية في الآن ذاته. لقد تذكر الأعوام الخوالي لجسارته القديمة، ونظر إلى القمر وألقى عليه تحية مرحة: «مرحبًا أيتها الشمس القوزاقية الصغيرة».

الصمت والسكون هما المثوى الحقيقي للراحل، ولكن ثمة صوتًا ما يبدو وكأنه تنهد. لا، هذا ليس صوت إنسان بل هو الثلج يتهاوى. راقب أخيل كيف يبدو الثلج الأسود كأنه ينحني ويضطرب. إنه خداع البصر. غيوم صغيرة تتزاحم في السماء المضاءة بنور القمر، وظِل عابر يسقط منها على الأرض. توجَّه الشماس مباشرة إلى مقبرة سافيلي وجلس عليها مستندًا إلى أحد الملاكين. هدوء تام، وليس هناك شيء سوى ظلال لا نهاية لها تمر سريعًا في صمت.

بدأ النوم يضغط على الشماس. انحنى أكثر على الهرم وغفا ولكن لم تَطُل غفوته. بدا له فجأة وكأن أحدهم يصيح عاليًا. فتح أخيل عينيه ووجد الهدوء يكتنف المكان، والسماء وحدها هي ما تغيرت. شحب وجه القمر وتسلل ظل واحد طويل وعريض إلى هرم سافيلي الرمادي. حلت بوادر الصباح. نهض أخيل على قدميه، وفي هذه اللحظة بدا له مجددًا أن شخصًا يسير في المقبرة.

دار الشماس حول الهرم ولم يجد أحدًا.

بدا له أنه يرى آثار أقدام حديثة، ولكن لا أحد الآن يستطيع تحديد ما إذا كانت هذه الآثار من الأمس، أم هي آثار اليوم وقد تحول الثلج إلى هلام سائل تُحْدِث فيه القدم حفرًا غير واضحة المعالم. صاحت ديوك الصباح في المدينة. لا، من المؤكد أن الشيطان لن يظهر اليوم.

عاد أخيل إلى مكانه السابق الذي قفز منه إلى المقبرة. لم يواجه أي صعوبة في أن يجد هذه الحفرة، وتمسك من دون تفكير بالعصا الطويلة البارزة من المصرف، لكنه تذكر أنه كسر عصاه. من أين جاءت إذن هذه العصا السليمة؟

قال الشماس في نفسه: «أمر مثير للفضول». وتأكد من أن العصا لا تبدو له موجودة بل تبرز من المصرف فعلًا، وكان على وشك الاستناد إليها والقفز، وفجأة وقعت من فوق كتفيه على صدره يدان ضخمتان، يغطيهما صوف أسود أشعث، تبرز منهما مخالب حديدية.

إنه الشيطان!

* * *

# الفصل الخامس عشر

انحنى أخيل سريعًا على ركبتيه، وبهذه الطريقة تمكن من الزحف أسفل الشيطان الضاغط عليه، وأمسكه من يديه وشدهما بقوة إلى درجة أن ذقن الشيطان اصطدم بقوة برأس الشماس وضغط عليها. تحرك الشيطان الذي فوجئ بما حدث بأقصى حمية لديه، ولكنه سريعًا أدرك لا جدوى جهوده، وهدأ وهو يئن أنينًا مكتومًا بينما هو معلق على ظهر الشماس. لم يقتصر الأمر على أنه لم يستطع التملص من الشماس، بل إنه لم يستطع حتى أن ينطق كلمة واحدة، لأن فكيه كانا مضغوطين على رأس أخيل. لم تتبقَّ للشيطان إمكانية تنفيذ أي حركة سوى الركل، وقد استغل هذه الإمكانية المتبقية بمكر شيطاني.

تراجع أخيل الذي أمسك الشيطان بالسهولة التي يحمل بها فلاح قوي معافى حزمة بازلاء بضع خطوات صوب المقبرة، ثم ركض وقفز من فوق المصرف، ولكن الشيطان الحاذق استغل هذه اللحظات القصيرة، ولف ساقيه ببراعة حول ساقي الشماس المحلقتين في الهواء في اللحظة التي قفز فيها فوق المصرف. فجأة فقد الشماس المتعثر توازنه وسقط في هلام المصرف البارد.

بسبب البرودة الرهيبة كاد أن يرخي قبضتيه ويترك الشيطان، لكنه غالب نفسه وبدأ يبحث عن وسائل أخرى يُخلِّص بها نفسه من هذه الإشكالية. لكن وا أسفاه! لم تكن هناك مثل هذه الوسائل. غطت قشرة جليدية الحواف الملساء للمصرف، ولم يكن هناك طريق للخروج من المصرف من دون استعمال اليدين، ولكن تحرير يده يعني إفلات الشيطان. لم يُرِد أخيل ذلك. جرَّب الصياح لكن إما أن أحدًا لم يسمعه وإما أن من سمعه أغلق على نفسه أكثر قائلًا في نفسه: «لا بد أن الشيطان يسلب شخصًا آخر».

أدرك الشماس أنه لا يجب أن ينتظر مساعدة من السكان الهلعين، ومع ذلك لم يفلت الشيطان والعصا من المصرف. تخدَّر كلاهما وكان من الممكن أن يموتا هنا لو لم تنقذهما الصدفة.

في الصباح الباكر تحركت صوب رصيف المدينة قافلة محملة بالخمور. وهي تشق طريقها بالقرب من المقبرة لاحظ الفلاحون شيئًا غريبًا في المصرف. توقفوا، ولكن عندما تعرفوا في هذا الشيء على وجه إنسان اكتسى بالزرقة يعلوه من الخلف وجه شيطان أقرن، اندفعوا بعيدًا. جمع أخيل المتجمد كل ما تبقى له من قوة ونادى على الفلاحين، وأمرهم أن ينظروا إلى ما وراء الشيطان ويسحبوه من المصرف ويرشموا علامة الصليب.

صاح الفلاحون: «إنه شخص مُعمَّد يا رفاق»، وشدوا الشماس والشيطان من المصرف ووضعوا قشًّا في أحد البراميل ووضعوا أخيل الذي تصلب جسده تمامًا فيه، بينما ألقوا بالشيطان في المقدمة وتحركوا صوب المدينة.

بعد أن ارتشف الشماس قليلًا من الخمر ارتجف وتهاوى على المزلجة. كانت حالته مريعة. كان مبللًا تمامًا، وأزرق كمرجل، يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة من فرط الارتعاش. استلقى الشيطان مجمدًا تمامًا، فاقد الحس، وقد أخذوه إلى المدينة حيث أشار الشماس إليهم بالتوقف أمام المكاتب الحكومية.

هنا أبعد أخيل الشيطان عن المزلجة وأمرهم أن يحملوه إلى الديوان، وأرسل في استدعاء قائد الشرطة، وطلب بنفسه من الحارس أن يمده بقميص جاف ومعطف أحد الجنود وبدَّل ثيابه واستلقى على الأريكة.

بالرغم من الوقت المبكر فإن المدينة اضطربت بهذه الأخبار، واندفع حشد كثيف من الناس ليحيط بالمكاتب الحكومية كما يحيط البحر بصخرة، حيث عاش ضابط سلاح الفرسان السابق بوروخونتسيف في شقة حكومية هناك. اندفع الحشد بصخب واقتحموا الشرفة الخارجية آملين أن يروا الشيطان الذي شق الملاك الذهبي، والشماس الذي أنجز مأثرة لم يستطع أحد أن يفعلها بالقبض على هذا الشيطان. لم يتمكن الأشخاص الأكثر نفوذًا في المدينة، بالرغم من درجاتهم وأهميتهم، أن يشقوا طريقهم عبر هذا الحشد، مثل القمص جراتسيانسكي والأب زكريا والكابتن بوفيردوفنيا، ولم ينجحوا في شق طريقهم بعد ذلك إلا لأن الحشد اعتبر وجود الكهنة ضرورة دينية للانتقام من الشيطان، واستطاع أخيرًا كابتن بوفيردوفنيا أن يشق طريقه بمساعدة مقبض السيف، حيث أخذ يوجِّه به ضربات يمينًا ويسارًا.

كان وجود هذا الضابط الآن ضروريًا للغاية نظرًا للشجاعة التي يتمتع بها والمدينة مهددة باندلاع أعمال شغب.

# الفصل السادس عشر

بينما كان الناس في الأسفل مهتاجين ومضطربين حول المنزل الذي يخفي سرًّا غير عادي، كانت هناك ضجة لا تقل عن ذلك داخل المنزل نفسه. هرع قائد الشرطة بوروخونتسيف إلى المكتب بلباس النوم القطني ومعطفه اللبادي، ورأى على الأرض شيطانًا حقًّا رابضًا بمخالب وقرون، وقبالته على الأريكة كتلة ضخمة مرتجفة مغطاة بمعطف جندي ومعطفين آخرين من صوف الغنم؛ إنه الشماس.

أحاطت كل أرستقراطية مدينة ستارجورود بالشيطان من مختلف الزوايا، لكن وجوههم لم تكشف عن أدنى خوف من اقترابهم منه. لم يكن هناك ما يخيف، وكان بوسع الجمع أن يروا أن هذا الشيطان لم يكن سوى كائن بائس يرتجف من فرط البرودة ملفوفًا كيفما اتفق بعباءة لبادية قديمة رثة، أعطاها ذات يوم الشماس أخيل لدانيلكا بسبب رثاثتها. على رأس الشيطان المغطى بالعباءة اللبادية الرثة قرون بقرة مربوطة بإهمال، ويتدلى من يده خطافان حديديان ملفوفان بقطع من جلد الغنم مثل التي يرتديها الحمالون عادة. الأغرب من كل ذلك هو أن واحدًا من الجنود بينما يحمل الشيطان سحب منه صليبًا نحاسيًّا قديمًا مربوطًا به، ومنقوش عليه: «ليقم الله وليتبدد جميع أعدائه[1]». قال القمص جراتسيانسكي:

---

(١) مزمور ٦٨ : ١.

وفقًا للزي هو الشيطان تمامًا، ولكن وفقًا للهيئة هو ليس شيطانًا على الإطلاق.

أيّده زكريا واندفع صوب هذا الكائن الخرافي قائلًا:

- اسمع يا أخي، من أنت؟ أتسمع ما أقوله؟ أتسمع يا عزيزي؟ تكلم وإلا ستُجلد. تكلم.

هنا تدخل قائد الشرطة وبدأ يستجوب الشيطان ولكن من دون جدوى.

عندما بدأ الشيطان يشعر بالدفء وعاد إلى وعيه لم يفعل شيئًا سوى أن انقلب بهدوء كالسلحفاة، والتف أكثر بعباءته.

أدلى الحاضرون بآراء مختلفة حيال ماذا يجب أن يفعلوا الآن بهذا الشيطان. اقترح قائد الشرطة إرساله مباشرة كما هو إلى المحافظ، واستند في ذلك إلى قانون الوحوش والمسوخ، ولكن الفضول العام ناهض هذا الاقتراح بقوة شديدة، واخترعوا مختلف أنواع الحجج لإقناع قائد الشرطة بضرورة اكتشاف هوية هذا الشيطان فورًا، ومن ثم يستطيعون أن يرضوا فضول الناس العام المتقد وفاقد الصبر.

هز زكريا الشيطان من قرنيه وهمس إليه من تحت عباءته:

- اسمع يا أخي، أخبرني أمرًا واحدًا: هل أنت من مشيت على سقف منزل القمص أم لا؟ اعترف ولن تُجلد.

قال الشيطان متنهدًا بصوت عالٍ: «أنا».

أثارت هذه الكلمة الأولى التي ينطق بها الشيطان هلعًا في الحاضرين، وقد ازداد هذا الهلع بسبب الصرخات الجامحة للناس في الخارج، وقد

وصلت إلى أسماعهم في هذه اللحظة. اندفع الحشد الذي نفد صبره إلى الطابق العلوي مطالبين بأن يأتوهم بالشيطان على الفور، وأعلن الناس بحماسة عن اشتباههم في أن تأخذ الشرطة رشوة من الشيطان لتسمح له بالعودة إلى الجحيم. عرض بعض أفراد الحشد المجتمِع تحطيمَ الأبواب والاستيلاء عنوة على الشيطان من يد السلطة. تلى التهديد مباشرة فعل حاسم؛ ترددت الضربات على الباب، لكن ضابط سلاح الفرسان عرف ماذا يجب أن يفعل؛ غمز للحارس الذي دوَّر على الفور أنبوب الحريق وتسلق السور وفجَّر تيارًا قويًّا باردًا في الحشد الواقف. أُعطيت الإشارة وبدأ اللهو. انسحب الناس لبرهة ثم عادوا مجددًا وترددت الصيحات المرحة والصفارات والقهقهات، ولكن بمرور دقيقة عبس كل هؤلاء المبتهجين فجأة وعضوا شفاههم وتقدموا للأمام. لم يعد التيار البارد يخيف أحدًا. تشقق الباب من أثر الضربات وتطايرت الأحجار قادمة من خارج النوافذ، وأوقع الحشد الحارس من فوق السور، وبعد أن استولوا على أنبوب الحريق ضخُّوه في عيون السلطات. هرع قائد الشرطة ومعه كل أرستقراطية المدينة إلى الغرف الداخلية وأغلقوا على أنفسهم، وركض الكابتن بوفيردوفنيا الذي لم يستطع اللحاق بهم حول المكتب وصاح: «يا إلهي! لا مشكلة. لا تخَف. الله معنا. هو سلاحنا. أنقذنا يا رب».

بعد أن قال ذلك رأى دولاب المكتب المفتوح فاندفع إليه ودخله وأغلق على نفسه، وفي هذه الأثناء سقطت الأحجار بقوة أكبر داخل الحجرة حتى خرجت صرخة رعب ويأس من الشيطان ذاته.

# الفصل السابع عشر

كانت هذه اللحظة هي الأكثر حسمًا. لقد انتظرت هذه اللحظة ظهور بطلها، وقد ظهر فعلًا. تحركت المعاطف التي تغطى بها أخيل، وسرعان ما هب من الأريكة إلى الأرض، وتحرك حافيًا بثياب الجندي الضيقة، وانتزع من بدا منذ فترة قريبة شيطانًا من مكانه؛ انتزع الشخص الذي دارت حوله الحكاية كلها التي تحولت إلى حركة تمرد حقيقية ومباشرة. صاح الشماس آمرًا:

- اخلع ثيابك، اخلع ثيابك واكشف لهم من أنت وإلا خلعت لك ثيابك بنفسي ونزعت معها جلدك.

قال ذلك وفي الوقت ذاته قرص الشيطان كما تقرص امرأة دجاجة مكسوة بالريش.

لم تمر لحظة إلا ولم يعد هناك شيطان، واتضح أمام الشماس المذهول أنه ليس إلا دانيلكا.

دفعه أخيل إلى النافذة وأخرج رأسه من النافذة المحطمة وصاح:

- توقفوا أيها الحمقى، دانيلكا هو من ارتدى ثياب الشيطان. انظروا، ها هو.

وجذب الشماس دانيلكا المزرق إلى النافذة، وفي الوقت ذاته ألقى إلى الشارع بثيابه قطعة تلو الأخرى وصاح:

- هذه هي مخالبه، وهذه قرونه، هذه كل ذخيرته. اسمعوا الآن، سوف أستجوبه.

أدار دانيلكا صويه، وسأله الشماس بسماحة عميقة وحقيقية:

- لماذا تنكرت بهذا الشكل الدنيء أيها الأحمق؟

همس المسكين:

- من الجوع.

نقل أخيل إجابته إلى الحشد، وهتف بعد ذلك مباشرة بصوته الرهيب:

- حسنًا، تفرقوا الآن أيها الأرثوذكسيون، وإلا صارت السلطة أكثر جرأة وأمرت بإطلاق النيران.

تفرق الناس ضاحكين.

* * *

# الفصل الثامن عشر

صارت السلطات فعلًا أجرأ وزحفت من مكانها وعادت إلى روتينها.

نقلت دانيلكا المبلل الذي بالكاد يلتقط أنفاسه إلى جناح جاف في السجن، وبدأت في استجوابه بجدية. اعترف أنه بسبب الجوع والبرد ونبذ الجميع له واضطهاده بسبب سلوكه الشائن طاف المدينة وتجول، حتى اهتدى أخيرًا لفكرة أن يرتدي ثياب شيطان ويخيف الناس ليلًا، ويسلب ما يستطيع سلبه ويبيعه ليهودي فيجد بذلك قوته. استمع أخيل إلى كل ذلك بانتباه. انتهى الاستجواب. ظل ينظر إلى دانيلكا، وبدأ يلاحظ فجأة أن دانيلكا يظهر تارة أمام عينيه، ويختفي تارة أخرى. رمش أخيل بقوة وإذا بالحكاية ذاتها تتكرر. صار دانيلكا في عينيه إما ذهبًا حارًّا أو فضيًّا أبيض أو ناريًّا بحيث إن النظر إليه يؤلم، أو يتلاشى تمامًا ولا يعود موجودًا أمام عينيه بينما هو موجود في الحقيقة. وجد أن متابعة هذه التحولات المستمرة مؤلمة بدرجة لا تطاق، وإذا أغمض عينيه يصير كل شيء مبرقشًا ويسوء الأمر أكثر.

قال الشماس في نفسه: «أوف! ما هذا؟»، ومرَّر يده على وجهه، ولاحظ كيف تتحرك راحة يده على جلد وجهه وتحدث خشخشة، وتعْلق به مثل قطعة جوخ بنسيج فلانيله. ها هي لحظة السلوان، وسرعان ما تدفق تيار متقد في دمائه واصطدم بأعلى رأسه وضبَّب ذاكرته. نسي الشماس

لماذا هو هنا، ولماذا يقف دانيلكا مثل دجاجة منتوفة الريش، يحكي بخفة كيف أخاف الناس وكيف سلب منهم مختلف أنواع الأغراض، وأخيرًا كيف وقع فجأة في يد الأب الشماس.

سأله زكريا مجددًا:

- ولكن احكِ لي. احكِ لي يا أخي كيف سرت بالمعكوس على سقف منزل الأب القمص؟

- الأمر بسيط يا أبي. خلعت حذائي وعلقته على عصا ورفعتها وصنعت بها آثار أقدام على السقف.

قال أخيل فجأة وهو يرمش بعينيه:

- فلنُطلِقه، كفانا تعذيبًا له.

نظروا إليه بذهول. أوقفه جراتسيانسكي قائلًا:

- ماذا تقول؟ كيف يمكننا أن نطلق سراح من يدنس المقدسات؟

- وأي تدنيس هنا أكثر من ذلك؟ إنه جائع. بحق الله أطلِقوه. دعوه يعود إلى منزله.

رأى جراتسيانسكي من دون أن يلتفت صوب أخيل أن شفاعة الأخير هنا غير ملائمة.

- لماذا نـ... رجل فعلها من أجل الجوع... لقد قطف آباؤنا الرسل السنابل و...

قال القمص بصرامة:

- ماذا تقول؟ هل أنت اشتراكي أم ماذا؟

- أي اشتراكي تتحدث عنه؟ أقول لك إن آباءنا الرسل بينما يمرون

بحقل قطفوا بعض السنابل وأكلوا[1]. أنتم الإكليروس من أبناء المدينة لا تعرفون ذلك بالطبع، أما نحن أبناء الشمامسة فقد اعتدنا كثيرًا إبان فترة المعهد أن نسرق الطعام بأنفسنا. أطلِقوه بحق المسيح وإلا لن أسلمه لكم في كل الأحوال.

- هل جننت؟ هل تجرؤ على ذلك؟

لكن هذه الكلمات الأخيرة بدت للشماس إساءة غير محتملة، حتى إن وجهه احمر غضبًا وأمسك بقوة بثيابه المبللة وصاح:

- وأنا لن أُسلمه لكم. إنه أسيري، ولدي كل الحق في أن أفعل به ما أشاء.

قال الشماس هذا واقترب مترنحًا من دانيلكا ودفعه خارج الباب، وأمسك بعتبتَي الباب بيديه ليسد الطريق، بحيث لا يسمح لأحد أن يتبع دانيلكا، وأراد أن يقول شيئًا آخر لكنه شعر فورًا بأنه ينمو ويتوسع ويتقد ثم يتلاشى. في لحظة واحدة أغلق عينيه، وفي اللحظة ذاتها سقط على الأرض فاقد الوعي.

كانت حالة أخيل حالة سلوان حلوة تطلقها الحمى في الإنسان. سمع الشماس كلمات: «اهتياج»، «فعل»، «ضربة». وشعر أنهم يلمسونه ويحركونه ويرفعونه، وسمع توسلات دانيلكا الباكية في الشارع حيث قبضوا عليه مجددًا، لكنه سمع كل هذا وكأنه في حلم، ونما مرة أخرى وتمدد بطريقة ما في اللا نهائية وتضخم ببهجة وانصهر إثر حالة مرضية متقدة. هذه هي نهاية الحياة؛ إنه الموت.

---

(١) لوقا ٦: ١.

جُوبِه نصرف أخيل بفعل مناسب من جانب صديقه القديم فوين بوروخونتسيف الذي ظل لفترة طويلة يحاول أن يدقق التفكير، ويجد طريقة يبرر بها إفراط الشماس بطريقة أكثر براءة وليونة، ومع كل ذلك اكتسب الأمر عنوانًا: «حول أعمال الشغب الوقحة التي تمت في حضور شرطة ستارجورود وشماس الكاتدرائية أخيل ديسنيتسين».

الأمر الوحيد الذي استطاع ضابط سلاح الفرسان السابق أن يشطبه هو كلمة «الوقحة»، وصار العنف الذي ارتكبه أخيل أمرًا لا بد أن يُبت فيه آجلًا أم عاجلًا بقرار صارم.

* * *

# الفصل التاسع عشر

لم يعرف أخيل شيئًا عن ذلك. ظل يتقد في حمى مرضه على فراش المستشفى في هدوء. أعلن الطبيب الذي أرسل الشماس إلى المستشفى أنه مصاب بحمى تيفوس قاسية أفقدته وعيه ورفعت حرارته، وأن هذا المرض يُلزم الطبيب بأكثر التنبؤات حزنًا.

استغل بوروخونتسيف هذه التنبؤات وطالب الطبيب بالتوصل إلى استنتاج: ألا يجب أن يُعزى سلوك أخيل إلى حالته المرضية؟ أكد الطبيب صحة هذا الاستنتاج. استلقى أخيل فاقد الوعي لليوم الخامس في كنف التصورات المبهمة واللطيفة في الآن ذاته، وفي ظل الإحساس المستمر ذاته بالحمى الحلوة. جلس الأب زكريا أمامه على مقعد بائس وقد وضع منشفة على رأس المريض مبللة بماء بارد. في المساء وصل بعض المعارف بالإضافة إلى الطبيب.

استلقى الشماس بعينين مغمضتين، لكنه سمع الطبيب يقول إن من يريد أن يتعامل مع روح المريض فعليه أن يُثمِّن جدًّا الدقيقة الأولى لإفاقته، لأن ثمة أزمة تقترب لا يمكن التنبؤ بأي شيء جيد بعدها. قال:

- لا تُفوِّتوا هذه اللحظة. نبضه لا يبشر بخير إطلاقًا.

ثم بدأ الطبيب يتحدث مع بوروخونتسيف وآخرين جاءوا لزيارة أخيل، ولم يتصوروا أنه يحتضر، والأكثر من ذلك أن موته بسبب نزلة برد! إنه مارد، فكيف يموت بينما يجلس دانيلكا الذي شاركه هذا الحمام البارد في السجن معافى؟ وضَّح الطبيب أن أخيل كان يعاني منذ فترة طويلة من الصدمة والانفعال. همس زكريا:

- نعم، نعم، نعم. لقد قلت إنه شديد الحساسية.

قال بوروخونتسيف:

- مرض غريب! كل شيء هنا جديد. عشت سنين طويلة ولم أسمع عن هذا المرض.

أيَّده زكريا:

- نعم، نعم، نعم. الحياة تزداد صقلًا والأمراض تزداد تعقيدًا.

فتح الشماس عينيه بهدوء وهمس:

- أعطوني شرابًا.

قدموا له كوبًا معدنيًّا قرَّبه من شفتيه المتقدتين، وشرب بنهم عصير التوت البري، ونظر إلى الجميع بعينين محتقنتين بالدم.

- كيف تشعر الآن يا صديقنا العزيز؟

أجاب الشماس بصعوبة:

- يبدو لي كل شيء سميكًا.

وبمرور دقيقة قال فجأة بلهجة سردية:

- عندما أتى أوان كلبي كاكفاس أردت أن أشتري كلبًا آخر. رأيت في بطرسبرج على ضفة النيفا كلبًا وقلت لنفسي: «سأشتري لنفسي كلبًا

جميلًا»، لكنه يقول لي: «الآن لم تعد هناك كلاب. لقد ذهب كل المقامرين والمضاربين». «وماذا عن الحيوانات؟». يقول لي: «الأمر ذاته معها. لكن الكلاب صارت لها تسمية مختلفة».

توقف الشماس.

سأل الطبيب المريض بصوت جريء وملهم:

- ما الذي تتحدث عنه؟

وقد بدا له أن أخيل يهذي.

- أتحدث عما تقوله بخصوص الأمراض الجديدة. كلها -أيًا كانت التسمية- تفضي إلى هدف واحد؛ إلى الموت.

قال الشماس ذلك وغفا مجددًا ولم يستيقظ حتى منتصف الليل، وحينها أفاق فجأة قائلًا:

- أركيبوزير... أركيبوزير، إلى الأمام يا أركيبوزير[1].

عندما نطق هذه الكلمة للمرة الأخيرة هبَّ من رقدته واستيقظ تمامًا وجلس على الفراش. قال له الأب زكريا بهدوء:

- فلتعترف الآن أيها الشماس.

- نعم، هذا ضروري. خذ اعترافي سريعًا. سأعترف حتى لا أنسى شيئًا. لقد أخطأت في حق الجميع. سامحوني بحق المسيح. (ثم تنهد وأضاف) أرسلوا بسرعة إلى الأب القمص، بأسرع وقت.

لم يتأخر جراتسيانسكي، وسرعان ما ظهر.

---

(١) تسمية قديمة للجنود المشاة المسلحين ببندقية من نوع أركيبوز.

استقبل أخيل القمص بنظراته وهو قادم من بعيد، ثم طلب بركته وقبّل يده مرتين. قال:

- إنني أموت. أردت أن تسامحني. سامحني، أنا مخطئ في حق الجميع.

أجابه جراتسيانسكي:

- فليسامحك الله، ولتسامحني أنت أيضًا.

- لم أكُن لك ضغينة، ولكن أفكاري لم تكن واضحة دائمًا.

- لماذا تربك نفسك؟ لديك قلب نبيل.

قاطعه الشماس مرتبكًا:

- لا، لا أستحق ذلك. لم أفعل كل ما يجب فعله، وفي النهاية غضبت بسبب النصب التذكاري. وهم فارغ! ستحترق السماء والأرض وسيزول كل شيء. أي نصب تذكاري! كان هذا أحد تناقضاتي. (أضاف سريعًا) سامحني بحق المسيح ولا تجبر نفسك على زيارتي مجددًا، فأنا أتقد بالحمى. وداعًا.

بارك الكاهن المثقف الرجل المحتضر، وذهب زكريا ليودع جراتسيانسكي وبعدما تراجع إلى العتبة تخدر من الهلع.

كان أخيل في نوبة ألم مبرحة، ولم تكن النوبة رهيبة بقدر ما كانت مذهلة: استلقى لبضع ثوانٍ في هدوء، وبعد أن استنشق عدة أنفاس أطلقها فجأة مطلقًا صوتًا قويًّا: «أوووووخ». وفي كل مرة كان يُلوِّح بذراعيه ويرفعهما كما لو أنه يحاول التحرر من شيء ما؛ كما لو أنه يلقي شيئًا ما.

راقب زكريا المشهد مخدرًا، وكانت ألواح الفراش المتصدعة تطقطق

أكثر فأكثر تحت أخيل المحتضر، والفراش يهتز بشكل رهيب، وبدا كما لو أن العناصر المضغوطة فيه قد انطلقت فجأة ومزقت صفحة الفضاء.

- ألم ينتهِ الأمر بعد؟

تذكر أخيل واندفع صوب النافذة ليأخذ كتاب الصلاة الصغير، ولكن في هذه اللحظة صاح أخيل من بين أسنانه المضغوطة:

- من أنت يا صاحب الوجه الناري؟ أفسح لي الطريق.

نظر زكريا حوله بخجل ووجم، فهو لم يرَ أي صاحب وجه ناري في المكان، ولكن بدا له من الخوف أن روح أخيل فارقت جسده وهي تقاتل أحدًا في مكان ما هنا وتهزمه.

ارتجف جسد العجوز الخجول كله، وأغلق عينيه وركض بعيدًا، وبعد بضع دقائق دقت أجراس الكاتدرائية بقوة معلنة موت أخيل.




* * *

# الفصل العشرون

هنا ينتهي تسجيل وقائع مدينة ستارجورود، ويجب أن تكون النقطة الأخيرة هي المسمار المدقوق في نعش الأب زكريا.

لم يُعمِّر العجوز طويلًا بعد رحيل سافيلي وأخيل. امتدت أيامه حتى العيد الكبير في الربيع؛ عيد القيامة المجيد، ونام في هدوء في أثناء خدمته الكهنوتية.

حان وقت تجديد المجمع الكنسي بستارجورود كاملًا.



ترتبط كل الآداب بجوانب اجتماعية وسياسية، وتزداد حدة ذلك الارتباط أو تقل من عمل لعمل. من هنا تظهر الصعوبة التي يواجهها القارئ أحيانًا عند قراءة بعض الأعمال الروسية، وهي مشكلة تتعلق بحجم الارتباط الوثيق بين أغلب الأعمال الأدبية الروسية، وبين السياق الاجتماعي والسياسي الذي يجهله عادة. تزداد المشكلة عند قراءة أعمال روسية بشكل عشوائي وغير مرتب زمنيًّا، وبالتالي تظهر أسئلة عن سياقات مجهولة للقارئ. دفعنا كل ذلك إلى التفكير في تقديم الأدب الروسي بصورة جديدة، تعتمد على طرح الأعمال الروسية المهمة والفارقة بترتيبها الزمني، مع الوضع في الاعتبار عدة عوامل، من أهمها: أن تُعبِّر هذه الأعمال عن قضايا ذات أهمية إنسانية واجتماعية واضحة، وأن يكون مؤلفو هذه الأعمال من الأسماء الروسية المهمة في تاريخ الأدب الروسي، والتي لم تأخذ حقها من النشر والانتشار في عالمنا العربي. نحن نأمل أن تُقدِّم هذه السلسلة طرحًا جديدًا للأدب الروسي يراقب فيه القارئ تطورات المجتمع الروسي على مستويات عديدة، وتطور الأدب الروسي وتقنياته بمرور الزمن.



نيقولاي ليسكوف (1831 – 1895) واحد من أعظم الأدباء والحكائين الروس في العصر الذهبي للأدب الروسي. هو كاتب غزير الإنتاج، وأعماله متنوعة بدرجة مبهرة. سيطرت على أغلب أعماله نبرة ساخرة ساحرة، ويصعب تصنيف أعماله تحت نوعية أدبية واحدة من تنوعها الشديد. هو واحد من هذه المواهب العظيمة التي توارت لبعض الفترات ثمنًا للصراع السياسي والاجتماعي الذي احتدم في روسيا في زمنه، واستمر بعدها لفترة طويلة. بعد أعوام طويلة من وفاته، وبعد انتهاء حظر نشر أعماله في بداية العصر السوفيتي، أعاد النقاد له وضعه واعتباره.

# رجال الرب

ظل موضوع تحرير الأقنان وعبوديتهم هو المسيطر على الكثير من الأعمال الأدبية في فترة مبكرة من الأدب الروسي، ولكن بعد تحرير الأقنان في 1861 ظهر موضوع جديد في بعض الأعمال الروسية؛ «ظاهرة العدمية» وهو يُشكّل أحد أعمدة هذه الرواية.

علاوة على الأسلوب الأدبي الفريد والحكايات الممتعة والهزلية والمأساوية في الآن ذاته ثمة أهمية بالغة لهذه الرواية من الناحية التاريخية والاجتماعية، وهو أمر يهمنا في سلسلتنا هذه. تكشف لنا هذه الرواية عن العقلية الشعبية والدينية التي تميز بها عدد ضخم من الروس في هذا الوقت. ثمة حكايات وأساطير وخرافات كثيرة في حكايتنا، بالإضافة إلى رصد الصراع العنيف بين المتدينين والعدميين في روسيا في هذه الفترة الحرجة.

هذه فرصة للتعرف على أحد أهم أقلام العصر الذهبي للأدب الروسي.




ISBN 978-977-765-353-4




